الرهبان العموديّون السوريّون

إينياسيو بينيا   باسكال كاستليانا   رومولدو فرنانديز

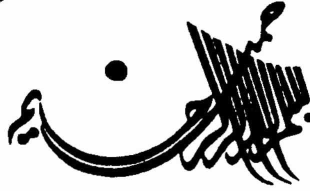




ترجمة: الأب د. ميشيل نعمان

المراجعة التاريخية والشرح والتقديم د. منذر الحايك







بيـــن الســـمـــاء والأرض . . .

وقــف رجــل لا يخــاف الــرياح . . .

التــي تهــب مــن كــل جهة . . .

واســــمـــه دانـــيـــال . . .

" نقش على عمود دانيال،

وهو أول عمودي سوري بعد سمعان الكبير



الطبعة الأولى - ٢٠٠٢ م



دار طلاس
للدراسات والترجمة والنشر

دمشق: منطقة المزة (3) - حي الجلاء (5)
شارع كعب بن مالك (طلعة الإسكان سابقاً)
بناء رقم (2) - ص.ب: 16035
هاتف: 6618013 - 6618961
تلفاكس: 6618820 - برقياً: طلاسدار

ريع الدار
لطيبة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

الرهبان العموديون السوريون

تأليف : إينياس بينيا
باسكال كاستليانا
روموالدو فرنانديز

ترجمة : الأب د. ميشيل نعمان

المراجعة التاريخية والشرح والتقديم

د. منذر الحايك

عنــوان الكتــاب الأصلــي

PUBLICATIONS DU "STUDIUM BIBLICUM FRANCISCANUM"
Collection minor n. 16

LES STYLITES SYRIENS

I. **Ignace Peña**
MARTYRS DU TEMPS DE PAIX: LES STYLITES

II. **Pascal Castellana**
LES STYLITES AUTOUR DE QAL'AT SIM'AN

III. **Romuald Fernandez**
LE CULTE ET L'ICONOGRAPHIE DES STYLITES

Editions de la Custodie de T.S.:
Centro Propaganda e Stampa — Milano
Franciscan Printing Press

Cum permissu Superiorum   Ristampa, Offset 3759-XI-1987

استهلال

تعد العلاقات المتعددة التي قامت وتقوم بين المجتمعات البشرية أساس الإبداع الحضاري، وسمة مميزة للفكر البشري. فمن خلال تداخل تيارات الفكر والفنون والفلسفة والعلوم بين الأمم والشعوب، أو ما بين الأجيال المتعاقبة يتم التقدم. ولولاها لما قدر للبشرية أن تصل إلى ما هي عليه اليوم من حضارة، ولتلاشى كل إبداع حضاري مع نهاية المجتمع الذي أبدعه، فيستدعي ذلك عودة الأجيال الجديدة والمجتمعات الأخرى لتبدأ دائماً من الصفر. مما يبقي البشرية في منطلقات أولية من المعرفة لا تجد من يتابعها. فالمجتمع الذي لا يتفاعل مع محيطه ومع المجتمعات الأخرى محكوم عليه بالفناء دون أن يترك أثراً يذكر به.

فالعلاقات والاحتكاك بالآخرين يؤديان إلى تبادل الأفكار وتطويرها، وهو سر استمرار الحضارة البشرية. وقد تميز الشعب العربي في سورية منذ أقدم العصور بالتفاعل مع بيئته ومع المجتمعات المجاورة، وبشكل خاص كان التفاعل بين أجياله المتعاقبة. فعلى الرغم من العهود السياسية التي مرت على سورية وانتشار الأفكار الدينية والحضارية لكل منها، فإن الشعب السوري حافظ على أصالة فريدة، تجلت في محافظته على قيم حضارية وفكرية أسسها أسلافه، والتي كانت تتفاعل وترتقي على الدوام لتتناسب مع كل مجتمع جديد في سورية، ومع معتقداته وقيمه. إن رحلة الحضارة الطويلة في سورية تدل على أن العلاقة الحضارية فيها لم تتوقف، ولم تتقطع مع أيّ من التبدلات السياسية أو الاجتماعية أو العقائدية، بل كان هناك تفاعل أمثل تم على هذه الأرض بين مختلف الأجيال والعهود والمعتقدات، وظهرت من خلاله على الدوام روح واحدة، هي روح الحضارة السورية الخالدة. وما العمودية إلا إحدى إبداعات هذه الروح، وكان وجودها واستمرارها وتطورها دليلاً على حيوية الحضارة السورية وتجددها. فالعمود لم يبق حجراً متطاولاً منحوتاً بإحدى أشكاله التي نعرفها فحسب، بل أصبح رمزاً لقداسة سماوية فريدة، لأن فكرة العمودية ارتبطت بعدة عبادات ومعتقدات في سورية، كان أشهرها الرهبانية العمودية التي أسسها سمعان أبو الرهبان العموديين .

التنسك وفكرة العمودية :

لقد كان مسيحيو مصر سباقين إلى حياة النسك التي ترعرعت في وادي النيل منذ القرن الثالث الميلادي، بتأثير رائدهم أبي الرهبان القديس أنطونيوس كوكب البرية(١). ولكــن مســيحيي سورية هم من ارتقوا بها إلى مراتب عالية من السمو الروحي تليق بتراثهم وحضارتهم. فقد جسدوا روحانية الشرق بأجمل أشكالها عندما مارسوا الرهبنة العمودية التي بدأها القديس سمعان الكبير.

إن الخطوة الأولى للقديس سمعان لارتقاء العمود لم تأت عبثاً، ولا مصادفة، لأنها لم تكن الخطوة البكر في تاريخ سورية الحضاري، على الرغم من أنها كانت الخطوة الأعظــم في تاريخها الروحي لأنها أبدعت الرهبانية العمودية، هذه الحركة التي كانت جــزءاً مــن إحســاس الروح السورية بالتوجه نحو السماء خلال عصور امتدت إلى أعمــاق الزمن ولم تتوقف بعد. وإنه من الظلم أن نربط الحركة العمودية بفترة أو فئة معيــنة، لأنها نتاج أجيال متعددة لشعب سورية، الذي أبدع، من خلال صوفيته وحبه وطلــبه الدائــم لصفاء النفس وإذلال الجسد، نظمه النسكية الخاصة التي استمرت معه عبر مسيرة حياته، وربما كان من أهمها العمودية.

بدايات العمودية :

إن العموديــة التي نشأت وازدهرت في كل مراحلها على أرض سورية، وتكونت فيهــا مع بداية تكون الفكر الديني لشعبها، قد بدأت في زمن مبكر، وربما كان ذلك مع النُصــب المكتشــفة فــي تل خويرة شمال شرق سورية، والتي نصبت في حفر داخل الأرض بعــد نحت قواعدها على شكل مثلث حاد الزوايا لتسهيل غرزها حول منطقة مقدســة تضــم معبدين يعودان إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد(٢). ويبدو أن هذه النصــب ذات الأغــراض الديــنية لم تفهم غاياتها بعد بشكل دقيق، فقد أعطيت عدة تفسيرات كان من أبرزها أنها من رموز العبادة القضيبية (Fallus) .

(١) أبطال الله العموديون، الأب يوسف قوشاقجي، ٥ .

(٢) ... Tell Chuera, Winfried Ortmann ، P. 45

وعندما انتقلت هذه النُصب إلى الأموريين حولوها إلى عمود واحد مقدس، كانوا يقيمونه في مكان مطهر إلى جانب المذبح. ومع المد الأموري انتشرت هذه العبادة في أنحاء سورية كلها [٣]. ونلاحظ هنا أن العمود كرمز ديني قد تجاوز في هذه المرحلة كل ماله صلة بالعبادات الذكرية القديمة وارتقى ليعبر عن توجه الإنسان نحو السماء، ورغبته الجامحة للارتقاء فوق الحياة الدنيا، واستدعى ذلك تحول النصب الحجري المتطاول إلى عمود رشيق، مما سيمكنه من متابعة رحلته المقدسة والطويلة مع الزمن.

ومن جديد عادت العمودية لتنبعث مع كنعانيي الساحل السوري، ولكن بطريقتهم الخاصة فقد كان العمود رمزاً للإله[٤]. لذلك ارتفع عمودان أمام معبد ملكارت في صور[٥]. ويخبرنا سترابون : إن أعمدة جبل طارق ما هي إلا أعمدة برونزية أقامها الفينيقيون، وإنها هي نفسها التي نراها في معبد هيراكليس في قادش بإسبانيا[٦]. كما أننا نجد في التوراة أن المهندس الكنعاني حورام آبي الذي أرسله ملك صور قد أقام عمودين كبيرين أمام هيكل سليمان، طول كل منهما خمسة وثلاثون ذراعاً، ولكل منهما تاج ارتفاعه خمسة أذرع، وعليهما سلاسل فيها مائة رمانة من الذهب. ولشدة قدسيتهما أطلق على كل منهما اسم، فالذي على اليمين هو ياكين، أما الذي على اليسار فهو بوعز[٧]. ولكن من المحتمل أن تكون الأعمدة تقليداً اقتبسه العبرانيون عن كنعانيي فلسطين ونفذه المهندس الصوري وفق خبرته في هذا المجال. وبذلك نجد أن التقديس العمودي لدى الكنعانيين في سورية يتطلب عمودين متقابلين لا تكتمل قدسية المعابد إلا بهما .

أما في سورية الداخلية فقد طور الآراميون مفهوم النصب الحجرية التي بلغت مرحلة عالية من التقديس، حتى أنهم اعتبروها بيوتاً للآلهة " بيتي إلهي ". كما تطور

---

(٣) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، فيليب حتي، ٨٤ .

(٤) المرجع نفسه، ١٢٧ .

(٥) الإلهة السورية، ماريو مونيه، ٨٩، عن هيرودوت، ٢/٤٤ .

(٦) المصدر نفسه، ٨٩، عن سترابون، ٤/١٧٠ .

(٧) العهد القديم، سفر الأخبار الثاني، سليمان وبناء الهيكل، الفصل/ ٣، الآية / ١٧ .

شكلها ليصبح أقرب إلى المسلة، وقد وجد في شمال سورية - منطقة السفيرة - ثلاثة نصب آرامية نقشت عليها معاهدة سياسية لإكسابها صفة القداسة [٨].

وعندما اقتبس اليونانيون الأعمدة الكنعانية، وأقاموها أمام معابدهم، أعادوا ربطها بالعبادة الذكرية القديمة. فقد ورد في سرد أحداث رحلة ديونيسيوس أنه جاء إلى سورية وبنى معبداً للإلهة هيرا زوج أبيه يرتفع أمام مدخله عمودان ضخمان. ثم انتشرت الأعمدة في كل بلاد اليونان مع إضافة رجل خشبي صغير على رأس كل منها له عضو تناسلي كبير[٩]. إن إسناد بناء الأعمدة إلى ديونيسيوس هو تسويغ يوناني لاقتباس الأعمدة الكنعانية السورية المقدسة. وبوساطة هذا الاقتباس استمر تقديس العمود في سورية. ومن وضع الرجال ذوي الأعضاء التناسلية نعرف بشكل صريح رمزية هذه الأعمدة ودلالتها الواضحة على العبادة الذكرية .

وفي العهد الروماني يشهد العمود المقدس تطوراً مهماً آخر في سورية، إذ يحدثنا الكاتب السوري لوقيانوس السميساطي (١٢٥-١٩٢م) أن أحد كهنة معبد هيرا في منبج كان يصعد مرتين في العام متسلقاً إلى أعلى أحد العمودين المنسوبين إلى ديونيسيوس وارتفاع كل منهما ٣٠ باع - أي / ٥٤ م - . وحتى يتمكن من ارتقاء العمود كان يلف حوله وحول العمود حبلاً قصيراً، ويستعين بقطع خشبية تشكل نتوءات بعرض رأس القدم على جوانب العمود، وكلما ارتفع يرفع الحبل معه من الجانبين حتى لا يسقط، وهي طريقة تسلق شجر النخيل المعروفة حتى الآن. ويبقى في أعلى العمود سبعة أيام ليكون أقرب إلى الآلهة التي تنصت إلى تضرعاته حيث كان يطلب فيها ازدهار سورية كلها[١٠].

ومع أن هذا النوع من التقديس قد اضمحل في سورية خارج معبد هيرا فإن العمود حافظ على مكانته عندما تطور ليصبح رمزاً للخلود، ويدلنا على ذلك العمود

---

(٨) ثلاثة نصب آرامية من السفيرة، أندريه دوبون سومير، مجلة الحوليات الأثرية، العدد العاشر .

(٩) الإلهة السورية، لوقيانوس السميساطي، ٣٠ .

(١٠) المصدر نفسه ، ٤١ .

الذي أقامه المهندس السوري أبللودور الدمشقي للإمبراطور الروماني تراجان[١١]، أو رمزاً للتكريم كما في العمود الذي أقامه مجلس الشيوخ التدمري لمواطنيه "باريكي" و"مقيمو" لما قدماه من خدمات جليلة للمدينة [١٢].

الرهبانية العمودية :

قامت دعوة السلام السورية في وجه العنف الروماني والتشدد اليهودي على يد نبي المحبة، الذي ولد بين الآراميين في بيت لحم بفلسطين وبشّر بجليلها، ثم تابع رسله الدعوة في سورية وانطلاقاً منها. فبطرس ذهب إلى دمشق ومنها توجه إلى أنطاكية قبل أن يعبر إلى الغرب. وشاول تحول إلى بولس الرسول في دمشق على يد حنانيا. أما برنابا فقد اختار أنطاكية لإقامته ثم ضم إليه بولس، وفيها وهي عاصمة سورية آنذاك أطلق على المؤمنين لأول مرة اسم المسيحيين[١٣]. ولما حققت المسيحية انتشارها الواسع في سورية، كانت رموز البطولة فيها تنحصر بالاستشهاد في سبيل المسيح. ولكن بعد أن أعلن الإمبراطور قسطنطين الكبير مرسوم ميلانو عام ٣١٣م الذي ينص على الحرية الدينية انتهى عهد الاستشهاد المسيحي ليبدأ عهد جديد أهم ميزاته الازدهار الاقتصادي الكبير وهو الذي دفع كثيرين للإقبال على متع الحياة، بينما عزف بعضهم عن ترف الدنيا وطلبوا حياة إيمان صادقة، فهربوا من مجتمعاتهم إلى البرية، وعاشوا حياة التنسك فيها. وكان ذلك بأشكال متعددة فمنهم من لجأ إلى برج قديم أو إلى كوخ منعزل أو حتى إلى قاع بئر جافة. فازدهرت هذه العبادات وانتشرت منذ بداية القرن الرابع الميلادي في سورية، وتوطدت بذلك الرهبانية المسيحية فيها .

---

(١١) الشام الحضارة، د. عفيف بهنسي، ٧٢ .

(١٢) تاريخ سورية القديمة، هورست كلينكل، ١٣٤ .

(١٣) تاريخ الكنيسة في المدن السورية، الأب ب. كاستيليانا، ٤-٥ .

ومع أن الكنيسة النظامية لم تكن راضية كل الرضى عن المثل العليا للرهبانية فلم تقاطع الرهبان لأنه كان لها نصيب من المجد الذي ينالونه. ولأنه لم يكن لها أي سلطة عليهم أول الأمر، فقلما كانوا يحصلون على أية رتبة كهنوتية[١٤]. وأخذت أعداد الرهبان تتضاعف والأديرة ترتفع في كل مكان من سورية، مع تركيز ملحوظ في مناطقها الشمالية. وكانت حركة الزهد والتقشف النابعة عن الروحانية السورية، إضافة إلى العواطف الدينية المتأججة على الدوام فيها، وراء انتظام معظم الزهاد في سلك الرهبانية، مع أننا لا ننفي دوافع أخرى كثيرة : فالحياة الديرية كانت ملاذاً من الخدمة العسكرية والضرائب والمنازعات الدنيوية، وعلى وجه الخصوص خلاصاً من الكدح المضني لفلاحي شمال سورية[١٥].

وبشكل أو بآخر تريد الخصوصية السورية أن تظهر وتتفرد فترتقي بعالم النسك إلى آفاق جديدة عندما أحيت فكرة العمودية، وتحولت أرضها إلى غابة من الأعمدة، وليكون السوريون شعب العمودية، التي عادت بشكلها الجديد لتكون من مقدسات مسيحيي سورية بوساطة القديس السوري سمعان أبي الرهبان العموديين، ومؤسس العمودية المسيحية.

لقد عاش سمعان حياته مابين عامي ٣٨٩-٤٥٩م دون أن يغادر دياره في شمالي سورية، وكانت حياته على قدسيتها تنطوي على شيء كثير من الأعاجيب. ومع أنه بدأ كواحد من آلاف الرهبان إلا أنه أبى إلا أن ينفرد بعباداته وتقشفاته، فطرد من الدير لينتقل بين عدة حالات من التنسك : فمن قاع بئر إلى أعالي برج، رابطاً نفسه بسلسلة أحياناً، ثم ترك ذلك كله وارتقى إلى تل، هواليوم قلعة سمعان، ينشد العزلة. وفي كل الحالات كانت الجماهير المؤمنة به، المقدسة له، تتبعه وتحاول لمسه للتبرك. ولا يخلو الأمر من زائر فضولي أو متحمس يحاول قطع جزء من معطف سمعان ليحمله كبركة. لذلك قرر سمعان

---

(١٤) قصة الحضارة، ول ديورانت، ١٢ / ١٢٠ .

(١٥) المرجع نفسه، ١٢ / ١٢٠ .

أن يرتقي عموداً ظل ارتفاعه يتزايد حتى وصل إلى ١٦م[١٦]، ليكون بذلك رائداً للعمودية المسـيحية، وليفتح الطريق لمئات الرهبان العموديين لينصبوا أعمدتهم في أرض سورية. وعـندما أوغل بعضهم في الابتعاد عنها لم تنجح محاولاتهم، فالعمودية لن تزدهر إلا في موطنها. ولما بدأ سمعان الكبير حياته على العمود بلغ خبره الرهبان المصريين فاستنكروا تصـرفه وأرسلوا إليه كتاباً يعلنونه فيه محروماً[١٧]. فالعمودية لا معنى لها خارج أرضها بل هي غير مفهومة وغير مرغوبة .

وبعـد أن فـتح سمعان أعين مسيحيي سورية على هذا النوع المتألق من العبادة والنسـك معـاً، عادت فكرة العمودية المتجذرة في نفوس السوريين وخاصة بعد نهاية عصـر الاضـطهاد ضـد المسـيحيين وإعلان المسيحية ديناً رسمياً للدولة. فقد وجد المؤمـنون المـندفعون بإيمـانهم في العمودية وسيلة استشهاد جديدة. فهي قتل بطيء للجسد وشهواته، وارتقاء عظيم بشفافية الروح على صليب جديد. فكانت تعويضاً لمن فاتـه عصر الاستشهاد وسدت أمامه أبواب التحول إلى قديس عن طريق الشهادة. لكل ذلـك ازدهـرت الرهبـنة العمودية، وزرعت مئات الأعمدة في شمالي سورية موطن العمودية الأزلي .

الراهـب العمـودي :

إن سمعان الكبير لم يبتكر فكرة العمودية، فهي موجودة قبلهِ بزمن طويل. وكانت آثارهـا لاتزال تعيش بين ظهرانيه. خاصة أن تمركزها القديم كان في موطن سمعان، فهـي بداخلـه لأنها تراث شعبه. فهو سمعان السوري قبل أن يكون سمعان المسيحي. وهو وريث التراث الروحي لبيئته ومجتمعه. ولكن عظمة عمله تتجلى بأنه حوّل عادة وثنية قديمة إلى طريقة رهبانية جديدة لم يقصد بها إلا أن يعلي اسم الخالق، وأن يلبي داعـي الإيمان في قلبه ويقتدي بالمسيح. فالعمود هو صليبه، ومن فوقه ستنبعث روح

---

(١٦) القديس سمعان العمودي، الأب يوسف قوشاقجي ، ٣٣ .

(١٧) المرجع نفسه، ٣٣

جديدة لديه. إضافة إلى ذلك فقد لبى سمعان بخطوته هذه عدة نوازع في نفسه. فهو لم يستطع متابعة حياة الدير الجماعية ذات التسلسل الكهنوتي والنظام الدقيق المعقد، حيث لكل دقيقة من الوقت حسابها وعملها الخاص، مع بعد كامل عن الناس ومشكلاتهم الحياتية. ولأن سمعان لم يتأقلم مع حياة الرهبنة فقد طرد من الدير، لفرديته ولشططه بالتقشف، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن المزاجية الشديدة والفردية المطلقة هي أهم الميزات التي تلبيها العمودية. فالعمودي حر بوقته، ينظمه كيف شاء، لعبادة أو لتراتيل أو لتأمل أو لمقابلة الناس وحل مشكلاتهم. وأهم ما في الأمر أنه دائماً في وسط الناس يشاهدهم ويشاهدونه، يسمعهم ويسمعونه. وهو عَلم في منطقته وليس مجرد رقم بين مجموعة من الرهبان في الدير.

إن ارتفاع العمودي عن الأرض وحيداً فوق قمة عموده كان شيئاً فريداً، يشد نظر الناس ويلفت انتباههم عن بعدٍ إليه. وهذا ما أراده العمودي تماماً، فقد كان ينتشي بالجموع المحتشدة تحت أقدام عموده، مشدودة نحوه، شاخصة إليه، وكل منهم ينتظر منه تلبية حاجة. وربما كان دافع التباهي والاستعراض وحب الشهوة قد نازعت نفوس بعض العموديين فازدادوا قسوة على أنفسهم ليزدادوا شهرة، وهم في نشوة عارمة لا يحسون بالألم. لكن من المؤكد أن قسماً كبيراً منهم تجاوز حتى هذه الأحاسيس للنفس البشرية، حيث يتحول جسد الراهب العمودي إلى قطعة من الصخر تكاد تكون أصلب من صخر عموده، في حين تزداد روحه شفافية وألقاً وتتحرر من إحساسها بهذا الجسد شبه الميت، وترتقي فوق آلامه لتعيش في ملكوت خاص لايمكن أن يُدرك سموه.

لقد حرص الرهبان العموديون على أن تنتصب أعمدتهم قرب الطرق الرئيسية وغالباً عند تقاطعها، للاحتكاك بأكبر عدد ممكن من الناس، ولكن ليس للاستعراض أمامهم بل ليتمكنوا من هدايتهم ودعوتهم للإيمان. فالعمودية أولاً طريقة تبشير اختارها النساك وفق مزاجهم. وضربوا مثلاً للناس بتقشفاتهم التي غالوا بها إلى حدود تفوق المألوف لـلفت الـنظر إليهم أكثر وللدعوة للإيمان أكثر. ولذلك يعدّ العمودي مبشراً اختار أفضل الأمكنة في زمنه للتبشير فيها. فعلى الرغم من أنه لم يذهب إلى الناس فإنه دفعهم ليأتوا إليه، بعد أن شدهم منظره السماوي، وشدهتهم روعة تنسكه. يدفعهم

الفضول أولاً لغرابة المشهد، ثم يستمعون إليه ليعرفوا ماذا يريد، ولماذا هو معلق بهذا الشـــكل. وبعد الاستماع غالباً ما كانت تتم القناعة والهداية. لذلك كان الراهب العمودي يعيـــش وسط الشعب وفي خضم مشكلاته الدينية والدنيوية. ولم يقصد العموديون أبداً الابتعاد عن الناس بارتفاعهم فوق العمود بل كانوا يحققون بذلك عدة رموز. فالارتفاع عـــن الأرض هـــو ارتفاع عن الدنيا وأوزارها. وهو اقتراب من سماء الله، وإن كانت بضــــع خطوات لكنها تجعل العمودي بين السماء والأرض، مجسداً فكرة الوساطة بين الـــناس وربهم. ومع أن الرهبان العموديين لم يولوا هذه التفسيرات اهتماماً كبيراً فإنّ آلاف آلاف المريدين والحجاج آمنوا بها .

إن عصـــر الرهبنة العمودية كان عصر الإيمان المسيحي في سورية، وهو ما ساعد على ارتقاء هذا النوع من النسك إلى مرحلة شبه أسطورية. وبما أن العمودي يعيش حياة غير عادية لإنسان، لذلك عُدّ إنساناً غير عادي. مما شجع الحجاج والزوار على أن ينسبوا إليهم معجزات غريبة لا تقل في كثير من الأحيان عن معجزات السيد المسيح(١٨). فاندفعت الجموع إلى أعمدتهم التي تحولت إلى مراكز حج إنما حسب شهرة كل منهم، وما ذاع عنه من معجزات، وخصوصاً في ميدان الشفاءات وبالتحديد شفاء العقيمات. وأمتهم الناس من أقصى الأمكنة ليقيموا حول أعمدتهم أياماً، يصلّون ويبتهلون، وعندما يأخذهم الوجد الديني يشرعون في رقصات محمومة حول جذع العمود، حتى قيل : " إن الشعب السوري بوعي مـــنه أو دون وعـــي راح يطـــبق على سمعان صورة الإلهـــة السورية، إلهة الخصب وصـــفاتها "(١٩). وقد عزا كثير من الكتّاب أسباب انتقال التراث السوري الوثني للمسيحية إلى اليهـــود المســـيحيين(٢٠)، لكن هذا ينبغي أن لا يأخذنا بعيداً، فالرهبنة العمودية ليست عـــودة أو انـــبعاثاً للوثنية بل استمرار لتقاليد عريقة في نفوس أهالي سورية، وتأكيد على أصالة روحانية فريدة يتمتعون بها. وما تجدد هذه الظاهرة إلا مجاراة لسياق حركة التاريخ وتناغم شديد معها .

---

(١٨) قصة الحضارة، ول ديورانت ، ١٢ /١٢١.

(١٩) Les Stylites Syriens , Peña . Castellana . Fernandez , P. 220 ...

(٢٠) Les Stylites Syriens , ibid , P. 220 ...

مستلزمات العيش على العمود :

إن العمود المجرد وبقطره المحـــدود قـــد يصلح لإقامة طائر وليس لإقامة إنسان لا مـــن حيث الحجم ولا من حيث الاحتياجات الضرورية لاستمرار حياته على الأقل. لذلك كانت هناك عدة وسائل مساعدة لحياة الراهب فوق العمود، منها :

المصطبة : يبنيها الراهب لتوسيع سطح العمود الأعلى حتى يتسع لإقامته وحركته المحـــدودة جـــداً، وإحاطـــتها بدرابزون يقيه من السقوط، وترتفع في وسط المصطبة ســـارية يثبت عليها سقف من الخشب أو الجلد يقي العمودي من المطر والشمس، مع أنه يبقى معرضاً لهما من كل الجهات[٢١].

الخـــادم : وكـــان من المستلزمات المهمة للعيش على العمود. فهو تلميذ وحارس وخـــادم، يؤمـــن القوت لمعلمه وينظم الزيارات، ويعلن أسماء الزوار ويتقبل تقدماتهم وينقل طلباتهم لمعلمه .

ولنســـتمع الآن إلى الكاتب السوري لوقيانوس السميساطي وهو يتحدث عن إقامة كاهن معبد الإلهة السورية فوق العمود، يقول :

" إذا بـــلغ رأس العمـــود فإنه يدلي حبلاً ويرفع به ما يشاء إليه من قطع الخشب والأغطية والأدوات المختلفة. ثم كان يربط هذه الأدوات ببعضها ليبني منها مسكناً هو أشـــبه بـــالعش يجلس فيه، ويمضي على هذا النحو الأيام السبعة. ويأتي كثيرون إليه يحمـــل بعضـــهم الذهب والفضة ويضعونها على الأرض أمامه ويذكر كل منهم اسمه. ويقـــوم رجـــل آخـــر يقف أسفل العمود هو خادم أو تابع للكاهن بإعلان هذه الأسماء بصوت عالٍ، وعندما يسمعه العمودي يرفع صوته بالصلاة لكل منها "[٢٢] .

وبعد الإطلاع على هذا النص ألا يحق لنا التساؤل عما إذ كانت قد اختلفت كثيراً حياة الرهبان العموديين على أعمدتهم عن حياة هذا الكاهن العمودي القديم ؟ .

---

(٢١) أبطال الله العموديون، الأب يوسف قوشاقجي، ٢٨ .

(٢٢) الإلهة السورية، لوقيانوس السميساطي، ٤١ .

اندثـــار الرهبنـــة العمـــوديـــة :

لقد لعبت عوامل عدة دورها في ضعف الحركة الرهبانية ومن ثم اندثارها بشكل تدريجـــي. فبعد عهد الازدهار - القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديان - بدأ عدد العموديين ينخفض بالتدريج حتى تلاشى تماماً، وذلك لعدة أسباب أهمها الخلافات العقائدية التي اندلعت بعد مجمع خلقيدونيه "عام ٤٥١م" الذي أقر مبدأ الطبيعتين للسيد المسيح، إذ كان لها دور مهم وأساسي في القضاء على العمودية المسيحية، لأن معظم العموديـيــن كـــانوا ســـوريين، ومعظـــم الســـوريين كانوا من أتباع الطبيعة الواحدة "المونوفيـــزية "، وهـــم مخـــالفون لمجمع خلقيدونيه ومناهضون لــــه. وهنا يتجلى لنا موقـــف وطـــني ســـوري تمسك بعقيدة دينية واجه بها التسلط اليوناني الروماني على أرضه وتراثه. وكان الرهبان العموديون من أشد دعاة هذه العقيدة الوطنية، يشهد على ذلـــك نشـــاطهم في المجامع الكنسية التي عقدت في سورية كمجمع باتبو. ودفع نشاط بعضـــهم المتزايد إلى إنزاله عن عموده بالقوة كما فعل مطران خلقيدوني مع العمودي الســـوري زعورا(٢٣). وقد اشتهر عن الإمبراطور جوستين الأول أنه قام عام ٥١٨ م بحمـــلة اضطهاد واسعة ضد المونوفيزيين في سورية. وتابعها الإمبراطور جوستنيان عـــام ٥٣٦ م. وكـــانت الســـلطة البيزنطية تحاربهم إدارياً بوساطة حكام المقاطعات السورية، والكنيسة البيزنطية الخلقيدونية تحاربهم عقائدياً بوساطة بطريركية أنطاكية، فترســـم بطاركة موالين لها، اشتهر منهم بولس اليهودي وأفراسيوس بارقلاحا وأفرام الآمدي، الذين اضطهدوا بشدة وعنف السوريين أتباع الطبيعة الواحدة. ويروي الكاتب ميخائيل السوري أنه نتيجة للخلافات بين الخلقيدونيين والمونوفيزيين فقد قام البطريرك بولـــس بإنزال عدد كبير من العموديين المونوفيزيين من على أعمدتهم(٢٤). كما يذكر المؤرخ يوحنا الأسيوي أن الاضطهادات الدينية التي قامت ضد أتباع الطبيعة الواحدة أدت إلى طـــرد الرهـــبان بالمئات من أديرتهم، وفرغت أديرة كاملة وأُنزِل العموديون

---

(٢٣) ... Les Stylires Syriens , Op .Cit , P. 65

(٢٤) Les Stylites Syriens , Ibid , P.148

بالقوة من على أعمدتهم[٢٥]. ويرى كثير من المؤرخين أن الخلافات الطائفية هي سبب إقفـار مدن عدة في شمال سورية من السكان وتحولها إلى مدن ميتة[٢٦]. وجاءت آخر الضـربات للرهبنة العمودية عندما اتخذت الكنيسة النسطورية، أواخر القرن السادس الميلادي، إجراءات جذرية ضد العمودية وألغتها من سلك الرهبنة المعترف بها[٢٧] .

ولكـن هل كان للفتح العربي لسورية دور في القضاء على العمودية ؟ أو أنه سـببها الوحيـد، كما يدعي بعضهم؟ [٢٨]. نحن لا نعتقد ذلك، فعهد توهج الرهبنة العمودية كان قد انتهى قبل وصول العرب إلى سورية، فإضافة إلى السبب الرئيس وهو الاضطهادات الدينية فقد كان الاجتياح الفارسي لسورية عام ٦١٤م، والحروب الـتي تلته بين الفرس والرومان، أسباب مهمة لاندثار الرهبنة العمودية، فقد دمرت البـنية الأساسية التي كانت العمودية تقوم عليها وهي طرق المواصلات، إذ توقفت حـركة القوافـل ومـرور الـناس وهم من الأسباب المهمة لإقامة العموديين على أعمدتهـم. وعندما دخل العرب المسلمون سورية كانت ظاهرة الرهبنة العمودية في أواخـر أيامها، فلم يذكر حولها شيء مهم فيما كتبه العرب عن هذه الفترة. ومع أن البيزنطيين حاولوا استغلال رجال الدين المسيحي في سورية للتحريض ضد العرب بمـا فيهـم الرهـبان والعموديون[٢٩]، فقد عبر السوريون السريان عن مشاعرهم الحقيقيـة بعـد زوال السلطة البيزنطية، وعدّوا العرب محررين لهم من الاضطهاد الذي مارسه ضدهم الروم. يؤكد ذلك الأسقف السرياني ميخائيل السوري بقوله : " لم يكن تحررنا من طغيان الروم ميزة بسيطة بالنسبة إلينا " [٣٠].

---

(٢٥) Les Stylites Syriens , ibid , P. 64

(٢٦) Les Stylites Syriens , ibid , P. 64

(٢٧) Les Stylites Syriens , ibid , P. 64 ...

(٢٨) قال بهذا الرأي الأب الفرنسيسكاني بيلارمينو بيغاتي .
(Les Stylites Syriens - ibid., P.7)

(٢٩) تاريخ فتوح الجزيرة، محمد بن عمر الواقدي، ١٢٣ .

(٣٠) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، كلود كاهن، ٣٣ .

المئذنة عمود من نوع جديد :

مـــع أن العـــرب لم يعرفوا في جاهليتهم العمودية بشكلها السوري، لكنهم عرفوا النُصب التي هي البدايات الأولية للعمود. والنُصب هي كل ما نُصب فجعل علماً. وهي حجـــارة يُهـــلّ عليها ويُذبح لغير الله[٣١]. لذلك لم يكتب للعمودية كفكرة أن تندثر في سورية بعد سيادة العرب المسلمين الذين لم يكونوا غرباء عنها، فسرعان ما تم اختلاط هـــائل بالسكان، فهم جميعاً من أصول عرقية ولغوية وحضارية واحدة، إضافة إلى أن القبائل العربية القادمة من أعماق جزيرة العرب كانت تمور بحركة لا تهدأ في البادية السورية، بل توغلت منذ زمن قديم في أعماق الجولان وأعالي الفرات[٣٢].

كمـــا أن النبي العربي (ص) جاء إلى الشام مرتين قبل إعلان دعوته[٣٣]. وخلال الفـــتح تدفقت أعداد كبيرة من صحابته على مدن سورية ليحرروها من احتلال الروم وظـــلمهم. وعـــندما أريقـــت دماء شهدائهم على ترابها وغرست أجسادهم في أرضها تحولـــت ســـورية بشكل كامل نحو العروبة، وأصبحت بلاد الشام قلب الدولة العربية الـــنابض لعقـــود عدة من الزمن خلال حكم بني أمية. وكانت منارتها الحضارية إلى الأبـــد. ونـــتيجةً للتفاعل الحضاري الجديد على أرض سورية وبعد التلاشي التدريجي للرهـــبانية العمودية المسيحية فقد عاد العمود ليحتل دوراً مهماً في الطقوس الإسلامية بعد أن فُرّغ من الداخل وتحول إلى مئذنة. وللسبب نفسه الذي ارتقى العمودي من أجله عمـــوده، ارتقى المؤذن المئذنة، وذلك ليصل صوته لأبعد مكان ممكن، وليشاهده أكبر عـــدد من الناس، فيتمكن من لفت نظرهم إلى موعد الصلاة. ولذلك كانت سورية أول بـــلد قـــامت فيـــه مئذنة[٣٤]، وذلك في عهد بني أمية فهم أول من استحدث المئذنة في الإسلام[٣٥].

---

(٣١) لسان العرب، ابن منظور، مادة: نصب .

(٣٢) العرب في سورية قبل الإسلام، رينيه دوسو، ٤ .

(٣٣) سيرة ابن هشام ، ١/١٨٠ .

(٣٤) كتاب البلدان، ابن الفقيه الهمذاني، ١٠٨ .

(٣٥) تاريخ العرب، فيليب حتي، ٣٢٥ .

إن ارتفـــاع الداعي عما حوله يُعدُ عادة سورية قديمة عاد إليها مسلمو سورية مع المئذنة التي لا نستطيع عدّها تقليداً للعمودية بل استمراراً لها، كما كانت هي استمراراً لما قبلها، ضمن سلسلة متتابعة الحلقات في إطار فن العمارة السورية، الذي يتجلى مع كـــل مجـــتمع عاش على هذه الأرض بما يلائم معتقداته ومداركه[٣٦]. ولم تكن المئذنة آخـــر المطاف، فقد حدث تطور آخر لابد من التعرض له مع أن الدراسات عنه قليلة جـــداً. فقـــد اتـــبع المسلمون سُنة الاعتكاف في المسجد ولأنه كان يعج بالمصلين على الـــدوام، فقـــد كانت محدودة أوقات الخلوة والصفاء التي كان ينشدها المعتكفون للتأمل والـــتفكير، والتي تعد ضرورية للاتصال الروحي بالخالق، مما دفع البعض للاعتكاف في مئذنة المسجد. وتجربة الإمام الغزالي، عندما عبر من الشك إلى اليقين، تمت أثناء اعـــتكافه وانعزاله في مئذنة الجامع الأموي بدمشق أواخر القرن الخامس الهجري[٣٧]. وقـــد استمر البيت الأعلى في صومعة جامع دمشق الغربية مكاناً لانعزال الزهاد بعد أبي حامد الغزالي حتى أواخر القرن السادس الهجري على الأقل، إذ يحدثنا ابن جبير الأندلسي عن ناسك متعبد يعتكف هناك هو الفقيه أبو عبد الله بن سعيد اليحصبي[٣٨].

ويبدو أن الاعتكاف في المئذنة لم يحل المشكلة تماماً، فالمؤذنون يعبرون درجاتها الداخلية مروراً بالمعتكف خمس مرات في اليوم، مما اقتضى التفتيش عن البديل الذي لم يكن سوى ما يعرف الآن بالخزنة، التي تقوم بصحن العديد من الجوامع، وأشهرها تـــلك التي في جامع بني أمية بدمشق. وهي غرفة صغيرة مضلعة الجدران تقوم على ثمانيـــة أعمـــدة، لها باب صغير يتسع لمرور الإنسان فقط، وليس لها درج، إذ يصعد المعـــتكف بواسطة سلم يرفعه ويدليه من الغرفة[٣٩]. وبسبب القبة التي تغطيها كسقف أصـــبحت تشـــبه الجرة، ومن هنا جاءت تسميتها بالخزنة، فهي ليست لخزن أي شيء

---

(٣٦) العمارة السورية، منذر الحايك، مجلة اتجاه، العدد الرابع، ١٩٩٧ .

(٣٧) المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، ٦٨ .

(٣٨) رحلة ابن جبير، ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

(٣٩) الجامع الأموي، د. عفيف بهنسي، ١٠١ .

وخاصـــة الأمـــوال كما يقال، إذ لا يتناسب تصميمها ولا مكانها في الصحن مع ذلك. فاســم الخـــزنة اشتق من شكلها عندما لم تعد تستخدم للاعتكاف. ودليلنا على ذلك هو خزنة البتراء وهي على شكل جرة كبيرة ولذلك يطلق علها اسم الخزنة[٤٠].

وهكـــذا اســتمرت القيـــم الـــروحية متتابعة متتابعة بلا انقطاع عبر الزمان على أرض الرسالات والحضارات. وما العمودية عبر مراحلها كلها إلا جزء من نتاج هذا الشعب وهـــذه الأرض، وعلاقة حضارية بين مجتمعاتها المتعاقبة وبين الأديان المختلفة فيها. ولكـــن ستبقى الرهبانية العمودية قمة الازدهار التي وصلت إليها فكرة العمودية، فمنها ومـــن خلالهـــا عـــرف العالم أجمع التعبد السوري الأشهر على مرّ الأيام وهو ارتقاء العمـــود الـــذي كـــان وسيبقى رمزاً للتوجه نحو السماء، والتعطش لمعرفة الإله الحق الواحد، كما قال يسوع المسيح في صلاته الكهنوتية :

" والحياة الأبدية..

هي أن يعرفوك..

أنت الإله الحق وحدك . . . ." [٤١]

ونحـــن اليوم إذ نقدم لأول مرة بالعربية هذا العمل الذي تضافرت جهود ثلاثة من أقـــدر المختصـــين والمهتمين على معالجته وبذلوا جهداً قيماً مشكوراً لكتابته، وجاءت تـــرجمة الأب الدكـــتور ميشيل نعمان المتقنة في نقلها للمعلومات، الجميلة في لغتها، الرشيقة في أسلوبها لتتوج هذا العمل المتميز، وكان ما قمت به هو أقل الأدوار بالنسبة لحجـــم العمـــل فـــي هذا الكتاب، وقد حرصت أن أوضح للقارئ كل ما اعتقدته غير معـــروف لعامـــة الناس، من أسماء أماكن أو شخصيات، كما سمحت لنفسي بالتدخل لمناقشـــة النص في الحواشي عندما كنت ألاحظ تطرفاً أو بعداً عن الحقيقة التاريخية، ولكن كل ذلك أبقيته بعيداً عن النص الأصلي الذي أبديت أنا وصديقي المترجم، منذ أن

(٤٠) تاريخ العرب قبل الإسلام، د. أحمد هبو، ١٩٦

(٤١) العهد الجديد، يوحنا، الفصل ١٧، الآية ٣

التقيـنا للعمـل فـي هذا الكتاب، كل الحرص على إيصاله إلى القارئ العربي بروحه وحرفيـته، لذلـك وضـعت كل تعليقاتي وشروحي في حواش أعطيتها أرقاماً هندية، ووضـعتها فـي أسـفل الصفحة التي تتعلق بها، وما هذا التقديم لها إلا بسبب الحاجة المباشـرة للقـارئ، وتركـت حواشي المؤلفين واستدراكاتهم وإشاراتهم إلى المراجع والمصـادر بأرقامهـا العربية كما كانت في النص الأصلي، وحتى لا تختلط بحواشي المراجعة والشرح وضعتها في آخر كل فصل، فهي بغية المختصين وحدهم .

وهـنا أرى لـزاماً علي أن أطلب من الله الرحمة لروح صديقي الأستاذ الدكتور توفـيق سـليمان، المدير العام السابق للآثار والمتاحف في سورية، فهو أول من فكر بـترجمة هذا الكتاب وطبعه باللغة العربية، ويسرني أن أكون واحداً من الذين ساهموا بإخراج حلمه هذا إلى النور .

حمص ٢٧/٣/٢٠٠٠

منذر محمد الحايك

رئيس الجمعيـة التاريخيـة السـورية

مدرس في كلية الآداب ــ جامعة البعث

تقـــديـــم

قد يخطر ببالنا ونحن نتأمل تجربة الرهبان العموديين أن نتساءل :

هل كان من الضروري حقاً أن يعيش الإنسان مسمراً على عمود سنوات طويلة، وعلى مرأى من جميع الناس، لا لشيء إلا ليكون تلميذاً حقيقياً للمسيح، ورسولاً لـــه ؟ ألم يكن هذا نمطاً حياتياً يحمل لوناً من ألوان الاستعراض ؟.. وبناء على هذا السؤال يـــأتي هذا الكتاب المتميز الذي قام بتأليفه ثلاثة آباء فرنسسكانيين من وكالة الأراضي المقدســـة ليجيـــب إجابـــة شاملة، بحيث أن هذه الدراسة جاءت لتكون بمثابة موسوعة صغيرة عن الرهبان العموديين، إذ أنها عالجت حياتهم في جانبيها المادي والروحي.

إنـــنا نعـــرف الرهـــبان العموديين من خلال المؤلفين القدماء الذين كانوا شهوداً لحيـــاتهم ولنشاطهم من أعلى أعمدتهم. غير أن الرهبان العموديين قد لفتوا انتباه كثير مـــن العلماء المعاصرين الذين راحوا يبحثون عن آثارهم عن كثب، في الأماكن التي عاشوا فيها .

لقد استعان مؤلفو هذا الكتاب بالمصادر القديمة على خطا الأب " ديلهاي _ Delehaye "، كما استعانوا أيضاً بالدراسات الحديثة كدراســـات " لاســـوس - Lassus "، و" تشـــالينكو _ Tchalenko ". إلا أنه كان من الضروري تجاوز الأعمال المنجزة، إذ أن هـــناك كـــثيراً ممـــا يجب اكتشافه كي يصبح من المستطاع تكوين فكرة كاملة عن الحياة العموديـــة، وعـــن أكبر عدد من الرهبان النساك، والتعرف بالضبط على طريقة حياتهم ونمطهـــا. إن الدراســـة المعمقـــة للمصادر، والإقامة المطولة في الأماكن التي عاش فيها العموديـــون، والتي لم يبق منها الآن إلا الآثار، هما وحدهما كفيلان أن يقدما لنا عناصر جديـــدة ومفيـــدة. وللوصول إلى هذا الهدف لم يبخل الآباء الثلاثة جهداً، ولا يسعنا إلا أن نبادلهم كل عرفان وامتنان .

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن ولا واحداً من الرهبان العموديين قد كتب سيرته الذاتية، كما أنه لم يكتب أحد منهم مؤلفاً عن الحياة النسكية ليروجوا لنمط الحياة التي كانوا يعيشونها. غير أ ن هناك بعضاً من المعجبين بهم الذين نالوا حظوة التحدث إليهم، ودراستهم عن كثب، قد حاولوا سد هذا النقص، ومن أشهر هؤلاء الكتاب نذكر الأسقف تيودوريطس القورشي (Théodoret de Cyr) الذي وصف حياة القديس سمعان الكبير الرائعة (Siméon Le Grand) .

فإذا ما صدقنا ما جاء في هذه الكتابات القديمة القائلة بالحط من قيمة الجسد وإخضاعه للروح في سبيل الوصول للاتحاد مع الله، بدا لنا واضحاً المثل الأعلى الذي صبا إليه العموديون، والذي يمكن التعرف عليه كترجمة عملية فريدة حقاً لنص الإنجيل: " من فقد حياته في سبيلي يجدها " - لوقا ٩/ ٢٤. إنه من الواضح أنهم توصلوا إلى تحقيق هذا المثل الأعلى، وذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الجماهير التي اجتذبها العموديون للتحلق حولهم. وما قام به هؤلاء الرهبان من أعاجيب، وما حققوه من هدايات. ومما يبدو واضحاً أن العموديين لم يصلوا جميعاً إلى درجة واحدة من القداسة، وهو ما يوضحه هذا الكتاب بشكل دقيق .

ولأنه لم يخطر ببال الكتّاب القدماء أن هذه المنطقة المسيحية يمكن أن تخضع لشعوب أو ديانات أخرى، لذلك لم يهتموا بإعطاء كثير من التفصيلات حول الحياة المادية لهؤلاء الرهبان العموديين. ولذلك بقيت بعض التفاصيل غامضة بالنسبة لنا، ولم يكن من سبيل لتوضيحها إلا بتفحص دقيق للآثار التي بقيت محفوظة حتى يومنا هذا. وقد نهج مؤلفو هذا الكتاب هذا المنهج بل إنهم تجاوزوه إلى الحوار مع سكان البلد، علهم يرون في عاداتهم وتقاليدهم فكرة عن الماضي، وقد وجدوا بذلك مجموعات رهبانية تنتسب إلى حركة الرهبان العموديين، لم يكن أحد يظن أنها موجودة حتى اليوم .

ولأنني لا أريد أن أحرم المولعين بقراءة سير القديسين من متعة التحقق بأنفسهم فيما يقدمه هذا الكتاب من إسهامات هامة، سأكتفي بإعطاء القراء الذين هم في عجالة من أمرهم لمحة موجزة عنه، وإليكم المثال الأول :

لقــد تم التحقق من هوية عمود الراهب العمودي في تليدا والذي كان يعتبر حتى الآن نصباً جنائزياً. وقد وجد أيضاً عمود في إرحاب وسور في تقاد، مما يشكل تجمعاً عمودياً كان مجهولاً تماماً. كما تم التحقق من هوية دير قورزاحل القديم. بالإضافة إلى اكتشـــافات أخــرى فـــي حقل الأيقونوغرافيا[1] التي أضافت أمثلة جديدة إلى الدراسة المتقنة التي قام بها لاسوس (Lassus). وعلى سبيل المثال نذكر " محبسة " أو سجن قوقــنايا. أمــا مـــا أشار إليه الأب ماتيرن (P. Mattern) حول طقوس عبادة الرهبان العموديــين فـــي حجــراتهم، فقــد تم التأكيد عليه والتوسع فيه. كما ارتكزت دراسة المذاخر[2]على أسس جديدة .

إن هــذه الدراســة الميدانية الجديدة للعناصر التاريخية والأثرية، أدت إلى التخلي عن بعض الأفكار التي كانت تتناقلها حتى الآن المؤلفات، الواحد عن الآخر، دون أي سند حقيقي، وإليكم هذا المثال القريب :

كـــان بعــض الباحثين يعتقدون بوجود تاج لأعمدة الرهبان العموديين، من خلال مشـــاهدتهم تيجانـــاً لهذه الأعمدة التي رسمت على الأيقونات القديمة، في حين أنه قد تــبين، فـــي أغلب الأحيان، أن كل ما في الأمر بكل بساطة هو قضبان حديدية ملبسة بقطع خشبية، من شأنها أن تؤمن سلامة الناسك .

كمـــا أن هذا الكتاب غني بالصور التي التقطها الباحثون خلال زياراتهم الميدانية لـــلمواقع، ومع أنها كانت أحياناً في أحوال جوية رديئة، فإنها تكمل بشكل رائع ما أتوا به من أوصاف .

ومـــن الجديـــر بالذكر أن هذا العمل يمت بصلة إلى المنشآت السورية، ففي هذه المـــنطقة بشكل خاص ازدهرت الحركة الرهبانية العمودية. وقد أقام المؤلفون الثلاثة ســـنوات طويلة في الأراضي السورية، ولذلك أتت أبحاثهم ممتلئة بالحماسة والاندفاع،

---

(١) أيقونوغرافيا : دراسة فن الأيقونات والصور الدينية .

(٢) المذاخر : مفردها مَذْخَر. وهي صناديق تحتوي بقايا القديسين، أو آثارهم. فهي ذخائر دينية .

وهـــذا ما يمكن فهمه بسهولة، وإني لواثق من أن ثمرة جهودهم ستقدم خدمة ثمينة في مجال كتابة سير القديسين وفي علم الآثار .

وفـــي خـــتام هـــذا التقديم أغتنم الفرصة لأعرب عن أمنية أرفعها إلى أصدقائي المؤلفيـــن، وهـــي أن يتابعوا حتى النهاية، وبالتعاون نفسه، هذا العمل الذي بدؤوه في مجـــال الحياة النسكية في العصور القديمة. ففي مثل هذا العمل نجد شهادة حقيقية عن الـــروحانية الســـورية النشيطة التي ازدهرت على هامش النزاعات اللاهوتية المضنية خـــلال العهد البيزنطي. ففي هذه الأثناء عرفت الكنيسة الشرقية عهداً فريداً من الورع والتقوى، إلى أن أتت الفتوحات الإسلامية فقضت بكل أسف عليه(٣).

١٩٧٥/١/٣

الأب بيلارمينو باغاتي الفرنسيسكاني

---

(٣) راجع مناقشة هذه الفكرة في الاستهلال .

تمهيـــد

فـــي حديـــثه عن الممرات الجبلية في أنطاكية، حيث كانت الهياكل الوثنية مهيمنة ردحاً من الزمن، نستمع إلى تيـــودوريطـــس القورشي[١]، (Théodoret de Cyr) في كتـــابـــه " معالجـــة أهـــواء اليونان " الذي يدافع فيه عن الدين، يهتف بحماسة : " تخلصت الجبال من الضـــلال، فهـــناك حيث كانت بالأمس تنتصب الهياكل الوثنية، تحتفل اليوم جوقات الرهبان بيسوع المصلوب ". (ميني، الآباء اليونان – Migne, P.G., t. LXXXIII, 1044 C) .

لقـــد تجولـــنا مـــراراً وتكراراً في هذه الجبال حيث كانت ترتفع في جنباتها آيات الحمـــد والتمجيد للسيد المسيح خلال قرون عديدة بلا انقطاع. وما كان يدفعنا إلى ذلك هو حبنا لليتورجيا[٢] وللفن الديني السورِيَّيْن. وملأنا أعيننا متعة من هذه المناظر التي هي نفسها دبت الحماسة في كل من القديس يوحنا فم الذهب[٣](Jean Chrysostome) وتيودوريطـــس القورشـــي. وقـــد زرنا الكنائس القديمة وما فيها من أجران المعمودية وقاعـــات الشـــهداء، ومـــن هـــنا ولدت فينا فكرة وضع هذا الكتاب، فبدأنا عملنا على طـــاولات الدراســـة، ثم تابعناه على مرتفعات جبل باريشا، وجبل سمعان، فجاء عملنا ثمرة عدة سنوات من الأبحاث .

---

(١) تيودوريطس القورشي : ولد عام ٣٩٣م، انتظم في سلك الرهبنة ثم رسم أسقفاً، ألف كتاباً فريداً عن الرهبان عـــام ٤٤٤م. وكـــان معاصراً لسمعان الكبير، فـــزاره وسمع كلامه واطلع على أعماله وعجائبه ودونها في كـــتاب "تاريخ أصفياء الله "، وهو تاريخ مهم لمعاصرته للأحداث التي يكتب عنها، ولأن تيودوريطس كان أحسن أهل زمانه ثقافة .

(٢) ليتورجيا : كلمة يونانية تعني عمل الشعب، أو العمل الجماعي. ويراد بها هنا طقوس العبادة والمراسم الدينية والكنسية .

(٣) يوحـــنا فـــم الذهـــب : أو الذهـــبي الفم، لقب بذلك لبلاغته، ولد في أنطاكية عام ٣٤٧م، تولى بطريركية القسطنطينية. كان زاهداً فاصطدم بالمفسدين، لكن شعبيته حمته منهم. توفي عام ٤٠٧ م .

لقد طرحنا الأسئلة على سكان المنطقة، فأصبح بوسعنا بفضل ما جمعناه من ذكريات أن نضيف بعض العناصر الجديدة لعلم الآثار السوري، وأن نكتب أيضاً بعض الصفحات عن الرهبنة الشرقية المجيدة. إن ذكرى الرهبان العموديين الشبيهة بآخر ومضات أنوار سفينة تختفي في البعيد البعيد، هي اليوم بمثابة شعلة خافتة تكاد تنطفئ في ليل العصور .

يحتوي مؤلفنا على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : يدرس الوسط التاريخي والجغرافي الذي عاش فيه الرهبان العموديون. ويطلعنا على نمط حياة أبطال المسيحية هؤلاء، وما لهذا النمط من الحياة من جانب نسكي خاص، بالرغم مما يحتويه من الغرابة والإثارة، والتي تختلف تماماً عما نراه في حياة الرهبان المتوحدين الديريين أو المتنسكين .

القسم الثاني : يستعرض مجموعة من الرهبان العموديين من المنطقة الواقعة شمال غربي حلب. مثل : القديس سمعان العمودي المسمى بالكبير وأبو الرهبان العموديين، والقديس سمعان العمودي المسمى بالصغير، والقديس دانيال، والقديس أليبوس، وآخرون الذين كان من حظهم أن وجد من كتب سيرة حياتهم. أما الرهبان العموديون الذين يتطرق إليهم هذا الكتاب، فهم الذين لم يتكلم عنهم المؤرخون، والبعض منهم غابت عنا أسماؤهم اليوم .

القسم الثالث : يجعلنا أخيراً نتابع تطور تدين المؤمنين وتكريمهم لهؤلاء الرهبان العموديين، والذين غالباً ما عبروا عن هذا التكريم برسم صورهم وأعمدتهم على النصب التذكارية، وعلى الجدران والأبواب .

وإننا نغتنم هذه الصفحات لنعبر عن شكرنا للأب فيليب مستريح، رئيس ديرنا الفرنسيسكاني في العزيزية بحلب، إذ إن ما قدمه لنا من مساعدة قيمة، وتشجيع كبير، سمح لنا بالقيام بعملنا هذا على أحسن وجه. كما نوجه شكرنا الصادق إلى زميلينا وأخوينا الراهبين الأبوين تومازو روزا (Tomaso Rosa) وإلوي ريغيرا (Eloy Reguera)، اللذين كانا على استعداد دائم لقيادتنا بالسيارة إلى مواقع دراستنا، حيث كانا ينتظراننا

الســـاعات الطوال. كما نشكر أيضاً الأب بولس يتيم من طائفة الروم الكاثوليك في حلب، فـــلقد كان لنا غالباً بمنزلة الدليل الخبير. ونتوجه أخيراً بالشكر إلى قرائنا، آملين منهم أن يتأمـــلوا يومـــاً مـــا في هذه الجبال، حيث ازدهرت الرهبنة، وحيث تكَوَّن هؤلاء الرهبان "الأبطـــال والحكماء" كما يحب أن يسميهم تيودوريطس، فاستطاعوا أن يوقظوا في قلوب السكان السوريين القدماء، حباً كبيراً للمسيح، حملهم على تشييد الكنائس، التي لا تزال إلى يومنا هذا محط اعتزاز الفن السوري، فهي من أجمل ما تُرك من تراث للعالم المتحضر.

وها نحن نخاطبكم مع تيودوريطس قائلين :

" أطلب منكم أنتم أيضاً أن تشاركوا في هذا النور" (Théodoret , ibid , 1152B.) .

حلب ١٩٧٥/١/٢

الأب إينياس بينيا الفرنسيسكاني

الأب باسكال كاستـليانا الفرنسيسكاني

الأب رومـوالدو فيرنـانديز الفرنسيسكاني

القسم الأول

الرهبان العموديون شهداء زمن السلام

إينياس بينيا الفرنسيسكاني

قـد تكون ظاهرة العمودية، التي تصورها القديس سمعان الكبير في سورية القرن الخامس من أكثر الظواهر إثارة ما يتعلق بهذه الحركة الدينية الجماهيرية الكبيرة التي عُرِفَت بالرهبنة الشرقية. فكان الرهبان العموديون نساكاً يعيشون على أعمدة، ليلتفتوا بشكل أعمق نحو الله، ويقضون حياتهم في وضعية من السكينة شبه المطلقة.

وتجـدر الإشـارة بـادئ الأمر إلى أن الرهبنة العمودية لم تكن الثمرة الناضجة لحـركة بطيـئة مـتطورة عن الحياة الرهبانية، ولا النتيجة المنطقية لمسار تاريخي. فالرهبـنة العمودية بصفتها ظاهرة من المجال الروحي، لم تخضع للقوانين التي تسيّر الـتاريخ البشري. فالروح تهب حيثما تشاء، ومتى تشاء، وفي أغلب الأحيان في اتجاه محير لمنطقنا البشري.

ولـدت الحركة الرهبانية العمودية، كما سنرى لاحقاً، من الوحي المبدع والعفوي لـرجل يحتل أولى المراتب في تاريخ الحياة الرهبانية الشرقية، هو سمعان الكبير[١]. ومـع ذلـك استفادت هذه الحركة كثيراً في انتشارها من جو الحماسة الدينية الجماعية الذي كان يسود العالم المسيحي بعد فترة الاضطهادات. وتقع الحركة العمودية بصفتها حـركة ديـنية، فـي حقبة دقيقة جداً من تاريخ الكنيسة، في القرون الميلادية الرابع والخـامس والسادس، وفي منطقة تقع تماماً في عالم البحر الأبيض المتوسط ألا وهي سـورية. غيـر أن هـذا لا يمنع من وجود رهبان عموديين خارج هذه الحقبة أو هذا الوسط الجغرافي.

سنحاول في هذه الدراسة أن نتفحص الوضع الاجتماعي – الديني لهذه الحركة، ذات الطـابع السوري المحض والتي لا يعرفها الغرب إلا قليلاً، وأن نكتشف الكنوز الروحانية العريقة التي تتضمنها. ولبلوغ هدفنا هذا قسمنا دراستنا هذه إلى أربعة أقسام :

---

(١) مع أن القديس سمعان الكبير هو أول الرهبان العموديين، لكننا نعتقد أنه تبنى فكرة قديمة جداً كانت معروفة في شمال سورية. راجع مناقشة ذلك في الاستهلال .

فـــي القســـم الأول، سنعطي لمحة عن الجو الذي عاش فيه الرهبان العموديون، وسنســـتعرض الوســـط الجغـــرافي والديني والسياسي، لنتمكن من شرح هذه الحركة العمودية بصفتها من إبداع الروح السورية .

وفـــي القســـم الثاني، سنحاول وصف عمود الرهبان العموديين، والأجزاء التي تكونه، وذلك بالاستناد على ما كتب من سير لحياتهم، وعلى الحفريات والآثار، وعلى ما قمنا به من أبحاث، وخاصة في الأماكن التي عاش فيها هؤلاء النساك .

أمـــا القســـم الـــثالث، فقـــد خصص لعرض نمط حياة الرهبان العموديين، وما يمارسونه من نشاطات، وكيف يقضون وقت فراغهم .

وأخيـــراً فـــي القسم الرابع سنتكلم عن أهمية الحركة الرهبانية العمودية في حياة سورية الدينية والسياسية إبان القرن الخامس والسادس والسابع ميلادي. وسنتكلم أيضاً عن انتشار هذه الحركة خارج حدود هذه البلاد .

وفـــي ختام بحثنا، سيساعدنا الفصل الأخير على فهم روحانية الرهبنة العمودية، وما حملته من رسالة الإيمان الصادق والعطاء، وهي ما تحلى به الإنسان الشرقي في العصـــور الأولى من تاريخنا، ولقد كانت مقبولة كلياً في عصرها بالرغم مما تنطوي عليه من جانب استعراضي في ممارسة النسك .

الفصل الأول

ســـورية الرومانيـــة - البيزنطيـــة

إنـــه لمـــن الصعوبة بمكان شرح الرهبنة الشرقية، ولا سيما الرهبنة العمودية، دون الأخـــذ بعيـــن الاعتبار الإطار الاجتماعي والديني لسورية بعد مرسوم ميلانو الذي منح الأمـــان للكنيســـة عـــام ٣١٣م[٢]. ففي ظل السلام الروماني تمتع إقليم سورية باستقرار وازدهـــار لم يعرف نظيرهما البتة في العصور السابقة. وابتداء من القرن الرابع الميلادي بالـــتحديد شـــهدت المنطقة نشاطاً كبيراً في مجال التجارة والزراعة والبناء، واستمر دون انقطاع حتى القرن السابع، وبشكل أدق حتى الغزو الفارسي عام ٦١٤ . ومما تتوافق مع الركود الاقتصادي الذي بدأ في كل من إيطاليا وبلاد الغال وإسبانيا [1] .

لقـــد انتشـــرت المـــزارع في سورية الرومانية ، وازدهرت المدن الكبرى مثل : أنطاكية (Antioche)، حلب (Bérée)، أفاميا (Apamée)، حمص (Emèse)، حماه (Epiphanie)، تدمر (Palmyre)، دمشق (Damas)، بصرى (Bosra). إلخ .. ..

وبالإضـــافة إلى الاستقرار السياسي نذكر أن من أهم أسباب هذا الازدهار هو الزراعة النشـــطة للحبوب والكرمة والزيتون. فأهمية هذه المواد الأولية الثلاث تأتي من كونها أساسية لـــتموين المـــدن الكبرى في الإمبراطورية. مما حمل السلطة المركزية على التساهل بنوعية الضرائب التي تسددها سورية سواء بالنقود أو بالمحاصيل الزراعية، لأن هذه البضائع يمكن تصـــديرها بســـهولة بسعر جيد إلى الغرب. فالخمور السورية الصادرة عن كروم البارة[٣]،

---

(٢) مرسوم ميلانو : أصدره الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير في مدينة ميلانو، وقد أطلق الحرية لجميع الأديان وأعلن التسامح الديني، منهياً فترة من الاضطهاد الدامي للمسيحيين .

(٣) البارة : قرية في وسط جبل الزاوية، تبعد ٤كم عن ناحية إحسم، منطقة أريحا، محافظة إدلب. أسماها الرومان كابـــرو بـــارا، وفيها آثار لعصور مختلفة، ذكرها ياقوت في معجم البلدان، قال : "بليدة وكورة من نواحي حلب، وبها حصن، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة " .

وكيـــرمين أو كفر كيرمين [٤]، كانت مرغوبة جداً في روما وفي بلاد الغال[2]، وبهذا الصدد يشـــير القديـــس غريغوار التوراني (Grégoire de Tours) من القرن السادس الميلادي إلى الجودة العالمية للخمور السورية التي تستوردها بلاد الغال[3].

أمـــا زيت الزيتون، هذه المادة الموجودة بكثرة في تجارة تلك الحقبة، فإننا نعرف أنه كانت مادة غذائية أساسية، وكان يستخدم للإنارة ولدهن الجسم وللتشحيم، فهو مادة مستهلكة بكثرة في كل من روما وأنطاكية ومدن البحر المتوسط الكبرى، وسورية هي المنـــتج الكبير لـــه [4]. ونلاحظ أنه ابتداء من منتصف القرن السابع، عندما أضحت الملاحـــة مستحيلة في البحر الأبيض المتوسط بسبب المعارك البحرية بين البيزنطيين والأمويـــين، تم التعويض بالشمع عن زيت الزيتون لإنارة الكنائس في بلاد الغال [5]. لقـــد كان بوسع المنتجين السوريين أن يهتموا آنذاك بتأسيس صناعات أخرى مساعدة إلى جـــانب هذه المواد الأساسية الثلاث، بالإضافة إلى أن وجود شبكة طرق متطورة فـــي العهـــد الروماني، قد ساعد إمكانيات التبادل المتنوعة بين الريف والمدن والعالم الخارجي.

فـــإلى الســـوريين يرجع الفضل في تصدير التوابل ومنتجات الشرق المصنعة إلى الغـــرب، إذ نراهم موجودين في كل مرافئ البحر المتوسط، كما أنهم قد أنشأوا مؤسسات فـــي رومـــا والإسكندرية ومرسيليا وإسبانيا وبريطانيا، بل حتى في بلاد الدانوب[6]. فإلى يومنا هذا يمتلك السوريون على حد قول القديس جيروم (St.Jérome)[٥]: " الميل الفطري للـــتجارة، فحـــبهم للربح يدفعهم لدوران العالم، وشغفهم بالتجارة يحملهم على البحث عن

---

(٤) كفر كيرمين : اسم آرامي يعني قرية الكروم، وهو مؤلف من، كفر : قرية، وكيرمين : كروم. تقع على السفوح الجنوبية الشرقية لجبل الصغيرة. تبعد ٤ كم شمال غرب ناحية الأتارب في منطقة جبل سمعان محافظة حلب.

(٥) القديـــس جيـــروم : يوسيبوس هيرونيموس سفرونيوس " الحكيم المبجل صاحب الاسم المقدس ". ولد عام ٣٥٠ م مـــن أصل دلماسي، درس في روما، وكون جماعة من الزهاد فيها. ثم رحل إلى الشرق. ودخل ديراً قرب أنطاكية، ولكنه غادره ليعيش في صومعة في بادية قنسرين. ثم عاد إلى روما ليعمل أميناً للبابا دماسوس الذي كلفه بترجمة العهد الجديد إلى اللاتينية. ثم عاد إلى بيت لحم وأنشأ ديراً للرهبان، ومدرسة لتعليم الأطفال مجاناً، وكان يختلي هناك بكهف. أما أهم أعماله فهي الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس .

الثروة، حتى في أثناء الغزوات التي اجتاحت العالم الروماني، وأغرقته بالخراب ومجازر الأبرياء. فكانوا يسعون للهرب من الفقر ولا يهابون المخاطر" (7).

وكـان ازديـاد السكان في كل المنطقة هو النتيجة الأولى لهذا الازدهار، إذ لم يشهد تاريخ سورية قط مثل هذه الكثافة في شبكة الطرق بين المدن والقرى، والتي انتشرت حتى أبعـد الأماكن إلى أن وصلت إلى أطراف البادية الشرقية نفسها. وكانت الأراضي القابلة للزراعة تمتد نحو السهوب الشرقية إلى ما وراء الحدود التي تتوقف عندها اليوم (8). ففي قـلب السـهول الشرقية الفسيحة التي أضحت اليوم شبه مقفرة، ازدهرت في تلك الفترة مدن مهمة مثل الرصافة(٦)، وخناصر(٧)، والأندرين(٨)، وزبد(٩)، وإسريا(١٠)، وتدمر(١١)،

---

(٦) الرصـافة : مديـنة سـورية قديمـة على نهر الفرات. ازدهرت في القرون الميلادية الأولى، وكانت تسمى سـرجيوبوليس نسبة الى القديس سرجيوس الذي استشهد فيها. وعمَرها العرب المسلمون وسكنها الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ودفن فيها. وهي الآن أطلال في محافظة الرقة .

(٧) خناصـر : بلدة قديمة. كانت ملتقى الطرق بين قنسرين والفرات وحلب وتدمر. ازدهرت في القرون الميلادية الأولى، وسكنها العرب وسموها خناصرة، وظلت عامرة حتى أواخر العهد الأموي، ثم هجرت وأعيد بناؤها في أوائل القرن العشرين. وهي الآن مركز ناحية تتبع منطقة السفيرة في محافظة حلب .

(٨) الأندرين : تقع في البادية السورية، ٨٠ كم شمال شرق حماه، ٣٢ كم جنوب شرق ناحية تل الضمان، تتبع محافظة حلب. ازدهرت في العصر البيزنطي. وغالباً ما كانت مَسلحة أو بلدة عسكرية لمواجهة الفرس. وهي الآن خـرائب دارسـة. لا يزال يبدو فيها بقايا السور والثكنة الكبيرة وشارعان طويلان متصالبان وكنيسة وخـزانات الماء. وكرومها كانت مشهورة جداً، حتى بلغت عرب الجزيرة، وقد ذكرها عمرو بن كلثوم في مطلع معلقته فقال في الديوان، ص٤٧ : **ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقـي خمور الأندرينا**

(٩) زبـد : بلدة قديمة ازدهرت في العهد البيزنطي. وهي الآن خربة أثرية فيها أوابد حجرية كالتوابيت الضخمة، والأعمـدة، والتيجان. قامت بجانبها الآن قرية بالاسم نفسه وهي تقع في حوضة الجبول، ٢١كم شمال شرق خناصر، منطقة السفيرة في محافظة حلب .

(١٠) إسريا : بلدة في بادية الرصافة، ٩٠ كم شرق سلمية، محافظة حماه، ازدهرت في العصر الروماني إذ كانت محطة للقوافل الـتدمرية لتوسـطها الطريق بين تدمر وقنسرين، ولا تزال بقايا آثارها ظاهرة، وأهمها : معبد روماني قديم بثلاثة طوابق، وقصر الحاكم، ومعاصر وطواحين حجرية وبقايا بيوت سكنية، ومقابر تعود للعصر الروماني البيزنطي .

(١١) تدمر : ربما كان اسمها من الآرامية تدمرتو أي الأعجوبة، وقد نشأت المدينة عند معبر جبلي يتفجر منه ينبوع ماء خلق حوله واحة خضراء، أصبحت استراحة للقوافل بين الشام والعراق. قامت فيها إمارة عربية في العصر الـروماني سيطرت على أواسط بلاد الشام، فازدهرت المدينة واغتنت، حتى قضى عليها الرومان أيام حكم ملكتها الشهيرة زنوبيا .

الــتي هي اليوم عبارة عن مناطق واسعة مهجورة، حيث تنتصب بقايا من الآثار الرائعة: معــابد، أقــواس، كــنائس، وبيــوت، وكلها بقايا ماض مجيد. وفي وسط ذلك الازدهار الاقتصادي الرائع، سنشهد ازدهاراً دينياً للمسيحية الظافرة.

آ - الرهبانية العمودية من إبداع الروح السورية :

لقد شهد العالم، في بداية القرن الرابع ميلادي، انقلاباً دينياً جذرياً وكبيراً، ألا وهو الاعــتراف الرســمي لقسطنطين[١٢] بالمسيحية التي كانت حتى ذلك التاريخ تعيش في الخفــاء نتيجة الاضطهاد، فظهرت علانية، وحصلت على كامل الحرية، بل أصبحت الآمرة الناهية في مصير العالم. وبما أن الإمبراطورية الرومانية أضحت مسيحية فإن تاريخها من الآن وصاعداً سيكون تاريخ الكنيسة بالذات.

غير أن هذا الاعتراف بالمسيحية ديناً رسمياً لم يعني للكثير من المسيحيين انتهاء النضال والصراعات. ففي وسط هذه الأوضاع الدينية والسياسية الجديدة لم يكن مطلوباً مــنهم شــهادة الدم بالاستشهاد، بل شهادة الجهاد ضد الذات، والهرب من هذا المجتمع الــذي بدأ يخضع لتــأثيــر العالم اليوناني – الرومــاني، إذ إنــه لا ينبغي العيش في مجتمع غير إنجيلي .

إن الــدور الــذي لعبه الشهداء في زمن الاضطهادات، سيلعبه منذ الآن الشهداء الجــدد لهذا المجتمع المسيحي الجديد، ألا وهم النساك. فبدلاً من مواجهة الوحوش في الحلــبات، ســيواجهون، وهم في البراري، المجتمع اليوناني – المسيحي الجديد، الذي تشَــرب بــنهم المبادئ الفلسفية اليونانية، والذي هو بالتالي ذو طابع يوناني أكثر منه مسيحياً، وذلك لاعتقادهم العميق أن المسيحي الحقيقي لا يمكنه القبول بقوانين "الدنيا" .

لقــد اســتيقظت فــي العالم الشرقي الجذور العريقة والثقافية القديمة، من آرامية ومصرية، فتحت غطاء الرهبنة ورفضها لمجتمع عصرها، أظهرت خصوصيتها حيال

(١٢) قســطنطين : هو قسطنطين الكبير٢٨٠ – ٣٣٧م إمبراطور روماني، وحد الإمبراطورية، بعد أن قضى على النظام الرباعي. وأسس القسطنطينية عاصمة جديدة للدولة ٣٣٠ م، صاحب مرسوم ميلانو الشهير.

السيطرة الأجنبية السياسية والثقافية. فكانت قاعدة النساك الشرقيين الهرب من "حكمة الإغريق"، والقطيعة مع مجتمع عصرهم. لكن هذا المثل الأعلى في التوحد، الذي يصلح للرهبان المصريين والفلسطينيين، لم يكن ليصلح لرهبان سورية، حيث وجدت كثافة سكانية كبيرة كما سبق أن ذكرنا. ففي منطقة بمثل هذا الازدحام من السكان، وحيث تنتشر المدن والقرى، ويؤمها الناس من كل حدب وصوب، كان الانعزال مستحيلاً .

فالرهبنة السورية، وقد ساعدتها الميزة الإبداعية للروح السورية، تصورت نمط حياة مسيحية خاصة للتوصل إلى الهرب من العالم، وسط منطقة مأهولة، مع متابعة البقاء فيه، وهذا النمط الحياتي الخاص هو الرهبنة العمودية. وهنا لا بد من ملاحظة أولية، وهي أن رهبنة العصور الأولى لا يمكن فهمها بالطريقة نفسها في جميع أجزاء العالم المسيحية. وإنه لمن الوهم أن نتصور الحياة الرهبانية وكأنها مجموعة متجانسة. فنحن في هذا المجال أمام أعلى درجات الإبداع والنزوة. وسنرى أن الحياة الرهبانية في كل بلد، ولا سيما في مراكز الإشعاع الرهباني الكبيرة مثل مصر وفلسطين وسورية، تظهر بأشكال خاصة بها، بغية التكيف مع البيئة ومع عقلية كل شعب .

وبالنسبة إلى الحالة السورية بشكل خاص أظهرت الرهبنة، منذ بداياتها، ميلاً إلى الشكل النسكي، وهو الأكثر تلاؤماً مع الطبع الخاص للشعب السوري، الذي يتمتع بخيال جامح وسخاء يتجاوز كل الحدود. وسيعيش عدد كبير من المتوحدين في الأرياف السورية دون رئيس ولا قانون حياة، منصرفين إلى تقشفات رهيبة، ويبتكرون أنواعاً جديدة منها، ويقعون دائماً في تلك الخطيئة الصغيرة التي يتعرض لها الرهبان وهي حب التباهي. وهذا ما دفع تيودوريطس القورشي خلال تعرضه للطرق المختلفة التي انتهجها الرهبان السوريون في زمانه إلى القول : " إن عدو البشر المشترك، رغبة منه في أن يقود الجنس البشري إلى هلاكه، قد أوجد طرقاً كثيرة للوقوع في الرذيلة. أما رضيعو التقوى فقد ابتكروا مقابل ذلك سلالم متعددة ومتنوعة للصعود إلى السماء"(9). فلا غرابة إذن أن نرى قيام الظاهرة العمودية في هذا الوسط الجغرافي الذي هو مرتع خصب لكل مبادرة ذات طابع فردي .

ويجب أن لا ننسى الفترة التاريخية التي ظهرت فيها الحركة الرهبانية العمودية، وذلك لنتمكن من إدراك أهمية هذه الظاهرة، التي أسلفنا القول بأنها ولدت في زمن كان يخرج فيه المسيحيون من الدياميس، حيث عانوا من الاضطهاد طوال ثلاثة قرون. لقد كان الدين المسيحي يحتاج للظهور علانية، وفي وضح النهار، وأن يظهر للعالم بمنزلة النور والطريق والحياة. كما كان بحاجة إلى أن يظهر أمام الوثنيين بوسائل لافتة للنظر، تتلاءم مع الطموحات الخفية للروح الشرقية. ألم يكن الرهبان العموديون على أعمدتهم، بحسب تعبير تيودوريطس القورشي" شمعدانات الإيمان؟ "(10) وهذا ما يفسر جزئياً ما لاقته الحركة الرهبانية العمودية من نجاح باهر وسط الجماعات المسيحية الشرقية الشابة.

ب – الردة على الرهبنة العمودية :

بتأثير العامل النفسي يستطيع كل ما هو جديد أن يجذب الناس إليه، وأن يؤثر في أفعالهم وتصرفاتهم. والرهبنة العمودية لم تشذ عن هذه القاعدة. فحسب شهادة تيودوريطس القورشي، كانت الرهبنة العمودية في أعين معاصريه جديدة تماماً "، "وبالحقيقة فإن خوارنة الأساقفة – الارشمندريتات – في بلاد ما بين النهرين، الذين حضروا إلى عند سمعان العمودي[١٣]، يؤكدون أنهم لم يروا قط في أي مكان شخصاً يصعد على عمود " (11) .

بيد أنه وجد في العالم قبل سمعان العمودي محاولات فردية في العمودية. ففي تاريخ روما يذكر اسم مينيوس (Maenius) الذي باع بيته وصعد على عمود ليستقر عليه، ثم قام بترتيبه إذ صنع سقفاً، وألواحاً خشبية بارزة ليوسع سطح العمود، ومن هذا الموقع المشرف اكتسب مع خلفائه حق مشاهدة مبارزات المصارعين في الفوروم "Forum"، أي ميدان المصارعة في روما(12). وقد حاول كتاب آخرون أن يبحثوا عن

---

(١٣) سمعان العمودي : (٣٨٩-٤٥٩م) ولد في مدينة سيس، في شمال سورية، لوالدين مسيحيين صالحين. ثم انخرط في سلك الرهبانية، فأفرط في التقشف حتى طرد من الدير، فعاش في بئر مهجورة، ثم في برج. وأخيراً فكر في الاعتزال على عمود، فقضى عليه ٣٧/سنة حتى توفي. وكانت له شهرة واسعة، وأعمال عجائبية عديدة. وبعد وفاته بنيت حول عموده كاتدرائية كبيرة، دفن أولاً في أنطاكية ثم نقل إلى القسطنطينية.

جـــذور العموديـــة في بقايا طقس وثني، كان يمارس في المدينة السورية هيرابوليس "منبج"[١٤]، تكريماً للإلهة عترجاتيس[١٥] (13). وقد وصلت إلينا حفلات هذا الطقس من خــــلال بحـــث باليونانيـــة بعـــنوان : " الإلهة السورية "[١٦]، وهو بحث منسوب إلى لوقيانوس السميساطي، وهو كاتب من أصل سوري[١٧]. فحسب هذا الكاتب كان خارج معــبد الإلهـــة السورية عمودان بشكل قضيبي (Phallus)، ارتفاع كل منهما ٥٢م ؟. وكـــان أحد الكهنة يصعد كل سنة إلى قمة أحدهما، ويبنـــي لـــه مقعداً، ثم يجلس عليه لمـــدة ســـبعة أيام[١٨]. وكان الجمهور يقدم لـــه الذهب والفضة، فتوضع هذه التقدمات أمامـــه، فـــي حين يقوم كاهن آخر في أسفل العمود بإعلان أسماء أصحاب التقدمات، فيســـارع الكاهن في الأعلى ليصلي من أجل كل واحد منهم. وكان الناس يعتقدون أن

---

(١٤) منـــبج : مديـــنة في شمال سورية على الضفة اليمنى للفرات، تبعد ٢٣/كم شمال شرق حلب. أسمها القديم (منبوج)، وفي العهد السلوقي دعيت (هيرابوليس) نسبة للإلهة هيرا، ففيها كان أكبر وآخر معابد هذه الإلهة. ولا تزال في المدينة حتى اليوم آثار سلوقية ورومانية .

(١٥) عترجاتس : ورد اسمها في ملحمة جلجامش بوصفها أحد الآلهة أثناء خطاب إيا لإنليل (عتر – حاسيس)، وتعـــني باللغة البابلية المتناهي الحكمة أو الحس. راجع : ملحمة جلجامش، طه باقر، ١٠٠. ويمكن أن تقرأ بالآرامية على أن عتر: مكان مقدس (كوة) وحتي : اسم لإحدى الإلهات السوريات القديمات، وهي مقابلة لعشـــتار، راجع : العرب في سورية، دوسو، ١١٨. وفي العهد السلوقي اتخذت الاسم اليوناني (هيرا)، وهي إلهة الزواج والخصب وزوجة زفس .

(١٦) كـــتاب الإلهة السورية : حققه ونشره باللغة الفرنسية ماريو مونيه، وقد ترجمه إلى العربية موسى الخوري، ونشرته دار الأبجدية بدمشق، ضمن سلسلتها أبجدية المعرفة، برقم7 عام 1992 .

(١٧) لوقـــيانوس السميســـاطي : (١٢٠-١٨٠م) ولد في مدينة سميساط في ديار بكر شمالي سورية، على الضفة الـــيمنى لـــلفرات. وهو أحد كبار كتاب وخطباء وفلاسفة وبلاغيي القرن الثاني الميلادي. له آثار من أهمها: مسامرات الأموات، والآلهة السورية .

(١٨) حسب قراءة هذا النص من قبل الأب هوغ فنسن في كتابه كنعان (P. Hugues Vincent , Canaan , P.14) فـــإن الكاهن الوثني كان يصعد من أسبوع إلى أسبوع، إلى أعلى هذه الأعمدة ليتخذ خلال سبعة أيام دور الوسيط مع الآلهـــة. وحسب قراءة ماريو مونيه للنص نفسه في دراسته لكتاب الإلهة السورية (Mario Mounier , La Déesse Syrienne , P. 41) كـــان الكـــاهن يصـــعد مرتين في السنة، ويبقى في كل مرة سبعة أيام، ليتحدث إلى الآلهة. وهذه القراءة هي الأصح برأينا .

الآلهــة تســتمع بشكل أفضل لصلاة رجل يقوم في موضع مرتفع، مصاحباً العصافير والرياح والسحاب .

غيــر أن الهولندي ديلهاي(14) قد برهن على هشاشة هذا التشابه. لذلك نكتفي بأن نســتنتج أنه بقدر سهولة الإشارة إلى وجوه الشبه العامة بين هذين النوعين للعمودية، أي الوثـــني والمســـيحي، فبالقدر نفسه يبدو أمراً وهمياً واهياً تأكيد وجود صلة وصل بينهما (١٩). ثم أن هذا النمط الجديد قد أثار الاعتراضات. فمن المعروف أن القطاعات الكنســية، وطبقات المجتمع اليونانية الكبرى، قد استقبلت الحركة العمودية بتحفظ، بل حــتى بعــداء. إن أرشــمندريتات بلاد مابين النهرين الثلاثة الذين أتوا من أنطاكية، وتوقفــوا أسفل عمود سمعان الكبير، لم يأتوا إليه ليطلبوا بركته بوصفه تائباً، بل كان دافــع حضورهم أن يراقبوا هذا النمط من الحياة، أكثر من أن يوافقوا عليه. وقد قالوا أن هــناك وســائل لإرضاء الله دون الخروج عن الطرق المألوفة، ثم أن هؤلاء الآباء الأفاضــل رفضــوا تلبية دعوة العمودي الكريمة بأن يصعدوا إليه، "فقال أحدهم : إن العمــر قد أضناه، وقال الآخر: إن المرض قد أنهك قواه، واحتج الثالث بإصابته بداء النقرس "(15).

وهــناك أكــثر من ذلك، فعندما سمع رهبان مصر بهذا النوع الجديد من التوبة، أرســلوا إلى ســمعان رســالة حرمان، وذلك لأنه لم يكن بوسعهم أن يتركوا الحركة الرهــبانية الــتي يعود لهم شرف تأسيسها دون رقابة، لكنهم بحسب قول تيودوروس القــارئ (Théodoros) : عــندما اطلعوا بشكل أفضل على فضائل القديس، لم يقووا على مقاومة شخصيته الجذابة، ودخلوا في اتحاد معه (16) .

إن هــذا الحــدث يقودنا بشكل طبيعي إلى النظر إلى السمات البارزة في الرهبنة المصــرية في مقابل الرهبنة السورية. وبوسعنا في البدء أن نصف الرهبانية في وادي الــنيل بأنهــا تميل نحو الحياة التَوحُّديَّة الديرية، بعكس الرهبنة السورية حيث تسيطر

---

(١٩) الصــلة هنا ليست دينية بين الوثنية والمسيحية، بل هي صلة تراث ثقافي واجتماعي متأصل في هذه المنطقة، فهــو من خصوصياتها، فهي تظهره ضمن كل دين بشكل خاص غير متعارض أو متناقض مع ما سبقه أو ما سيليه. للتوسع ارجع إلى : الاستهلال .

الحيـــاة النســكية. ثم إن الرهبان المصريين يخضعون إلى تنظيم متسلسل تراتبي، فهم يســكنون فـــي أديـــرة، ويخضعون لإدارة رئيس، ويكرسون حياتهم للصلاة، وللعمل اليـدوي، باعتباره وسيلة للعيش، وأخيراً يمارسون إماتات(٢٠) يمكن وصفها بالمعتدلة. وهـــم، مـــن باب المنطق السليم، يدحضون التظاهرات المسرحية السورية، التي لـــم يتمكنوا من استيعابها، والتي كانت، بالنسبة إليهم، تحمل في طياتها بذور التباهي .

ج - " في منتصف الطريق بين السماء والأرض " :

تشــكل العموديـــة خطوة نحو الأمام في تاريخ الرهبنة، لأنها جمعت بين مبدأين متناقضـــين فـــي الظاهـــر، وهمـــا حيـــاة الانعزال وواجب التبشير. فقد كان الرهبان العموديـــون، بالـــرغم مـــن عيشهم بعيداً عن العالم "في منتصف الطريق بين السماء والأرض" عـــلى حد قول إيفاغر(Evagre)(17)، على احتكاك مباشر مع مجريات حياة عصرهم، فكانوا رسلاً حقيقيين في عالمهم الريفي، سواء بكلامهم أو بمثلهم .

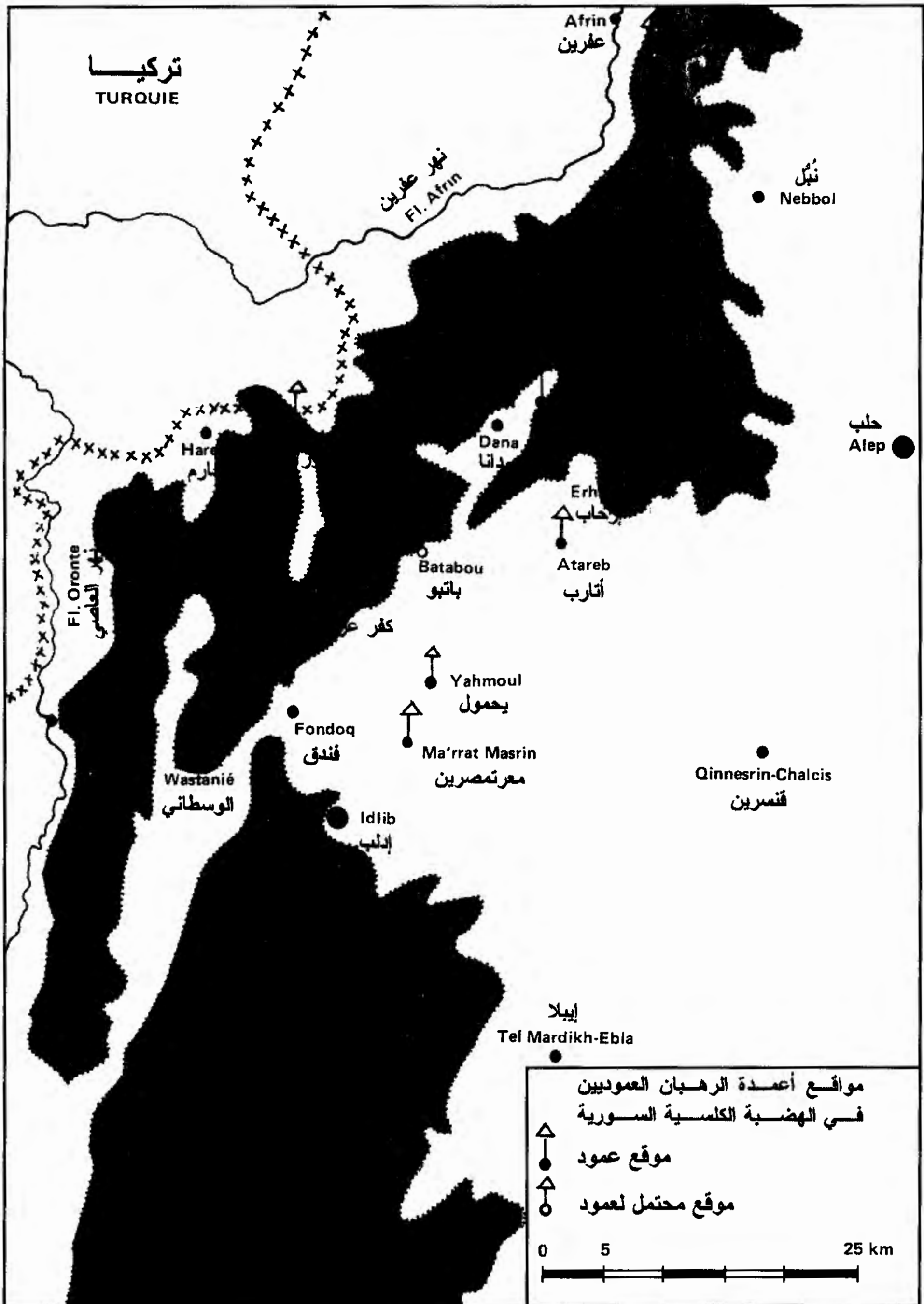
وإن هـــذه المغامرة الروحية، لهؤلاء الرجال "السكارى بالله"، قد أثارت سحراً حقيقياً عند ســكان الريف الذين تسارعوا إلى أقدام العمود متأثرين بهذا النمط من الحياة، الذي يجمع بين القســوة والطرافة. ثم أن غرابة حياتهم التقشفية جعلت لهم شعبية واسعة. وبدا العموديون في عيـــون الجماهيـــر وكأنهم مثال بشري فائق لحب الله وللثبات في الإيمان. وقد اعتبروا بشكل أصـــح بمـــنزلة الشهداء الجدد في هذا المجتمع المسيحي، فقدمت لهم طقوس التكريم والتعبد الـــتي تقـــام للشـــهداء. فما مارسه على سبيل المثال، القديس سمعان الصغير(٢١)من ضـــروب الإماتـــات الرهيـــبة، أثار ذهول معاصريه، ودفع بمعلمه يوحنا العمودي(٢٢) إلى أن يخاطبه قائلاً : "لم يتبق لك إلا أن تأخذ سيفاً وتقتل نفسك" (18).

---

(٢٠) إماتـــات : من إماتة الجسد، لمقاومة نزواته، بتعريض الإنسان نفسه للبرد الشديد أو للجوع أو للعطش، أو لكل ما يعذب الجسد لقهر رغباته حتى تسمو النفس .

(٢١) سمعـــان الصغير : (٥١٧-٥٩٢ م) قديس عمودي يعرف بالبحري، لإشراف عموده على البحر. ولد في أنطاكية وتنسك على عمود قرب مصب العاصي، عند بلدة سلوقية، السويدية الحالية، على جبل سمي الجبل العجيب نسبة لعجائب هذا العمودي. أمضى على عموده ٤٥ عاماً، تعرض خلالها لمصاعب جمة .

(٢٢) يوحـــنا العمودي : معلم ومرشد سمعان الصغير، الذي كان يستمع إلى إرشاداته حتى بعد أن اشتهر ، وعنه أخذ العمودية .



مواقع أعمدة الرهبان العموديين في الهضبة الكلسية السورية

إن داعـــي التبشير والانفتاح على العالم هو الذي يفسر اختيار الرهبان العموديين بشكل دائم مواقع استراتيجية لممارسة هذا النوع من الحياة (الرسم رقم/١). فبجانب جــبل قلعة سمعان، التي كانت مسرح تقشفات سمعان الكبير، كان يمر طريق تجاري ذو حــركة مــرور كبيرة، وهو يصل بين أفاميا[٢٣]، وقورش[٢٤](Cyr-Cyrhus)، وما كـــان للمسافرين إلا أن يلقوا نظرة باتجاه الشرق، لكي يلاحظوا، على بعد عدة أمتار، ظـــل هـــذا الراهب التائب المتعبد المرتفع في الجو. كما أنه كان يعيش راهب عمودي بقـــي اسمه مجهولاً، عند سفح هذا الجبل في تل نيشين (Telanissos)[٢٥]، حيث كان القديس سمعان يقيـــم قبـــل أن يصعد على العمود. ونحن نعرف أن مدينة تل نيشين، المدينة الفندقية المضيافة، كانت مكان حج وتلاق. وعلى حافة هذا الطريق عينه، على بعد ١٠ كم جنوباً، مسافة طيران عصفور، كان ينتصب عمود تل عاده (Teleda)[٢٦]، الذي اتخذه راهب عمودي آخر مسكناً له.

---

(٢٣) أفاميـــا : مدينة بناها سلوقس نيكاتور، ودعاها باسم زوجته الفارسية، تقع عند السفح الغربي لجبل الزاوية، تطل من الشرق على سهل الغاب، وتجاورها قلعة المضيق التي كانت أوكروبول للمدينة . تبعد عن حماة ٦٠ كم باتجاه الشمال الغربي .

(٢٤) قـــورش : بلدة تعرف الآن باسم النبي هوري. تبعد ٧٠ كم شمال غربي حلب، ناحية شران، منطقة عفرين. أسســـت كمستعمرة سلوقية باسم سيروس، على اسم إحدى مدن مقدونيا، وأصبحت مدينة هامة في ذلك العصـــر، واستمرت أهميتها في العصر الروماني، حيث رمم الإمبراطور جوستنيان أسوارها. وإلى تلك الفترة يعود مدرجها الماثل حتى الآن، وقربه الكنيسة "البازليكا"، وقوس الأعمدة الرباعية "التترابيل". كما ازدهرت في العصـــر البيزنطي، وكان من أهم أساقفتها آنذاك تيودوريطس المؤرخ المشهور. فتحها العرب صلحاً عام ٦٣٧م. احتلها الفرنج مدة، ثم حررها نور الدين بن زنكي، وبنى قلعتها وجدد تحصيناتها.

(٢٥) تل نيشين : اسم سرياني يعني تل النساء، حرفت في اليونانية إلى تلانيسوس. ثم أهمل هذا الاسم ودعيت دير سمعـــان، إكراماً للقديس سمعان الذي أقام هناك ثلاث سنوات قبل أن يصعد إلى قمة الجبل الذي يدعى الآن قـــلعة سمعان ويعتلي العمود. وتبعد ٦ كم شمال ناحية دارة عزة منطقة جبل سمعان. فيها بقايا كنائس وأديرة ودور ســـكن وأبراج دفاعية ومعاصر، بعضها بحالة جيدة جداً. وقد بقيت مزدهرة حتى القرن ١٢م، ومعظم آثارها تعود إلى القرنين الخامس والسادس م .

(٢٦) تل عاده : قرية في جبل سمعان، ناحية الدانه منطقة حارم، محافظة إدلب. تقع على السفح الجنوبي لجبل الشيخ بركات،وتـــبعد ٧٠ كم شمال شرق الدانه، ٤٧كم شمال غرب حلب، فيها آثار رومانية وبيزنطية، منها برج ودير وقصر. اسمها القديم (تل عدا) أي تل العَدْو من عدا أي ركض، وربما كان هذا الاسم لأنها مبنية على مرتفع شديد الانحدار .

وعلى هذا الطريق نفسه المعروف بطريق الرهبان العموديين، يوجد عمود قورزاحل[٢٧]، الذي أقام عليه على الأقل، راهبان عموديان في فترتين مختلفتين. فيوحنا أو يوحنان[٢٨]، وهو راهب عمودي من أتارب[٢٩]، نصب عموده فوق تل صغير على بضعة عشر متراً من مفرق الطريق الروماني بين أنطاكية – Antioche [٣٠]، وقنسرين – Chalcis[٣١]، وبين أنطاكية وحلب فأتارب، كانت تشكل فعلاً شبكة مواصلات هامة في سورية الشمالية[19]. أما شمعون "الاسم السرياني لسمعان"، وهو راهب عمودي من إرحاب[٣٢]، واوسطاثيوس، وهو راهب عمودي من

---

(٢٧) قورزاحل : قرية تبعد ٦٥ كم عن حلب غرباً. تقع على سفح جبل يشرف على سهل عفرين، وهذا السفح يميل بشدة نحو السهل، وكأنه يزحل، ومن وضعه هذا أطلق عليه اسم " طور زاحل "، وطور : "آرامية" تعني جبل وقد حرفت إلى قور وكور، فهو الجبل الزاحل، وتسمية زحلة في لبنان للسبب نفسه .

(٢٨) يوحنا : إنه يوحنا الرابع عمودي كورزاحل الذي تولى أسقفية مرعش، ثم تسلم عكاز البطريركية عام ٩١٠ م إلى أن توفي عام ٩٢٢ م .

(٢٩) أتارب : بلدة ومركز ناحية في سهول حلب الغربية، تتبع منطقة جبل سمعان، فيها بقايا تل أثري، عليه قلعة ولها سور. يقال إن الأتارب ذكرت في المدونات الفرعونية باسم يترابو. وفي الآشورية باسم إيليتاربي. أما في العصر الهلنستي فدعيت ليتاربا. وقد أسماها الفرنج عندما احتلوها – سيريب – وقد حررها منهم عماد الدين زنكي.

(٣٠) أنطاكية : من أشهر مدن سورية، في وادي العاصي الأدنى، على سفوح جبل حبيب النجار (سلبيوس) قرب سهل العمق، ويخترقها نهر العاصي. وهي مدينة تاريخية قديمة أسسها سلوقس نيكاتور عام ٣٠٠ ق.م، وكانت عاصمة لدولته. وفي العصر الروماني كانت ثالث مدينة بعد روما والإسكندرية. وقد بشر فيها الرسولان برنابا وبولس، وفيها سمي الرسل لأول مرة مسيحيين. وفي العصر المسيحي أصبحت كرسياً رسولياً، حررها العرب عام ٦٣٨ م، ثم استولى عليها الفرنج لتكون عاصمة لإحدى إماراتهم حتى حررها الظاهر بيبرس.

(٣١) قنسرين : تعني بالسريانية (عش النسور)، تقع في جنوبي هضبة حلب. واسمها الآن بني عيس وتتبع ناحية الزربة، منطقة جبل سمعان. أسسها سلوقس نيكاتور باسم كالسيس، وهي الآن خربة أثرية مازالت بقايا سورها ظاهرة. ازدهرت في العصر الروماني والبيزنطي. وبعد الفتح العربي أصبحت مركزاً هاماً بين الفرات والمتوسط، ومركز جند – "عاصمة" – لشمال سورية ومنطقة الثغور في العهد الأموي سمي جند قنسرين.

(٣٢) إرحاب : قرية في جبل سمعان تتبع ناحية دارة عزة في محافظة حلب. وهي قديمة، فيها بقايا مدافن وأبنية كبيرة وآبار، ولا تزال الأعمدة والتيجان متناثرة في جنباتها .

نقاد[٣٣]، فقد كانا يتمتعان بالمركز عينه تقريباً، وذلك لأن هاتين البلدتين كانتا محطتين لـلقوافل عـلى طريق المرتفعات التي تصل بين سهل قنسرين وسهل عفرين[٣٤](20). وعلى نفس الطريق باتجاه الشمال قليلاً، كانت تقع قرية قيمار[٣٥]، التي اختارها راهب عمـودي آخـر ليعيـش فيها حياة التقشف والتوبة(21). وبالمقابل اكتفى يونان، وهو عمـودي مـن كفر دريان[٣٦]، بأن يتخذ طريقاً داخلياً من الدرجـة الثانية يصل بين مركـزي باقِرْحا[٣٧]، وفندق[٣٨]. غير أن هذا الموقع كان يتميز بالسماح لهذا الراهب العمـودي أن يـراقب بسهولة من مكانه الشبيه بعش اللقالق، والذي لا يبعد إلا بضع مـئات الأمـتار عـن القرية، كل تحركات مواطنيه وأعمالهم الزراعية. أما الراهب

(٣٣) تقاد : من الأصل الآرامي (تقدا) بمعنى الصولجان أو العلم. وهي الآن قرية في جبل سمعان، تبعد ١٠كم عن ناحية دارة عزة بمنطقة جبل سمعان، محافظة حلب. وتقع على الطريق بين حلب وباب الهوى، فيها آثار قديمة، منها كاتدرائية بيزنطية .

(٣٤) سهل عفرين : ونهر عفرين على اسم بلدة عفرين، واسمها آرامي من (عفر) أي الأرض أو التراب كما في العـربية و (ين) للجمع. اسمها اليوناني أوفرينوس. وقد ازدهرت في العصر الهلنستي ولا تزال آثاره باقية فيها، حيث كانت استراحة للقوافل بين حلب والاسكندرونة. وهي اليوم منطقة تتبع لمحافظة حلب، تقع على السفح الجنوبي لجبل الزيدية، وإعمارها الحديث يعود لمطلع القرن العشرين.

(٣٥) قيمار: قرية على أحد مرتفعات جبل سمعان، تبعد ١٥كم جنوب شرق عفرين. تحيط بها ثلاث قمم جبلية، وتطل على وادي عفرين. وهي بلدة قديمة فيها آثار كنائس وقصور وسوق تجاري ومدافن وصهاريج، تعود للعصرين الروماني والبيزنطي.

(٣٦) كفر دريـان : موقع أثري لبلدة قديمة في جبل الزاوية، منطقة حارم، محافظة إدلب. لاتزال أجزاء كبيرة من بيوتها وكنائسها ماثلة حتى الآن، وهي متميزة بواجهاتها، وبالكتابات اليونانية التي تزينها .

(٣٧) باقـرحـا : مدينة أثرية على السفح الشمالي لجبل باريشا، في منطقة حارم، محافظة إدلب. ازدهرت ما بين القـرنين الأول والسـادس الميلاديين. فيها آثار رومانية وبيزنطية عديدة منها : معبد وثني ومعاصر ومنازل وكنائس، والعديد من الأبنية الفخمة المزخرفة بالكتابات اليونانية والسريانية .

(٣٨) فندق : بلدة أثرية صغيرة، كانت على ملتقى طرق رومانية. تقع غرب معرة مصرين ٧ كم، وجنوب كفر نبي ٢ كم، وهي في محافظة إدلب. أعيد إعمارها حديثاً وفيها بضعة بيوت .

العمودي بولس فكان يتمتع في يحمول[٣٩] بإطلالة بانورامية أكثر اتساعاً، إذ كان يطل مـــن مرصده الجوي على سهل قنسرين الذي يمتد تحت قدميه، والذي كان يقطعه من الغرب الطريق المحوري الرئيسي المذكور آنفاً ما بين أفاميا وقورش .

إن هـــذا النمط من الحياة تحت القبة الزرقاء العارية، البعيد كلياً عن وضع البشر الطـــبيعي، وهذا المشهد المثير لناسك منتصب كتمثال على عموده، كل هذا ما كان إلا ليـــلفت انتـــباه الـــناس، فكـــان يتوافد إلى العمود جمهور من الفضوليين، والمشككين، والهـــازئين، والورعيـــن الأتقيـــاء. ففـــي الأريـــاف والمدن، وفي الأسواق التجارية والحوانيت، وفي كل مكان يخلو من أخبار أخرى للحديث، كان الراهب العمودي يشكل موضوعاً للحديث لا ينضب. لقد كان من الصعب إذن أن يتجاهل السكان هذه الظاهرة العموديـــة. ومـــن الطبيعي جداً أن تؤثر هذه الظاهرة العمودية على الحياة الدينية في الشرق المسيحي .

---

(٣٩) يحمول : اسمها القديم حميلا. وهي الآن قرية تقع في هضبة حلب الغربية، تبعد ٧ كم شرق إعزاز. فيها بعض الآثار القديمة تعود للعصر البيزنطي، ويجاورها قرية كفر يحمول .

الفصل الثاني

وصــف العـــمــود

كـــان العمود مسكن الراهب العمودي، والشرط الضروري لحياته النسكية. ولكن فــي البداية علينا أن نشير إلى أن الشرق، في العهد الذهبي للرهبنة العمودية، لم تكن تنقصـــه الأعمـــدة. فقـــد أقيمت الأعمدة في كل مكان تقريباً خلال العصر الكلاسيكي "الإغـــريقي – الروماني". فنراها مرتفعة في الأرياف وفي المدن، متفردة أو متجاورة. وكـــانت القصور والأنصاب التذكارية، وبشكل خاص المعابد، مصدراً لها. وذلك لأنه عندما أصبحت المسيحية دين الدولة، دمرت المعابد الوثنية، وهجرت، أو قامت مكانها الكنائس.

فقـــبل بضع سنوات من صعود القديس سمعان على العمود، حوّل ناسك آخر، هو القديـــس مـــارون[٤٠]، معـــبداً وثـــنياً كان "مسكناً للأبالسة" إلى كنيسة [22]. وقد كتب تيودوريطـــس عن الإمبراطور تيودوسيوس (Théodose)[٤١] الذي منع الوثنية، فقال: "إن المؤمـــن الغيـــور تيودوسيوس استأصل العبادة الوثنية من جذورها، وزجها دون رجعة في عالم النسيان" [23].

---

(٤٠) مـــارون : مـــار مارون، ت ٤١٠ م تنسك في جبل قلعة قالوطا بالقرب من عمود القديس سمعان الكبير. انتشرت فضائله فأصبح منسكه مزاراً. كتب سيرته تيودوريطس القورشي. وتلاميذه هم الرهبان الشهداء ال ٣٥٠ الذين قتلهم المونوفيزيون لإخلاصهم لمجمع خلقدونيه، وإليه ينتسب الموارنة .

(٤١) الإمـــبراطور تيودوســـيوس : الأول (٣٧٩ – ٣٩٥ م)، الذي جعل المسيحية الدين الرسمي للدولة وذلك بمرسوم تسالونيكي عام ٣٨٠م، وهو آخر إمبراطور روماني للدولة الموحدة، إذ اقتسم ابناه الإمبراطورية بعد وفاته، فكان هونوريوس في القسم الغربي وعاصمته روما، وأركاديوس في القسم الشرقي وعاصمته بيزنطية.

فـــلا عجب إذن أن يستخدم الرهبان العموديون هذه الأعمدة، كونها أشياء حيادية، كـــي يســـتقروا عليها. وإن لم ترق لهم، فما عليهم إلا أن يبنوا لأنفسهم عموداً جديداً. فـــبين تلاميذهم والمعجبين بهم كان يوجد دائماً مهندس أو معماري. إن عمود القديس أليـــبيوس (Alypius)[٤٢] مـــثلاً كان يشكل جزءاً من نصب تذكاري مهجور، نقش في أسفله رسم لحيوان نصفه ثور ونصفه أسد. وقد استبدل القديس هذا الرسم بصليب[24]. وكـــان العموديـــون الأكـــثر شهرة يقيمون أعمدتهم بحسب الطلب. فمثلاً كان للقديس سمعان الكبير أربعة أعمدة، بلغ ارتفاعها على التوالي: ستة أذرع، فاثني عشر ذراعاً، فاثنين وعشرين ذراعاً، فستة وثلاثين ذراعاً[25]. أما القديس سمعان الصغير، والقديس لعـــازر فكـــان لكل منهما ثلاثة أعمدة. بينما اكتفى رهبان عموديون أقل شهرة بعمود واحد طوال حياتهم .

وخـــلال جولتـــنا في نواحي جبل سمعان، منطقة الرهبان العموديين، تحققنا من وجـــود عـــدة أعمدة تعود إلى العصر الإغريقي - الروماني، وهي لا تزال قائمة حتى أيامـــنا هـــذه، لكـــن أغلبيـــتها فقدت تاجها، أو أنها قد شوهت بفعل الإنسان، أو بفعل الـــزلازل. ومـــن هـــذه الأعمدة المتبقية نذكر، على سبيل المثال، العمودين المترادفين الموجوديـــن في سرمدا [٤٣]، وهما من القرن الثاني، وما زالا ظاهرين حتى الآن في كل سهل الدانا[٤٤]. وكذلك عمودا ضريح أميلوس ريجينوس (Aemilius Reginus) في قـــاتورة [٤٥]، ويعودان إلى عام ١٩٥م[26]. وهناك عمودان صنع كل منهما من قطعة حجـــر واحـــدة، وهمـــا نصب جنائزي لست الروم من عام ١٥٢م[27]، وعلى بضعة

---

(٤٢) أليبيوس : راهب عمودي في بفلاغونيا، كتب ديلهي سيرة حياته.

(٤٣) ســـرمدا : قـــرية تقع على بعد ٧ كم جنوب غرب الدانا. فيها آثار رومانية وبيزنطية، منها عمود سرمدا المشهور، والقلعة والمقابر القديمة.

(٤٤) الدانا : مركز ناحية، تقع على بعد ٢٥ كم شرق حارم، و٤٠ كم شمال إدلب. وهي بلدة قديمة غنية بآثارها الرومانية والبيزنطية، منها المعابد والمدافن والمعاصر والصهاريج .

(٤٥) قـــاتورة : بلدة قديمة، تقع على بعد ٣كم من دارة عزه في جبل سمعان. فيها عدة آثار. وقد سكنت حديثاً وأقيمت فيها بعض البيوت .

كيلومترات منهما يوجد العمود الأنيق الذي يعلوه تاج في برج باقرحا، وهو من القرن الثاني م، وقد كان جزءاً من واجهة معبد زيوس بوموس (Zeus Bomos)[28]. إن هذه الأعمـــدة وغيرها، التي لا مجال لذكرها هنا، كانت بمنزلة تحريض مستمر للعديد من الرهـــبان العموديين، الذين ازداد عددهم في هذه المنطقة في مراحل مختلفة، فكان لابد من أن تراود أحدهم فكرة استخدام هذه الأعمدة لإقامة منسكه .

آ – قاعدة العمود :

لا يوجـــد وصـــف لعمود الراهب العمودي، فالمراجع في هذا الصدد فقيرة، ولا تخـــلو من ثغرات. ولكن إذا ما جمعنا التفاصيل المبعثرة في سير الرهبان العموديين، وإذا ما استقرأنا ما تبقى من الأعمدة حتى يومنا هذا، واستندنا على فن الأيقونات الذي بـــدأ مـــنذ عهـــد ســـمعان الكبير، فإنه يمكننا أن نعطي وصفاً تقريبياً لعمود الراهب العمودي، ولطريقة حياته على العمود.

فـــي بادئ الأمر لا بد من الإشارة إلى أن الأعمدة التي سنصفها في هذا البحث لم تذكـــر سابقاً، باستثناء أعمدة قلعة سمعان[٤٦]، وكفر دريان. يقول ج.ليروا (G.Leroy) مؤكداً: " لقد ذُكرت بعض أعمدة الرهبان العموديين في النصوص أو الآثار الموجودة فـــي المنطقة الشمالية من سورية، في إرحاب، وكفر يحمول[٤٧]، وتقاد، وقيمار. ولكن كل هذه الأعمدة لم يبق منها أي أثر واضح، نعم ولا أي عمود، باستثناء أجل الأعمدة، ألا وهو عمود أبي الرهبنة العمودية، سمعان القديم " [29] .

يـــتألف كـــل عمـــود منطقياً من ثلاثة أجزاء: **القاعدة، والجذع، والسطح**. وكان لقـــاعدة عمود القديس سمعان قاعدة مؤلفة من درجات منحوتة في الصخر نفسه. وقد

---

(٤٦) قلعة سمعان : هي كنيسة دير سمعان أبي العموديين. وتقع في الجبل الذي سمي باسمه (جبل سمعان) على تل نيشين. وقد اتخذت الكنيسة شكل الصليب وكانت من روائع الفن المسيحي. وفي القرن العاشر م تحولت إلى قلعة دفاعية بعد أن أحيطت بسور له ١٣ برجاً وذلك في عصر الصراع مع الفرنجة .

(٤٧) كفر يحمول : قرية مجاورة لقرية يحمول .

وجدنـــا بيـــن بقايـــا عمود كفر دريان قطعة مستديرة من الحجر، وهي الآن مهشمة، ارتفاعهـــا ٦٠ســـم تقريباً، ومن المحتمل أنها كانت قاعدة العمود، وهي ترتكز مباشرة عـــلى الصــــخر الذي نحت بشكل مربع بارتفاع ٤٠سم. أما قاعدة عمود إرحاب التي حددنـــا معالمها، حسبما نظـــن، عام ١٩٧١م، فهي مؤلفة من قطعة من الحجر قطرها ٩٥سم، وارتفاعها ٧٥سم، وقد أحيط قسمها الأعلى بحافات تسمح بتثبيت جذع العمود على القاعدة، وتجنبه خطر الاهتزاز. وبالمقابل لم نعثر على أي أثر لقاعدة عمود تقاد، ولكنـــنا اكتشـــفنا مكانه، وبشكل أصح، مكان السياج (المندرا). ومندرا كلمة يونانية كـــانت تعني قديماً الحظيرة، أي "حظيرة الحيوانات"، ثم أخذت فيما بعد معنى مجازياً، فهـــي تعـــني في سير حياة الرهبان العموديين نوعاً من الساحات المحاطة بسياج من الحجارة [٤٨]، أو إلى حرم بسيط ينتصب في وسطه العمود. وتعمل المندرا على عزل العمـــود فـــتحميه مـــن إفـــراط المؤمنين بالتكريم[30]. وتشير كلمة مندرا عند الكتاب الكنسيين إلى الدير نفسه، ومن هنا جاءت كلمة أرشمندريت[٤٩].

تتألف مندرا تقاد من جدار مربع ارتفاعه ٦٥سم، وضلعه ٤,١٥م، وهو بمنـــزلة حرم حول العمود. وقد عثرنا على مؤشرات لهذا النوع من السياج الواقي حول أعمدة تـــل عـــدا وتـــل نيشـــين وقور زاحل. أما مندرا تل عدا فهي مغطاة حالياً بأكوام من الحجارة والحصى، وجذع عمود الراهب يتناثر قطعاً على بعد أمتار منها.

وفـــي ســـنة ١٩٧٢ عثرنا على قاعدة عمود قورزاحل، مدفونة بكاملها في الأرض. وبعـــد تنظيف المكان، بمساعدة سكان القرية، توصلنا إلى التعرف على أبعاد هذه القاعدة، وهـــي قطعـــة كبيرة من الحجر بشكل حوض، يبلغ قطرها ١,٧٨م، وعمقها ٥٥سم، مع حـــواف مهيأة لاستقبال الجذع وتثبيته. وقد وجدنا حول القاعدة آثار محتملة لوجود مندرا

---

(٤٨) استعملت كلمة المندرا في سورية حتى عهد قريب بعد أن حرفت إلى منضرا، وكانت تعني سياج الشرفة، ثم استعملت للشرفة نفسها .

(٤٩) إرشمندريت : كلمة يونانية مركبة تعني (رئيس الدير)، ثم أصبحت تعني رتبة كنسية "خور أسقف "، أي المتقدم في الكهنة .

تدل عليها الحجارة الكبيرة المنحوتة بمستوى الأرض والتي تشكل مربعاً. وكان في بعضها آثار ثقوب استخدمت، بلا شك، لتثبيت الحاجز. أما قاعدة عمود أتارب فقد اختفت كلياً منذ أربـــع سنوات. وقد أتاح لنا الحظ أن نرى ونصور آخر أثر من هذا العمود المشهور، ألا وهـــو كومة من الحجارة، أصلها من القاعدة، كانت معدة لبناء جناح من المدرسة الثانوية الـــتي تحـــتل مكان الدير القديم بجانب العمود. وبحسب المعلومات المحلية التي جمعناها، كـــانت قاعدة عمود أتارب تتألف من قطعة حجرية ارتفاعها ١,٢٠م، تستند مباشرة على الصـــخر المســـطح، وكان لها حواف، وحتى تاريخ تدميرها كانت تستخدم نقطة مراقبة لسهول البطيخ والبندورة المجاورة. وعندما سألنا ناطور البطيخ أكد لنا أنه في كل موسم، ولمـــدة أربعين سنة، كان يقيم على هذا الجرن ويسند رأسه إلى حافته ليستريح، مما يدل على أن القاعدة كانت من الاتساع بحيث إنها تحتوي الرجل بسهولة .

وبالنســـبة لعمـــود تل نيشين، فلم نتوصل إلى العثور على آثار قاعدته. ويبدو أن الجذع كان يرتكز مباشرة على الصخر المسطح، الذي لا يزال في حالة جيدة جداً، فقد تمـــت تســـويته بدقة ليستقبل العمود، وبدت فيه الشقوق التي يوضع عليها الملاط كي تؤمـــن ثبات العمود. أما قاعدة عمود قيمار فإنها باقية بحالة ممتازة، وهي كتلة دائرية ضخمة من الحجر، قطرها ٢,٢٠ م، وارتفاعها ١م، ولها حواف، وبقية أجزاء العمود ملقاة على الأرض. وقد اختفـــى تمـــامـــاً عمـــود الراهب العمودي في يحمول، لذلك لا نستطيع أن نقدم أي وصف لأجزائه .

ب – جذع العمود :

يرتفع جذع العمود فوق قاعدته، وكان يرتبط بها عادة بواسطة قضيب من الحديد، تلاحـــظ آثـــاره حتى الآن على أعمدة كفر دريان، وقيمار، وتل عدا، وسمعان الكبير. وكان القضيب الحديدي يؤمن ثبات العمود ويحميه من الأعاصير والزلازل التي كانت كثيراً ما تحدث في الشرق القديم.

وتطلعنا سيرة القديس دانيال العمودي على أن عاصفة عنيفة هزت عمود القديس وكأنهـــا تهـــز شجرة : " فعندما تعصف الريح من الجنوب يميل العمود باتجاه اليسار،

وعـــندما تعصـــف من الشمال ينحني العمود باتجاه اليمين "، ثم يشرح كاتب السيرة، المجهـــول الاســـم، سبب ذلك فيقول: " بما أن العمود لم يكن مثبتاً بشكل جيد، فلم يكن يمسكه سوى القضيب الحديدي المغروز في وسطه ". والإمبراطور ليون (Léon)[٥٠]، الـــذي أمـــر بتشـــييد هـــذا العمود، "استشاط غضباً من المهندس الذي وضع أساسات القاعدة "[31]. كما أن مصير العمودي المجهول الاسم، الذي احتل العمود بعد أن تركه القديس لوقا (St. Luc) بالقرب من بيزنطية[٥١] على شاطئ البحر، لم يكن أوفر حظاً، إذ إن زلـــزال عام ٩٨٦م الذي أوقع ضحايا كثيرة، قلب العمود، وقذف العمودي الذي عليه إلى البحر[32].

يـــتألف جـــذع العمود من قطعة، أومن عدة قطع أسطوانية، يرتبط بعضها ببعض بقضـــبان أو حـــلقات حديديـــة. ولا نزال نلاحظ الآثار التي تركتها هذه الحلقات على أعمدة قيمار وتلعاده، والعمود الذي شاده الإمبراطور ليون للقديس دانيال، اعترافاً منه بصـــلواته الـــتي جعـــلت الله يحـــن عليه بوريث، كان مؤلفاً من قطعتين اسطوانتين مرتبطـــتين بحـــلقات حديديـــة. وبقـــي هذا العمود قائماً حتى القرن العاشر الميلادي، وبحسب مؤلف سيرة القديس لوقا العمودي، كان له شكل برج [33].

ونظـــراً إلى كون العمود، في أغلب الأحيان، هدية من محسن، فإن ارتفاعه يتعلق بسخاء المحسن وشهرة العمودي. فالعمود الرابع والأخير للقديس سمعان الكبير، تألف من ثـــلاث قطع أسطوانية، وذلك إكراماً للثالوث الأقدس[34]، وهذا ما جعل ارتفاعه الإجمالي ٤٠ ذراعاً بحسب كتاب الحياة السريانية، و٣٦ ذراعاً بحسب تيودوريطس القورشي، أي ما بين١٦–١٨ متراً. وهذا الارتفاع هو أقصى ارتفاع طبيعي للعمود. فإذا تجاوز ذلك فإن حيـــاة الناســـك عـــليه ستتعرض لمخاطر جسيمة، وخاصة فيما يتعلق بالتبشير، إذ يحتاج

---

(٥٠) ليون : هو الامبراطور البيزنطي ليون الأول (٤٥٧– ٤٧٤ م)، مؤسس السلالة التراقية.

(٥١) بيـــزنطيه : مدينة يونانية قديمة على البوسفور. أعاد بناءها قسطنطين الكبير، ودعاها القسطنطينية، وجعلها عاصمة الدولة الرومانية ٣٩٥ م. وعاد اسم بيزنطية من جديد ليطلق على الدولة الرومانية الشرقية. لأن هذه الدولة تبنت التراث واللغة اليونانية التي لم تعترف باسم القسطنطينية وظلت تسميها بيزنطة.

لرئتين منيعتين تتغلبان على كل محنة، ليتمكن من إسماع صوته، كما سيكون من الصعب الحصول على سلم له من الطول ما يكفي للوصول إلى سطح العمود.

كـــان العمـــود الأول للقديس دانيال يوازي قامة رجلين [35]. أما عمود كفر دريان، فحسب بقاياه، كان من قطعة أسطوانية واحدة ارتفاعها ٧،٧٠م. أما قاعدته فترتفع ٦٠سم. وارتفـــاع الدرجـــات المنحوتة في الصخر ٤٠ سم، مما يجعل ارتفاعه الإجمالي ٨,٧٠ م. وعمود إرحاب تألف من قطعتين أسطوانيتين على الأقل، ارتفاع كل منهما ٢م، وهما اليوم دعامـــتان لقـــبة مسجد القرية. والقطعة الحجرية التي شكلت قاعدته ارتفاعها ٧٥سم. أما الإحـــدى عشـــرة قطعـــة المتـــبقية حتى اليوم من عمود قيمار فتشكل ارتفاع ١٥,٦٨ م، بالإضـــافة إلى متر واحد هو ارتفاع القاعدة. وبحسب القطع التي عثر عليها من عمود تل نيشـــين، نســـتنتج أن العمـــودي كانت تفصله عن جموع الحجاج الذين يأتون لزيارتـــه مســـافـــة٥,١٠ م. كمـــا يبلغ ارتفاع عمود تلعاده ٤,٤٨ م. وليس بوسعنا أن نحدد ارتفاع أعمدة قورزاحل وأتارب وتقاد ويحمول لأنه لم يبق أي شيء من قطعها الأسطوانية .

لقد كانت أعمدة العموديين تزين أحياناً برسوم مسيحية. فسيرة القديس أليبيوس تذكر وجود صليب منقوش على عموده [36]. وكان عمود القديس لوقا مزيناً بخمسة صلبان من الـــبرونز، أربعـــة منها في زوايا تاج العمود، والصليب الخامس مقابل العمودي[37]. كما وجدنا ثلاثة صلبان على عمود العمودي المجهول الاسم في تل نيشين.

إن الجـــزء الأكـــبر من عمود تلعاده مغطى بآثار دوائر وخطوط، شوهتها أيدي العابـــثين، فهـــل هـــي لأسباب هندسية كما ذكرنا سابقاً ؟ أم أنها كتابة يونانية تصعب قراءتها ؟ ونظن أننا تمكنا من قراءة الكلمة اليونانية (AFIEROMA)، وهي تعني : هبة تعـــبدية، أو شيء مكرس. ولمن يمكن أن يكون هذا العمود قد كرس إلا لذكرى قديس عمودي استمر تكريمه بعد مماته ؟. (اللوحة/6) .

وقـــد قـــام أحد الأتقياء، لكي يخلد اسم القديس دانيال بنقش العبارات التالية على عموده :

" في منتصف الطريق بين الأرض والسماء

ينتصب رجل لا يهاب الرياح

التي تهب من كل الجهات

واسمه دانيال " (38).

لــدى زيارتنا أعمدة العموديين انتابتنا، للوهلة الأولى، الدهشة عينها التي انتابت لاسوس (J.Lassus) بســبب ضــيق قطر هذه الأعمدة (39). فقطر جذع عمود كفر دريان مثلاً يبلغ متراً واحداً. وقطر جذع عمود إرحاب يبلغ ٧٧سم. والقطعة الباقية من عمود القديس سمعان الكبير تشير إلى قطر بقياس ١،٨٠م. أما القطع الأسطوانية لعمود قيمار فأضخمها يبلغ قطره ١,١٨م ، وأصــغرها يبــلغ قطره ٨٢ سم. ويبلغ قطر قطع عمود تل عاده متراً واحداً كحد أقصى، و٧٦ سم كحد أدنى، ومتوسط قطر عمود تل نيشين متر واحد .

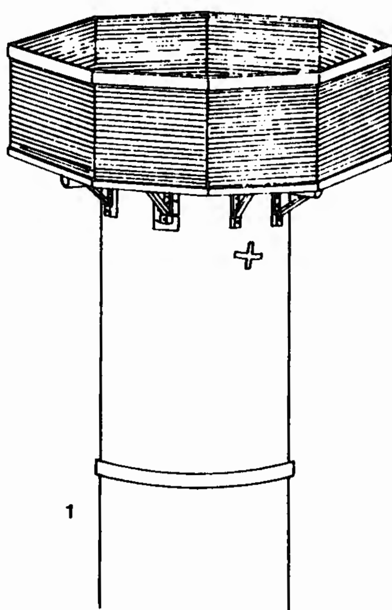
ج - سطح العمود أو تاجه :

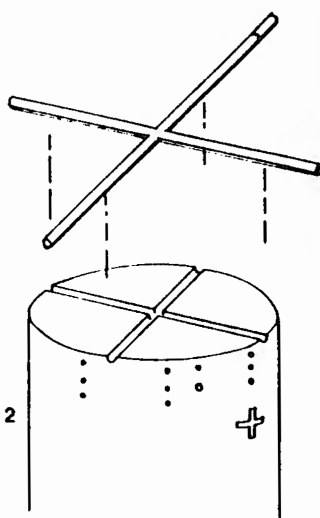
لم يكن العمودي يعيش على جذع العمود نفسه، بل على جزء آخر هو أكثر أهمية يحملــه الجــذع، وعليه كان الناسك يمضي حياته، إنه سطح العمود، أو تاجه أحياناً، والــذي يتسع لوقوف العمودي أو نومه عليه. ولم يتم حتى اليوم العثور على أي سطح أو تــاج، عــلماً أنهما هما اللذان يسمحان لنا أن نتعرف بشكل أفضل على نمط حياة العموديـيــن، وهو ما دفع لاسوس إلى أن ينكر بشكل قطعي وجود تيجان على أعمدة العموديـيــن. وكــان فــوق العمود بلاطة مربعة، ذات جوانب أعلى من قطر العمود، وتحمــل عــلى أطــرافها حاجزاً مرتفعاً، يرى فوقه النصف الأعلى من جسد الناسك. ويمكــن أن يكون قد تم تجهيز هذا الشكل بحفره على قطعة من الحجر، أو بصنعه من الخشــب، وهذا ما يبرر الغياب الكامل للتيجان في الحالات الأربع التي تم فيها العثور عــلى أعمــدة. أما التيجان ذات الشكل الكورنثي، فهي من صنع خيال الرسامين (40). وينبغي أن نشير إلى أنه لم يوجد قط "عمود - أنموذج" يشكل نمطاً لكل العموديين.

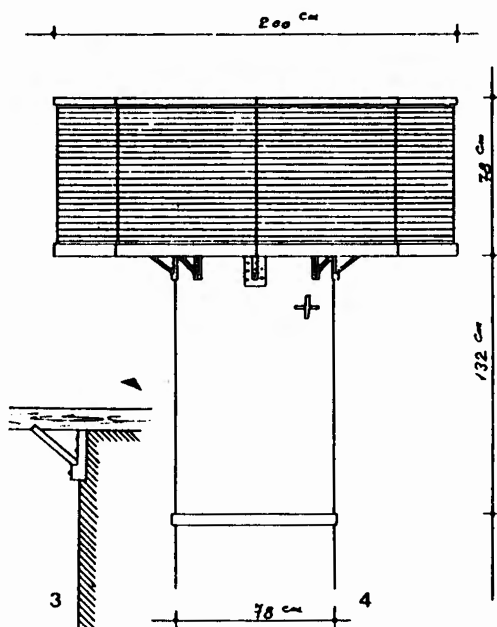
فــنظام العموديــة كان دائماً تعبيراً عن طريقة فردية للحياة النسكية. وإن مزاجية كــبيرة كانت تهيمن على تصور كل واحد منهم. فليس من الفطنة أن نلجأ إلى التعاميم الكــثيرة. وعــلى ســبيل المــثال هناك إشارة صريحة للتاج في سيرة القديس لوقــا

العمودي [41]، بينما كان لعمود القديس دانيال تاج محفور بشكل حوض[42]. ومع ذلك فـــنحن نظن أن أعمدة العموديين، في شمال سورية، كانت بشكل عام دون تيجان، فهذا عمـــود العمـــودي المجهول الاسم في تل نيشين الذي اكتشفناه مؤخراً (٥كانون أول ١٩٧٢) يقـــدم لـــنا حالة نموذجية. فهو يوضح لنا تكوين مسكن العمودي، لأن الجزء الأعـــلى مـــن الجذع مازال محفوظاً بشكل تام تقريباً. وهو قطعة حجرية ارتفاعهـــا ١,٣٢م، وقطـــرها ٧٨ســـم، (انظـــر الرسم /٢/)، وقد وجدناها في كومة من الحجارة المنهارة والمرمية على بعد بضعة أمتار من موضع العمود الأصلي. أما الجزء السفلي فهـــو مكســـور، ونرى حزّين يجتازان بشكل قطري سطح العمود العلوي، ويؤلفان في وســـطه فتحة عمقها ٨ مم، وقطرها ٧مم، وقد أحدثت دون شك ليصب فيها الرصاص المصـــهور، حيـــث تثـــبت فيها قضبان حديدية نافرة تقوم بدورها بدعم السطح الذي يتجاوز قطر العمود ليتمكن العمودي من الإقامة عليه. بالإضافة إلى أنه في كل الجزء العلوي ترى، على مسافات غير منتظمة، ثقوب صغيرة، لا يزال عشرون ثقباً ظاهراً مـــنها "واكثر من نصف العمود مطمور بالتراب". كانت هذه الثقوب تستقبل ركائز من خشب أومن حديد لتسند سطح العمود الناتئ .

ولكن العمود المصمم على هذا الشكل ينقصه الكثير من الجمال، لذلك بإمكاننا أن نفـــترض أن المهندس أو المعماري أراد أن يحجب عن نظر الجمهور هذا الحشد من القضـــبان البارزة والدعائم والمسامير، ألخ..، التي تثبت سطح العمود. فنحن في حقبة مـــن الـــتاريخ تولـــي أهمية كبرى للجماليات في الهندسة. فمن السهل إذن أن نتصور وجود ألواح خشبية بشكل مائل تخفي الجزء العلوي للجذع، وتوحي للناظر من الأسفل بوجـــود تـــاج للعمود. ولا تزال هذه الطريقة متبعة إلى اليوم في تشييد بعض المآذن الريفية في سورية الشمالية.







الرسم(2):

سطح عمود العمودي المجهول من تل نيشين، أعيد ترتيبه حسب قطع العمود

رقم ١+٤ : العمود والمسكن، رقم ٢: حزوز وقضبان حديدية في أعلى العمود لتسند المسكن، رقم ٣: رسم تفصيلي

وقد استنتج فوغيه (M. de Vogue)، بعد حساب الأبعاد الذي أجراه على ما تبقى من عمـود سمعان الكبير، أن معدل مساحة التاج هي ستة أقدام، أي ما يعادل أربعة أمـتار مربعة[43]. وبرأينا فإن مساحة الأمتار الأربعة المربعة تفرض وجود تاج كبير جداً بالنسبة لعمود القديس سمعان. وبالمقابل يعطينا إفاغر (Evagre) قياساً آخر، دون أن يوضح إن كان ما يقوله يتعلق بالعمود الأول لسمعان، أو العمود الأخير، فيقـول: "هـذا الأخيـر - سـمعان - كان أول من صعد على عمود، ولم تكن مساحة سطحه تـتجاوز الذراعين" [44]. ثم أحدث العموديون، شيئاً فشيئاً، تعديلات على سطح العمود لجعله أكثر مناسبة للسكن. فقد ثبت القديس أليبيوس، عمودي بفلاغونيا، بعض الألواح الخشـبية فـوق العمـود ليتمكن من النوم عليه [45]. أما سطح العمود الثالث للقديس سـمعان الصغير فقد كان أكثر راحة، ففيه متسع لاستقبال الزوار، إذ قد استطاع دنيس (Denys) أسـقف سـلوقية الـبيريه (Séleucie de Piérie) أن يدخل ليرسمه كاهناً، بالرغم من المعارضة المتواضعة التي أبداها القديس [46] .

وكـان كـل سطح عمود محاطاً بحاجز يصل حتى خصر العمودي، فيحميه من الـدوار. وقـد كـان هـذا الإجراء الوقائي عاماً، لأننا لم نسمع عن أي حادث سقوط لعمودي من أعلى عموده بسبب خطوة خاطئة .

الفصل الثالث

الحيـــاة علـــى العمـــود

في البداية علينا أن نوضح أنه لا يوجد، على الأقل عند العموديين السوريين، أي نمـــط موحد للحياة، ولا أي نظام لحياتهم على العمود. فقد كان العمودي يتمتع بحرية كبيرة ليرتب حياته، لأن هذا النظام كان، كما أشرنا سابقاً، تعبيراً فردياً عن مظهر من حياة التنسك. فالأحوال الخارجية، كالمناخ والحقبة الزمنية والوسط الاجتماعي، إلخ .. كلها عوامل تغير في نوعية حياة العموديين وتؤثر على اهتماماتهم.

ومـــن الواضـــح أن قســـوة الطقس تجعل أوضاع العيش، ولا سيما على العمود، شـــديدة الصعوبة. فمن شتاء قارس إلى صيف حارق. لذلك كان من الطبيعي أن تكون معـــرفة أحـــوال الطقس إحدى اهتمامات العموديين. فالقديس سمعان الكبير مثلاً كان عرضـــة، وهو على عموده، لكل قسوة الطقس، وليس لـــه من غطاء إلا السماء (47)، وكـــان كـــل ما كان يفعله هو أن يغطي رأسه بقلنسوة مروّسة، كانت في ذلك العصر جـــزءاً من الزي الرهباني. ولكن هذه الحياة المشرعة على الرياح، التي تهب من كل صـــوب، لم تكن غريبة عن رجل كان في شبابه يرعى القطعان على جبال طوروس. وخـــلال زيارتـــنا لجبل قلعة سمعان، وهو مسرح هذه البطولات النسكية، اختبرنا شدة الـــرياح الآتية من طوروس في الشتاء، وكذلك حرارة شمس آب الحارقة التي تضرب الـــرأس وكأنها رصاص مصهور، ولكن ليس بوسع أي شيء أن يفصل شهيد الإيمان عن عموده: لا الجليد ولا الثلج، لا المطر ولا الرعد، ولا الشمس اللاهبة .

إن افـــتراش الســـماء مـــا هو إلا نوع من أنواع التوبة، التي كان يفضلها بعض النســـاك الســـوريين فـــي زمـــن العموديـــن. وكـــان يطلق عليهم اسم (الطوريين-

Hypèthres)، أي الذيـــن يعيشون في الهواء الطلق. ويبدو أن مؤسس هذه الحياة هو القديـــس مـــارون، وهو ناسك عاش على جبل قلعة قالوطا [٥٢]، على بعد١٠كم بخط مســـتقيم عـــن عمود القديس سمعان الكبير. فمعظم حياته كان يحرم نفسه من المأوى ويـــبقى معرضاً، ليل نهار، لتقلبات الفصول[48]. وكان القديس يعقوب، أرفع تلاميذه، يعيش صيفاً وشتاء، معرضاً نفسه لتقلبات الطقس، ولم يكن يلبس ما يستر به جسمه إلا قميصاً من جلد الماعز[49]. ويذكر تيودوريطس القورشي أسماء متوحدين آخرين كانوا يعرضـــون أنفســـهم لقسوة الطقس ليعذبوا جسدهم، بدلاً من أن يلتجئوا تحت خيمة أو داخل كهف .

وبقـــدر مـــا كـــانت حركة العموديين تنتشر، كانت عناصر جديدة تدخل في نمط حياتهم. فلحماية أنفسهم من تقلبات الجو نستطيع أن نتخيل، مثلاً، أنهم أقاموا نوعاً من الحجيـــرة كملجأ على سطح العمود، أو كوخاً من الألواح مغطى بسقف. فعلى العمود الـــثاني للقديس سمعان الصغير، كان يوجد نوع من الخيمة المصنوعة من الجلد، وهي مـــزودة بنافذة صغيرة، لكنه ألغاها بعد موت معلمه يوحنا العمودي، لمزيد من التقشف بحرمان نفسه من النور [50] .

أمـــا القديـــس دانيال فقد بدأ حياته كعمودي دون مأوى، لكي يقتدي بشكل أفضل بـــالقديس سمعان الكبير. غير أن طارئاً مزعجاً غير نمط حياته. ففي أحد أيام الشتاء انـــتزعت العاصـــفة قميصـــه ورمـــته إلى الأرض. ولما كان لا يملك وسيلة للنزول لاســـتعادته، فقد أمضى الليل عارياً، عرضة للثلج، وفي الصباح أتى تلميذه وأنقذه من هذه الكارثة. فعندما وضع السلم، ووجد القديس شبه متجمد، قام بإنعاشه بالماء الساخن والكمـــادات. وبعد هذا الحادث أرغمه الإمبراطور ليون الأول، وهو من المعجبين به والمكـــرمين لـــه، على أن يكون لـــه مأوى، فصنع من وقتها لهذا العمودي مأوى من الحديد على شكل قبة صغيرة [51] .

---

(٥٢) قلعة قالوطا : قلعة أثرية تبعد١٠كم شرق قلعة سمعان، بجانبها قرية قالوطا، وهي تضم آثاراً قديمة. وتسكنها الآن بعض الأسر .

وكذلــك عمودي أفسس[٥٣] الشهير، القديس لعازر الغاليسيوطي[٥٤]، فقد صنع سقفاً له على العمود، ليحميه من الثلج شتاء، ومن الشمس صيفاً. لكنه بعد زمن قليل تخلى عن هــذا " الــترف الغديــم الفائدة " بإزالة السقف بضربة فأس. وقد تساءل أحد الرعاة الذين يمــرون بأغــنامهم قربه، بعد أن شاهد هذه المعاناة الجسدية الخارقة: كيف يستطيع هذا الناسك أن يتحمل قسوة الشتاء ؟ [52] وإذا كان العمودي يستطيع بشكل ما أن يحمي نفسه مــن تقلبات الطقس باتخاذه الحجيرة مأوى، فإنه يبقى معرضاً لعناصر الطبيعة المتعاقبة، كالصــواعق والزلازل مثلاً. فيذكر جان موزكوس (Jean Moschos) اسم عمودي، وهو سمعان قد مات بضربة صاعقة، خلال عاصفة هبت على بعد٤٠ميلاً من مدينة إيجي في كيليكيا [٥٥].

آ – هل المئذنة الإسلامية مستوحاة من عمود الرهبان ؟

إن هــذه الحجيرة – المأوى للعموديين استمرت حتى اليوم في نمط البناء السوري الــريفي. فعــلى بعد بضع مئات من الأمتار من موقع عمود يوحنان في أتارب، توجد مــئذنة جــامع (المخطط ١٨-٢) لها شكل دائري على هيئة العمود، ويعلوها سطح تحميــه شبكة خشبية، ومن على هذا السطح يدعو المؤذن المؤمنين إلى الصلاة خمس مــرات في اليوم، وفق الشرع الإسلامي. وتغطي المئذنة قبة صغيرة من الخشب. وكم كانت دهشتنا كبيرة عندما لاحظنا، خلال زيارتنا لأتارب، التشابه بين عمود العمودي والمــئذنة العموديــة. ومما لاشك فيه أن صورة الشيخ المؤذن، وهو يدعو من المئذنة

---

(٥٣) أفســس : مدينة يونانية قديمة على بحر إيجه. اشتهرت بهيكل أرتميس، إحدى العجائب السبعة للعالم القديم، وهي مدينة أهل الكهف حسب التراث الإسلامي : راجع التنبيه والاشراف، المسعودي، ١١٦.

(٥٤) الغاليسيوطي : نسبة إلى جبل غاليسيوت القريب من إفسس .

(٥٥) كيــليكيا : (cilicie) كانت مقاطعة بيزنطية، جنوب آسية الصغرى على ساحل المتوسط. احتلها العرب لتشــكل منطقة الحدود مع البيزنطيين، لكونها أمام (بوابة كيليكيا). وهي الممر الجبلي الوحيد نحو الداخل، والــتي عــرفها العرب باسم (الدرب). وكانت فيها مدينة طرسوس أشهر مدن الثغور العربية، حيث توفي الخليفة المأمون أثناء غزوه الروم، وفيها أيضاً مدينة أدنة. كانت تعرف قديماً بأرمينيا الصغرى .

المؤمنين إلى الصلاة، لا تختلف عن صورة يوحنان العمودي، وهو يدعو الناس إلى التوبة. إن هذا الأمر يوحي إلينا بطرح فرضية أن استخدام المئذنة كان من وحي الحركة العمودية(٥٦). وهذه الفرضية ليست بلا سند، فهي قد تجد شيئاً من التأكيد في سيرة القديس سمعان الكبير، التي تتكلم عن التوافد المستمر للعرب ولعبيد سارة "Sarrasins" (٥٧) للتجمع تحت عموده. "إن الإسماعيليين(٥٨)، بحسب قول أسقف قورش وهو شاهد عيان للأحداث، يفدون جماعات جماعات، كل دفعة من مئتي أو ثلاثمائة شخص، وأحياناً بالآلاف. وكانوا يستنكرون بصوت عال أخطاء آبائهم، ويحطمون أمام هذه المنارة العظيمة الأوثان التي كانوا يعبدونها، ويشجبون طقوس فينوس(٥٩) الخلاعية، ويتدربون على الأسرار الإلهية"(54). فالتأثير الذي أحدثته الرهبنة، وبشكل خاص الحركة العمودية، على الإسلام في عصوره الأولى، يشكل مسألة تتطلب الأبحاث المعمقة، التي تتجاوز إطار دراستنا. غير أن هناك أمراً أكيداً،

---

(٥٦) راجع مناقشتنا لهذه الفرضية في الاستهلال .

(٥٧) Sarrasin : لقد أطلقت هذه التسمية في الغرب المسيحي خلال القرون الوسطى على المسلمين بشكل عام، وفق رؤيا عنصرية عدائية للشرق المسلم، تعتمد على الرواية التوراتية التي تعتبر عرب شمال الجزيرة من أبناء هاجر زوجة إبراهيم الثانية وأم إسماعيل، والتي كانت جارية لسارة الزوجة الأولى لإبراهيم، التي يدّعي اليهود الانتساب إليها. ويؤكد ذلك المسعودي (التنبيه والإشراف، ١٤٣)، بينما يرجح د. أحمد هبو (تاريخ العرب قبل الإسلام، ٩٣) أن أصل هذه الكلمة يعود إلى اسم قبيلة عربية سكنت سيناء قديماً، ثم عمم في العصور الوسطى ليشمل المسلمين جميعهم. ولكن ما يؤكد رأي المسعودي بأنها نسبة للعرب والمسلمين هو الأمر الذي أصدره نقفور إمبراطور الروم بمنع تسمية العرب ساراقينوس، ويؤكد المسعودي أنهم حتى أيامه (٣٤٥ هـ)، كانوا ما زالوا يطلقون هذا الاسم على العرب والمسلمين .

(٥٨) الإسماعيليون : هم عرب الشمال (المستعربة) نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم. ولكن المقصود هنا إحدى القبائل العربية المتوغلة في قلب سورية. فقد كان الكثير منها في ذلك العصر يتجول في سورية، راجع: (دوسو، العرب في سورية). واسم الإسماعيلين كان يطلقه الروم وسكان سورية على كل القبائل العربية، شمالية كانت أو يمانية .

(٥٩) فينوس : إلهة الحب والجمال عند اليونان، وهي نفسها أفروديت الرومان. وهي عشتار أعظم آلهة الشرق القديم. وكان رمزها كوكب الزهرة. ومن الثابت أن أياً من القبائل العربية لم تعبد فينوس ولا عشتار، بل كان لهم آلهتهم الخاصة الموازية لها، فلِمَ يستنكرون عبادتها ؟، مما يدل على ضعف معرفة تيودوريطس بالعرب ومعتقداتهم.

هـــو أن الـــودِ الذي يكنه النبي محمد (ص) للمسيحية، كان بسبب الحياة القاسية التي عاشـــها الرهبان المسيحيون بشكل عام[٦٠]. فالإشارات إلى الحياة الرهبانية كثيرة في القرآن[٦١]. والرواية التي تتحدث عن الراهب بحيرا [٦٢]، وتنسب إليه التربية الروحية للنـــبي محمـــد (ص)[٦٣]، هـــي إحـــدى أبلغ الإشارات عن تأثير الرهبان المسيحيين الموجوديـــن على حدود سورية على العرب الرحل. ولا غرابة إذن أن يكون لمؤسس الإســـلام محادثـــات مع الرهبان العموديين السوريين، لأنهم حسبما سنذكر لاحقاً كانوا كـــثيرين في سورية في القرن السابع م، بالإضافة إلى أنهم كانوا يقيمون على جوانب

---

(٦٠) إن الـــود الذي يكنه الرسول العربي (ص) للمسيحية لم يكن بأي حال من الأحوال ناتجاً عن الشفقة تجاه عذابـــات الرهبان وتقشفاتهم، فهذا نوع من التعبد اختاروه بأنفسهم. والعلاقة بين المسيحية والإسلام، والود الخاص من قبل الرسول العربي (ص) تقوم على ما هو أعظم من ذلك بكثير، من وجهة نظر الدين الإسلامي الذي يعتبر المسيحية ديناً سماوياً، وأن الإسلام جاء مكملاً له ومتمماً لرسالته .

(٦١) ســـورة المائدة : ٨٢ – ٨٣–٨٤–٨٥–. سورة الفتح : ٢٩. سورة الحديد : ٢٧. سورة آل عمران : ٧. سورة التوبة : ٣١–١١٢. وغيرها كثير .

(٦٢) الـــراهب بحيرا : راهب نسطوري اسمه سرجيوس وفق الرواية السريانية. وبحيرا صفة للمتبحر بالعلم ومنها الحبر والبحر. والألف الأخيرة هي للتعريف، وهو جرجيس من قبيلة عبد القيس وفق رواية ابن اسحق كاتب الســـيرة النـــبوية. وكـــان يقيم في صومعة "دير " في بصرى، لاتزال آثاره قائمة حتى الآن. للتوسع راجع : الموسوعة الإسلامية، مادة بحيرا. والطبقات الكبرى، محمد بن سعد، ١ / ٧٦. وسيرة ابن هشام، قصة بحيرا .

(٦٣) إن نســـبة التربية الروحية للنبي (ص) إلى بحيرا هي دعوة ليست جديدة، وغايتها إثبات أن الدعوة الإسلامية كانت من تعاليم بحيرا التي لقنها للنبي (ص)، أي إنها إحدى المرطقات المسيحية. وإن هذا، إذا صح، يحتاج إلى ملازمـــة طويلة. بينما يؤكد لنا التاريخ أن لقاء بحيرا بالنبي (ص) كان لقاء عابراً ولمرة واحدة أو مرتين على الأكثر، وإن النبي (ص) لم يذهب إلى الشام إلا مرة مع عمه، و لم يكن عندها يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وفيهـــا قابل بحيرا الراهب، ومرة في تجارة لخديجة قبل أن يتزوجها. ومن غير الثابت أنه قابل في هذه السفرة الراهب بحيرا. (راجع : طبقات ابن اسحق. سيرة ابن هشام. تاريخ الطبري) كما أن الدعوة الإسلامية هي دين سماوي جاء متمماً للأديان السماوية التي سبقته، وقد جعل الإيمان بها جزءاً من عقيدته، قال تعالى:(نزل عـــليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان – سورة آل عمران/ ٣) .

طــرق المواصلات بدافع التبشير(٦٤)، وهذا ما يؤكده ف.نو (F. Nau) : "لقد شاهد كــل عرب بلاد ما بين النهرين وسورية المتوحدين والنساك، وقد تناولوا الطعام على أبــواب الأديــرة، وشــهدوا المناقشات الدائرة بين أصحاب الطبيعة الواحدة وأصحاب الطبيعتين في المسيح"(55). كما أن اهتمام الرهبان بإقامة خزانات الماء كان يجعل من أديرتهم مراكز طبيعية لتجمع عرب الصحراء .

لا شك أن رجال الصحراء هؤلاء قد تأثروا بحياة العموديين النسكية، والذين كانوا يشاهدونهم باستمرار جاثمين على أعمدتهم، وعلى سبيل المثال نرى أن ثلاثة عموديين رؤســاء أديــرة وهــم يوناثان وصموئيل ويوحنا، قد ذكرت أسماؤهم بين الجماعات المســيحية العــربية فــي الحيــرة والأنبار(56). ولنر ما يورده انطيوخوس ابن حاكم دمشـــق سابينوس في القرن الخامس م : "كان نعمان (٦٥) أمير العرب يأتي ويضرب خيامه في البادية مقابل دمشق، وبما أن قومه كانوا حينذاك في حالة سلام مع الرومان، كــان يدعونــي لتــناول الطعام معه، فنتحدث بأمور مختلفة. ولما وصل الحديث إلى ســمعان العمودي، قال لي نعمان : أود أن أعرف إن كان ذلك الذي اسمه سمعان هو

---

(٦٤) لو تم هذا الأمر لذكره كتاب السيرة النبوية الذين أتوا على ذكر أدق التفاصيل في حياة الرسول (ص). ثم إن العموديــة في القــرن السابع الميلادي كانت قد فقدت توهجها وبدأت تنحسر. بالإضافة إلى عدم ذكر أي مصــدر عربي للرهبان العموديين. مما يدل على عدم تواجدهم في جنوب الشام التي يطرقها عرب الشمال، بينما نجد عدة أخبار عن الأديرة والصوامع ورهبانها .

(٦٥) نعمان : من معاصرة هذا الشخص لسمعان الكبير نستنتج أنه ليس من أمراء البيت الغساني، الذين جاء أولهم (جفنة بن عمرو) بعد وفاة سمعان بحوالي ٣٠ عام. ومن الإشارات الواردة في النص: " قومه في حالة سلام مع الــرومان "، و" لــولا خــوفي من ملك الفرس "، نستنتج أنه أحد الأمراء اللخميين. والمعاصر الوحيد منهم لســمعان هــو المــنذر بن النعمان (٤١٨ – ٤٦٢). فالنعمان اسم والده، أو أن كنيته أبو النعمان. وهذا الالتــباس وارد بالنسبة لكاتب أعجمي. ولكن الأحداث التاريخية تؤكد من جهة وتنفي من جهة أخرى أن يكون هو. فقد اعتنق المنذر النصرانية بتأثير أمه ماء السماء (ماوية)، وزوجته هند بنت عمرو الكندي. ومن الثابت أيضاً أنه شارك في الحرب ضد البيزنطيين عام ٤٢١م. وإن كانت الرواية صحيحيه، فالأمير نعمان هو المنذر بن النعمان، والحديث قد تم في إحدى سنوات السلم التي كانت تتكرر من وقت لآخر. كما أن سلطة المناذرة كانت تمتد إلى جنوب الشام قبل قيام دولة الغساسنة، مما يمكنهم من التجول فيها .

إنســـان أم إله عندكم. فأجبته: بل هو مجرد عبد لله. فتابع نعمان قائلاً: إنما سألتك هذا لأن اســـمه قـــد ذاع في بلادنا ولاحظنا أن كثيراً من رجالنا يذهبون لرؤيته باستمرار، فنبهـــني شيوخ قبيلتنا إلى خشيتهم من هذه الزيارات المتكررة التي قد تحول قومنا إلى المسيحية، فيسلمون البلاد بعد ذلك إلى الرومان بسبب الدين. لذلك فقد أعلنت مرسوماً أمـــنع فيه كل العرب من زيارة سمعان تحت طائلة الموت لهم ولعائلاتهم. وفي الليلة الـــتالية، وبينما أنا نائم في خيمتي، رأيت رجلاً ذا نظرة جليلة، فاستولى علي الاحترام والرهبة. فأمر خمسة شبان من أتباعه بالقبض علي وجلـــدي. ثم هددني بسيف قائلاً: " احـــذر مـــن أن تمنع من الآن وصاعداً أياً من بني قومك من زيارة سمعان، وإذا ما عدت إلى ارتكاب هذا الخطأ فسأقطعك إرباً إرباً بهذا السيف". وتابع نعمان قائلاً: "لقد ألغيـــت مرســـومي، وأصدرت مرسوماً مغايراً أسمح فيه باعتناق المسيحية لمن يشاء، ولولا خوفي من ملك الفرس لذهبت أنا بنفسي لرؤية سمعان، ولأصبحت مسيحياً"[57].

ثـــم إنـــه يمكنـــنا أن نتســـاءل أثمـــة في القرآن الكريم إشارة إلى حياة الرهبان العموديـــين؟ وذلك عندما نقرأ مثلاً الآية ١١٣من سورة آل عمران ﴿ **ليسوا سواء من أهـــل الكـــتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾. أما الآية ٢٩من ســـورة الفـــتح فهي تشير إلى بعض المسيحيين الذين ترك غبار السجود المتكرر على الأرض علامـــة عـــلى جـــباههم[٦٦]. وما قيام الليل وتكرار السجود إلا من العبادات المميزة للرهبان العموديين. ولهذا فلا مجال للشك في أن بعضاً من العبادات المسيحية قد أصبحت بشكل ما إسلامية في سورية، وبعض التقاليد المحلية فيها قد تكون صمدت أكثر من أي مكان آخر أمام التغييرات السياسية والدينية.

---

(٦٦) إن نـــص الآية يدل على غير المعنى الذي استخدمت فيه، قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثـــلهم في الـــتوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيـــظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً – سورة الفتح/٢٩ ﴾ وهذه إشارة إلى النبي محمد (ص) وصحابته كما تبين الآية، وليست إشارة إلى بعض المسيحيين .

ولكـــن خوفـــاً من أن نضيع في حقل الفرضيات نكتفي بذكر ما أورده الغـــزالي، أحـــد كـــبار الفقهـــاء المســـلمين في القرن الحادي عشـــر الميلادي ، فهو يتحدث في سيرته الذاتية عن تجاربه الصوفية قائلاً: " ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين، لا شـــغل لـــي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخـــلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من كتب الصوفية. فكنت أعـــتكف مـــدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي "(58)، ألا ترانا أمام عمودي مسلم لا ينقصه إلا العمود ؟ (٦٧).

كما تجدر ملاحظة أنه قبل ثلاثة قرون، في دمشق عينها، قد اعتزل ناسك مسيحي - أليس بوسعنا أن نقول : عمودي ؟ - داخل مئذنة الجامع الكبير "المضلعة"، ويروي لـــنا المؤرخ يحيى بن يحيى الحادثة فيقول : " لما هم الوليد بن عبد الملك بهدم كنيسة يوحـــنا ليـــزيدها فـــي الجـــامع، دخل الكنيسة، ثم صعد المنارة المضلعة والمعروفة بالســـاعات، وفيها راهب يأوي في صومعة لـــه، وعندما أمره الخليفة بالنزول، أكثر الراهب من الكلام، فأمسكه الوليد من قذاله ولم يتركه حتى أنزله من المنارة" (59)(٦٨).

---

(٦٧) الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد بن محمد (٤٢١-٤٩٣ هـــ / ١٠٣٠-١١٠٠م) لقب بحجة الإسلام. درّس في المدرسة النظامية في بغداد. مر بمرحلة الشك التي قادته إلى الصوفية، فتزهد وساح في معظم عواصم العالم الإسلامي، ثم عاد إلى بلده طوس ليتوفى فيها. له العديد من الكتب منها: تهافت الفلاسفة، إحياء علوم الدين، المنقذ من الضلال، رسالة أيها الولد. وهو فيلسوف وصوفي ومصلح اجتماعي وديني ومفكر سياسي، ومن أبرع الأئمة في علم الكلام. راجع نص الغزالي في كتابه: (المنقذ من الضلال، ١٢٩) .

(٦٨) هذا النص فيه الكثير من الاضطراب، وقد نقله المؤلف عن كتاب : (نزهة الأنام في محاسن الشام، لأبي البقاء تقي الدين أبو بكر بن عبد الله البدري). كما أورد د. عفيف بهنسي جزء من هذا النص في كتابه : (الجامع الأموي، ٥٥). والبدري، صاحب النص، كاتب متأخر ، ت (٨٩٤هـــ ١٤٨٩م)، وهو أديب ظريف أكثر منه مؤرخ. كما أنه نقل النص عبر عدة روايات، قال : " أنبأنا أبو محمد الأكناني عن يحيى بن يحيى قال: لما هم الوليد..". وفوق كل ذلك يأتي تداخل عجيب في الأسماء، فلا يوجـــد للجـــامع الأمـــوي مئذنة اسمها "المضلعة"، فهناك مئذنة العروس أو الشمالية، وهي مربعة. ومئذنة عيسى أو الشرقية، وهي ذات قاعدة مربعة. أما ما يصح وصفه بالمئذنة المضلعة فهي المئذنة الغربية، ولكنها ذات بناء متأخر يرقى إلى زمن السلطان المملوكي قايتباي. أما وصف المئذنة بـــ " ذات الأصابع"، فهذا شيء لم يعرف عن مآذن الجامع الأموي. وكذلك وصف المئذنة بأنها " المعروفة بالساعات "، فالمعروف هو باب الساعات وليس مئذنة الساعات. علماً أنه لم يذكر هذه الرواية، من مؤرخي الشام، سوى البدري. كل ذلك يجعلنا نميل لاعتبار هذه الحادثة من الروايات المنحولة. وحـــول الجامع الأموي راجع الكتب التالية : (تاريخ مسجد دمشق، صلاح الدين المنجد والجامع الأموي. علي الطنطاوي. وفسيفساء الجامع الأموي. عبد اللطيف قزيها. وحريق الجامع الأموي. عبد القادر بدران) .

ب - حياة الصلاة على العمود :

كيف كان الراهب العمودي يقضي وقته ؟

لســـنا في حاجة إلى الكثير من البحث لنستخلص أن حياة العمودي هي سلسلة من الأعمال المتشابهة، لا يقطعها إلا وصول الحجاج أو الزوار. وكانت الأيام على العمود تــتوالى وتتشابه. فضيق المكان كان يجعل من المستحيل أن تتنوع الأعمال والمواقف. فــلقد كـــان أمام العمودي ثلاثة خيارات : البقاء واقفاً أو مقرفصاً أو متمدداً. ولم يكن يونان[٦٩] في بطن الحوت أكثر تقييداً من العمودي على عموده .

كانت الصلاة أولى اهتمامات الراهب العمودي بالطبع، لأنه ابتعد عن الناس رغبة فـــي الـــتقرب إلى الله. فالصـــلاة كانت عمل الرهبان الرئيسي. وقد اعتاد المتوحدون الســـوريون بشـــكل عـــام أن يقســـموا النهار إلى أربعة أجزاء، حيث ينتهي كل جزء بصـــلوات الســـاعة الثالـــثة والسادســـة والتاسعة والغروب. وكانوا يصلون أيضاً في منتصف الليل، وينهضون من جديد قبل شروق الشمس لصلوات الصباح .

وقـــد كـــان الكتاب المقدس الغذاء الروحي للرهبان الشرقيين. وكانت صيغ صلاة الفرض الليتورجية تؤلف جوهر صلاتهم. ومن الممارسات الثابتة لبعضهم تلاوة كتاب المزامير يومياً. فكان القديس سمعان الصغير يمضي الليالي وهو يتلو المزامير، فيتلو أحيانـــاً خمســـين مـــزموراً وأحيانـــاً أربعة وعشرين، وفي بعض الأحيان كل كتاب المزاميـــر[60]. ومـــع أن هذا الأمر يذكره كاتب سيرة القديس، ولكنه أمر مفروغ منه، فـــالعمودي كان يتلو كتاب المزامير غيباً. وما كان المصباح إلا أداة ترف لناسك من مستوى سمعان.

---

(٦٩) يونان : هو النبي يونس أو ذو النون أو صاحب الحوت في التراث العربي الإسلامي. فقد بلعه الحوت ولبث في جوفـــه حيناً قبل أن يلفظه إلى ساحل البحر. ورد ذكره في الآيات القرآنية الكريمة : يونس /٩٨. النساء/ ١٦٣. الأنعام /٨٦. الأنبياء /٨٧. للتوسع راجع قصة النبي يونس في : قصص القرآن وفي قصص الأنبياء .

وقــد كتب تيودوريطس القورشي عن مار رومانوس[٧٠]. وهو متوحد في الجبال القريــبة من أنطاكية ما يلي: "لم يستعمل النار قط، ولم يستخدم شمعة البتَّة ". ويروي الكاتب نفسه عن معاصره مار زينــون، فيقــول: " لم يكن لـــه لا سرير ولا مصباح ولا بيت ولا قدر ولا خزانة ولا كتاب" (61).

أما كاتب سيرة حياة القديس سمعان الصغير فقد حفظ لنا برنامج حياته: "كان ينصرف إلى الصـــلاة طـــوال النهار، حتى صلاة الساعة التاسعة، وبعدها كان يتابع صلاة فرض الـــبخور مـــع صـــلاة أخرى، وعند غروب الشمس يبدأ بصلاة تستمر طوال الليل حتى الفجـــر.. ثم ينام بعد ذلك قليلاً بقدر ما يلبي بالكاد منتهى الضرورة لجسمه " (62). نلاحظ في هذه الفقرة الإشارة إلى عنصر هام في صلاة الراهب العمودي هو: (المبخرة). فنراها فـــي الأنصاب الأثرية بأشكال مختلفة، وخاصة في رسم سفلي من قصر أبو سمرة [٧١]، وآخـــر في حماة، حيث نرى حارس العمود على سلم مستنداً إلى العمود، وهو يهز مبخرة لكي يناولها إلى العمودي بكل تأكيد . (الرسم ٣١ و ٣٢)

أمـــا القديـــس ســـمعان الكبير " فإنه يمضي طول الليل والنهار في الصلاة حتى الســـاعة التاســـعة، ثم يعظ ويستقبل الزوار، ويشفي المرضى، ويحل الخلافات. وبعد غـــروب الشـــمس، يعـــود من جديد ليناجي الله " (63). وإنه من الخطأ أن نتصور أن العمودييـــن ينصـــرفون كـــلياً إلى صلاة غير منقطعة، طوال ساعات الليل. فقد كانوا يكرســـون جزءاً من الليل للراحة الجسدية، التي ليس بوسع أحد أن يتخلى عنها. غير أنه فيما عدا حالات المرض كانت مدة النوم هذه تتعلق بدرجة الإماتة التي يرغب فيها كل واحد منهم .

---

(٧٠) مـــار : كلمة سريانية من (مور ـ موريو) وتعني الله، الرب، السيد، المولى، وقد أطلقت على القديسين، فيقال : مار رومانوس أي القديس رومانوس .

(٧١) قصـــر أبو سمرة : قرية تبعد ٢٥كم شمال شرق صوران، وتبعد ٧٠كم شمال شرق حماة. فيها خرائب قصر بيزنطي، وبئر وأعمدة وآثار مدرج. كانت سابقاً تدعى البرج الشرقي، ثم أخذت اسمها الحالي نسبة إلى واحد من شيوخ العشيرة التي سكنتها .

كـــان العمـــودي يأخذ قسطه من الراحة سواء باستناده على الحاجز، أو بتمدده على سـطح العمـــود، إذا ما كانت مساحته تسمح بذلك. أما النوم وقوفاً، فكان يشكل باستمرار شـذوذاً عــن القــاعدة. فالعادة في الشرق توجب على الرهبان عدم النوم وهم متمددون بشـكل تام، بل وهم جالسون على الأرض، مسندين خواصرهم إلى الحائط. كما يجب ألا يخـلعوا ثيـابهم، وألا يحلوا أحزمتهم للنوم. وفي سيرة القديس لعازار العمودي نجد ذكراً لعنصــر هـــام هـــو: مقعد يستخدمه القديس، ليأخذ قسطاً من الراحة في أثناء الليل[64]. فـــالعمودي كـــان يقضي نهاره واقفاً ما لم يكن هناك مانع قاهر. والقديس سمعان الكبير كـــان يقف على رجل واحدة طوال السنة[65] دون أن يقوم بخطوة واحدة. إن البقاء وقوفاً دون حــراك، طوال ساعات وساعات، ودون كلام، بل دون أن يرفع نظره، هو نوع من الإماتات المفضلة لدى بعض النساك السوريين، الذين يُسمّون " الوقّافين " [66].

إن تيودوريطـــس القورشـــي، الذي كان عنده الإلمام الكبير بالحياة الرهبانية في عصـــره - القـــرن الخـــامس الميلادي - وذلك لأنه كان يقضي السنوات العديدة في الأديرة السورية، قبل سيامته الأسقفية وبعدها، كان يقسم الوقّافين إلى قسمين: "البعض يبقون واقفين باستمرار، والبعض الآخر يقفون جزءاً من اليوم "[67]. ونحن نفترض عـــلى الأقل أن الصنف الأول من الوقّافين كانوا يعيشون حبيسين ضمن مكان ضيق: غرفة، برج، جحر، قبر فارغ، لكي يستطيعوا ممارسة زهدهم بشكل طبيعي.

بيد أن الرهبان العموديين كانوا يسجدون في أثناء الصلاة. ففي الشرق القديم كان الســـجود والـــركوع المـــرافق للصـــلاة من أهم شروط قبولها[68]. وقد ضرب بعض المـــتوحدين السوريين أرقاماً قياسية في هذا النوع من العبادة. ومثالهم في ذلك الراهب الذي ترك بسجداته المتكررة أثراً عمقه أكثر من أربع أصابع على اللوح الخشبي الذي كان يسند عليه ركبتيه ومرفقيه[69]. يروي أسقف قورش بشيء من الطرافة، أنه خلال زيارة قام بها إلى القديس سمعان الكبير، قام أحد مرافقيه بِعَدّ/١٢٤٤سجدة قام بها العمودي، ثم تعب من العد، فالعمودي لا يبارى في عباداته. ثم يتابع الأسقف مضيفاً : " فـــي كـــل مرة يركع، يحني جبينه حتى يكاد يلامس قدميه.. وبما أن بطنه لا يستقبل الطعام إلا مرة في الأسبوع بكمية زهيدة، فمن السهل عليه أن ينحني بهذا الشكل "[70].

ج - حياة التبشير والرسالة :

إنـــه لمــن الخطأ الاعتقاد أن الراهب العمودي، بتكريس ذاته لعموده، ينقطع عن الـــناس ويودعهـــم. فالحيـــاة التي اعتنقها لا تتعارض مع التبشير وتأدية الرسالة بين الـــناس. كمـــا كـــان لـــلراهب العمودي تلاميذ. فهو يرشد الضمائر، ويسدي النصائح والمواعـــظ، ويخطب في الحجاج. فالقديس سمعان الكبير مثلاً: " لم يكن يهمل شؤون الكنيسة، وكان في الوقت نفسه يقاوم كفر الوثنيين وتصلب اليهود والهراطقة.. وينصح أيضـــاً أساقفة الكنيسة بالاهتمام برعاياهم "، ويضيف كاتب سيرته قائلاً : " كان يعظ مرتين في اليوم" [71] .

وممـــا تجدر ملاحظته أن العموديين، لاسيما الأكثر شهرة منهم، لم يكن وعظهم في صـــحراء مقفرة البتة. فأعمدتهم كانت محاطة بجموع الأتقياء، والمرضى، والفضوليين. فعمـــود القديـــس ســـمعان الكـــبير كـــان محاطاً ليل نهار، بجموع كانت، بحسب شهادة تيودوريطـــس، أشـــبه بنهر بشري، تصب فيه عدة روافد من البشر، تأتيه من كل حدب وصـــوب[72]. وكان للراهب العمودي الذي أقام قرب بيروت في القرن السادس الميلادي، جمهور أكثر نخبوية. فقد كان طلاب الحقوق في جامعة بيروت يقومون برحلة إلى العمود فـــي أيام العطل، تجذبهم جدة المشهد، وكان الراهب ينصح قضاة المستقبل ويعظهم. ومن قراءة وثائق ذلك العصر ندرك وجود أسلوب تأنيب الزوار[73].

ومـــن قمـــة عموده كان العمودي يمارس كل أعمال الإحسان المتوافقة مع نمط حياته، ففـــي أحـــد أيـــام الشـــتاء أعطى القديس أليبيوس قميصه لفقير طلبه منه، وبقي عرياناً وهو يرتجف من البرد، إلى أن لاحظ ذلك محسن كريم فسارع إلى مساعدته [74].

د - أوقات الفراغ لدى الرهبان العموديين :

لـــم يكـــن العموديون يقضون طوال حياتهم في الصلاة وفي التبشير. فالبعض منهم انصرف إلى نشاطات أخرى متنوعة. فالراهب العمودي يوحنّان (Yohannan) الأتاربي هـــو مؤلف كتاب حساب أعياد السنوات[75] في مطلع القرن الثامن الميلادي. وكتب أيضاً بيـــن سنوات٧٢٦-٧٣٧ ميلادية رسالة من ثماني صفحات إلى دانبيل (Daniel)، وهو

كاهن قبيلة تاوايو (Tawayo) العربية[٧٢] التي كانت تضرب خيامها غربي الفرات، وفسر فيها الآية التوراتية "لن يزول صولجان من يهوذا". { تكوين، ٤٩/١٠} (76). كما لم تمنعه حياتـــه عـــلى عمـــود عـــال من أن تكون بينه وبين يعقوب الرهاوي (٦٤٠-٧٠٨ م) مراسلات متبادلة. فقد أرسل له هذا الأخير ست عشرة رسالة يفسر فيها المقاطع الغامضة الـــتي كان يصادفها العمودي في دراساته لتفسير الكتاب المقدس والليتورجيا ولعلم الآباء. وكـــتب لـــه جورج أسقف العرب عام ٧١٤م رسالة يجيبه فيها على ثمانية أسئلة طرحها العمـــودي بخصوص تاريخ الأحداث وعلم الفلك (77)، حتى نكاد نستنتج أن مرصداً فلكياً كان قد أقيم على قمة العمود .

وهـــناك ســـجل تـــاريخي مكتوب بالسريانية، وينسب إلى يوشع (Josué)، يذكر حوالـــي عـــام ٥١٥ م الصـــدامات الأولى بين الفرس والبيزنطيين والعرب (78). أما جـــبرائيل (Gabriel) عمـــودي قرمان[٧٣] في القرن الثامن الميلادي، فكان يميل إلى الدقة، ولقد ترك لنا ملاحظات على النصوص التاريخية التي كانت تقع تحت يده (79). وبالقـــرب من أورشليم كان يعيش، في القرن العاشر الميلادي، عمودي يقضي أوقات فـــراغه فـــي نقل الكتب الليتورجية(80). وثمة عمودي، كاتب آخر، وهو صموئيل بن سرياكوس من القرن التالي، وكان يسكن في نيكيون، غير بعيد عن صحراء سيتي في مصر، قد ترك مخطوطاً كتبه بخط يده (81).

ولقـــد كـــتب عموديـــون آخرون رسائل لشخصيات رفيعة المستوى، وهذا ما تقوله الوثـــائق، وخاصـــة عن القديس سمعان الصغير، والقديس لوقا. وقد وجه القديس سمعان الكـــبير رســـائل إلى الإمـــبراطور ليـــون، وإلى الأب يعقوب خوري كفر رشيما، وإلى

(٧٢) تـــاوايو : هـــي قبيلة طيء العربية التي كانت أقسام كبيرة منها تسكن أطراف قنسرين، وقد نزلوا بها قبل الإسلام، على أثر الحروب التي جرت بينهم وفرقتهم. حتى أطلق على تلك المنطقة اسم حاضر طيء . للتوسع راجع : فتوح البلدان، البلاذري، ١٥١.

(٧٣) – قـــرمان : أوقرمان قاش. قرية في طرف سهل العمق الشمالي، تبعد ١١كم شرق قضاء قرق خان في لواء الإسكندرونة .

الـــبطريرك يوحنا الأنطاكي[82]. غير أن هذه الرسائل تنقصها الصحة في أغلب الأحيان. فسمعان الكبير كان أمياً، ولكن يمكن أن يكون قد أملى الرسائل من على عموده.

والعمـــودي الســـوري تومـــا التلي المتوفى عام ٦٩٩م، وسميه ومواطنه توما بن شـــامش فـــي القـــرن التاسع الميلادي، وشخص باسم توما أيضاً يلقب بالأعرج، وهو عمودي من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، هؤلاء الثلاثة ألفوا عدة (حوسويو)[٧٤]، أي صلوات استغفارية، لتتلى في أثناء الاحتفال بالقداس .

وكان توما بن شامش يتبادل الرسائل مع شخصيات متنوعة من السلطة الكنسية اليعقوبية[٧٥] في عصره، وهو الذي ألف رسالة عن الخلق، وقد كتبها نحو سنة ٨٣٧ م [83].

وهناك أكثر من ذلك، فتيودور الإستودي، المتوفى عام ٨٢٦ م، في رسالة وجهها إلى العمـــودي ثيودول السيونيطي[٧٦]، يستنكر الصور التي كان هذا الأخير يرسمها، لأنها تتعارض مع التقاليد الكنسية. ويبدو أن العمودي كان يستخدم ذوقه الفني في رسم ملائكـــة طاعـــنين في السن، وممددين على الصلبان[84]، ولا ندري أرسم هذه الصور قبل أن يصبح عمودياً أم بعد ذلك ؟ لكن مضمون الرسالة يجعلنا ندرك أن ثيودول تابع وهـــو عـــلى عمـــوده نشر أفكاره الغريبة في مجال الرسم الديني، وها نحن إذن أمام عمـــودي ــ رسام، غير متقيد بالتقاليد، كان يمضي وقته والريشة في يده. إنها لطريقة مرهقة لتمضية الوقت .

---

(٧٤) حوسويو : كلمة سريانية تعني الغفران أو صلاة الغفران .

(٧٥) الكنيسة اليعقوبية : نسبة إلى يعقوب البرادعي، منظم الكنيسة السريانية الأرثوذكسية وهذه التسمية الأخيرة هي الأفضل .

(٧٦) ثيـــودول السيونيطي : كان حاكماً للقسطنطينية فاستقال وترهب، ثم أقام على عمود قضى عليه ٤٨ سنة حـــتى وفاتـــه. والسيونيطي نسبة إلى جبل سيغون الذي حرِّفت تسميته إلى صهيون. وقد أسماه الفرنجة، أثناء غزوهم للساحل السوري،جبل سون. أما العرب فقد أطلقوا عليه اسم جبل صهوة. وعلى هذا الجبل تربض قلعة صلاح الدين، التي تبعد حوالي ٢٣كم شرق اللاذقية و٥كم شرق الحفة.

هـ - شخصية مهملة (حارس العمود) :

غالباً ما تأتي سير حياة العموديين على ذكر حارس العمود، الذي كان راهباً مبتدئاً، أو شماساً إنجيلياً، أو تلميذاً، أو كل هؤلاء معاً. وكان عمله أن يسهر حارساً عند أسفل العمود. فالعادة عند الرهبان الشرقيين تقضي بأن يوضع راهب مبتدئ في خدمة راهب أكبر سناً، ليدربه على الحياة الرهبانية. أما مهمة الحارس فهي أن يوفر للناسك الحاجيات المتواضعة الضرورية لحياته، وأن يسكِت الجماهير عندما يوجه لهم العمودي الحديث، وأن يمنع المتحمسين من هؤلاء الأتقياء من أخذ قطع من العمود بوصفها ذخائر، مما يسبب خطراً كبيراً على حياة معلمه. ولتجنب هذه التشويهات التُقَوِيّة، كان العمود يحمى بوساطة حاجز، أو بالأحرى بوساطة السياج (المندرا)، الذي سبق أن تكلمنا عنه .

لم يكن من الترف الحصول على حارس. فعندما صرف القديس لعازر الغاليسيوطي حارسه ليحظى بمزيد من الخلوة، حدث ما لم يكن بالحسبان. فقد أراق جرة الماء التي يحضرها له راهب، مرة في الأسبوع، وكاد يموت عطشاً، فأدرك عندها ضرورة وجود حارس عند أسفل العمود [85]. وفي أسفل عمود القديس أليبيوس، كانت والدته قد أحضرت خيمة وأقامت فيها، لتهتم بحاجيات ابنها. وغالباً ما كانت تؤنبه على التقشفات القاسية، وذلك بدافع من حنانها الأمومي المفرط. لكن القديس في كل مرة كان يفهمها بأنه يتألم في سبيل المسيح .

أما حارس عمود القديس دانيال، فلقد " ابتنى له كوخاً من الخيزران وسكن فيه بالقرب من القديس ومقابل العمود " [87]. وحارس عمود كفر دريان ابتنى له بيتاً من الحجر عند مدخل السياج (المندرا) حيث يراقب دخول الزوار وخروجهم. وقد زال البيت منذ بضع سنوات فقط، واستخدمت حجارته من جديد، كما كان مصير غالبية الآثار القديمة. وقد حفظ لنا التاريخ اسم حارس عمود سمعان الكبير، فاسمه أنطوان، وقد كتب سيرة معلمه، وهي السيرة الثالثة التي وصلت إلينا. وبحسب الأب مارتيني (Martigny)، هناك لوحة تظهره وهو يرفع سلة من الطعام إلى سمعان [88]. (الرسم-3) .

كـــانت وظيفـــة الحارس تحظى بتقدير كبير. وكانت أهميته تزداد بقدر ما تزداد أهميـــة معلمه. وعلى عاتقه يقع الاهتمام بعنصر هام من عناصر العمود وهو: السلم. فهـــو الــذي يضــعه ويرفعه، عندما يحظى أحد الزوار بالصعود على العمود لمقابلة القديــس. وهــذا مـــا يقوله تيودوريطس بصراحة: "كان سمعان يطلب إحضار السلم ليصـــعد أحـــد الزوار إليه" (89). فالإمبراطور ليون الأول استخدم السلم أكثر من مرة ليصعد إلى القديس دانيال (90). لكن هذه الحظوة لم تكن متاحة لكل الناس.

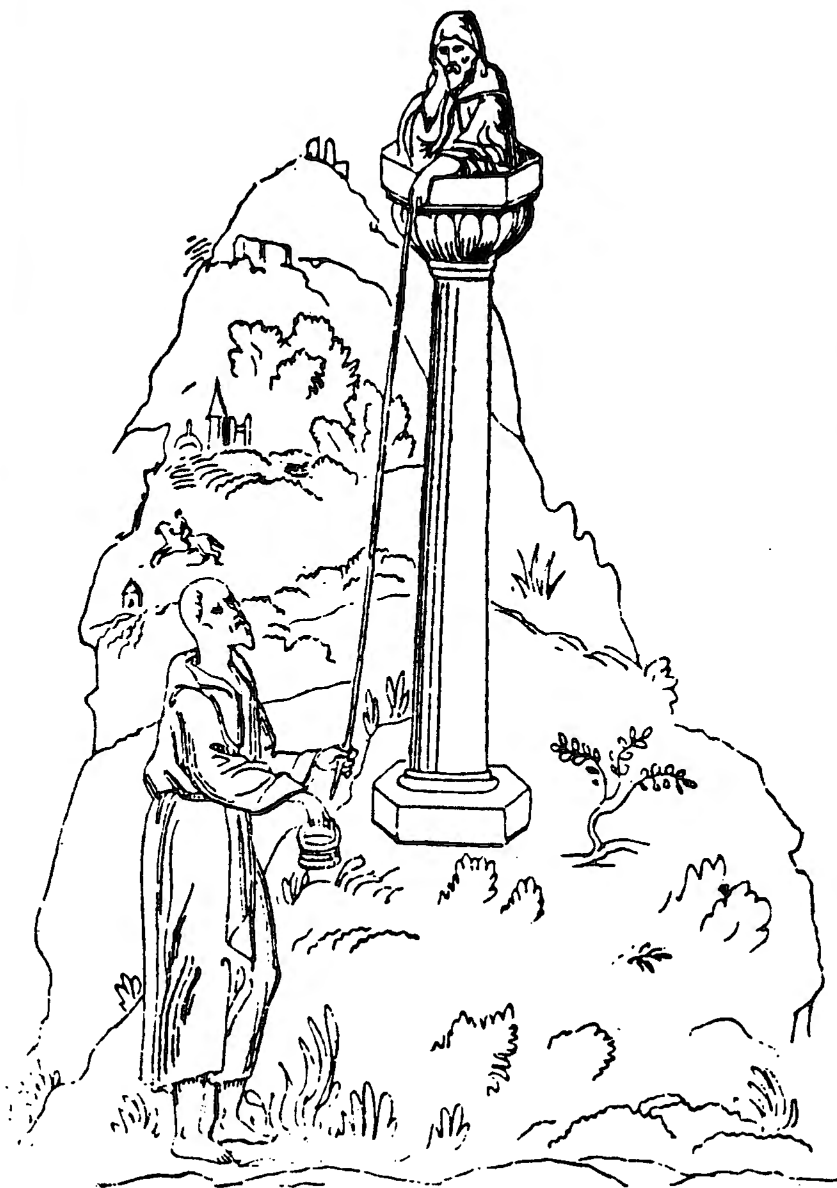
وكان السلم عادة يربط بشكل محكم إلى العمود، ذلك لأن المقابلات وجهاً لوجه كانت نـــادرة. ويدفعنا الثقب في الزاوية الشرقية لعمود كفر دريان إلى التساؤل عن هذه الفتحة، أهـــل صنعها الحارس ليربط السلم بها ؟ فيمنع بذلك سرقته بوصفه ذخيرة ؟ وكان عمود عمودي بيترا (٧٧)، المجهول الاسم، محروماً من السلم، مما سبب عقبات للزوار، ولا سيما لمـــن يرغب أن يبوح بسر إلى العمودي، فكان عليه أن يأخذ الاحتياطات لئلا يسمعه أحد من الحشود (91). فالسلم ليس الوسيلة الوحيدة للاتصال بالعالم الخارجي، إذ أن حبلاً وسلة يكفيـــان العمودي ليحصل على قوته المتواضع، والأشياء الضرورية جداً. وتذكر لنا سيرة القديـــس لعـــازر كيف تعرض العمودي لخطر الموت عندما أراد النزول من على عموده بوساطة الحبل المخصص لرفع الحاجيات (92).

و - حياة الرهبان العموديين التقشفية القاسية :

مـــن خــــلال حيـــاة النســـاك الشرقيين، ينتابنا شعور بأننا أمام نوع من القداسة الظاهرية. وغالباً ما تبدو استعراضية، ويبدو أنهم لم يكونوا ليفكروا إلا بكيفية زيـــادة "المعانـــاة مـــن الآلام"، وذلك للوصول إلى ملكوت السماء. ومن هنا يتولد الشعور بأن العمودي جامد بلا حراك، لا يأكل ولا يشرب، ولا يحس بأي حاجة إلا حاجة الصلاة. إن هـــذا الإفراط في التقشف هو عملة رائجة لدى النساك في القرون الميلادية الأولى. ولهـــذا السبب كانوا يشبَّهون بالملائكة، علماً أن التشبيه بين الناسك والملاك هو تشبيه عريق جداً في الأدب المسيحي الشرقي .

---

(٧٧) بيـــترا : هـــي البتراء عاصمة الأنباط، كانت مركزاً تجارياً مهماً. اسمها يوناني معناه الصخر، أسماها العرب سلع. تقع جنوب الأردن ما بين البحر الميت وخليج العقبة. فيها أثار عظيمة وكلها منحوته في الصخر.



الرسم (3): أنطــوان، تلميــذ القديــس ســمعان الكبيــر.

من تفاصيل لوحة تظهر مراسم جنازة ودفن القديس أفرام.

(بوتاري Bottari)

ومما يجدر ذكره بهذا الخصوص، زيارة المواطن الروماني من رافينا [٧٨] للقديس سمعان الكبير، إذ قال له : " لقد أكد لي كل الناس أنك لا تأكل ولا تنام.. أفإنسان أنت أم ملاك ؟ " ويبدو أن هذا السؤال الصادق والبسيط من قبل هذا الروماني قد أعجب القديس، فطلب منه أن يضع السلم ويصعد إليه. وسمح له القديس أن يتفحص يديه، وأن يلمس الجرح الذي يخفيه تحت قميصه. وبعدها أكد له سمعان أنه يتناول الطعام، وأنه، وبكل تأكيد، ليس بملاك على الإطلاق [93].

لقد كان الصيام من أعمال التوبة المفضلة عند الرهبان الشرقيين. فبالإضافة إلى تقيدهم الصارم بالصوم الكبير الأربعيني الطويل، كان النساك يمتنعون طوال حياتهم عن تناول الأطعمة المطبوخة، أو منتجات الحيوان من لحوم وحليب وبيض. يقول إيتريا (Ethérie) عن بعض الرهبان والمسيحيين الفلسطينيين : " إنهم عندما يأكلون، لا يأكلون إلا مرة واحدة في اليوم، وذلك ليس أيام الصوم الأربعيني الكبير فقط بل طوال السنة"[94]. فالقاعدة العامة المتبعة عند النساك هي تناول الطعام مرة واحدة في اليوم، وذلك عند المساء بعد صلاة الغروب .

ويشير بعض المؤلفين إلى أنه يوجد أيضاً في سورية نساك يسمون العشّابين (Boscoï)، أي الذين يسرحون ليرعوا، وذلك لأنهم لا يأكلون إلا الأعشاب وجذور النباتات [95]. وفي جبال سورية الشمالية دعي الناسك مار مقدونيوس بآكل الشعير، لأنه خلال أربعين سنه لم يتناول طعاماً إلا الشعير المبلول بالماء [96]. فهؤلاء هم حقاً اختصاصيون في الصيام .

ولم يجد أحد الهراطقة طريقة لتشويه سمعة القديس دانيال العمودي سوى أن يعرض للناس سمكة مقلية كبيرة، ويدعي أنه وجدها عند قاعدة العمود [97]، واتهم القديس بانصرافه إلى تعاطي متع الحياة الدنيا. أما خصوم برصوما فقد أحضروا إلى الإمبراطور تيودوسيوس تقارير كاذبة تتهمه بأكل اللحم وبشرب الخمر[98]. أما القديس

---

(٧٨) رافينا : مدينة في شمال إيطاليا على ساحل بحر الإدرياتيك، شرق بولونيا وجنوب البندقية .

سمعان، أبو العموديين وأنموذجهم، فكان يأكل مرة في الأسبوع، نهار الأحد [99]، وبلا شك بعد غروب الشمس بحسب العادة المتبعة .

إن إنســان القرن العشرين قد يخامره الشك بهذا الإفراط في التقشف، وفي الصوم الــرهيب الــذي كــان يمارسه نساكنا الشرقيون. مع ذلك فإن كل كتّاب سيَر القديسين يجمعــون عــلى نظــامهم الغذائي البسيط، وأعمالهم التكفيرية التي لا تصدق. وعلى ســبيل المــثال تيودوريطــس أسقف قورش الذي هو شاهد عيان على ما يرويه، إذ يقــول : " رأيــت.. لمســت.. تحدثت.. وأتاني الجواب.. "، فلا يمكن القول بوجود تــاريخ ممكــن إذا ما جرّحنا بشهادة تيودوريطس. فضلاً عن ذلك، وقبل أن ننكر هذه الأعمــال ينــبغي الــتفكير بأوضاع العيش المختلفة عن أوضاعنا، وبطبيعة العصر، وبطريقة التربية، دون أن ننسى ما للجمهور المحيط بالراهب العمودي من تأثير نفسي عــليه، وما لتناغمهم معه من حافز نفسي يساعده على التحمل الجسدي [100]. كما أن هناك عنصراً آخر سيساعدنا في تفسير هذا النمط من الحياة وهو: الوسط الاجتماعي. فنحن نعلم أن أغلبية رهبان مصر وسورية هم بشكل رئيس من بين الريفيين الأميين، والطــبقات الكادحــة فــي المجتمع [101]، وقد كان طعامهم من كل النواحي غير كاف ومحدوداً. فالقديس سمعان الكبير مثلاً كان راعياً. وما كانت الحياة المادية التي يعيشها راع أو فلاح من القرن الخامس لتزيد بكثير من المزايا عن حياة الراهب. فكلاهما كانا يكــتفيان بالحد المعيشي الأدنى للحفاظ على اتحاد جسدهم بروحهم، فيتناولان قليلاً من الفــول أو العدس أو من الخبز والزيت، وبعض الأعشاب والبقول، وهذا كل شئ. فلا حديــث فــي ذلــك الوقت عن طعام الحمية وعن الفيتامينات، بالإضافة إلى أن الحياة الساكنة التي كان يحياها الرهبان العموديون كانت تعفيهم من استهلاك الحريرات .

ز - المرض نعمة من الله :

إن نمــط حياة العمودي، مع كل ما ينطوي عليه من صعوبات، كالتعرض لتقلبات الطقس، والطعام غير الكافي، والحياة الساكنة أساساً، كانت كفيلة، بالتأكيد، بأن تسبب الكثير من الآلام والأمراض. كما كان الموت المبكر لأغلبيتهم هو الثمن لهذه التقشفات

الرهيبة التي اختاروها طوعاً. فقد شلت رجل القديس سمعان الصغير بسبب عدم تحريكها. وكانت رائحة نتنة تفوح من جسمه، لا يكاد يحتملها تلاميذه. وقد رفض القديس السماح للطبيب الذي استدعي لعلاجه بأن يصعد إليه [102]. أفلا يعتبر العلاج بوساطة شخص بمنزلة قلة ثقة بالله ؟

ويصف لنا أنطون، تلميذ القديس سمعان الكبير، الآلام التي قاساها معلمه بهذه العبارات: " كان فخذه مجروحاً وامتد التقرح إلى كل أطرافه، وكانت ديدان بعدد لا يصدق تتساقط من جنبه على العمود، ومنه إلى الأرض. وطوال سنة كاملة لم يكن بوسعه الوقوف إلا على رجل واحدة "[103]. ولن نركز على الأمراض، إذ إنها كانت مقبولة وكأنها نعم من الله وليست مصائب. وكل ذلك لم يمنع بعض الرهبان العموديين من أن يموتوا طاعنين في السن. فقد مات القديس سمعان الكبير وعمره ٦٩ سنة، قضى منها ٣٧ سنة على العمود. أما القديس دانيال، فقد عاش ٨٤ سنة، أمضى منها ٣٣ سنة على العمود. والقديس أليبيوس عاش ٩٩ سنة. والقديس لوقا عاش ١٠٠ سنة. أما مار ميخائيل، وهو عمودي عاش بالقرب من نينوى[٧٩] في القرن السادس الميلادي، فقد ضرب الرقم القياسي في طول العمر، إذ توفي عن ١٠٥من السنين. وكأننا بالعموديين يرغبون من خلال هذه الإماتات أن يخسروا هذه الجثة الفانية ليحصلوا على ملكوت السماوات .

ح – مصرف النفايات :

لقد ذكرنا سابقاً أن العمودي يظل، ليل نهار، محط أنظار الجموع التي تراقب أدنى حركاته. حتى لو كان في أحسن الأحوال محمياً بالحجيرة – الملجأ، فهو يرى نفسه محرجاً في قضاء بعض حاجاته الجسدية. وبتفحصنا لما تبقى من عمود كفر دريان لاحظنا أثاراً لقناة، وبشكل خاص فرضة محفورة في قاعدة العمود باتجاه

---

(٧٩) نينوى : مدينة قديمة شمالي العراق. كانت إحدى عواصم الدولة الآشورية. وقد ازدهرت أيام الملك سنحاريب أواخر ق ٧ ق.م. ولا تزال أطلالها شرقي مدينة الموصل .

الشـــرق، يبـــلغ طولهـــا ٣٣ســـم، وعرضها ١٦سم، وعمقها ١٧سم. ويبدو أن الغاية المـــنطقية لهذه القناة هي صرف الماء. وإنه من المحتمل وجود أنبوب من الرصاص أومن الفخار، يصعد من القاعدة إلى قمة العمود. وإن ما يؤكد رأينا هذا هو العثور عل تجويـــف طبيعي في الصخر، طوله ١٥٠سم تقريباً، وعرضه ٦٠سم، وعمقه ١١٠سم. (الرسم رقم /3) كما نظن بوجوب وجود حفرة لاستيعاب مياه النفايات.

كذلـــك الأمر بشأن عمود قيمار، حيث يبدو أن العمودي المجهول، الذي كان يقيم عـــليه، كان يملك معلومات كافية حول موضوع النظافة. وإن ما لفت انتباهنا هنا هو فتحة كبيرة قطرها ١٣سم، كانت تجتاز حافة القاعدة، وليس لهذه الفتحة من وظيفة إلا أن تُســـتخدم قسطلاً يصل بين سطح العمود والأرض. وفي سيرة القديس لعازر يأتي تفصـــيل مبـــتذل لوجـــود نوع من "مصرف النفايات" يمتد على طول العمود. وكانت جماعة من النمل قد أقامت مسكنها في شجرة قريبة من العمود، وكانت تصعد بواسطة " مصـــرف النفايات " لتصل إلى العمودي، فتصرف ذهنه عن الصلاة، وتضيف على إماتاته إماتة إضافية[104].

ط- العمودية نمط حياة ثابت :

لم يكن العمودي يغادر عموده البتة. ولم يكن نمط حياته مرهوناً بخيال جامح ولا بـــنزوة مزاجية. فقد قطع نذراً باتباع حياة سكينة جبرية، بتكريس نفسه لهذا النمط من الحيـــاة. فـــالقديس دانيـــال لم ينزل من على عموده حتى عندما هبت عاصفة وهزت العمـــود كشـــجرة. والقديس سمعان الصغير، لم يوافق على قبول السيامة الكهنوتية إلا فـــوق العمـــود[105]. وقد كان العموديون يلبثون على أعمدتهم حتى مماتهم، ما لم يتم طردهم بالقوة. ومع ذلك فهناك بعض الاستثناءات تستدعي تغيير العمود، كالنفع العام، وغـــزوات الـــبرابرة، أو الصعود على عمود أكثر ارتفاعاً. وحين يهدي محسن كريم عمـــوداً لعمـــودي، تـــتم عملية التسليم والتنصيب بما يليق بها من حفاوة. فعندما أقام القديس سمعان الصغير عموداً ثانياً لـــه، من أربعين قدماً، صعد عليه بحضور أساقفة

ســلوقية [٨٠]، وأنطاكية، والأكليروس، وحشد كبير من الناس الذين سارعوا لحضور هذا الاحتفال، وسط الشموع المضاءة والمشاعل[106]. كما أن انتقال القديس دانيال إلى العمــود، الــذي بــناه لــه الإمبراطور ليون الأول، تم باحتفال فيه كل عظمة الطقس الــبيزنطي. ففي اليوم الموعود حضر الإمبراطور نفسه، ثم صعد السلم ليدعو الراهب الــتائب للانــتقال إلى عموده الجديد، وأمر العمال بمد ألواح خشبية كجسر يصل بين سُــلَّمي العموديــن، والجماهيــر تنتظر بفارغ الصبر لحظة الانتقال. وأخيراً، شوهد العمودي ينحني ويجتاز الجسر باتزان تام، وذلك بحضور البلاط الإمبراطوري ورئيس الأساقفة والشعب[107]، لقد كان مشهداً لا يخلو من الغرابة.

وبالمقابل دشن القديس لعازر عموده الجديد دون تطبيل ولا تزمير. فعندما أصبح جاهزاً لاستقباله، ترك ليلاً العمود الذي أقام عليه اثنتي عشرة سنة، وصعد على العمود الجديــد دون معــرفة أحــد[108]. أما العمود الذي يبقى شاغراً بانتقال العمودي، فإن عمــودي آخــر، مــن درجة أدنى، يقيم عليه، وهذا ما كان حال عموديَّ القديس لوقا بجوار بيزنطية[109]، ومار يوحنان في قورزاحل[110]، وذلك لأن العمود بعد أن يبنى لا ينبغي أن يبقى فارغاً.

---

(٨٠) ســلوقية : هي سلوقية بيريا، وتقع في لواء الإسكندرون، قرب مصب نهر العاصي، على سفح جبل موسى. شمال بلدة السويدية الحالية.

الفصل الرابع

انتشار حركة الرهبنة العمودية وأهميتها

يــرجع الفضل الأول لما حققته الحركة العمودية من انتشار عجيب، للوقع الرائع لــرجل ممــلوء بــروح الله، وهو القديس سمعان الكبير، مؤسس ونموذج هذا التقشف المذهل. ويخبرنا معاصره تيودوريطس أسقف قورش عن الدعوة العموديــة لســمعان (٣٩٠-٤٥٩ م) : "كان سمعان يرغب في الوحدة، فترك دير تل نيشين " تلانيسوس "، وصعد إلى الجبل المجاور، الذي يدعى اليوم قلعة سمعان(٨١)، تكريمًا له. ولئلا يتجاوز مــا حَدَّدَ لنفسه من مسافة، ربط رِجله إلى حجر كبير، بوساطة سلسة طولها عشرون ذراعــاً. بالإضــافة إلى أنه منع نفسه من الجلوس، ومن التمدد. وما لبثت أن انتشرت شــهرة تقشفه بين الناس. فتوافد الحجاج والجميع يرغبون في رؤيته وفي لمسه. ولكي يتجنب هذا النوع من التكريم المفرط، الذي لم يترك له الوقت الكافي للصلاة، قرر أن يهرب، فالتجأ إلى عمود صغير طوله ستة أذرع تقريباً، واستقر عليه. ودون أن يقصد ذلــك أبــدع سمعان بهذا العمل نوعاً جديداً من الزهد، وهو العمودية. وكان ذلك سنة ٤٢٢م " (111).

إن هذا النوع من الحياة الذي تصوره سمعان، قد جذب إليه العديد من المسيحيين. وحــازت العموديــة في سورية على شعبية كبيرة. ومنها انتشرت في الشرق الأوسط كله، ثم في بيزنطية وفي بلاد ما بين النهرين. كما يشار إلى وجود عموديين في مصر

---

(٨١) إن سمعــان لم يعــط اسمه للقلعة فقط التي هي كنيسة أقيمت تكريماً لــه، بل إنه أعطى اسمه لكل الجبل الذي يمتد على مساحة واسعة شمال غرب حلب، ثم إن اسم المنطقة الإدارية الحالية التي تتبع محافظة حلب هو : جبل سمعان .

وفلسطين وروسيا، بل حتى في بلاد الغال في القرن السادس الميلادي. غير أنها ماتت فــي مهدها في الغرب وذلك لأن أسقف الأبرشية، بقرار حازم، خنق في المهد مغامرة الشـــماس الإنجيـــلي وولفرايكوس (Wulfraïcus) الذي صعد على عمود بالقرب من كارينيون في الآردين[٨٢]، فقد قال له الأسقف :

" إن هذه الحياة التي تريد اتباعها، لم تخلق إلا لنفوس من معدن سمعان الأنطاكي. أمـــا أنـــت فليس بوسعك التشبه به، وليس بوسعك أن تتحمل طويلاً هذا العذاب، وأنت عـــلى العمـــود بهـــذا الوضع. انزل إذن، واذهب فعش مع إخوتك في حياة جماعية ". وأطـــاع العمودي على مضض، ونزل من على عموده، وذهب فانعزل في الدير. وفي اليوم التالي دفعته قوة لا تقاوم لزيارة العمود، فوجده مطروحاً على الأرض ومكسوراً. فقد أرسل الأسقف في أثناء الليل عمالاً لقلبه، ليضع بسرعة حداً لهذه النزعة العمودية الـــتي ظهرت في أبرشيته، والتي تتعارض كلياً بحسب تفكيره مع جو الغرب وطباعه. وقـــد اعـــترف هـــذا العمودي نفسه عن تجاربه على العمود إلى القديس غريغوريوس الـــتوري[٨٣] (Grégoire de Tours)، وكـــم عانى خلال الشتاء من انخفاض درجات الحرارة. وهنا يروي القديس غريغوريوس قائلاً :

"كان الماء يتجمد على لحيته، ويشكل حبيبات من الجليد تتدلى مثل القناديل"[112].

آ- عدد الرهبان العموديين :

إنـــه لمـــن المستحيل إحصاء العدد الكامل للعموديين، فقد كانوا كثيرين. وإذا ما أخذنـــا بشـــهادات الكُتاب[113]، فقد أصبح مثال القديس سمعان ذا عدوى في الشرق. فالمديـــنة الأســـقفية إديســـا [٨٤]، بحســـب ســـيرة القديس تيودوريطس، كانت محاطة

---

(٨٢) الآردين : مرتفعات في غرب أوربة بين نهري الراين والموز، تقع في أراضي ألمانيا وبلجيكا واللوكسمبورغ حالياً.

(٨٣) التوري: نسبة إلى مدينة تور في وسط فرنسا، جنوب باريس.

(٨٤) إديسا : من مدن النصارى المقدسة، اشتهرت في عهد السلوقيين باسم إديسا، أسماها العرب الرُها، من اسمها الآرامي القديم (أورهوي). تقع الآن ضمن الحدود التركية وتدعى أورفا. كانت عاصمة الآداب السريانية، واشتهرت بمدرستها اللاهوتية .

بالأعمدة. وهي من بقايا حضارات قديمة. وقد جعل كثير من العموديين مسكنهم عليها في عصور متتالية[114] .

والمؤرخ يوحنا الأسيوي (Jean D'Asie) في روايته للاضطهادات التي كان ضحاياها أتباع الطبيعة الواحدة بين عامي (٥٢١،٥٢٠ م)، يعطي موجزاً عن وضع إقليم سورية بهذه العبارات: "كانت أديرة بكاملها تفرغ. وذلك حتى أثناء برد الشتاء القارس، يلقى خارجاً شيوخ ومرضى. وانتزع الحبساء من جحورهم وأنزل العموديون من على أعمدتهم "[115]. ويقول بطريرك أنطاكية اليعقوبي ميخائيل السوري (١١٢٦ -١١٩٩م) في حديثه عن نفس الاضطهاد الذي لقيه الرهبان المناهضون لمجمع[٨٥] خلقيدونيه[٨٦] :

" كان، أي بولس بطريرك أنطاكية الخلقيدوني، ينزلهم من على أعمدتهم، أو يخرجهم من محابسهم ليشردهم "[116]. ويذكر الكاتب نفسه حدثاً معبراً، استمده من تاريخ الأحداث لتيوفان (Théophane) فيقول : "في هذه السنة ٦٣٩م، هبت عاصفة قوية فاقتلعت الأشجار، وتساقطت أعمدة الطوباويين – العموديين –" [117].

وفي القرن السابع الميلادي يشير مار دنحا، متروبوليت[٨٧] تكريت[٨٨]، إلى وجود فئة بين رهبان بلاد ما بين النهرين "هم أكثر حماساً، فقد اختاروا المكوث على الأعمدة ولا يستريحون على الأرض"، أي لا يتمددون أرضاً ليناموا .

---

(٨٥) المجمع : هو مؤتمر يعقده الأساقفه للتداول في شؤون الكنيسة، ويكون مسكونياً إذا دعي إليه أساقفة العالم أجمع، أما إذا ضم فئة معينة فهو سينودس .

(٨٦) خلقيدونيه : مدينة قديمة في آسية الصغرى على البوسفور، اسمها الحالي كاديكوي. وقد عقدت فيها عدة مجامع كنسية، منها المجمع الخلقيدوني المسكوني الرابع ٤٥١م، وفيه تم تحديد وحدة شخص المسيح في طبيعتين، أي أنه إنسان كامل، وإله كامل، بلا اختلاط ولا تغيير، وبلا انقسام ولا انفصال .

(٨٧) متروبوليت : كلمة يونانية وتعني رئيس الأساقفة في منطقة كنسية .

(٨٨) تكريت : مدينة عراقية، على الشاطئ الأيمن لنهر دجلة، شمالي سامراء ما بين بغداد والموصل، وهي مركز محافظة. كانت كرسياً أسقفياً للسريان. هدمها تيمورلنك عام ١٣٩٤م .

وأخيـــراً فبين القوانين المحفوظة في المتحف البريطاني من نهاية القرن السادس، والـــتي كانت تنظم علاقات الراهبات مع العالم الخارجي، يوجد قانون - القانون ٧ - يسن ما يلي :

" لا يســـمح للراهبات زيارة الرهبان النساك المنعزلين في الجبال أو الحبساء أو العموديـيـــن، بحجة الإحسان إليهم وتقديم الهبات لهم. فكل دير يندب راهبة طاعنة في السن للقيام بهذه المهمة " [118].

ويذكر المؤرخ تيوفان أنه في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (٧٥٤ -٧٧٥ م)، قد اتخذت عدة إجراءات مهينة بحق المسيحيين. فقد أرغم الرهبان النساك والعموديون عـــلى دفـــع الضـــريبة، وهـــم الذين كانوا حتى هذا التاريخ محترمين، إنها الضريبة المعروفة بالجزية، التي كان يدفعها المسيحيون واليهود في أرض الإسلام[٨٩]. (معجم التاريخ، ج ٣، ص ٥٩٨) .

كـــان العموديـــون إذن كـــثيرين، ممـــا جعلهم يؤلفون طبقة مستقلة. وفي الكتب الليـــتورجيه القديمـــة في الكنسية السورية، ولا سيما كتاب الإنجيل المعروف بإنجيل فلورنس، نجد مقطعاً من الإنجيل (لوقا٢٠) يتلى يوم صعود الراهب على العمود[119].

---

(٨٩) لم نســـتطع أن نجد في كل ما وصلنا إليه من المراجع العربية التي تناولت عصر المنصور ما يؤيد فرض الجزية عـــلى الرهـــبان، (راجع مثلاً تاريخ الطبري)، ولكننا وجدنا في تاريخ مختصر الدول لابن العبري ما يدعو للاعـــتقاد بـــأن تيوفـــان قد اختلط عليه ما قام به عيسى بن شهلاثا طبيب المنصور الخاص بفرض الأتاوات والضرائب على أبناء ملته النصارى فاعتبرها تيوفان جزية .

يقول ابن العبري في تاريخه ص٢١٤ : " إن جيورجيس بن جبريل بن بختيشوع طبيب المنصور قد أوصاه قبل وفاتـــه بتلميذه عيسى بن شهلاثا ليخلفه بوصفه طبيباً خاصاً للخليفة ". ويضيف ابن العبري ص٢١٥ : "ولما استصـــحبه المنصور، بدأ بالتشاور والأذية، خاصة على المطارنة والأساقفة ومطالبتهم بالرشى. وكتب عيسى إلى قوفريان مطران نصيبين يتهدده ويتوعده، إن منع عنه ما التمسه منه، وكان عيسى قد التمس أن يُنفذ لـــه مـــن آلات الـــبيعة أشياء جليلة ثمينة لها قدر. وجاء في كتابه : ألست تعلم أن أمر الخليفة في يدي إن أردت أمرضته وإن أردت شفيته. فاحتال المطران في التوصل إلى الخليفة ووقفه على حقيقة الأمر، فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى الطبيب وتأديبه ونفيه، ففعل به ذلك ونفي أقبح نفي وهذا ثمرة الشر ".

كمـــا كـــان لعمودبي منطقة القسطنطينية قوانين خاصة مجموعة في المدونة القانونية. فالقـــانون /١٠٣على سبيل المثال ينص على أنه : " يتوجب على العمودي الذي يستقر عـــلى عمـــوده ألا يـــدع أي امرأة تصعد إليه. وإذا ما صعدت فيتعرض لعقوبة مدتها خمـــس سنوات "[٩٠]. والقانون / ١٠٥ ينص على أنه : " عند التعرض لغزو الأعداء، توجـــب القوانين المقدسة على العمودي أن ينزل من على عموده. وأن يرجع ويصعد عليه عندما يزول الخطر" [120]. وفي القرن التاسع الميلادي يشار إلى مظاهرة قام بها الرهـــبان العموديون في بيزنطية، عندما كانت الحرب ضد الأيقونات في أوجها، راح "رؤســـاء الأســـاقفة والأســـاقفة والكهـــنة والشمامسة والرهبان والنساك والعموديون والحبساء" يجوبون شوارع العاصمة، ويطالبون بإعادة صور القديسيين، ووضعها على الهياكل. وقد احتفظت الكنيسة البيزنطية بذكرى هذه التظاهرة عندما حددت يوم الأحد الأول من الصيام الأربعيني المقدس عيداً للأرثوذكسية [121] [٩١].

وفي الحقيقة لم تكن طريقة العمودية وقفاً على الرجال. ففي سيرة القديس لعازر ذِكر لحالـــة امرأة عمودية، ابتكرت نوعاً إضافياً من أنواع الإماتة. فقد اختبأت في الحجيرة – المـــلجأ عـــلى العمـــود، تاركة رجليها تتدليان خارجاً من خلال فتحة على مستوى سطح العمـــود صـــنعت لهـــذا الغرض. وما هذا إلا أقصى المزاجية في التقشف[122]. كما أن العموديـيـــن الـــذي أتينا على ذكرهم سابقاً لم يكونوا الوحيدين. فكثيرون غيرهم قد حذوا حذوهـــم، ولا نعـــرف اليوم منهم إلا الاسم أو مكان تعبدهم أو لا شيء البتة. وقد وصلتنا ســـيرة ستة منهم فقط، فاستفدنا منها في دراستنا لرسم صورة العموديين الآخرين ووصف طريقة حياتهم، وهم :

القديس سمعان الكبير : في القرن الخامس الميلادي، مؤسس الحركة العمودية.

القديس دانيال : عمودي على ضفة البوسفور الأوروبية، في القرن الخامس الميلادي .

---

(٩٠) لم نعرف ما هذه العقوبة، أحرمان هي، أم إبعاد عن العمود ؟؟.

(٩١) الأرثوذكسية : كلمة يونانية تعني الاستقامة في الرأي، أو في العقيدة. كما أن كلمة كاثوليكية : هي أيضاً يونانية وتعني ما هو جامع وشامل وعام. وفيما بعد استخدمت الكلمتان للإشارة إلى الطوائف المسيحية في الشرق.

القديـــس ســـمعان الصغير : في القرن السابع الميلادي. عمودي الجبل العجيب، بالقـــرب مـــن قـــرية ناهـــرلي الحالية، غير بعيد عن مدينة سلوقية بيريه. وقد أطلق الصليبيون عليها اسم مرفأ القديس سمعان تخليداً لذكرى هذا الناسك .

القديس أليبيوس : من أدريانوبوليس في بافلاغونيا، في القرن السابع الميلادي.

القديس لوقا : عمودي في منطقة إيتروبيان، غير بعيد عن خلقيدونية، في القرن العاشر الميلادي .

القديـــس لعـــازر الجاليسيوطي : عمودي جبل جاليسيوت بالقرب من أفسس، في القرن الحادي عشر الميلادي .

وبعد هذا التاريخ بدأت العمودية تخبو شيئاً فشيئاً مثل مصباح ينفدُ زيته، إذ لم يبق من مـــبرر لوجودهـــا. ومـــع أنـــه وجد عموديون نادرون بعد هذا التاريخ، أصبحت ظاهرة العموديـــة في عداد الموتى تاريخياً. فنحو أواخر القرن السادس الميلادي اتخذت الكنيسة النســـطورية(٩٢) إجراءات جذرية ضد العمودية، وذلك بلا شك للتصدي لبعض التطرف، الذي يسهل فهمه. فقوانين الآباء التي أقرها مجمع مسكوني عقده أساقفة نسطوريون، وهو مجمـــع مجهول الاسم حتى الآن، هذه القوانين منعت الرهبان من حمل السلاسل الحديدية، وألغـــت الاعتزال والعمودية، وجددت منعها لإطالة الشعر(123). إن العمودية في سورية، بصفتها حركة، لم تستمر طويلاً بعد الفتح الإسلامي (القرن السابع الميلادي)، إذ إننا بعد هـــذا التاريخ لا نجد عموديين إلا في مناطق محدودة جداً في جغرافية سورية، ولا سيما حيـــث بقيت المسيحية دين الأغلبية بين السكان الريفيين. على سبيل المثال في سهل الدانة وفي جبل سمعان، وهما منطقتان مسيحيتان جداً حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. حيث نجد ثلاث عموديين في القرن العاشر الميلادي، واحد في تلعادة، واثنان فـــي قورزاحـــل. كمـــا أشير إلى عمودي بالقرب من أتارب بعد مضي قرن على الفتح

---

(٩٢) الكنيســـة النســـطورية: نســـبة إلى نسطور (٣٨٠-٤٥١م) الذي ولد في قيصرية سورية، وتولى بطركية القسطنطينية (٤٢٨م)، قال بوجود أقنومين (شخصين وطبيعتين) في السيد المسيح، وأنكر على مريم العذراء لقب والدة الإله، حرمه مجمع إفسس عام ٤٣١م ثم طرد من منصبه .

الإسـلامي. وأشـير أيضاً إلى عمودي آخر في القرن الحادي عشر الميلادي، في لاذقية لبنان[٩٣] (Laodicée du Liban) في المنطقة الجبلية لنهر العاصي. وبعد هذا التاريخ الذي يتوافق مع الحروب الصليبية، ماتت العمودية نهائياً على الأرض السورية، بعد أن خرجت المسيحية في منتهى الضعف بعد هذا القتال .

ب - عموديون هراطقة [٩٤]:

وجـد بعض العموديين أنفسهم في نزاع مع العقيدة الأرثوذكسية الرسمية. ويذكر جـان موسـكس أنـه في مطلع القرن السابع الميلادي كان ثمة راهبان عموديان في كيـليكيا. أحدهمـا كاثوليكي والثاني هرطوقي. ولم تكن تفصل بينهما إلا مسافة ستة آلاف قـدم تقريـباً. مما لم يمنعهما من التنافس في أن يَعِد كل منهما الآخر بظلمات الآخـرة[124]. وهـذا الكـاتب نفسـه يروي لنا بالتفصيل عن اهتداء راهب عمودي مونوفيـزي[٩٥]كـان يقيـم قرب هيرابوليس (منبج)، وقد تمت هدايته على يد أفرام بطريرك أنطاكية الخلقيدوني[٩٦]. ويبدو أن هذا العمودي كان يتمتع بشهرة كبيرة، وهذا

---

(٩٣) لاذقيـة لبنان : تسمية رومانية لقربها من جبال لبنان، حيث اشتهرت بأنها محطة للقوافل، فقد كان الطريق الروماني المرصوف يمر بجوارها. أما اسمها القديم فهو قادش" المقدسة "، وقد ورد هذا الاسم بكثرة في الوثائق الفرعونية. أما الحثيون فقد أسموها كينـزا. وقد ظهرت منذ القرن١٤ق م بوصفها قوة محلية، لم تفلح كثيراً في الحفاظ على استقلالها، لوقوعها في مجال توسع أكبر إمبراطوريتين في ذلك الزمان هما : الحثية والفرعونية. وقـرب قـادش جرت بينهما المعركة الشهيرة ١٢٨٦ق م، التي انتهت بمعاهدة ثم مصاهرة بين الملك الحثي موفاتالي والفرعون رعمسيس الثاني. وعلى بقايا تلّها تقوم الآن قرية صغيرة اسمها تل النبي مند، تبعد ٣٠كم جنوب غربي حمص، و٣ كم جنوب بحيرة قطينة، وهي محصورة بين نهر العاصي ورافده نبع عين التنور. وتتبع منطقة القصير، محافظة حمص .

(٩٤) هـراطقة : مفـردها هرطوقي، ومعناها المارق، المنشق، صاحب البدعة. وهي هنا تعني من يقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح (الطبيعة الإلهية). ويسمى أتباعها في سورية اليعاقبة، نسبة إلى يعقوب البرادعي أسقف الرها (٥٤١-٥٧٨م) .

(٩٥) المونوفيـزية : كلمة يونانية مركبة تعني الطبيعة الواحدة . وهي تدل على بعض الطوائف المسيحية التي تقول بوجود طبيعة واحدة في السيد المسيح .

(٩٦) خلقيدوني: نسبة إلى مجمع خلقيدونية، الذي أقر الطبيعتين في السيد المسيح. (راجع الحاشية / ٨٦) .

ما نستنتجه من خلال الشخصية التي كلفت نفسها وأتت إلى أسفل العمود لتحمله على تغيير رأيه (125).

وكـان راهـب عمـودي آخر هو مار زعورا - وتعني بالسريانية الصغير- يعتنق العقيـدة المونوفيـزية. ولم يمنع هذا من أن تصل شهرة أعاجيبه إلى روما. وأما الطرف المناهض له، فلم يجد وسيلة أفضل من أن ينزله من على عموده بالقوة، لكي يتخلص من شهرة هذا الناسك المزعجة، وهذا هو العقاب الأعظم لراهب عمودي(126). وفوق ذلك فقد كـان قسـم من عموديي شمال سورية مونوفيزيين(127)، علماً أن هذه العقيدة التي تؤمن بوجـود طـبيعة واحدة في شخص السيد المسيح قد حرمها المجمع المسكوني الخلقيدوني (سـنة ٤٥١ م)، لكـن مـا أثـاره المجمع من مناقشات معقدة ومحتدة، حول موضوع الطبيعتين المتميزتين في السيد المسيح، قد منع الآباء من الاتفاق، وشق المسيحية، وخاصة في سورية إلى قسمين متناهضين. فبعد المجمع، بشكل عام، يمكننا تأكيد أن الطبقات ذات الـثقافة الهلينية(٩٧) في المجتمع السوري اتبعت العقيدة الرسمية الخلقيدونية. وبالمقابل اتبع الشعب العقيدة الوطنية المونوفيزية، مع عدد كبير من الأديرة الريفية، التي أصبحت حكماً القوى الداعمة للوطنية السورية في وجه الهلينية(128).

فمن الناحية الجغرافية تقسم سورية البيرنطية إلى منطقتين متمايزتين: سورية الأولى، وعاصمتها أنطاكية، وقد اتبعت بمجملها العقيدة المونوفيزية، مع وجود جزيرات خلقيدونية فيهـا، ولا سـيما فـي العاصمة. وسيصبح الديران الكبيران، دير باتبو(٩٨)، ودير تلعاده معقـلين لانتشار المونوفيزية في المنطقة إلى حين تدميرهما، في القرن الحادي عشر وفي القـرن الـثاني عشر الميلاديين(129)(٩٩). أما سورية الثانية، وعاصمتها أفاميا، فقد بقيت بالمقـابل أمينة للمعتقد الكاثوليكي. وكان فيها دير مار مارون الكبير بمنزلة مركز إشعاع عقائدي. وسيكون نواة الطائفة المارونية في المستقبل (130) .

---

(٩٧) الهلينية : اليونانية .

(٩٨) باتـبو : قرية تبعد ٧كم غرب الأتارب، منطقة جبل سمعان، محافظة حلب. تسميتها سريانية: "بيت آبو "، ومعناها بيت الأب .

(٩٩) دمرت الأديرة خلال هجوم الفرنج على سورية، فيما عرف خطأً بالحروب الصليبية .

أمـــا سائر أقاليم سورية الجنوبية، فقد كان الانقسام الديني هو الاتجاه العام المتبع. غيـــر أن الوضـــع قد تأزم لوجود استثناءات عديدة لهذه القاعدة العامة، فنجد مثلاً في ســـورية الأولى، أن الأديـــرة التي حول جبل سمعان، وأديرة تل نيشين، قد اتبعت منذ وقت مبكر المونوفيزية، بينما بقي دير قلعة سمعان خلقيدونياً (131) .

وفـــي أنطاكية كان السكان منقسمين، مما أدى إلى وجود بطريركين معاً، في آن واحـــد. أما في الريف، فقد بلغ الاضطراب الديني أشده، وهذا ما دفع بعض المؤلفين إلى أن يروا في البقايا الأثرية للمدن الميتة (١٠٠) تأكيداً لهذا الانقسام في سورية العليا. وإنـــه لمـــن المذهـــل حقاً أن نرى بين هذه الخرائب الضخمة، التي ترجع إلى العهد الـــروماني – الـــبيزنطي، وجود كنيستين أو أكثر في هذه القرى الجبلية البسيطة. ففي دير قيطا(١٠١) ثلاث كنائس. وفي قالوطا (١٠٢) كنيستان. وفي بحيو(١٠٣) كنيستان. وفي الشـــيخ سليمان (١٠٤) ثلاث كنائس. وفي رويحة (١٠٥)، ومجلية (١٠٦) كنيستان في كل

(١٠٠) المـــدن الميـــتة: هي بضع عشرة مدينة، أكبرها البارة، ومنها : حححلايا، بترسا، سرحلا، شنان ، فركيا، باشمشلي. وهي في محافظة إدلب شمال غرب سورية، كانت مأهولة في العصر الروماني – البيزنطي، ولا تزال آثار بنيانها قائمة حتى الآن، وقسم كبير منها بحالة جيدة، لا ينقصها إلا السقف والسكان .

(١٠١) دير قيطا : مدينة أثرية من المدن الميتة حول البارة .

(١٠٢) قالوطا : راجع قلعة قالوطا، حاشية /٥٢ .

(١٠٣) بحيـــو : مدينة أثرية مهجورة، تتبع منطقة حارم، محافظة إدلب. تقع على هضبة في جبل باريشا، وتتوسط ســـهلاً زراعياً خصيباً. بنيت في القرن الأول الميلادي، وازدهرت في القرن الخامس، فيها أوابد عديدة، منها كنيسة كبيرة، وبيوت ومعاصر وخزانات .

(١٠٤) الشيخ سليمان : مدينة أثرية ميتة قرب البارة.

(١٠٥) رويحه : إنها رويحة أريحا، وهي مدينة أثرية ميتة. تقع في السفح الشرقي لجبل الزاوية، جنوب شرق أريحا، محافظة إدلب. وهي أهم المدن الأثرية، إذ تمتد آثارها على ٢٠ هكتار، منها دارات وكنائس وحمام ومدافن، وهي غير قرية الرويحة التي تقع قرب بلدة منطف .

(١٠٦) مجلية : مدينة أثرية ميتة، جنوب البارة ٢ كم ، ناحية إحسم، منطقة أريحا، محافظة إدلب، آثارها أقدم من البارة. وتمتد على مساحة واسعة، منها: كاتدرائية وكنيسة وحمام ومعصرة ومدافن .

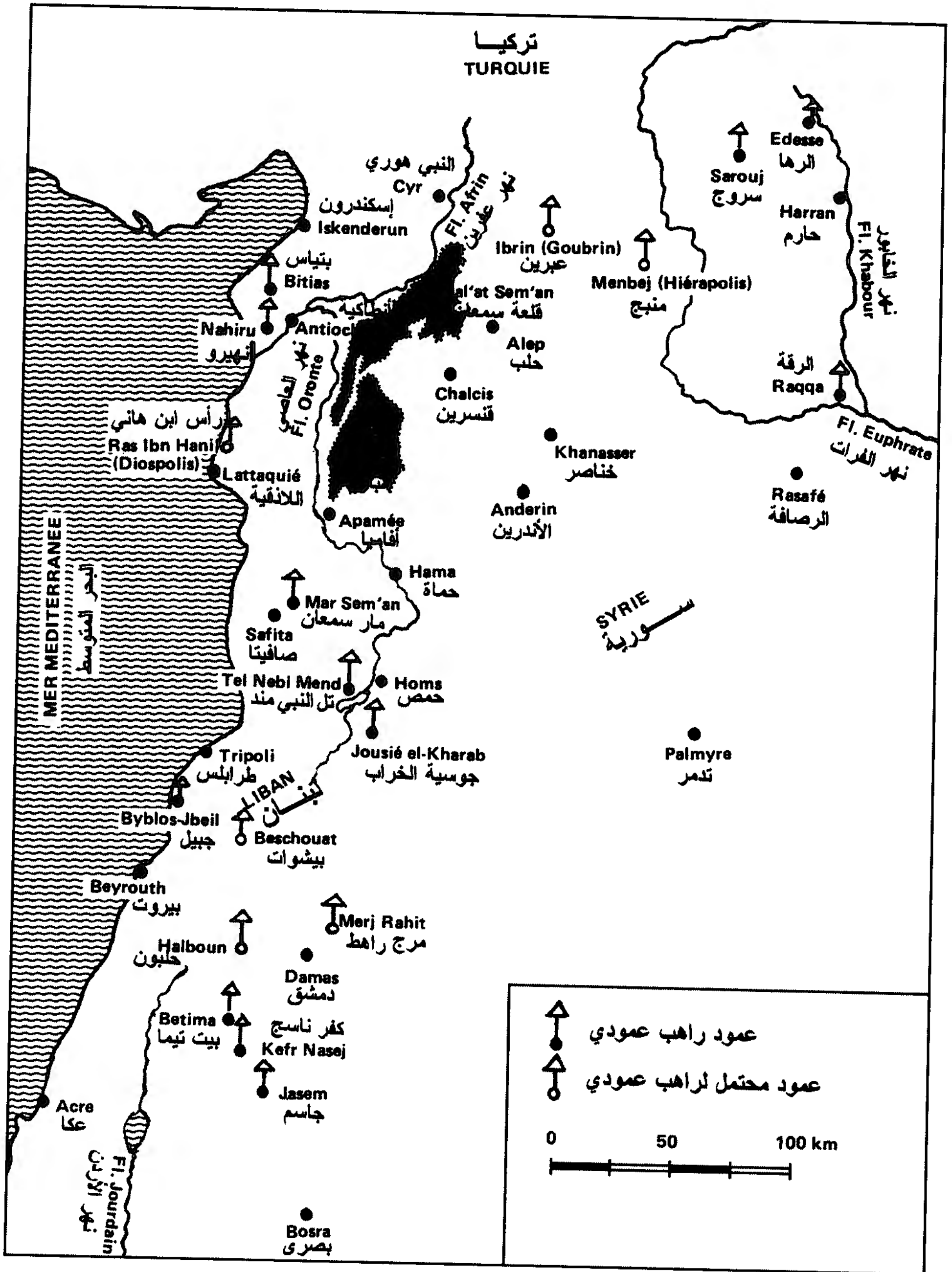
مـــنهما، إلخ ... ولنا أن نتساءل عن سبب تعدد أماكن العبادة في قرى ذات عدد قليل من السكان.

إن الجواب على هذا التساؤل يمكن أن يكون بسبب وجود جماعتين أو أكثر، لكل منهما كنيستها وأعيادها، ورجال دين خاصون بها. ولكن برأينا يجب أن نفكر بجواب آخـــر، لئلا نبالغ بالانقسامات الدينية في سورية البيزنطية. فنحن نعلم أنه في الطقوس الشرقية تقضي العادة ألا يحتفل في اليوم إلا بقداس واحد لكل كنيسة، وهذه العادة عند الســـريان والروم والأرمن. ولكن في المدن وفي القرى التي اهتدت إلى الإيمان حديثاً، كانت هذه العادة تحرم سكانها الأتقياء من إمكانية الاشتراك في ذبائح إلهية (قداديس) متعددة، وكان حل هذه المشكلة في الإكثار من أماكن العبادة. وأصبح الفخر الأكبر هو وجود كنائس كثيرة .

وتفســـيرنا هـــذا لا ينكر حقيقة الانقسام الديني في الريف السوري، بل يضعه في حجمـــه الحقيقـــي. وستنجم بالطبع عن هذا الانقسام نتائج وخيمة في المستقبل القريب على الحياة المسيحية في سورية، وبشكل خاص على الحركة العمودية، وذلك لأن هذا الانقســـام الديـــني قـــد تجـــاوز حدود المجادلات، وتحول سريعاً إلى قتال عنيف بين مونوفيـــزيين وخلقيدونيين، بين سوريين وهيلانيين. فأطفأ المحبة التي بغيرها لا وجود للرهبنة على الإطلاق .

ج – عموديون سوريون :

إن نمـــط الحيـــاة التي عاشها القديس سمعان قد حرض العديد من مواطنيه على الاستجابة لهذه الظاهرة، ونحن لا نعرف للأسف إلا بعض أسمائهم. (الرسم-٤)



الرسم (4): مواقع أعمدة الرهبان العموديين في سورية

فبحسب السنكسار[١٠٧] اليوناني، كان ثمة عمودي اسمه سـمعان يعيش في القرن الخـامـس الميلادي في الجبل الوسطاني[١٠٨]، غربي حلب، وشرقي دركوس - حالياً دركوش - [١٠٩]. وكان أصل هذا العمودي من قرية دير مران[١١٠] غربي حلب. وهو يُذكـر فـي الطقـس البيزنطي إلى جانب أشهر ممثلين للعمودية وهما: سمعان الكبير وسـمعان الصغير[132]. كما أن لوائح الأديرة المونوفيزية في القرن السادس الميلادي تذكـر أسماء يونان وأوسطات وشمعون وبولس، وهم على التوالي عموديو أديرة كفر دريان وتقاد وإرحاب ويحمول [133].

وهـناك مخطـوط سـرياني، نشره ف. رايت، يذكر اسم سرجيوس عمودي في جوسية [١١١]، في القرن السادس الميلادي. وذلك بمناسبة خلافه مع يهودي حول النبوة الإلهية للسيد المسيح، حيث يظهر العمودي معرفة جيدة بالعهد القديم وبالأدب اليهودي. وهذا المخطوط الذي كتبه رئيس دير جوسية في القرن الثامن الميلادي هو من الوثائق

---

(١٠٧) السنكسار : كتاب سير القديسين.

(١٠٨) الجبل الوسطاني : وهو جزء من مجموعة جبلية تمتد من الشمال إلى الجنوب، شبه متصلة في الشمال، متفرغة في الجنوب. تقع غرب جبل سمعان وشرق وادي العاصي، قرب حارم، وهي بالترتيب من الشرق إلى الغرب :

١- جبل باريشا : وهو قليل الارتفاع طوله ١٥كم وعرضه ٤كم، أعلى ارتفاع له ٦٥٧م.

٢- الجبل الأعلى : شكله متطاول بيضوي، أعلى ارتفاع له ٨١٩م.

٣- الجـبل الوسـطاني : طوله ٤٠كم، ومتوسط عرضه ٣,٥كم، أعلى ارتفاع لـه ٨٤٧ م في قمة جبل الحنش. وهذه الجبال صخور كلسية جرداء، على شكل قوس يناظر جبال الساحل السوري .

(١٠٩) دركـوش : مركـز ناحية، تبعد ٢٧ كم شمال مركز منطقة جسر الشغور، محافظة إدلب. تقع المدينة في وادي العاصي، وتمتد على ضفتي النهر. فيها آثار قديمة منها : مغاور، جسر، قلعة، حمام، وعدة نقوش أثرية .

(١١٠) دير مران : يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان : إن دير مران في دمشق، ثم يقول : "ودير مران أيضاً عـلى الجبل المشرف على كفر طاب قرب المعرة يزعمون أن فيه قبر عمر بن عبد العزيز وهو مشهور بذلك، يزار إلى الآن " .

(١١١) جوسـية : بلدة صغيرة تتبع ناحية القصير، تبعد عنها ١١كم للجنوب. وبجانبها البلدة القديمة التي تسمى (جوسـية الخـراب)، والتي كانت عاصمة لإقليم (ماوريكو بوليس)، ولا يزال فيها عدة آثار تعود للعصر البيزنطي، من آثارها : برج وقصر يسمى قصر البنات. وفيها دير مار إلياس، وهو مزار مشهور حتى الآن .

الـــنادرة عـــن الجدل الديني اليهودي والمسيحي في ذلك العصر(134). وقرية جوسية، واســـمها الآن جوسية الخراب تقع على بعد ٣٥كم جنوب حمص. ويوجد فيها بحسب الكُتّاب العرب(١١٢)، دير باسم دير باعنتل(١١٣)، وهو مشهور بهيكله الرخامي(135).

كمـــا أن ابـــن العبري(١١٤) يشير في تاريخه الكنسي (ج١، ص٣٢٠) إلى وجود عمـــودي آخـــر باســـم سمعان في نفس بلدة جوسية (جوسيت. في أراضي حمص)، وقد عـــاش في عهد هيراكليوس(١١٥) القرن السابع الميلادي. وأن تيودوروس(١١٦) قائد الجيش الـــبيزنطي، الـــذي كـــان يحـــارب العـــرب، أتى مع ضباطه إلى هذا العمودي ليلتمسوا صـــلواته، ويطلبوا المشورة الإلهية بوساطته(136). ويذكر ميخائيل السوري(١١٧) عموديين فـــي نواحي الرقة(١١٨). وقد استشهدا في أثناء ردة فعل الخلقيدونية ضد المونوفيزيين، في

---

(١١٢) إن ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان هو الذي تحدث عن دير باعنتل.

(١١٣) ديـــر باعنتل : يقول عنه ياقوت : "إنه على أقل من ميل من جوسية، وفيه عجائب منها أزج أبواب فيها صـــور الأنبياء وهيكل مفروش بالمرمر، لا تكاد تستقر عليه القدم. وصورة مريم كلما مِلْت إلى ناحية كانت عينها إليك " .

(١١٤) ابـــن العبري : ١٢٢٦-١٢٨٦م، أبو الفرج غوريغوريوس بن آهرون. كان والده طبيباً يهودياً اعتنق النصرانية، لذلك دعـــي بـــابن العبري. ولد في ملطيه قاعدة أرمينيا الصغرى، وتوفي في مراغة في أذربيجان. ألمع رجال الأدب والعلم عند الســـريان. درس الطـــب والفلســـفة، وعين أسقفاً ليعاقبة حلب، ثم مفرياناً للشرق، وهو منصب يتلو البطركية. أشهر مؤلفاته بالعربية : تاريخ مختصر الدول، وبالسريانية : التاريخ الكنسي، و منارة الأقداس .

(١١٥) هيراكليوس : إمبراطور بيزنطي ٦١٠-٦٤١م. هزم الفرس، واسترد بلاد المشرق منهم، واسترجع الصليب المقدس. ولكنه فشل أمام الزحف العربي بعد سنوات قليلة .

(١١٦) تيودوروس : هو أخ للإمبراطور هيراكليوس، وواحد من قادة جيوشه. أسماه العرب في مؤلفاتهم (تذارق). قاد معركة مشهورة في سهل أجنادين في فلسطين ضد جيوش العرب المسلمين في أواخر تموز ٦٣٤م، وهزم فيها شر هزيمة. للتوسع راجع : ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢/ ٢٨٧. البلاذري، فتوح البلدان، ١/ ١٣٦. توفيق برو، الدولة العربية الكبرى، ١٧٣.

(١١٧) ميخائيل السوري : إنه ميخائيل الكبير ١١٢٦-١١٩٩م، بطريرك السريان، أديب ومؤرخ لـــه (كتاب الحوليات) في تاريخ الكنيسة وبلاد الشرق .

(١١٨) الرقة : قاعدة محافظة في سورية على ضفة الفرات اليسرى. أسست في العصر السلوقي باسم نيكفوريوم، وعرفت في العهد الروماني باسم كالينيكيوم، وفي العصر العباسي جعلها هارون الرشيد عاصمته الصيفية، وبنى فيها قصر السلام، واهتم بها حتى عرفت بمدينة الرشيد. دمرت أثناء الغزو المغولي للمنطقة. وفيها الآن عدة آثار إسلامية، منها : السور ومسجد أبي جعفر المنصور وقصر البنات .

عهد يوستين الأول (Justin I)[١١٩]، الذي أمر بذبح كل من في الأديرة التي في الرقة، ومنهم القديس زكا، والقديس آبا، والقديس ماجه، ومطرانهم، وكل الرهبان. وكان هناك عمودي يدعى سمعان لم يأكل طوال حياته أي طعام لذيذ، واكتفى بجذور الأعشاب في الشتاء وبالخضار في الصيف، بينما كان يمضي وقته في تأمل عجائب الله. كما كان هناك عمودي آخر يقوم بالمعجزات، واسمه توما الداري[١٢٠]، وهو طبيب بارع تحترمه الملائكة نفسها. وقد حكم على الاثنين بالموت بعد جدل طويل وعقيم [137].

وهناك مخطوط سرياني من القرن السادس الميلادي، ترجمه ج. ب. شابو، وفيه رسالة تدين مذهب التأليه الثلاثي، أرسلها الأرشمندريتات العرب إلى الأساقفة الأرثوذكسيين. ومن بين الموقّعين نرى الأسماء التالية : مار حبوشوب، كاهن وأرشمندريت عمود كفرناسك، مار زنودوروس، كاهن وأرشمندريت عمود بيت تيمان، الذي وقّع عن يوحنا القاطن في دير حنه، والمدعو باسم بيت سيدتنا مريم، ومار ليونتيوس الخاطئ، الذي هو "برحمة الله ونعمة المسيح " راهب عمود دير القديس هوغون. وقد وقّع هذا الأخير باليونانية[138]. ونجد هذه الأماكن الثلاثة لهؤلاء العموديين في منطقة دمشق، إذ إننا نعرف أن إقليم العربية الروماني الذي تأسس عام/ ١٠٦م كانت عاصمته بصرى. ونعرف أيضاً أنه في وثائق المجامع المونوفيزية التي كانت ضد أصحاب مذهب التثليث الإلهي قد وجدت كل من منطقة دمشق، ومنطقة تدمر أيضاً، ضمن المصطلح المعروف باسم "العربية". وحوالي عام/٥٧٠م أصبح هذا الاسم يشير إلى كل الأراضي الواقعة تحت سيطرة الأمراء الغسانيين المسيحيين[139].

---

(١١٩) يوستين الأول : إمبراطور بيزنطي (٥١٨-٥٢٧م)، حارب المونوفيزيين، ووضع حداً للخلاف مع روما - المعروف باسم انشقاق أكاكيوس - الذي حدث زمن الإمبراطور زينون، عندما صدر قرار التوحيد بين المونوفيزين والكاثوليك (هينوتيكون) .

(١٢٠) دارا : كانت مدينة هامة في شمال سورية، تتبع نصيبين في ديار ربيعة. تقع الآن ضمن الحدود التركية قرب ماردين .

وللـــتحقق مـــن مكان كفر ناسك نظن أنها بلدة كفر ناسج[١٢١] الحالية في منطقة حـــوران، على بعد ٥٠كم جنوبي دمشق. ففي هذا المكان بحسب دوسّو[١٢٢] كان ثمة ديـــر، وقـــد أقـــام عمودي عموده فيه(140). أما بيت تيمان[١٢٣]، – وتعني حرفياً بيت الجـــنوب –، فهي على الأرجح قرية بيت تيما الحالية، على بعد/ ٣٥ كم جنوب غربي دمشق، على سفح جبل الشيخ، وهو جبل حرمون المذكور في التوراة، وهي غير بعيدة عن قرية حينة المسيحية. ومن المؤسف أننا لم نتمكن من زيارة هذه الأماكن لوقوعها في منطقة عسكرية. لكن المعلومات التي تلقيناها من سكان بيت تيمان الذي اتصلنا بهم فـــي دمشـــق، أكدت لنا وجود عمود يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار، على بعد كيلو مترين ونصف غربي القرية، ويبدو أنه ما زال قائماً. كما أكد لنا أهل القرية وجود بقايا أبنية قديمة حول العمود. – هل هي أبنية رهبانية ؟ –. واسم المكان هو العمود، والاسم ذو دلالة واضحة .

أمـــا بخصـــوص مكـــان ديـــر القديس هوغون – أو هاغون –، فإننا نجد أنفسنا مـــترددين كـــثيراً، والمشـــكلة هي في تحديد موضعه. فمن المستحيل العثور على هذا المكـــان فـــي مصورات سورية أو في ذاكرة أهالي المنطقة، ولعل الأمر يتعلق بقرية حلبون[١٢٤]، على بعد/ ٢٥ كم شمال غربي دمشق. فالتقارب بين أسماء الأعلام شيء

---

(١٢١) كفر ناسج : قرية في حوران، تبعد ١٧ كم جنوب غرب غباغب، في منطقة الصنمين، محافظة درعا. فيها آثار رومانية وبيزنطية، منها : قصر وكنيسة ومقابر مزينة بالنقوش، بالإضافة إلى الأقنية القديمة .

(١٢٢) دوســـو : رينيه دوسو، باحث فرنسي، عاش ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين. اهتم بتاريخ ســـورية القـــديم، لـــه دراسات قيمة عن العرب الصفويين، من أهم كتبه: العرب في سورية قبل الإسلام، والطبوغرافية التاريخية لسورية في العصور القديمة والوسطى .

(١٢٣) بيت تيما : قرية في حوض نهر الأعوج، شمال شرقي سعسع ١٢كم، تتبع منطقة قطنا، على السفح الشرقي لجبل الشيخ .

(١٢٤) حلـــبون : قـــرية في القلمون، تقع فوق السفوح المشرفة على وادي حلبون، عند التقاء سلسلتي القلمون الوسطى والغربية. تبعد ١٤كم غرب بلدة التل، محافظة ريف دمشق . وهي قديمة، فيها آثار لبوابات حجرية عليها كتابات لاتينية تعود للعصر الروماني .

مقـــبول، فكـــم وكـــم من الكلمات الأكثر تحريفاً نراها في كل الشرق الأدنى، وفي كل مكان. زرنا حلبون بتاريخ ٣ نيسان ١٩٧٣، لنتحرى ما فيها من ذكريات قديمة. وفي مكان يسمى الشيخ عيسى، أسفل القرية، أطلعنا السكان على الخرائب الكلاسيكية، وهي عـــبارة عـــن أساسات لبناء كبير (دير؟). وعلى بعد بضعة أمتار من هذا المكان، في الـــزاوية الشمالية الغربية، قطعة كبيرة منفردة من العمود قطرها ٩٥سم. وليس هناك أكـــثر مـــن ذلـــك ليدلنا على وجود عمودي في هذه البقعة. ومع أن ما تقدمه لنا هذه الأنقاض من معلومات تبقى ناقصة، بوسعنا أن نحدد في هذه البقايا المشوهة وجود دير حلـــبون اليعقوبـــي، الذي سيذكر في القرن السادس الميلادي، وسيصبح أيضاً كرسياً أسقفياً (141) .

وهـــناك مخطـــوط يونـــاني قديـــم يدلنا على وجود عمودي في منطقة الجولان السورية. فعلى تخوم العربية الواقعة بالقرب من دمشق وبصرى[١٢٥]، حيث توجد بلدة تســـمى جاسيموس، تتبع كلها هرطقة يعقوب، وعلى بعد أمتار من هذه البلدة كان ثمة عمودي ينتمي هو أيضاً إلى هذه الهرطقة[142]. وكان هذا العمودي الذي يتكلم اليونانية والسريانية لسان حال المسيحيين في جدل طويل مع يهود دمشق، الذي يمتد من الساعة الواحـــدة حتى الساعة العاشرة، ويبدو من خلال مضمون هذا الحوار أنه تم بعد الفتح الإســـلامي لدمشق عام٦٣٦م، ببضع سنوات. إن بلدة جاسيموس هي بلدة جاسم الحالية نفســـها[١٢٦]، عـــلى بعد ٧٠كم جنوبي دمشق، حيث نرى نصاً سريانياً يشير إلى دير سابينيانوس .

---

(١٢٥) بصـــرى : مركـــز ناحيـــة في حـــوران، تتبع محافظة درعا. كانت محطة هامة للقوافل التجارية، لموقعها الاستراتيجي. فيها آثار تعود لعصور متعددة أهمها المسرح الروماني المحاط بالقلعة الأيوبية، والسوق والشارع والـــبوابة وقـــوس النصـــر والحمامات..، يقال إن معنى اسمها هو: الحصن، وقد ورد في رسائل تل العمارنة الفـــرعونية في القـــرن ١٤ ق م. وعاصرت بصرى كل الحضارات التي مرت على سورية، ولكن ازدهارها العظيم كان في العصر الروماني، حيث سميت – بصرا تراجانا – وأصبحت عاصمة للولاية العربية .

(١٢٦) جاسم : بلدة في حوران، تقع على بعد ٤٤ كم شمال إزرع، محافظة درعا. فيها آثار قديمة تعود للعهدين الروماني والبيزنطي، منها : دير وبيوت وآبار وأقنية. وهي بلدة الشاعر العربي أبي تمام .

لقد زرنا قرية جاسم في ٩ آب ١٩٧٣، في ظروف غير مناسبة البتة، حيث رافقنا نصف أهالي القرية. وكان كل منهم يسعى ليرينا حجراً قديماً أو بقية حطام عمود. فالقرية ممتلئة بأنقاض من العهد البيزنطي، إذ تلاحظ علامة الصليب في كل مكان، منقوشة على هذه الحجارة السوداء التي تميز المنطقة. وما هذه الكثرة في وجود الصلبان في القرى السورية إلا للدلالة على تمركز المسيحية الراسخ في الوسط الريفي. وبعد الكثير من الأبحاث والأسئلة المطروحة على القرويين، حصلنا على معلومة ثمينة، فقد قال لنا شيخ القرية الذي كان يرافقنا، إنه يتذكر وجود عمود ضخم معزول، وقد وضع من قبل في ساحة بيت محمد الجباوي. فذهبنا حالاً إلى البيت الذي يقع جنوبي القرية الحالية قريباً من الجامع، ومع الأسف لم نجد أي أثر لهذا العمود. ولكن صاحب البيت أكد لنا، بكل صراحة، أنه قبل ثلاثين سنة حطم العمود ليوسع البيت. واكتفينا بالتيقن من وجود قطع جدران من العهد البيزنطي حول البيت، وهي بلا شك بقايا دير. وفي مكان العمود مهدت الأرض، فحتى نصل إلى القاعدة كنا نحتاج لإجراء حفريات. ولكننا لم نتمكن من تعميق أبحاثنا أكثر من ذلك، لأن قرية جاسم تقع على بعد بضعة كيلو مترات فقط من خط النار، لذلك تبقى الإشكالية قائمة حول مكان الإقامة العمودية لعمودي جاسيموس .

وبحسب روايات الراهب أنسطاس السيناوي، كان في القرن السابع الميلادي عمودي قديس جداً على بعد اثني عشر ميلاً من دمشق. ويتحدث النص عن شخص جاء إلى العمودي ليدس على ارشمندريت المدينة الفاضل. فتشكك العمودي بذلك[143]. إذن أين أقام هذا الراهب التائب ؟ بحسب كاتب الروايات، كان الراهب يعيش بالقرب من دير، هو بمنزلة مركز حج لأهالي دمشق، فكانوا يغدون إليه بأعداد كبيرة يوم عيد الشهداء. ومن المحتمل أن يكون هذا الدير هو دير رايتون، وهو مقر إقامة الراهب أنسطاس. وينبغي البحث عن هذا الدير في ضواحي دمشق. وهو على الأرجح، كما نظن في منطقة مرج راهط[١٢٧]، الذي يقع على بعد ١٨كم شمال شرقي دمشق. وهذه المسافة تتوافق مع معطيات الروايات.

---

(١٢٧) مرج راهط : هو السهل الممتد قرب بلدة عدرا الحالية، من أعمال منطقة دوما، وهو في وسط الطريق بين ممر ثنية العقاب في جبال الشام الشرقية ومدينة دمشق. وقد شهد عام ٦٨٤م انتصار مروان بن الحكم على القبائل القيسية المؤيدة لعبد الله بن الزبير بعد معركة كبيرة جرت في هذا السهل.

ومما يؤكد افتراضنا أن القائد العربي خالد [١٢٨] فاجأ سنة ٦٢٤ م مسيحيي دمشق [١٢٩]، الحاجّين إلى هذا المكان[144]. ولقد اتبع أحد تلامذة عمودي دمشق، وهو يوحنا، خطا معلمه، فاختار مقره في مدينة ديوسوبوليس[١٣٠][145]. وقد تكون هذه المدينة هي قرية رأس ابن هاني الحالية، على بعد ١١كم شمال اللاذقية، غير بعيد عن مدينة أوغاريت القديمة[١٣١] [146] .

وفي تل نيشين، وهو اليوم دير سمعان، اكتشفنا عموداً لعمودي. ولكن مع الأسف لم نجد أي معلومات تحدثنا عن حياته، ونجهل اسمه تماماً. وفي المقابل نعرف اسم عمودي سوري من القرن السادس الميلادي، وهو مار مارون[١٣٢]، الذي أمضى التسع والعشرين سنة الأخيرة من حياته على عمود، ولكن مكان منسكه بقي مجهولاً[147]. وفي القرن التالي ذهب راهب سوري اسمه أنطوان[١٣٣]، ليستقر في أرض لم تعرف العمودية من قبل، وهي جورجيا البعيدة[١٣٤]. وغير بعيد عن مدينة ميتزخيطا

---

(١٢٨) خالد : هو الصحابي الجليل خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي، سيف الله، من أشراف قريش في الجاهلية، أسلم قبل فتح مكة، قرّبه الرسول (ص) وولاه الخيل. كان بطل الفتوح الإسلامية في العراق والشام. قاد أهم معارك الفتح، مثل : أجنادين، واليرموك . وصل إلى مرج راهط بعد أن عبر الصحراء من العراق بمغامرة مثيرة، حيث عبر من خلف خطوط الروم في الشام عام٢١هـ، توفي بحمص عام ٦٤٢م.

(١٢٩) تجمع المصادر العربية على أن خالد بن الوليد قد فاجأ الغساسنة، بينما كانوا يحتفلون بعيد الفصح، وهم قبائل عربية يمنية متنصرة من أتباع المونوفيزية .

(١٣٠) ديوسبوليس : لاتينية معناها مدينة الآلهة .

(١٣١) أوغاريت : من أعظم الحواضر الكنعانية في شمال الساحل السوري، ازدهرت في القرن ١٥ ق.م، وقد أبدعت حضارة متقدمة. ولعل أهم إنجازاتها الحضارية اكتشاف الأبجدية. وقد قضى عليها شعوب البحر الإيجيون في القرن ١٢ق.م. موقعها الحالي عند رأس الشمرة .

(١٣٢) مار مارون : كان معلماً ليوحنا الإفسسي الذي كتب سيرته، عاش ١١سنة في جوف شجرة قبل أن ينتقل إلى العمود .

(١٣٣) أنطوان : ولد بسورية، وتنسك على عمود في جورجيا، قرب عاصمتها، وأقام عليه حتى آخر حياته، وما زال يكرم حتى اليوم في جورجيا .

(١٣٤) جورجيا : إحدى الجمهوريات التي استقلت بزوال الاتحاد السوفييتي، تقع على البحر الأسود شمال تركيا، عرفها العرب باسم بلاد الكرج .

الملكية، أقام عموداً طوله/ ١٥ م تقريباً. وبالقرب منه بنى كنيسة مكرسة لمواطنه القديس سمعان الكبير[148]. وكان ينزل من على عموده من وقت لآخر ليحتفل بالقداس بحضور رهبانه .

ويشير جان موسكس إلى وجود عمودي هرطوقي من القرن السابع الميلادي، في مدينة هيرابوليس المقدسة، التي هي اليوم منبج [149]. ومع مطلع القرن الثامن الميلادي، في دير ليتاربا، حالياً أتارب، أشير إلى وجود راهب عمودي اسمه يوحنان (حنا)[١٣٥]، وهو شخصية ذات ثقافة واسعة، إذ إنه ألف كتاباً في حساب أعياد السنين. هذا الكتاب الذي اتخذه ميخائيل السوري أساساً لكتابة الحوليات[150]. وتبادل الكاتب يعقوب الرهاوي، في القرن الثامن الميلادي، الرسائل مع عموديين سوريين وهما يعقوب وسمعان[151]. وفي القرن التاسع الميلادي، في كفر توتا، وهي بلدة بين رأس العين[١٣٦] ودارا، أشير إلى عمودي باسم أفرام، وهو كاتب مشهور في الكنيسة اليعقوبية[152]. وهناك مخطوط سرياني يذكر اسم إسحق بن مارون ، وهو عمودي وشماس إنجيلي، اختار مقراً له في ديار بني صيفي غير بعيد عن حران[١٣٧]، ويبقى علينا تحديد موقعه[153]. ومن المرجح أنه كان أيضاً لمدينة جبيل(بيبلوس)[١٣٨]

---

(١٣٥) يوحنان : يوحنا أو حنا، ولد في أتارب مع بداية الفتح العربي لسورية، انضم إلى رهبان دير الأتارب، ثم انتخب رئيساً للدير لذكائه وفضائله، ولكنه فضل حياة التقشف، فاعتلى عموداً وانصرف للصلاة والتأليف، توفي عام ٧٣٧م .

(١٣٦) رأس العين : بلدة في شمال شرق سورية، تبعد ٨٤ كم شمال غرب الحسكة، وهي قرب مجرى الخابور، تكثر حولها الينابيع، وهي مركز حضارات قديمة، اسمها السرياني: ريش عينو، وتقع الآن قرب الحدود التركية في ديار ربيعة .

(١٣٧) حران : تقع على نهر البليخ، في ديار مضر شمال سورية، جنوبي مدينة الرها - الآن ضمن الحدود التركية -. وهي مدينة قديمة ذكرها التوراة، عندما قصدها إبراهيم الخليل بعد خروجه من أور. كانت تضم في عصر الدولة العربية مدرسة ثقافية هامة. تعتني بالفلك والرياضيات، تخرج منها علماء الصابئة الذين اشتهروا بالفلسفة والطب والترجمة، منهم ثابت بن قرة والبتّاني.

(١٣٨) جبيل : بلدة لبنانية تقع شمال بيروت، حالياً مركز قضاء ومرفأ مشهور. وهي بيبلوس من أقدم المدن الفينيقية تعود للألف الخامس ق.م، من أشهر ملوكها أحيرام الذي حكم في في القرن١٣ق.م، كانت لها علاقات قوية مع مصر الفرعونية، اشتهرت بهيكل عناة (عشتار)، وقد انتشرت منها عبادة أدونيس في العهد اليوناني والروماني. من أهم آثارها : المعبد والمقابر الملكية والمسرح الروماني والكنيسة الصليبية .

عموديهـــا. فعــلى تـــل شرقي المدينة لا تزال توجد كنيسة متواضعة مكرسة للقديس ســمعان. وفــي وســط هذه الكنيسة ينتصب عمود ضخم من المرمر، ارتفاعه خمسة أمتار، ومحيطه/٤,٥م، إنه بالتأكيد عمود لعمودي، كما استنتج الأب ماترن(154).

وفـــي القـــرن التاســـع الميلادي، نجد في بن شامش، وهي منطقة في أعالي بلاد الـــرافدين، غير بعيد عن نهر الخابور، عمودياً متقفاً جداً اسمه توما. ورسائله العديدة الـــتي وجههـــا إلى شخصـــيات فـــي الكنيسة اليعقوبية لا تزال محفوظة(155). ويذكر ميخـــائيل الســـوري اسم العمودي إبراهام(١٣٩)، الذي عاش في القرن العاشر الميلادي عـــلى عمود دير تلعادة، ثم دعي فيما بعد ليشغل كرسي أسقفية الرها(156). ويوجد في تـــلعاده ديـــر الأب هيـــليودور، حيث تدرب القديس سمعان الكبير على الحياة النسكية طـــوال عشر سنوات. وقد تعاقب على عمود قور زاحل عموديان باسم حنا، ثم انتقلا مـــن عمودها إلى الكرسي البطريركي اليعقوبي الأنطاكي، الأول سنة٩١٠م باسم حنا الـــرابع(١٤٠)، والثاني سَميه، سنة ٩٥٤م باسم حنا السادس(١٤١). وكرَّس البطريرك حنا الـــرابع، وهـــو العمودي السابق، عمودياً آخر اسمه توما، عمودي جبل الرها، أسقفاً لـــتكريت(157). ومـــن خلال حاشية مكتوبة بالعربية على مخطوط سرياني من القرن الحـــادي عشـــر الميلادي، نعرف أن عمودياً اسمه بطرس قد نصب عموده في هناك. وهـــي اليـــوم خـــربة هناك، القريبة من معرة النعمان(١٤٢). تقول الحاشية ما نصه :

---

(١٣٩) إبراهام : ذكر في المصادر السريانية باسم مار إبراهيم.

(١٤٠) حـــنا الرابع : يوحنا، عاش في قور زاحل، نزل من على عموده عندما رقاه يوحنا مطران مرعش إلى رتبة الأسقفية. ثم تسلم عكاز البطريركية في ٢١ نيسان ٩١٠م، واستمر فيها حتى توفي في تشرين الثاني ٩٢٢م.

(١٤١) حـــنا الســـادس : عاش على عموده في قور زاحل حتى انتخب بطريركاً في١٦ تموز ٩٥٤م، وتوفي ٣١ كانون الأول ٩٧٢ م .

(١٤٢) معرة النعمان : معرة من كلمة معرتا السريانية وتعني المغارة، والنعمان نسبة إلى الصحابي النعمان بن بشير الأنصـــاري. وهي مدينة قديمة، احتلها الفرنجة، إلى أن حررها منهم عماد الدين الزنكي، ثم دمرها التتار، ولا تزال تحتفظ بآثار هامة منها : الجامع الكبير، والمدرسة الشافعية، وخان مراد باشا، وقلعة المعرة، وضريح أبي العلاء المعري. وهي مركز منطقة في محافظة إدلب، جنوب حلب ٨٣ كم .

"يخـص هذا الدفتر الراهب بطرس حبيس هناك في منطقة شيزر[١٤٣] وقد حبس نفسه على عمود " (158).

وراهـب باسـم قوزمـا أقام عموده في سروج[١٤٤]، في دير مار برصوما[١٤٥]، ورقـيّ فيمـا بعد إلى كرسي الرصافة الأسقفي[١٤٦] في القرن العاشر الميلادي(159). وفـي القـرن الحـادي عشـر الميلادي حبس بولس نفسه، وهو رفيق القديس لعازر الغاليسيوطي، على عمود في لاذقية لبنان، على بعد ١٥كم جنوب غربي حمص. وكانت مدينة مزدهرة في العهد الروماني، وتقوم اليوم على أنقاضها قرية تل النبي مَنْد الصغيرة. وقد عثر فيها على مسلة أقامها الفرعون سيتي الأول[١٤٧](160).

ومـع أن كثيراً من العموديين السوريين الآخرين ظلوا مجهولي الاسم، نرى في بعض الأحيـان ذكـراهم محفوظة في المواقعية[١٤٨] المحلية. فعلى سبيل المثال نجد أديرة باسم دير العمـود. وهـذا عـلى الأغـلب تخليداً لذكرى عموديين أسسوها، أو عملوا على شهرتها. فميخـائيل السوري يذكر مثلاً : دير العمود في جبرين، في منطقة قورش(161)، وهي القرية الـتي طابقناها مع قرية عبرين الحالية، وتقع على بعد ٧كم شرق مدينة إعزاز[١٤٩]. كما ذكر

---

(١٤٣) شيزر: بلدة فيها قلعة شهيرة، على الضفة اليسرى لنهر العاصي، على بعد ٣٠كم شمال غربي محردة، و ٢٥ كـم شمـال غربي حماه. وردت في وثائق مصر القديمة باسم شيزار. وفي العهد اليوناني عرفت باسم لاريسا. وأقدم ذكر لها باسم شيزر ورد في معلقة امرئ القيس. اشتهر بها بنو منقذ خلال الغزو الفرنجي لبلاد الشام.

(١٤٤) سروج: من مدن الجزيرة في ديار مضر، شمال عين العرب وغرب حران. وهي حالياً ضمن الحدود التركية.

(١٤٥) مار برصوما : (٤٢٠-٤٩٥م). أسقف نصيبين، نقل إليها مدرسة الرها. وهو كاتب سرياني له مؤلفات دينية عديدة .

(١٤٦) من الجدير بالذكر أن قوزما هذا قد حصل بعد ذلك على رتبة مطران.

(١٤٧) سـيتي الأول: فرعون مصري (١٣٠٣-١٢٩٠ ق.م) ابن رعمسيس الأول، وأبو رعمسيس الثاني، من أهم فراعنة الدولة الحديثة. قاد عدة حملات لإخضاع سورية، وانتصر على الحثيين. أصلح جهاز الدولة واهتم بالعمران، بنى معبد أبيدوس .

(١٤٨) المواقعية : Toponymie وتعني الدراسة اللغوية والتاريخية لأصل أسماء المواقع الجغرافية .

(١٤٩) إعـزاز : مديـنة في شمال سورية. مركز منطقة تتبع محافظة حلب. وهي بلدة قديمة فيها تل أثري. اسمها محرف عن عزاز وهي الأرض البكر. كانت فيها قلعة دفاعية احتلها الفرنجة وحررها صلاح الدين الأيوبي.

ديــر آخــر قــرب كاليــنيك، وهي اليوم الرقة "لقد أشعل الثوار النــار في الضواحي بيــن الــرافقــة[١٥٠] وكاليــنيك، وأحــرقوا ديــر العمود ". لقد استعار هذا الدير اسم عمود شادته الإمــبراطورة ثيــودورا[١٥١]، وبــلا شك حتى يكون منسكاً لعمودي[162]. وليس بعيداً عن صــافيتا[١٥٢]، باتجــاه شمال شرق، ثمة مكان باسم مار سمعان. وفي وسطه كان يرتفع في ســالف الــزمان عمود، وحوله نجد بقايا لدير كبير من العهد البيزنطي، ويعرف هذا المكان حــتى اليــوم باسم عامودي[١٥٣]. ويؤكد هــ. لامنس أن الفرضية القائلة بوجود أثر لعمودي ليســت بغريبة. كما أن أهالي القرى يأتون إلى ظلال شجرة ضخمة غير بعيدة عن عامودي ليكــرموا ذكــرى الشيخ سمعان، حيث تأتي النساء حاجّات إلى هذا المكان يلتمسن أن يرزقن بولد (163) .

ويعــتقد هـــ. لامــنس[١٥٤]أيضاً بوجود عموديين بين الرهبان الذين أشار إليهم شــعراء العــرب قبل الإسلام، وهم يقبعون في أعلى صوامعهم[164]. والصومعة كلمة عربية تعني قمة الجبل[١٥٥]، وفي اللغة الكنسية تعني مسكن الناسك، وهي تقع عادة في

---

(١٥٠) الــرافقة : بناها الخليفة أبو جعفر المنصور على نمط مدينة بغداد، ثم بنى الخليفة هارون الرشيد قصورها. كانت بجانب الرقة وبينهما ثلاثمائة ذراع كما يقول ياقوت الحموي، ولما خربت الرقة غلب اسمها على مدينة الرافقة .

(١٥١) ثيودورا : ولدت في سورية عام ٥٠٠م، ثم نزحت مع والديها إلى بيزنطية، وبعد وفاة والدها اشتهرت بأنها راقصة وممثلة في المسارح. أحبها وتزوجها عضو مجلس الشيوخ يوستنيانس، وهو ابن أخ للإمبراطور يوستينس الأول، وقد خلفه على عرش الإمبراطورية ٥٢٧م، وتوجت ثيودورا إمبراطورة، فساعدت زوجها في شؤون الحكم وتدخلت في السياسة الدينية، وكانت ترعى الفنون بشكل خاص. توفيت عام ٥٤٨م. (للتوسع راجع كتاب: أسرار التاريخ، لمؤرخ البلاط البيزنطي بروكبيوس) .

(١٥٢) صافيتا : اسم سرياني يعني صفاء الحياة، وفي العهد الروماني عرفت باسم أحيرو كاسترون، وعندما احتلها الفــرنجة أسموهــا البرج، وأقام فيها فرسان الداوية، حتى حررها الظاهر بيبرس. وهي الآن مركز منطقة تتبع محافظة طرطوس، وتبعد عنها ٢٩كم إلى الجنوب الشرقي. من آثارها الباقية برج أثري كبير والسور .

(١٥٣) عامودي : حالياً هي مزرعة تتبع مركز قضاء صافيتا.

(١٥٤) لامنس : هنري لامنس (١٨٦٢ -١٩٣٧م) مستشرق بلجيكي وراهب يسوعي، اشتهر بأبحاثه عن عرب الجاهلية والعهد الأموي، وله مؤلفات عديدة وهامة .

(١٥٥) الصــومعة : جــاء في لسان العرب لابن منظور : مادة صمع : والصومعة من البناء، سميت صومعة لتلطيف أعلاها. والصومعة : منار الراهب. قال سيبويه : هو من الأصمع، يعني المحدد الطرف المنضم. وصومع بناءه : علاه .

مكان مرتفع. وبحسب رأينا لا يستغرب أن تكون الصوامع التي ذكرها الشعراء العرب مأهولـــة بعموديـيـــن، مـــع الأخذ بعين الاعتبار التطور الهام لهذا النمط من النسك في ســـورية، وفي أي موضع آخر. وقد عثرنا على إشارات محتملة لوجود عموديين في المـــدن الميتة : في باتبو، وبراد[١٥٦]، وباشميشلي[١٥٧] الواقعة في المنطقة الجبلية بين حـــلب وأنطاكية. وإن دراسة أكثر تعمقاً في مواقعية هذه الأماكن ستفيدنا أكثر في هذا الموضوع .

د - العمودية والرهبنة :

مـــن مميـــزات الحـــركة العمودية أنها كانت دافعاً إلى حياة رهبانية منظمة. فمن الطـــبيعي أن تجذب سمعة العمودي مجموعة من التلاميذ الثابتين تقريباً، الذي يؤلفون نـــواة لجماعـــة تقيم تحت أقدام العمود، وبالتدريج تزداد فعاليتها فتنتظم في دير. ومن المفـــترض أن يكـــون الدير مركزاً للإشعاع الديني في المنطقة، وتزداد شهرته أو تقل بحســـب درجة شهرة الناسك. ومن الطبيعي أن يكون العمودي قدوة للرهبان ومرشدهم الـــروحي، وفي أحيان أخرى، وهو ما كان شائعاً، يحدث العكس، إذ يقوم الدير بفرز عمـــودي، ففي الأديرة الكبيرة نجد دائماً بين الرهبان واحداً عنده نزعة عمودية، وبعد موافقـــة الأب الرئيس، وبعد ما يلزم من اختبارات، يقام له عمود غير بعيد عن الدير. وتؤمـــن لــــــه ســـبل المعيشـــة، وبالمقابل يؤمن العمودي للدير الشهرة والاعتبار في المنطقة. وذلك لأن الأديرة التي تتمتع بهذه الهالة من شهرة العموديين وسحرهم يكون لها تأثير كبير على الشعب .

---

(١٥٦) بـــراد : قرية في جبل سمعان، ١٤كم جنوب شرق عفرين في محافظة حلب. وهي بلدة قديمة فيها أطلال كنائس وأبنية كثيرة، تتناثر فيها الأعمدة والتيجان والسواكف، وعدد من المقابر والآبار المحفورة في الصخر، تعود للعصر الروماني – البيزنطي .

(١٥٧) باشمشـــلي : أصل التسمية بشمشي، وهي سريانية معناها المشمسة، تسمى الآن رأس الحصان. وهي قرية قديمة غنية بآثار القرن الثالث الميلادي. تقع على الطرف الشمالي لجبل باريشا، وتبعد ١٧ كم شرق حارم في محافظة إدلب .

كانت هذه العلاقة المتبادلة بين الدير والعمودي هي القاعدة العامة، ففي كل مواقع الأعمدة التي زرناها، وجدنا هذا الأمر الثابت، بقايا أبنية ديرية، أو على الأقل بقايا كنيسة، على بعد بضعة أمتار من العمود، في قلعة سمعان أو في إرحاب، وفي كفر دريان، وفي قيمار، وفي قور زاحل، وفي أتارب، وفي تلعادة، وفي تل نيشين.. إلخ. ومن المرجح جداً في تقاد، وفي يحمول أيضاً. إذن هناك علاقات متبادلة بين العمودي والجماعة الرهبانية. وهي تشكل نوعاً من التكافل التام بينهما. فجماعة الرهبان تؤمن للعمودي حاجاته الروحية، كتلاوة القداس الإلهي والمشاركة في الحياة الليتورجية. بينما يسهر العمودي بالمقابل على تأمين الإرشاد الروحي. بالإضافة إلى أن شهرة العمودي تجذب الحجاج الورعين الذين تزود حسناتهم الدير بما يحتاج إليه، ومن ثم يؤمن الدير للعمودي ما يحتاجه من مواد ضرورية لمعيشته .

ويشير الراهب أبيفانيوس، الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، إلى أنه في الجسمانية في فلسطين توجد جماعة رهبانية متميزة، تتألف من مئة راهبة من الحبيسات بإدارة عمودي[165]. وهناك دير نسائي تكون عند أقدام عمود القديس أليبيوس، ورئيسته الأولى كانت امرأة متميزة جداً. أما القديس فكان يشارك الراهبات في تلاوة المزامير سبع مرات في اليوم، ويقوم بإدارتهن وهو على سطح عموده. كما أن ديراً للرجال قد تشكل أيضاً حول هذا العمود[166]. أما القديس لعازر الجاليسيوطي فقد بنى مقابل عموده كنيسة مفتوحة على شكل محراب، كي يتمكن بسهولة من متابعة صلوات القداس والفرض الإلهي. وقد ترك لنا كاتب سيرة هذا العمودي مقطعاً طريفاً عن حياته. فمن أعلى عموده كان يراقب، والعصا في يده، أولئك الذين يغلبهم النوم من رهبانه، فعندما كان يرى أحدهم يخفض رأسه في أثناء الصلاة يضربه بعصاه، ويقول لنا كاتب السيرة إن كاهناً كان يأتي إلى الكنيسة بانتظام ليحتفل بالقداس الإلهي[167].

خاتمة

دور الرهبان العموديين

لقد أجبنا حتى الآن عن بعض الأسئلة المطروحة عفوياً تجاه هذا النوع من الحياة :

- لماذا، في مثل هذه المنطقة من الإمبراطورية الرومانية، شعر بعض المسيحيين بالحاجة إلى الصعود على أعمدة ليتقدسوا ؟

- كيف عاش هؤلاء الأشخاص؟ وكم كان عددهم ؟

تلك هي الأسئلة الأساسية التي عالجها هذا البحث، وقد أوحت لنا هذه الأسئلة ببعض النتائج التي سنوردها خاتمة.

إن الفلسفة المسيحية، الداعية إلى الانعزال والسيطرة على الذات وإماتة الجسد لتحرير الروح، وجدت كامل ازدهارها في العمودية. وهي تتعلق من جهة أخرى ببعض النصوص الإنجيلية، ومنها ما ينصح به القديس بولس المسيحيين عندما يدعوهم إلى إماتة أعضائهم الأرضية (قولسي ٥ : ٣) .

ففي زمن العموديين، ومن المسلم به لإزالة كثافة الجسد، الذي يمنع من الاتحاد مع الله، ولتحريره من الشهوات الحسية، كان ينبغي قمعه واستعباده بصلبه. فهدف الراهب هو أن يصل بجسده إلى العدمية، أو على الأقل أن يجعله لا يشعر بالبرد ولا بالحر ولا بالجوع. واعتبر هذا النوع من الحياة هو النمط الأكثر كمالاً. فلا عجب إذن أن نرى العموديين يتبعون هذه الروحانية الثنائية (*) للغاية، فقد طبقوا حرفياً في حياتهم هذا النوع من الزهد، واستعملوا طرقاً هي غالباً غاية في القسوة، متفننين في تعذيب

(*) الثنائية : تعني النفس والجسد، وقد تمثلت بفلسفة روحية تفصل بين النفس والجسد، معتبرة أن النفس هي مصدر كل خير، والجسد مصدر كل شر.

الجســد، ليحرروا الروح من عوائق المادة. غير أننا قد نخطئ إذا ما حكمنا على هذه الحــركة من خلال عقليتنا المعاصرة، وأن نهزأ بهذا الزهد الذي لم يخلُ من المظاهر الاستعراضية والمسرحية بكل تأكيد. فلا يمكن فهم ظاهرة العمودية إلا إذا درست من وجهــة الــنظر الــروحية حصراً، ومن خلال التزام الإنسان نحو ربه بأقصى حدود الالــتزام. وإن الإيمان العميق، والساذج أحياناً لهؤلاء النساك، والذي يضنيه سخاء بلا حــدود، كان المحرك لكل حياتهم، وليس لكل ما تبقى إلا أهمية ثانوية. كان العموديون مسيحيين قد يتجرؤوا على المغامرة بكل شيء. فمع كل الشكوك المحيطة بهذه الدعوة، ومــع كل ما تضمنته من إخفاقات وسخرية، فإن كل المذاهب عرفت إخفاقات ولم يشذ العموديون عن القاعدة .

يذكــر لــنا الكاتب القبرصي نيوفيطس الحبيس حالة راهب من دير القديس سابا في فلســطين فــي القرن الثاني عشر الميلادي اسمه جبرائيل، قد جرب حياة القديس سمعان، ولكن بعد بعض الوقت أضحى فريســة هلوسات رهيبة، فاضطر أن يترك العمودية(168). وشــعر بمــثل هذا الإخفاق كاتب الكنيسة اليعقوبية يَشوعا بن أشعيا السابريني في القرن الخامس عشر الميلادي. فبعد أن أمضى بعض الوقت على العمود، وجد نفسه مرغماً على التخلي عن هذا النوع من الحياة(169). لقد كانت العمودية مذهباً نسكياً محصوراً بنخبة من المســيحيين الذين يؤمنون " أن ملكوت الله يغصب، والغاصبون يدخلونه ". (متى ١٢ : ١١). "فمــا هــو أصدق من ذلك " ؟ كما كان يعلن في القرن السابع الميلادي، عمودي "جاســم"، عــلى مســتمعيه من اليهود والمسيحيين، ويخلص إلى القول : " نرى كل يوم مجاهدين يحبسون ذواتهم، فمنهم في الكهوف، ومنهم في الصحارى، أو على أعمدة، وفيما بيــن الصخور، وهم يقاسون الجوع والعطش والبرد ليثبتوا كلام الله " (170). فهو مؤهل تماماً ليعرفنا بأحاسيس رجاله .

لم تكن العمودية مجرد هروب من العالم ببساطة، كما قد تبدو للوهلة الأولى. فقد عــاش هــؤلاء النســاك ما نشعر به اليوم من صراع بين الرغبة في الهرب من عالم مــرفوض، والرغــبة فــي إعلان البشرى السارة(١٥٨) لهذا العالم. فرغم إقامتهم على

---

(١٥٨) البشرى السارة : هي الترجمة الحرفية للكلمة اليونانية إنجيل، أي إنجيل السيد المسيح، وما يحمله من بشرى سارة محيية، أي بشرى حب الله للبشر وخلاصهم .

الأعمدة، لم يكونوا على هامش حقائق الدنيا، بل أكثر من ذلك كانوا يعيشون حياة رسل حقيقيين، وعرفوا أن يكيفوا، بشكل لا يخلو من فرادة، بين مثال رهبان العصور الأولى، أي الانعزال، وبين الوضع الجديد للعيش في عالم أضحى مسيحياً. كانت المغامرة الروحية لهؤلاء الأشخاص، الممتلئين من روح الله، مقبولة كلياً في هذه الحقبة من تاريخ الكنيسة، وفي هذا الوسط الجغرافي الشرقي .

ولا نشك أبداً في أن الحركة العمودية قدمت فوائد لمجتمع زمانها. لكن هذه الفوائد لا تقاس وفق القواعد المعاصرة للفعالية والإنتاج. إنها على غرار كل الحركات الروحية، ليست ذات ثمار مباشرة بالضرورة، وغير مرئية لعيون الغريبين عن هذا المجال. وبغض النظر عن الناحية الاستعراضية، كان للعمودية لدى الناس تقويم إيجابي للغاية. فالرهبان العموديون كانوا أدوات فعالة جداً بشهادتهم المسيحية وتبشيرهم بالإنجيل في عصرهم وفي أوساطهم، لقد كانوا رسل الجماعات الريفية التي اعتنقت حديثاً الإيمان المسيحي في الشرق. إن مساهمة القديس سمعان الكبير في تبشير القبائل العربية في البادية السورية لم تكن إستثناء، فهذا الأمر بحد ذاته مقبول لتبرير وجود العمودية .

وفي الختام، لقد كان الرهبان العموديون مسيحيين أخذوا على محمل الجد كلمات السيد المسيح: " أنتم نور العالم... لا يوقد سراج ويوضع تحت المكيال[١٥٩] بل على المنارة، فيضيء لجميع الذين في البيت، هكذا فليضئ نوركم للناس، ليروا أعمالكم الصالحة، فيمجدوا أباكم الذي في السموات " (متى، ٥ : ١٤-١٥) .

---

(١٥٩) المكيال : هو وعاء لكيل الحبوب أو السوائل

عدد العموديين عبر التاريخ

العموديون في القرن الخامس الميلادي

* **القديـــس سمعان الكبير:** مؤسس العمودية، كتب سيرة حياته معاصره تيودوريطس القورشي.

* **القديس دانيال :** تلميذ القديس سمعان، عمودي على الضفة الأوروبية للبوسفور.

* **تيودولـــس :** حـــاكم القســـطنطينية في عهد تيودوسيوس الكبير، تخلى عن منصبه الرفيع وأمضى٤٨ سنة على عمود في نواحي الرها

(Les Saints Stylites, CXVIII)

* **يشوع :** عمودي دير زوقين بالقرب من آمد[١٦٠]، مؤلف كتاب النكبات التي أصابت الرها وآمد، وكل بلاد ما بين النهرين فيما بين سنة ٤٩٥م وسنة ٥٠٦ م .

(Les Saints Stylites, CXX)

* **نيكاندريوس :** عمودي كتب إليه القديس نيل رسالة. (PG, 79, 247)

---

(١٦٠) آمـــد: مديـــنة في الجزيرة السورية، في منطقة ديار بكر على نمر دجلة، تقع الآن ضمن الحدود التركية، وتدعى ديار بكر، لا تزال تضم عدة آثار قديمة كأسوارها البيزنطية، ومسجد من القرن التاسع الميلادي .

في القرن السادس الميلادي

* **يوحنا العمودي** : هو معلم القديس سمعان الصغير .

* **القديس سمعان الصغير** : عمودي في الجبل العجيب، جنوب شرقي أنطاكية. بعد موته، وفي نفس المكان الذي تنسك فيه، بنيت كنيسة أثرية ضخمة على شكل صليب.

* **يونـــــان** : عمودي في دير كفر دريان، ما زال عموده موجوداً، ارتفاعه ١٧,٨ م، وكذلك قبره الذي دفن فيه .

* **أوســـطات** : عمـــودي دير تقاد، على بعد ٢٥ كم شرق حلب، يحفظ التقليد المحلي ذكـــره فـــي الموقع المدعو أرض الصومعة، حيث عثرنا على قاعدة العمود وعلى السياج (المندرا) .

* **شــمعون** : عمودي دير إرحاب، قرب الدير السابق، ولا تزال آثار الدير موجودة، وكذلك بعض قطع من العمود، وقد أعيد استخدامها لتدعيم قبة جامع القرية .

* **بولـــس** : عمـــودي ديـــر حاميلا، وهي يحمول الحالية، تقع على بعد ٤٥كم جنوب غربي حلب، وتحتل مكان الدير مزرعة وجدنا فيها بئراً تدعى: بئر رجل العمود .

* **مـــار مــــارون** : راهـــب عاش أولاً على شجرة، ثم تركها وانتقل إلى عمود، حيث أمضى٢٩سنة . (Les Saints Stylites, CXXI)

* **أنطـــوان** : عمـــودي سوري، أدخل الحركة العمودية إلى بلاد جورجيا، وفي مكان ليس ببعيد عن مدينة ميتزخيطا الملكية، بنى عموداً طوله١٥م، وكنيسة محاذية له .
(Les Saints Stylites, CXXIII)

* **ســـمعان** : عمـــودي ديـــر الرقة على الفرات، وهو لم يتناول طوال حياته الأطعمة اللذيذة البتة .

* **توما الداري** : عمودي، ورفيق للعمودي السابق، طبيب عجيب، تحترمه الملائكة نفسها. استشهد الاثنان في عهد يوستين (٥١٨-٥٢٧م) خلال الردة الخلقيدونية ضد المونوفيزيين .

(Michel le Syrien, Chronique, éd. Langrois, 179)

* **هابيل أوآبيل** : عمودي، حامل الله، أقام في ميديات بمنطقة طور عابدين(١٦١). وهو صديق ورفيق قديم للناقد الكبير فيلوكسين المنبجي(١٦٢) .

(C.S.C.O.Scriptores Syri, t . 101,4)

قال كاتب سيرة حياته : " لقد جعل العمود الذي كان يعيش عليه ينحني لمعانقة القديس فيلوكسين الذي أتى ليزوره ويأخذ بركته".

(Anal . Bolland . tt . 27 , p . 429)

* **زعورا الصغير** : عمودي منطقة آمد. اشتهر بشفائه للأمراض. أزعجت شعبيته المطران الخلقيدوني الذي أرغمه على النزول من على عموده. أما زعورا، وقد تحرر من واجباته، فقدِ ذهب إلى القسطنطينية، حيث نجح في تأسيس جماعة مونوفيزية وذلك بفضل حماية الإمبراطورة تيودوره له .

(Michel le Syrien, Chronique, II, 197)

* **حبيب البيتاري** : عمودي، معلم زعورا الصغير.

* **أرسينوس** : عمودي أمضى أربعين عاماً على عمود عال جداً، دون أن ينزل من عليه قط.

(Les Saints Stylites, CXXIV)

---

(١٦١) طور عابدين : آرامية تعني جبل المتعبدين، يقع في شمال الجزيرة السورية من منطقة ديار بكر، ويمتد ما بين جزيرة ابن عمر وماردين، ويتصل بجبل الجودي. اشتهر بأديرته في العهد البيزنطي، ومن أهمها دير الزعفران قرب ماردين. وعلى سفح جبل طور عابدين بلدة عابدين، سكانها سريان يعاقبه. ومعظم هذا الجبل الآن ضمن الحدود التركية .

(١٦٢) فيلوكسين : تولى رئاسة أساقفة منبج عام ٤٨٥م، من أشهر كتبة السريان، له مؤلفات عديدة أهمها : ترجمة الكتاب المقدس، ورسائل روحية ونسكية توفي عام ٥٢٢م. للتوسع راجع الحاشية (11) في القسم الثاني من هذا الكتاب .

* **يوناثـــان، صـــموئيل، يوحنا** : ثلاثة عموديون عرب من منطقة الحيرة والأنبار في بلاد الرافدين .

* **ميخـــائيل** : جندي فارسي بنى ديراً، وهو على الأرجح دير أستون أو دير العمود بالقرب من نينوى، ثم أقام عموداً استقر عليه، مات ميخائيل عن عمر ١٠٥سنوات .

(Fiey J. M., Assyrie Chrétienne, I, Beyrouth, 1965, 285)

* **أبـــراهام وأخـــوه مـــارون** : عموديـــان من منطقة آمد كتب سيرة حياتهما يوحنا الأفســـي. وقد أسس مارون ديراً في آرارابتا بالقرب من إنجيلا في منطقة أعالي دجلة، عرف بدير مارو. وقد تعلم فيه يوحنا الأفسسي .

(Patr. Orient. XVII, 64; Urbina O., Patr. Syr., Roma, 1965, 166)

* **قوزمـــا** : عمودي أقام في مجرى سيل سيدرون، بالقرب من سيلوام، على طريق لورا الكبيرة. وقد ذكره كيرلس السيزوبوليسي كاتب سيرة القديس سابا .

* **يوحـــنا** : عمـــودي ذكـــره ميخائيل السوري(Chronique, II, 260). وذلك بسبب اشتراكه في النزاعات حول مذهب التثليث الإلهي .

* **بانكراس** : عمودي فلسطيني، أرسله البطريرك أوسطوكيوس مع رهبان آخرين إلى مجمع القسطنطينية عام ٥٥٣ م .

(Festugière A. J., Les Moines d'Orient, III/2, 129)

* **عمـــودي مجهـــول الاســـم** : عمودي في بيروت، وقد أنب بعض العلمانيين الذين يتـــناولون القـــربان المقدس خارج الكنيسة، وهم يلمسون بأيديهم جسد ودم المسيح، فكـــان يقول لهم : " إنكم على درجة كبيرة من الجرأة، أنتم أيها العلمانيون، بتناولكم القربان المقدس بيدكم ومن تلقاء ذاتكم " .

(Michel le Syrien, Chronique, II, 85).

* **يعقوب** : عمودي، ثم بطريرك الكنيسة السريانية .

(Assemani J. S., De Syris Monophysitis Dissertatio, Roma, 1730, 129)

* **ســـرجيوس** : عمودي مونوفيزي، جاء ذكره في جدل لاهوتي مع اليهود، حول ألوهية السيد المسيح. أقام على عمود في جوسية الخراب، على بعد ٣٥ كم جنوب حمص.

(C. S. C. O. Script. Syri, t. 153,1-5)

* **حبشوب** : عمودي أقام في كفر ناسج، على بعد ٥٠كم جنوب دمشق، وقد زال عموده.

* **زينودوروس** : عمودي دير بيت تيمان، وهي اليوم بيت تيما في سفح جبل حرمون .

لونتيوس : عمودي دير القديس هوغون، غير بعيد عن دمشق.

* **عمودي مجهول الاسم** : عمودي بالقرب من بيروت. كان طلاب الحقوق في جامعة بيريت (بيروت)[١٦٣] يتسارعون إلى تحت أقدام عموده .

(Revue du Monde Egyptien, t. I, n. 10, 657)

* **يوحنا** : عمودي مصري، ذكر على ورق بردى يوناني محفوظ في المتحف المصري بالقاهرة، حيث نجد أن رجلاً اسمه أوريليوس قد أقسم متعهداً أمام "الأب العمودي يوحنا" بأن يحضر كمية من الماء إلى ديره، خلال مدة ستة أشهر.

(Byzantion, LI, 635)

* **فولفـــرايكوس** : شماس لومباردي[١٦٤]، عاش ردحاً من الزمن على عمود كارينان في بلاد الغال[١٦٥] .

وبالإضـــافة إلى هؤلاء المعروفين من خلال وثائق عصرهم، هناك آخرون كشفت لنا الأبحـــاث الأثـــرية عـــن وجودهم، وأنهم عاشوا حوالي القرن السادس الميلادي، ولم نتعرف على أسمائهم. والآثار الوحيدة لبطولاتهم النسكية هي بقايا الأعمدة التي عاشوا عليها، وهذه هي الأماكن التي مارسوا فيها زهدهم العمودي :

- **في شمال شرق صافيتا** : وفي المكان المسمى عمود مار سمعان، توجد بقايا عمود لعمـــودي يقـــع داخل حرم ديري، وقد تحول اليوم إلى مزار مكرس للشيخ سمعان، تحج إليه النساء العواقر .

---

(١٦٣) بـــيروت : عاصمة لبنان، ومن أهم مرافئ البحر المتوسط. ازدهرت في العصر الروماني، واشتهرت بكلية الحقوق التي نافست كليات أثينا والإسكندرية في القرن الثالث الميلادي .

(١٦٤) لومبارديا : منطقة في شمال إيطاليا، على سفوح الألب، أكبر مدنها ميلانو، وأهم سهولها سهل البو.

(١٦٥) بلاد الغال : غاليا، تسمية لفرنسا في العصر الروماني .

- **في تل نيشين** : وهي اليوم دير سمعان، عمود لعمودي ارتفاعه٦م، ويقع داخل حرم الدير المعروف بالدير الشمالي الشرقي .

- **في قيمار** : عمود بارتفاع ١٥,٦٨م بالقرب من كنيسة الدير .

- **في رضوة** (١٦٦) : حيث يوجد عمود بارتفاع ١٣,٧٥م يقع داخل الحرم الديري .

(Liber Annuus, Studium Biblicum Franciscanum, Jerusalem, XXIX, pp. 212-214)

- **فـــي ديـــر بابيســـكا** (١٦٧) : قطعـــتان من عمود العمودي كبرو أو جبرائيل بحسب كتابة سريانية على غطاء قبر العمودي. يقع دير بابيسكا جنوب شرق بلدة بابيسكا .

- **في براد** : يوجد غربي البلدة دير مع عمود لعمودي، وبرج ضخم لاحتباس الرهبان الطوعي . (Liber Annuus, XXIX, pp. 207-212)

- **فـــي ديـــر باتـــبو** : قاعدة عمود، محاطة بسياج، تقع قرب الدير الشهير في الجهة الشمالية منه .

- **في بشندلاية** (١٦٨) : في المكان المسمى دير الملك، توجد قاعدة عمود عمودي.

- **فـــي كفـــر مارس**(١٦٩): توجد عدة قطع من عمود، هو على الأرجح لعمودي، وتقع هذه القطع بالقرب من الكنيسة الأثرية شمال البلد .

---

(١٦٦) رضوة : قرية في جبل باريشا، جنوب شرق حارم ١٩كم، في محافظة إدلب. بلدة قديمة اتخذت اسمها من الجبال المحيطة بها، والتي عرفت في العهد الإسلامي بجبال رضوة .

(١٦٧) بابيســـكا : وهـــي إحدى المدن الميتة. تقع في جبل الزاوية، محافظة إدلب شمال كفر دريان ٦كم، منطقة حارم. سكنتها حديثاً بعض العائلات من كفر دريان .

(١٦٨) بشـــندلاية : بلدة أثرية في جبل باريشا، شمال شرق كفر تخاريم ٥ كم، منطقة حارم، محافظة إدلب. وفيها أوابد أثرية كثيرة أهمها قبر ودير يعودان للقرن السادس الميلادي. وقد أعيد السكن في البلدة فهي مأهولة الآن.

(١٦٩) كفر مارس : قرية في الجبل الأعلى المطل على حارم، شرق كفر تخاريم ٩كم ، في محافظة إدلب. وفيها خرائب أثرية من العصر البيزنطي .

- **في طورلاها**[١٧٠]: توجد قاعدة عمود لعمودي موضوعة في وسط الدير .

- **فـــي كفــر عروق**[١٧١]: في الموضع المعروف باسم حير[١٧٢] الغربي لا تزال بقايا عمود لعمودي تقبع في ظل كنيسة الدير .

- **في الوسطاني**[١٧٣]: في الجبل الأعلى قطعتان من عمود ارتفاعه٤,١٠م، وقطره ٧٠سم، مع سياج (مندرا)، وهي في الموقع المسمى حير أبي العمود أو بستان العمودي، حيث لا تزال التقاليد الشعبية تردد أصداء العجائب التي تمت في هذا المكان.

- **في حاط** : في منطقة طور عابدين، لا تزال هناك بقايا عمود لعمودي.

- **فـــي بيبيـــلوس**[١٧٤]: في لبنان، في موقع مار سمعان شرقي المدينة، ينتصب عمود ارتفاعـــه٥,٨٠م، تعـــلوه كنيســـة صغيرة، بنيت وفاء لنذر. فأهالي المنطقة، وكلهم مسيحيون، يحجون إلى هذا المكان، في الأول من أيلول ليكرموا العمود.

(Liber Annuus, XXXVI, pp. 247-252)

---

(١٧٠) طورلاهـــا : قرية في جبل باريشا فوق قمة عشيرك. شرق حام ٦كم، في محافظة إدلب. وتسميتها سريانية تعني جبل الله. ولا يزال فيها كثير من آثار الأبنية البيزنطية.

(١٧١) كفـــر عـــروق: قـــرية في جبل باريشا ١٦كم جنوب شرق حارم، في محافظة إدلب. فيها آثار من العهد الـــروماني وبقايا دارات وكنيسة من العهد البيزنطي مع آثار إسلامية، وتتوزع قربها عدة مناطق أثرية كدير سيتا وبانقوسا .

(١٧٢) حيـــر : سريانية تعني بستان، لا تزال تستعمل بمعنى قطعة أرض محددة من مزرعة أو بستان.

(١٧٣) الوسطاني : هو الجبل الوسطاني، راجع الحاشية (١٠٨) .

(١٧٤) بيبـــلوس : من أقدم المدن الفينيقية، تعود للألف الخامس ق.م. اشتهرت بهيكل البعلة. كانت لها علاقات وثيقـــة مع فراعنة مصر. وأشهر ملوكها أحيرام (١٣ ق.م)، وعلى ناووسه وجد نقش أقدم أبجدية. فيها آثار فيـــنيقية كثيرة منها الهيكل والمقابر. في العهد اليوناني- الروماني اشتهرت بعبادة أدونيس، ولا يزال مسرحها الروماني ظاهراً. اسمها الحالي جبيل وتقع شمال بيروت .

- في بيشوات[١٧٥]: علـى بعد ١٥ كم شمال غربي بعلبك[١٧٦]، يوجد عمود مقدس من الغرانيت الزهري[١٧٧]، موضوع أمام هيكل كنيسة القرية، ويكرمه المؤمنون .

- وعلـى بعد ٦ كم جنوب شرق أورشليم[١٧٨]، في المكان المسمى خربة دير العمود، توجد قطع من عمود عمودي ارتفاعها ٤,٩٥م، وقطرها ١,٢٢م، والعمود محاط بسياج - مندرا - طول أطرافه ١٢م .

(Tierra Santa (1982), pp. 134-138)

(١٧٥) بيشوات : قرية لبنانية سكانها من الموارنة فيها دير وكنيسة سيدة بيشوات العجائبية .

(١٧٦) بعلبك : بلدة لبنانية ومركز قضاء في البقاع الشمالي. يعود بناؤها لأيام الكنعانيين، ومن لغتهم اشتق اسمها (بعـل- بكـة)، وبكة من أسماء مكة المكرمة، راجع تفسير الآية الكريمة ﴿ **إنّ أول بيت وُضع للناس للذي بـبكة مباركاً وهدىً للعالمين** ﴾ [آل عمران – ٩٦]. واشتهرت بعلبك في العهد السلوقي والروماني باسم هيليوبوليس – مدينة الشمس–، فيها هيكل جوبيتر وباخس وكثير من الأوابد الأثرية .

(١٧٧) ليـس بالضـرورة هنا بالذات أن يكون هذا العمود لراهب عمودي. فالأعمدة الغرانيتية المونسة بنوعيها الزهري والرمادي كانت تجلب خاصة في العهد الروماني من منطقة أسوان جنوب مصر إلى سورية، فقط من أجـل أبنية المعابد المقدسة كما في معبد الشمس الكبير بحمص، أو النصب الهامة جداً كما في ترابيل تدمر. فربما كان تقديس العمود يعود لفترة زمنية أبعد من العصر المسيحي .

(١٧٨) أورشليم : كلمة بابلية مركبة من مقطعين : أور تعني مدينة، شلم تعني سلام، فهي مدينة السلام. عاصمة فلسـطين، يعود السكن فيها للألف الثالث ق.م. دمرها القائد الروماني تيطس عام٧٠م، ثم أعاد الإمبراطور هادريانس في عام ١٣٥م بناءها باسم إيليا كابيتولينا (إيلياء). وفي عام ٣٣٥م بنى فيها الإمبراطور قسطنطين الكـبير كنيسة القبر المقدس على أنقاض الكابيتول، ثم فتحها العرب عام ٦٣٨ م وسموها القدس، لقداستها لديهـم. احتـلها الفـرنج ثم حـررها مـنهم صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين. يقدسها المسلمون والمسيحيون. فيها كنيسة القيامة والمسجد الأقصى وقبة الصخرة.

* **سمعان** : عمودي خلقيدوني. أقام في جوسية الخراب، زاره عام ٦٥٣م القائد البيزنطي تيودوروس في أثناء حربه مع العرب.

(Barhébraeus, Hist . Eccl. I, 320)

* **توتيل** : عمودي دير قرطمين[١٧٩]، اشتهر بإقامته لميت. يقع عيده في ١٢ آب بحسب التقويم السرياني.

(Les Saints Stylits, CXXXVII)

* **توما التلي** : كاتب عمودي، عاش على عمود، بين نينوى والرها. تحتفل الكنيسة السريانية بعيده في ٢٤ آذار .

(Assemani , Bibliotheca Orientalis , II , 105)

* **سمعان زيتوني** : ٦٥٧-٧٣٤ عمودي دير قرطمين، ومن ثم أسقف حران في بلاد الرافدين .

(Daoulabani F., Tarikh Deir Mar Kabriel, Qamichli, 1966, p. 92).

* عمودي **مجهول الاسم** : عاش على عمود بالقرب من جاسيموس، وهي الآن قرية جاسم على بعد ٧٠كم جنوب دمشق. وكان لسان حال مسيحيي دمشق في نقاش لاهوتي طويل، خاضه مع اليهود.

(Patr. Orient. XV, 271-291)

* **عمودي بالغ القداسة** : أقام على بعد ١٢ كم عن دمشق. وعلى الأرجح في دير رايتون- مرج راهط - شمال شرقي دمشق.

(Oriens Christianus III, 61-62)

---

(١٧٩) قرطمين : قرية في شمال سورية، تقع الآن ضمن الحدود التركية، جنوب دير مار جبرائيل. شرق مدينة حديات، منطقة ماردين .

* **يوحنا** : وهو تلميذ العمودي السابق، كان مركز إقامته العمودية في ديوسبوليس. ويبدو أن هذا الاسم ينطبق على القرية الحالية المعروفة برأس ابن هاني على بعد ١١كم شمال اللاذقية .

* **القديس أليبيوس** : عمودي أقام في أدريانو بوليس في بافلاغونيا .

* **تيوفيلوس المعترف** : عمودي أمضى ٤٠ سنة على عمود على ضفة النيل. عاش أيام حكم هرقل . (Les Saints Stylites, CXXIV)

* **عمودي مجهول الاسم** : في أبرشية بترا .

* **عمودي مونوفيزي** : وقد اهتدى إلى الأرثوذكسية على يد البطريرك أفرام. كان مركز إقامته على العمود في هيرابوليس "منبج".

* **عموديان مجهولا الاسم** : في كيليكيا، أحدهما كاثوليكي والآخر هرطوقي، يبعد الواحد منهما عن الآخر ستة آلاف خطوة .

* **سمعان** : عمودي في مدينة إيجية في كيليكيا. وقد دمرت هذه المدينة، وزالت من الوجود .

* **بوليان** : عمودي وكاهن عاش على بعد ٢٤ ميل عن العمودي السابق. لقد أتى على ذكر العموديين الستة السابقين يوحنا موسخس في كتابه " المرج الروحي ".
(Jean Moschos, Le pré Spirituel)

* **أغاتون** : عمودي في صحراء سيتي في مصر. يحتفل الأقباط بعيده في ١٢أيلول.
(Patr. Orient. X, 86)

* **عمودي مجهول الاسم** : أقام في آسيا الصغرى، وأرغمه إخوته الرهبان على الذهاب إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور من أجل الدير.
(Les Saints Stylites,CXXIII)

* **يوحـــنـــا الأتــاربي** : نسبة إلى ليتاربا وحالياً أتارب. عمودي وكاهن، مؤلف كتاب " حساب أعياد السنوات "، تحتفظ التقاليد الشعبية بذكرى عموده في الموقع المسمى جب العمود جنوبي البلدة، وقد زال هذا العمود المكرم عام ١٩٧٢م.

(Michel le Syrien, chronique, II, 357, 500)

* **يوحـــنـان** : عمـــودي ديـــر بيـــت ماري كانون. في بلدة معرة مصرين[١٨٠]، ألف مجموعة من سير " النساء القديسات ".

(A. Smith Lewis, The old syr. Gospels or Evangelium da-me- pharreshe, London, 1910)

* **يقعوب وشمعون** : عموديان سريانيان، أرسل إليهما يعقوب الرهاوي رسالتين.

(Mar Ignatius Aphram, Histoire des Sciences, p. 380).

* **تيموتاوس** : أقام في نواحي أنطاكية بعد الفتح العربي

(Les Saints Stylites, CXXV)

* **زكريا** : عمودي انتقل من سطح عموده إلى كرسي الرها الأسقفي.

(Denys de Tell- Mahré, Chronique, éd. J- B. Chabot, 64-66).

* **جبرائيل** : عمودي دير قرمان .

* **ثيودوتيـــوس** : أسقف آمد، تخلى عن كرسيه الأسقفي ليصعد على عمود بين دارا وآمد.

(Assemani, Bibliotheca Orientalis, II, 102)

* **أندراوس الكاليبي** : استشهد في القسطنطينية في كوبرونيموس عام ٧٥٣م.

(Echos d'Orient, I, 304)

---

(١٨٠) معرة مصرين: مركز ناحية، تبعد ١١كم شمال شرقي إدلب. وهي بلدة قديمة، فيها آثار رومانية إسلامية. وقد جعلها الخليفة المتوكل مركز ولاية معرتمصرين .

* **عموديان في ميله** : في آسية الصغرى. ذكرهما الحاج فيليبالدوس عام ٧٢٣م.

(Le Millénaire du Mont Athos, II. Venezia, 1964, 64)

* **يوليان** : عمودي في ليدا بفلسطين، ذكره الحاج فيليبالدوس.

(Oriens Christianus, 3, 65)

في القرن التاسع الميلادي

* **أفرام من كفرتوتا** : كاتب كنسي، عاش على عموده في بلاد ما بين النهرين العليا.

(Mar Ignatius Aphram, Hist. des Sciences, 380)

* **إسحق برمارون**[١٨١]: عمودي في بني صيفي بالقرب من حران.

(Wright W., Catalogue, 817)

* **توما بن شمشي**[١٨٢]: عمودي وكاتب أقام عموده في بلاد ما بين النهرين العليا.

(Mar Ignatius Aphram, Hist. Des Sciences, 407-416)

* **لعازر** : عمودي دير بيت بوتين في بلاد ما بين النهرين. أصبح رئيس أساقفة اليعاقبة تحت اسم باسيليوس الثاني .

(Les Saints Stylites, CXXVII)

* **عمودي مجهول الاسم** : في نواحي الرها. مات عن عمر متقدم جداً، ودفنه الأسقف في كنيسة القديس جرجس في الرها .

(Les Saints Stylites, CXXIX)

* **عمودي هرطوقي** : مونوفيزي، عاش على عمود من الجبس في بيت كارداغ، مات قتيل البَرَد .

(Thomas de Marga, Kitab ar - Rouasa, Moussel, 1966, 144)

---

(١٨١) بر : آرامية تعني ابن .

(١٨٢) بن شمشي : آشورية تعني ابن الشمس .

* **ثيودولــوس السيونيطي** : عمودي ورسام، تصور أيقوناته ملائكة طاعنين بالسن، مما شكك الرسامين التقليديين في زمانه، وقد ذكره تيودوروس الإستودي .

* **بســالتيريوس وســابريتس وأمفيــلوك** : وقد جاء ذكرهم في مؤلفات تيودوروس الإستودي.

* **عمــودي مجهــول الاسم** : أقام في وادي يوشافاط[١٨٣]، شرقي قبة الهيكل. وكان، بحســب أبيفانيوس هاجيوبوليت، الذي يدير "من نافذته" جماعة تتألف من مئة راهبة حبيسة . (PG, 120, 209)

* **عموديان** : في بيت لحم[١٨٤]، عاشا تابعين لكنيسة المهد. وذكرا في الاحتفاء بذكرى بيوت الله في عام ٨٠٨ م .

* **عمــودي** : بالقــرب مــن بئر السامرية، في السامرة[١٨٥]. وقد ذكر في المصدر نفسه بهــذه العــبارات : " في سيخارة المدعوة نيابوليس، توجد كنيسة كبيرة، حيث عاشت المــرأة الســامرية. وتوجــد فــي هذه المنطقة كنائس أخرى، ولها أسقف وأكليروس، وحــبيس على عموده ". وقد بحثنا عن ذكرى العمودي السامري في المكان المسمى " جــامع العمود" على بعد ١,٥ كم شمال غربي بئر السامرية. فتحت قبة الجامع، يوجد مدفــن مــن المحــتمل أن يكون للشيخ محمد محمود النور ووالديه. والمكان هو مركز زيــارة للمســلمين. غيــر أننا لم نعثر على آثار أكيدة للعمودي. لذلك لا بد من إجراء تنقيبات وأبحاث معمقة جداً.

---

(١٨٣) يوشافاط : وادي في فلسطين بين القدس وجبل الزيتون، يسيل فيه نهر قدرون. وبحسب المعتقدات اليهودية سيكون فيه يوم القيامة .

(١٨٤) بيــت لحــم : مدينة في فلسطين، جنوب القدس، وهي مهد السيد المسيح. من أهم معالمها مغارة الميلاد وكنيسة المهد التي بناها الإمبراطور قسطنطين الكبير .

(١٨٥) السامرة : مدينة في فلسطين، بنيت حوالي ٨٨٠ ق.م كانت عاصمة لمملكة اسرائيل جدد بناءها هيرودس الروماني وسماها سبسطية. وهي غرب نابلس وشمال طولكرم .

* **بولــس الــبلافري** : أي من مدينة لور القديمة، حيث أقام عمودي دير القديس شاريتون. على بعــد ٥ كم جنوب هيروديون. وقد كتب المجلد السينائي (67 de Tsagareli) في دير القديس سابا بأمر من العمودي بولس. (An. Boll., t. 40, p. 282)

* **اثناسيوس** : عمودي جبل لاتروس بالقرب من ميله في آسية الصغرى.

(Les Saints Stylites, CXXVII)

* **أوستراتيوس** : عمودي أقام في نواحي أتاليا في آسية الصغرى.

(Ib., CXXIX)

* **أفتيموس الصغير** : عمودي استقر حوالي ٨٦٣ م في تسالونيك[١٨٦].

(Ib., CXXX)

* **عمــودي كــاهن** : في منطقة القسطنطينية، أمضى ٤٠ سنة على عموده. ذكر لأنه عرّف تيودوروس البروتوسباتير الذي جحد إيمانه .

(Echos d'Orient, I, 305)

* **سـمعان الجديد وأخوه جرجس** : عموديان أصلهما من جزيرة ليسبوس[١٨٧]، عاشا في القرن التاسع الميلادي. وقد رسم جرجس فيما بعد أسقفاً على مدينة ميتيلين.

(Pargoire J., L'Eglise byzantine de 527 à 847, Paris, 1905, 364; An. Boll. t. 17, 255)

* **القديس مارتيريان** : أو ماري من بيت سهدي، عمودي عاش على عمود قد حفرت واجهته العليا. تحتفل الكنيسة السريانية بعيده في ٧ تشرين الثاني.

(An. Boll. t. 47, 271)

* **روبــن** : عمــودي في منطقة قرطمين. تحتفل الكنيسة السريانية بذكراه في/٣ آب، نجهل الزمن الذي عاش فيه .

(An. Boll., t. 18, 255)

---

(١٨٦) تسالونيك : مدينة يونانية، على خليج تسالونيك في بحر ايجه. وكانت عاصمة مقدونية القديمة.

(١٨٧) ليســبوس : جزيــرة يونانية في بحر إيجه قرب الساحل التركي، أكبر مدنها ميتيلين. كانت عاصمة الشعر الغنائي في القرنين ٧و ٦ ق.م. ومنها الشاعر سافو.

في القرن العاشر الميلادي

* **أبـــراهام التيلادي** : عمودي رقي لأسقفية الرها، وبالقرب من تيلدا (تل عاده) عثرنا على عمود لعمودي، ارتفاعه ٤,٤٨م، نقشت عليه كتابة ذات طابع نذري .
(Michel le Syrien, Chronique, III, 124)

* **يعيــش الحلبي** : عمودي من دير القديس غوريغوريوس البتياسي. في جبل موسى شمال غربي أنطاكية .

* **يوحــنا الرابع** : عاش بوصفه عمودياً على عمود في دير قور زاحل، وذلك قبل أن يعيــن بطريركاً على الكنيسة اليعقوبية، لا تزال بقايا الدير موجودة، أما العمود فقد زال . (Michel le Syrien,. Chronique, III, 461)

* **يوحنا السادس** : عمودي من نفس الدير السابق، ثم عين بطريركاً للكنسية اليعقوبية . (Ib., 464)

* **قوزمـــا** : عمـــودي من دير برصوما، بالقرب من بلدة سروج، ثم رسم أسقفاً على الرصافة. (Michel le Syrien, Chronique, III, 466)

* **تومـــا** : عمـــودي في الجبال التي بنواحي الرها. وقد انتقل من عموده إلى الكرسي الأسقفي في تكريت. (Ib, 464)

* **يوحنا** : من دير مار زعورا، بالقرب من بلدة سروج مؤلف بحث في اللاهوت.
(R. O. C., t. IV, 332)

* **القديس لوقا** : (٨٧٩-٩٧٨م) عمودي في نواحي خلقيدونية .

* **عمودي مجهول الاسم** : احتل العمود الذي بقي شاغراً بعد القديس لوقا، وقُذف إلى البحر على إثر هزة أرضية في ٢٥ تشرين الأول ٩٨٩م .

* **عمودي مجهول الاسم** : زار القديس لوقا، عندما كان هذا الأخير جندياً
(Echos d'Orient, I, 305)

* **عمودي مجهول الاسم** : في باتراس[188] في اليونان.

* **عمودي مجهول الاسم** : في زيمينا في اليونان .

* **عمــودي مجهــول الاسم** : في تراس، وقد وجد نفسه في وضع محرج عندما وجد جثة ملقاة قرب عموده. (Les Saints Stylites, CXXXI)

* **إيفــرجتينوس** : عرف من خلال ختم نقش عليه اسمه، وهذا هو النص المكتوب : "أنا خاصة ايفرجتينوس العمودي، لأعلن كتاباته وأقواله" .

(Schlumberger G., Sigillographie de l'Empire byzantin, Paris, 1884, 412)

* **بولــس الصغير** : عمودي على عمود " يلامس السحاب "، وكان قد باركه أثناثيوس في القرن السابق عندما أقام عليه، وهو في جبل لاتروس. مات سنة ٩٥٦م بعد أن أسس ديراً باسم دير العمود . (An. Boll. t. 11,43)

* **باخوميوس** : حل محل بولس الصغير على العمود نفسه.

(Les Saints Stylites, CXXXI)

في القرن الحادي عشر الميلادي

* **بطــرس** : عمــودي فــي دير هناك، جنوبي معرة النعمان، حيث تحققنا من وجود الدير. (Wright W., Catalogue, 324)

* **صــموئيل بن كرياكس** : عمودي نسطوري، أقام في نيقون " إبشادي في العربية "، وقد خصص أوقات فراغه لتجليد وتصليح الكتب.

(Daoulabani F., Tarikh Deir Mar Kabriel, 52; BO, III, I, 256)

* **القديس لعازر الغاليسيوطي** : عمودي مشهور بالقرب من أفسس .

---

(١٨٨) باتراس : بلدة يونانية، ومرفأ في شبه جزيرة البيلوبونيز جنوب اليونان .

* **بولس** : عمودي في لاذقية لبنان وهي اليوم تل النبي مند، على بعد ١٥ كم[١٨٩]، جنوب غربي حمص .

* **كورياكس، لورانس، ماري** : عموديون ذكروا مع بولس في سيرة القديس لعازر الغاليسيوطي .

* **مايا** : امرأة عمودية، أقامت عمودها في أمازيا الجسر، حيث تم العثور على شاهدة مكتوب عليها : " قبر مايا راهبة عمودية " .

(Cumont F., Nouvelles inscriptions du Pont, en Revue des Etudes Grecques, XVII, 332)

* **زكريا** : عمودي في الجسمانية، توفي في سيناء .

(An. Boll., t. 40, 284; Les Saints Stylites, CXXXI)

* **بطرس** : تلميذ زكريا، أقام على عمود معلمه سنة ١٠٤٣م، ونسخ وهو على عموده المجلد السينيائي رقم/٦٠ . (An. Boll., t. 40, 284) ويحتفظ دير القديسة كاترين[١٩٠] في سيناء بهذا المخطوط الذي كتبه بقلمه، مع حاشية في الصفحة الأخيرة تقول: "كتبت هذا الباراكلتيكون – المخطوط – وأنا على عمود معلمي زكريا الذي توفي في سيناء" .

* **عمودي مجهول الاسم** : ذكر في سيرة القديس لعازر الغاليسيوطي، وقد خاطر بحياته عندما حاول النزول من على عموده بوساطة الحبل المستخدم لرفع الحاجيات إليه .

---

(١٨٩) تبعد في الحقيقة ٣٠ كم راجع الحاشية : ١/٩٣.

(١٩٠) دير كاترين: يقع على جبل كاترين أعلى جبال سيناء، وهو دير قديم بنى أسواره الإمبراطور يوستينيانس، وهو ينسب إلى القديسة كاترين التي اشتهرت بالإسكندرية حوالي ٣٠٧م، ويقال: إن جثتها قد وجدت في الدير وهي لا تزال تنضح زيتاً .

في القرن الثاني عشر الميلادي

* **عمودي جيورجي** : الشيخ الكبير الإيبيري، عاش على عمود عند سفوح الأردن في أطلال دير القديس جيراسيموس، يذكره جان فوكاس.

(PG, 133, 951)

* **يوحنا** : عمودي بالقرب من دير القديس سابا، زاره الحاج جان فوكاس عام ١١٧٧م .

* **سمعان يوحنا** : عمودي بالقرب من كنيسة أوب في جيورجيا، وقد أشار برسّيه إلى كتابة تقول : "أنا سمعان يوحنا، الفقير بالروح، نلت نعمة من الله بأن أبني هذا الدير وهـذا العمود، في عهد ملك الملوك المتوج من الله ديمتري ابن الملك الكبير داود. وكـان ذلك في السنة الفصحية ٣٦١، والسنة الهجرية للمسلمين ٥٣٥م، التي توافق سنة ١١٤١م من التاريخ المسيحي .

(Les Saints Stylites, CXXXI)

* **جبرائيل** : عمودي جيورجي من دير القديس سابا، عاش عمودياً حتى عام ١١٨٥م، وبعد هذا التاريخ أصبح ضحية هلوسات رهيبة فترك العمودية، وقد ذكره ناوفيطوس الحبيس .

(An. Boll., t. 26, 164)

* **عمـودي مجهول الاسم** : أقام، بحسب الحاج الروسي دانيال، على مسافة قليلة من مهد السيد المسيح في بيت لحم .

(Baldi D., Enchiridion Loc. Sanct., Jérusalem 1955, 111)

* **عمـودي مجهول الاسم**: بالقرب من مغارة القديسة بيلاجيا في جبل الزيتون[١٩١]، فقد قـال الحـاج دانيـال: "هـناك كـان يعيـش عمـودي وهـو رجل شديد التقشف".

(Enchiridion, 406)

* **يوحنا السينيائي** : الذي وجه إليه ميخائيل غليكاس رسالة .

(Les Saints Stylites, CXXXIII)

---

(١٩١) جبل الزيتون : مطل على مدينة القدس، وهو واحد من مرتفعات جبال الجليل.

* **القديس نيكيتاس الباريسلافي** : في روسيا الوسطى، ويحتفل بذكراه التقويم الروسي في ٢٤ أيار، توفي عام ١١٨٦م، فقد اغتاله لصوص أرادوا الاستيلاء على مِسْحِه المصنوع من حديد، متصورين أنه من الذهب.

(Les Saints Stylites, CXXXIII)

* **عمودي مجهول الاسم** : بالقرب من تسالونيك .

في القرن الثالث عشر الميلادي

* **عبدون** : عمودي عاش على عموده أمام باب دير القديس يوحنا التكريتي، وذكره الكاتب العربي ياقوت[١٩٢] .

(Lammens H., Etudes sur le siècle des Omayyades, Beyrouth, 1930, 244)

* **توما الأعرج** : عمودي وكاتب وشاعر .

* **عموديان مجهولا الاسم** : أقاما على عمودين في ثيودوثيوس وأركاديوس في القسطنطينية . (Les Saints Stylites, CXXXIII)

(١٩٢) ياقوت : أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي ٥٧٤-٦٢٦هـ/ ١١٧٨-١٢٢٩م. كان غلاماً رومياً، نسب إلى مولاه عسكر ابن إبراهيم الحموي. وهو تاجر من حماه يعيش في حلب. عاش ياقوت من نسخ الكتب بعد أن تحرر من الرق، ثم تولى تجارة مولاه الذي مات، فأثرى. ثم تفرغ للأدب وبدأ بالتصنيف، لـه كتاب معجم الأدباء، ومعجم البلدان الذي يعتبر أشهر معجم جغرافي عربي. يقول فيه في مادة دير: "دير ماريحنا : إلى جانب تكريت على دجلة، وهو كبير عامر كثير القلايات والرهبان، مطروق مقصود، ويترل به المجتازون ولهم فيه ضيافة، وله غلات ومزارع. وهو للنسطورية، وعلى بابه صومعه عبدون الراهب، رحل من الملكانية، بنى صومعة ونزلها فصارت تعرف به" .

في القرن الرابع عشر الميلادي

* **عمودي يوناني** : وقد وجهت إليه رسالة من سمعان متروبوليت إيكاتيون.

(Les Saints Stylites, CXXXIV)

* **عمـــودي روســـي** : وقد وجه إليه هيلاريون، متروبوليت كييف[١٩٣]، رسالة طويلة حول الحياة الروحية .

في القرن الخامس عشر الميلادي

* **يقعوب** : عمودي في بلاد ما بين النهرين العليا.

(Les Saints Stylites, CXXXIV)

* **سمعان وتوما** : عموديان ذكرهما الكاتب يشوع بن إشعيا السابيريني الذي هو نفسه عمودي، وتوفي سنة ١٤٩٢م .

* **سابا** : عمودي في نواحي نوفغورود في روسيا .

(Les Saints Stylites, CXXXIV)

في القرن السادس عشر الميلادي

* **عـــدة رهبان** : من بلاد الروثان، أشادوا أكواخاً صغيرة وضيقة على أعمدة، تحدث عنها البارون هربرشتاين في مذكراته.

(Les Saints Stylites, CXXXIV)

---

(١٩٣) كييف : عاصمة أوكرانيا، تقع على نهر الدينيبر وهي مرفأ نهري، وفيها كنائس مشهورة .

في القرن السابع عشر الميلادي

* **عمودي**: عاش في حجيرة أقامها على عتبة من أعمدة الألومبيون في أثينا(١٩٤).

(Les Saints Stylites, CXXXIV)

في القرن التاسع عشر الميلادي

* **سـيرافين الـزاروفي** : راهـب روسي عاش ثلاث سنوات بوصفه عمودياً قبل أن ينطلق إلى الحياة التبشيرية توفي عام ١٨٣٣م .

* **عمودي جيورجي** : في ديشكونديدي. زاره بروسيه عام ١٨٤٨م .

(Rapport sur un voyage archéologique dans la Géorgie et dans l'Arménie, Saint Pétersboug, 1849, 16-17).

عمـودي مجهول الاسم: بالقرب من دير تيزمانا الأورثوذكسي في رومانيا، وهذا هو العمودي الأخير في لائحتنا.

(Les Saints Stylites, CXXXV)

---

(١٩٤) أثيـنا : عاصـمة اليونـان اليـوم، ومن أقوى ممالك المدن في اليونان القديمة القرن ٥ ق.م، تعتبر مهداً للديمقراطية. تغلبت على الفرس وكان لها أسطول قوي. ازدهرت فيها الفنون والعلوم والآداب، حتى أضعفتها الحروب مع إسبرطة. أهم آثارها الأوكربول، والألمبيون وهو جبل الأولمب أو جبل الألهة اليونانية القديمة.

حواشي القسم الأول

الفصل الأول : سورية الرومانية – البيزنطية

(1) M. DUNAN, Histoire Universelle, Paris 1960, I, p. 164.
(2) T. FRANK, An Economic Survey of Ancient Rome, Baltimore 1938, IV, p. 138.
(3) GREGORIUS TUROLENSIS, Historia Francorum, VII, 29.
(4) JEAN- CHARLES ET MARIANNE SOURNIA, L'Orient des premiers chrétiens, Paris 1966, p. 62.
(5) H. PIRENNE, Mahomet et Charlemagne, 60 éd., Paris 1937, p. 151.
(6) Ibid., p. 62.
(7) S. HIERONYMUS, Commentaria in Ezechielem, VIII, 27 (MIGNE, P. L., xxv).
(8) R. MOUTERDE et A. POIDEBARD, Le limes de Chalcis, Paris 1945, p. 234.
(9) THEODORETUS CYRENSIS, Historia Religiosa, c. XXVII.
(10) Ibid., c. XXVI.
(11) ANONYME, Vie de St. Daniel le Stylite, dans A. FESTUGIÈRE, Les Moines d'Orient, Paris 1961, II, p.97.
(12) H. ROSWEYD, Vitae Patrum, Lugduni 1617, Liv. . p. 136.
(13) M. J. TOUTAIN, La Légende de St. Siméon Stylite. et ses origines païennes, dans Revue de l'histoire des religions, LXV, 1912, pp. 171-177.
(14) H. DELEHAYE, Les Saints Stylites, Bruxelles et Paris 1923, pp. CLXXVII CLXXXI.
(15) ANONYME, Vie de St. Daniel le Stylite, p. 97.
(16) THEODORUS LECTOR, Historia Ecclesiastica, Liv. II, 41.
(17) EVAGRIUS, Historia Ecclesiastica, Liv. I, 13.
(18) NICEPHORUS, Vita Sancti Symeonis Junioris, c. V.
(19) R. MOUTERDE et POIDEBARD, Le limes, p. 38.
(20) G. TCHALENKO, Villages antiques de la Syrie du Nord, Paris 1953, I, p. 89.
(21) Ibid., p. 89.
(22) THEODORETUS CYRENSIS, H. R., c. XVI.
(23) THEODORETUS CYRENSIS, Historia Ecclesiastica, Liv. V.
(24) Vita S. Alypii, c. 9, dans H. DELEHAYE, Les Saints Stylites, p. CXLIX.

(25) THEODORETUS CYRENSIS, H. R., c. xxvi.
(26) G. TCHALENKO, Villages, I, p. 191.
(27) Ibid., p. 199.
(28) Ibid., p. 106.
(29) J. LEROY, Moines et Monastères du Proche- Orient, Paris 1957, p. 184.
(30) A. J. FESTUGIÈRE. Antioche païenne et chrétienne Paris 1959, p. 351.
(31) ANONYME, Vie de St. Daniel Daniel le Stylite, p. 123.
(32) H. DELEHAYE, Les Saints Stylites, p. XCIX.
(33) Z. N., Le colonne degli stiliti, dans L'Osservatore Romano, n°178,5 agosto 1966.
(34) Vie Syriaque, c. 120, dans DELEHAYE Les Saints Stylites, p. XXVIII.
(35) ANONYME, Vie de St. Daniel le Stylite. p. 109.
(36) Vita S. Alypii, c. 9, dans DELEHAYE, Les Saints Stylites, p. CXLIX.
(37) Vita S. Lucae, c. 13, dans DELEHAYE, op, c., p. CLX.
(38) ANONYME, Vie de St. Daniel le Stylite, p. 116.
(39) J. LASSUS, Sanctuaires chrétiens de Syrie, Paris 1947, p. 277.
(40) Ibid., p. 280.
(41) Vita S. Lucae, dans DELEHAYE, op. c., p. CLV,
(42) ANONYME, Vie di St. Daniel le Stylite, p. 109.
(43) M. DE VOGÜÉ, Syrie centrate. Architecture civile et religieuse, Paris 1865-1877, P. 149. La colonne de St. Siméon ne s'est effondrée qu'au XVIIe siècle.

لم يتهدّم عمود القديس سمعان إلا في القرن السابع عشر .

(44) EVAGRIUS, H. E., Liv. I, 13.
(45) Vita S. Alypii, c. 25, dans DELEHAYE, op.c., p. LXXXIV.
(46) NICEPHORUS, Vita S. Symeonis Juniois, c. XIX.

(47) ANONYME, Vie de St. Daniel le Stylite, p. 128.

(48) THEODORETUS CYRENSIS, H. R., c. XVI. A remarquer que St. Maron est le Père des maronites .

تجدر الملاحظة أن القديس مارون هو أبو الموارنة .

(49) Ibid., c. XXI.

(50) NICEPHORUS, Vita S. Symeonis Junioris, c. VI.

(51) ANONYME, Vie de St. Daniel le Stylite, p. 126.

(52) Vita S. Lazari, c. 235, dans DELEHAYE, op. c., p. CX.

(53) J. MOSCHOS, Pratum spirituale, c. 57.

(54) THEODORETUS CYRENSIS, H. R.M c. XXVI.

(55) F. NAU, Les Arabes chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VIIe au VIIIe siècle, Paris 1933, p. 5.

(56) IGNATIUS YAQOUB III, Nafh al- Abir, Sirat al- Patriark Mar Severius al-Kebir, Damas 1970, pp. 391 et 105.

(57) F. NAU, Les Arabes chrétiens.., p. 38.

(58) AL- GHAZALI, Al-mounquez min ad- dalal, 2e édit., Damas 1934, p. 129.

(59) Cité d'après H. SAUVAIRE, Description de Damas, dans Journal Asiatique mars- avril, 1896, p. 189.

(60) NICEPHORUS, Vita S. Symeonis Junioris, c. II.

(61) THEODORETUS CYRENSIS, H. R., c. XI et c. XII.

(62) NICEPHORUS, op. c., c. VI.

(63) THEODORETUS CYRENSIS, H., c. XXVI.

(64) Vita S. Lazari, c. 35, dans DELEHAYE, op. c., p. CLXX.

(65) ANTONIUS, Vita S. Symeonis Stylitae, c. VII.

(66) J. LACARRIÈRE, Les hommes ivres de Dieu, Paris 1961, p. 200.

(67) THEODORETUS CYRENSIS, H. R., c. XXVII.

(68) S. JOANNIS CHRYSOSTOMUS, Monitum in Serm. quinque in Annam, Ser. IV.

(69) F. NAU, Les Arabes chrétiens, p. 20.

(70) THEODORETUS CYRENSIS , H. R., c. XXVI.

(71) Ibid., c. XXVII.

(72) Ibid., c. XXVI.

(73) J. LAMMENS. La vie universitaire à Beyrouth sous les Romains et le Bas Empire, dans Revue du Monde Egyptien, sept. 1921, t. I. p. 657.

(74) Cf. H. DELEHAYE, Les Saints Stylites, p. LXXXV.

(75) MICHEL LE SYRIEN, Chronique, éd. CHABOT, Paris 1901, I, p. 358.

(76) W. WRIGHT, Catalogue of Syriac manuscripts in the British Museum, London 1871, p. 988.

(77) Ibid., pp. 595 et 988.

(78) R. DEVREESSE, Le Patriarcat d' Antioche depuis la paix de l'Eglise jusqu'à la conquête arabe, Paris 1945, p. XVII.

(79) W. WRIGHT, Catalogue, p. 740.

(80) Cf. H. DELEHAYE, Les Saints Stylites, p. CXXXI.

(81) W. WRIGHT, Catalogue..., p. 606.

(82) Ibid., pp. 951 et 986.

(83) Mar IGNATIUS APHRAM I, Histoier des sciences et de la littérature syriaque, 2e édit., Alep 1956, pp. 407, 416 et 542.

(84) THEODORUS STUDITA, Epistolae, Liv. I. 15.

(85) Cf. H. DELEHAYE, op. c., p. CXI.

(86) Ibid., p. LXXXIV.

(87) ANONYME, Vie de St. Daniel le Stylite, p. 112.

(88) NOTTARI, Sculture et pitture sagre estratte dai cimiteri di Roma pubblicate già dagli autori della Roma sotterranea, ed ora nuovamente date in luce colle spiegazioni, Roma 1754. Cf. M. MARTIGNY, Diccionario de antigüedades cristianas, Madrid 1894, p. 803.

الرسم والنحت المقدسان المأخوذان عن مقابر روما، والمنشوران من قبل المؤلفين الباحثين في آثار روما التي تحت الأرض، وقد تم الآن طبعها مع شروح لهـــا .

(89) THEODORETUS CYRENSIS, H. R., c. XXVI.

(90) ANONYME, Vie de St. Daniel le Stylite, p. 121.

(91) J. MOSCHOS, Pratum spirituale, c. 129.

(92) Vita S. Lazari, c. 159, dans DELEHAYE, op. c., p. CLIII.

(93) THEODORETUS CYRENSIS, H., c. XXVI.

(94) ETHÉRIE, Journal de voyage, Paris 1948, p. 215.

(95) SOZOMENUS, Historia Ecclesiastica, VI.

(96) THEODORETUS CYRENSIS, H. R., c. XIII.

(97) ANONYME, Vie de St. Daniel le Stylite, p. 133.

(98) E. HONIGMANN, Le couvent de Barsauma et le Patriarcat Jacobite d'Antioche et de Syrie, Louvain 1954, p. 31.

(99) THEODORETUS CYRENSIS, H. R., c. XXVI.

(100) J. LACARRIÈRE, Les hommes ivres de Dieu, p. 274.

(101) A.J. FESTUGIÈRE, Les Moines d'Orient, I. p. 83.

(102) NICEPHORUS, Vita S. Symeonis Junioris, c.V.

(103) ANTONIUS, Vita S. Symeonis Stylitae, c. VII.

(104) Vita S. Lazari, c. 222, dans DELEHAYE, op. c.,p. CLX.

(105) NICEPHORUS, Vita S. Symeonis Junioris, c. XIX.

(106) Ibid., c.V.

(107) ANONYME, Vie de St. Daniel le Stylite, p. 121.

(108) Cf. H. DELEHAYE, Les Saints Stylites, p. CXI.

(109) Ibid., p. XCIX.

(110) Chronique, III, pp. 461 et 464.

الفصل الرابع : انتشار حركة الرهبنة العمودية وأهميتها

(111) THEODORETUS CYRENSIS, H. R., c, XXVI.

(112) GREGORIUS TUROLENSIS,Hist. Francorum, c. VIII,15.

(113) Gf. B. BAGATTI. Gli stiliti in Palestina, dans La Terra, Gerusalemme 1950, pp 67-69, et S. VAILHÉ, Les stylites de Constantinople, dans Echos d'Orient, I (1897), pp.303-307.

(114) Les Saints Stylites, p. CXXIII.

(115) Cité d'après L.DUCHESNE, L'Eglise au Vie siècle, Paris 1925, p.70.

(116) Chronique, II, p.174.

(117) Toutefois, il paraît que Michel le Syrien a mal compris la pensée de Thé ophane et qu'il faut lire "les statues des colonnes"

هنا يبدو أن ميخائيل السوري قد أساء فهم فكرة تيوفان. فينبغي أن نقرأ (تماثيل الأعمدة).

(118) Histoire de Marouta, métropolitain de Tagrit, écrite par son successeur DENHA, publiée par F. NAU dans Patrologia Orientalis III, p. 88; et OLAF HENDRIKS, La vie quotidienne du moine syrien primitif, dans L'Orient Syrien, vol V (1960), p.409.

(119) Les Saints Stylites, p. CXLI.

(120) S. VAILHÉ, Les stylites de Constantinople, dans Échos d'Orient I (1897),p,303; PITRA, Juris ecclesiastici graecorum historia et mounumenta, t. II (1868), 338.

(121) S. VAILHÉ, op. c. p. 305.

(122) Vita S. Lazari, c. 59, dans Les Saints Stylites, p. CLI.

(123) J.M. FIEY, Cénobitisme féminin ancien dans les Églises syriennes orientale et occidentale, dans L'Orient Syrien, vol X (1965), p. 283.

(124) J. MOSCHOS, Pratum spirituale, c. 29.

(125) Ibid., c. 36.

(126) Chronique, II, p.197.

(127) Le terme "monophysite" est employé dans la presente étude exclusivement au sens historque, puisque comme les études modernes L'ont révélé, la doctrine des soi- disant monophysites ou jacobites n'était pus hérétique. Ils croyaient, tout comme leurs opposants les chalcédoniens, à l'existence de deux natures dans le Christ. Toutefois, par l'imprécision de la naissante terminologie théolgique, ils s'exprimaient de façon différente. Cas typique d'incompréhension réciproque.

كلمة مونوفيزية تستخدم في هذه الدراسة بمعناها التاريخي حصراً. فقد أظهرت الدراسات الحديثة أن عقيدة من يسمون" المونوفيزيين" أو " اليعاقبة "، ليست هرطوقية. فهم يؤمنون تماماً مثل خصومهم " الخلقيدونيين " بوجود طبيعتين في المسيح. ولكنهم، بسبب عدم وجود الدقة في المصطلحات اللاهوتية الناشئة، فقد عبروا عن العقيدة نفسها بشكل مختلف. وهذه حالة نموذجية لسوء الفهم المتبادل .

(128) JEAN- CHARLES et MARIANNE SOURNIA, L'Orient des premiers chrétiens, p. 111.

(129) Villages Antiques, I, p.135.

(130) PIERRE DIB , L'Eglise maronite, Paris 1930, I, p. 43.

(131) J. NASRALLAH, L'orthodoxie de Siméon Stylite l'Alépin et sa survie dans l'Eglise melchite, dans Parole de ; L'Orient, II (1971), pp. 358-359.

(132) J.NASRALLAH, Couvents de la Syrie du Nord portant le nom de Siméon dans Syria, t. XLIX (1972), pp. 128-130.

(133) W. WRIGHT, Catalogue, pp. 705 et 708.

(134) Ibid., p. 613; MAR IGNATIUS APHRAM I. Histoire des sciences, p. 339; Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, Scriptores Syri, 153. The Disputation of Sergius the Stylite against a Jew, translated by A. P. HAYMAN, Louvain, 1973, pp. 1-5.

(135) H. ZAYAT, Les couvents chrétiens en Terre d'Islam, Beyrouth 1938, p. 17.

(136) J. NASRALLAH, Couvents de la Syrie, pp. 135 et 156.

(137) Chronique, éd. V. LANGROIS, 1868, p. 179.

(138) I.B. CHABOT, Documenta da origines monophysitarum illustrandas, C.S. C. O. Syr., 52, Louvain 1965, réimpression anastatique, pp. 152, 153 et 155; W. WRIGHT, Catalogue, pp. 711, 712 et 713/

(139) E. HONIGMANN, Le couvent de Barsauma, p. 114

(140) R. DUSSAUD, Topographie historique de la Syrie antique et médiévale, Paris 1927, p. 306.

(141) E. HONIGMANN, op. c., p 130; MICHEL LE SYRIEN Chronique, éd. CHABOT, III. p. 499.

(142) Les trophées de Damas. Controverse judéo- chrétienne du VIIe siècle texte grec éd. et trad GUSTAVE BARDY, dans Patrologia Orientalis, t. XV, Paris 1927, pp. 271 et 191; R. DUSSAUD, Topographie historique, p. 515.

(143) Le texte grec des Récits utiles à l'âme d' Anastase (le Sinaïte), publié par F. NAU, dans Oriens Christianus, III, 1903, pp. 61-62.

(144) R. DUSSAUD, Topographie historique, p. 306.

(145) Le texte grec des Récite, p. 65.

(146) GUIDES BLUSE, Moyen- Orient, Paris 1965, p. 367.

(147) Les Saints Stylites, p. CXXI.

(148) Ibid., p. CXXIII.

(149) J. MOSCHOS, Pratum, Spirituale, c. 36.

(150) MICHEL LE SYRIEN, Chronique, II, pp. 357 et 500; W. WRIGHT, Catalogue, pp. 595 et 988.

(151) MAR IGNATIUS APHRAM I, Histoire des sciences, p. 380.

(152) Ibid., p. 604.

(153) W. WRIGHT, Catalogue, p. 817.

(154) J. MATTERN, Villes Mortes, p. 85; E. RENAN, Mission en Phénicie Paris 1874, p. 226.

(155) MAR IGNATIUS APHRAM I, Histoire des sciences, pp. 407 et 416.

(156) MICHEL LE SYRIEN, Chronique, III, p. 124.

(157) Ibid., III, pp. 461 et 646.

(158) W. WRIGHT, Catalogue, p. 324.

(159) MICHEL LE SYRIEN, Chronique, III, p. 466.

(160) Les Saints Stylites, p. CIX; GUIDES BLEUS, Moyen- Orient, p. 256.

(161) MICHEL LE SYRIEN, Chronique, III, p. 24.

(162) Ibid., II, p. 419 et III, p. 26.

(163) E. RENAN, Mission en Phénicie, p. 126; H. LAMMENS, Au pays des Nosaïris, dans Revue de l'Orient Chrétien, V (1900), p. 114.

(164) H. LAMMENS, Au pays des Nosaïris p. 114.

(165) Les Saints Stylites, p. CXXVIII.

(166) Ibid., p. LXXXIV.

(167) Vita S. Lazari, c. 225, dans Les Saints Stylites, p. CXII.

(168) Les Saints Stylites, p. CXXXII.

(169) MAR IGNAYIUS APHRAM I, Histoire des sciences, p. 557.

(170) Les trophées de Damas. Controverse, dans Patrologia Orientalis, t. XV, p. 271.

القسم الثاني

الرهبان العموديون حول قلعة سمعان

الأب باسكال كاستلليانا الفرنسيسكاني

ترجمت الأخت نيكــول دي مايه إلى الفرنسية هذا القسم من الكتاب، والرســومات بريشـــة السيد إبراهيم ساوند، فلهما جزيل شكرنا.

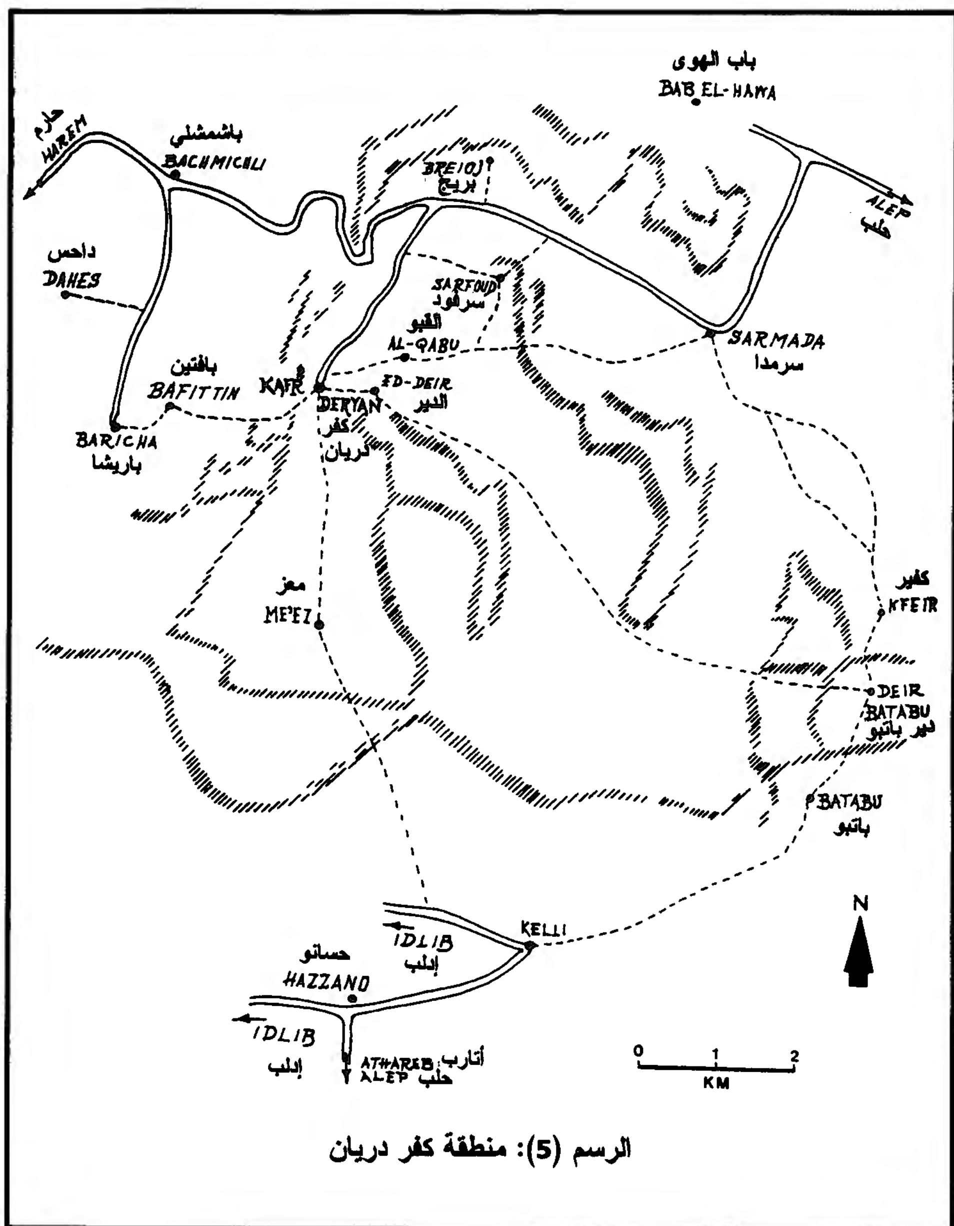
١ - مار يونان من كفر دريان

آ- أماكن العبادة في كفر دريان:

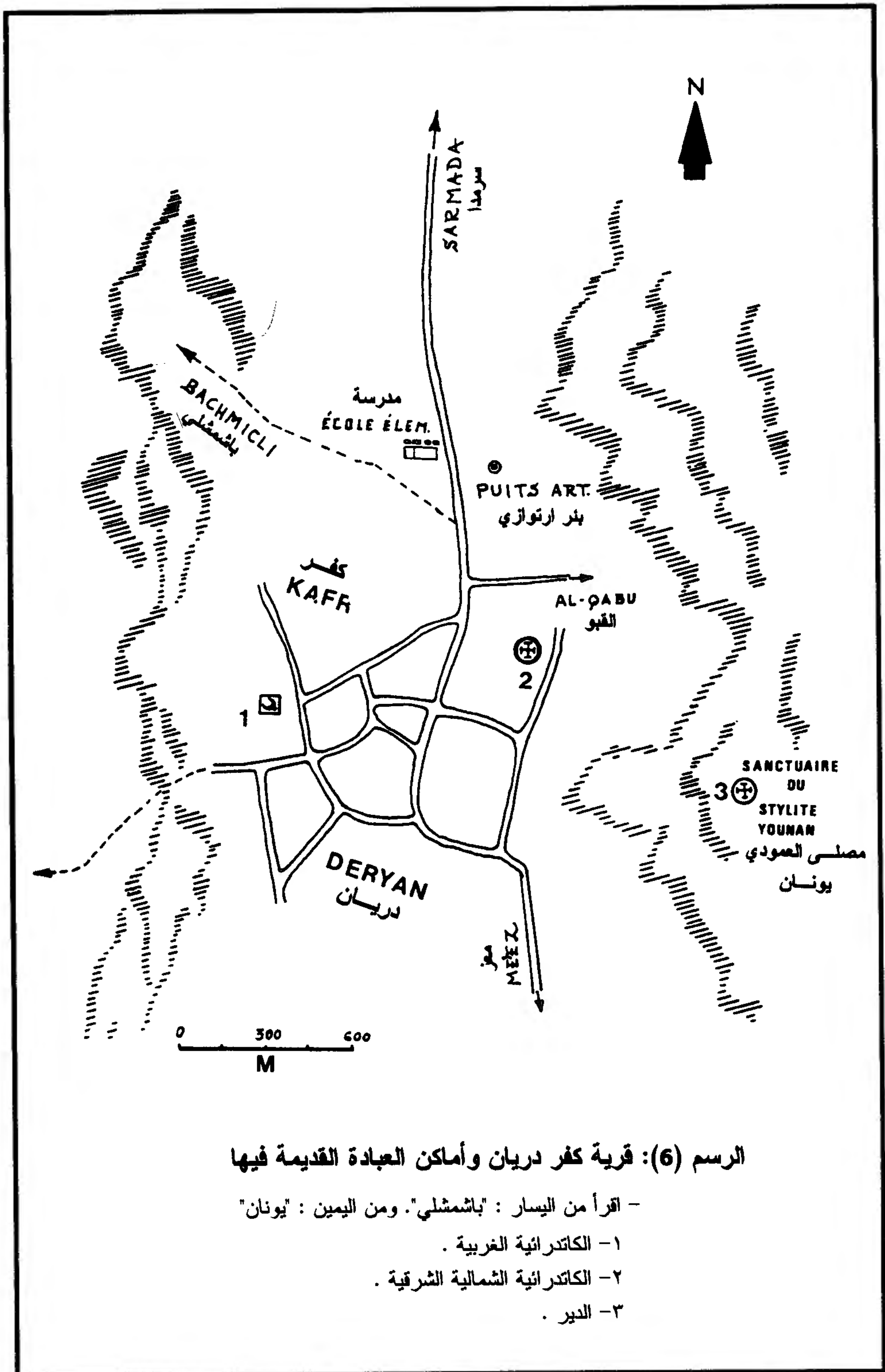
عــندما ينتهي سهل سرمدا، ويبدأ الطريق بالصعود نحو حارم، يوجد مفرق طرق حيث يــتفرع طريق مُعبّد يؤدي إلى كفر دريان. هذه القرية التي تقع على مرتفع يؤلف جزءاً من السفح الشرقي لجبل باريشا. أما بيوت القرية فعديدة وتمتد حتى الوادي. (الرسم/ 5) .

كــان يقوم في القديم ثلاثة أماكن عبادة على الأقل في كفر دريان : كاتدرائيتان، وكنيســة. فالكاتدرائيــة الأولى ترتفع عند تخم القرية الغربي، ومن المرجح أن تكون مكــان الجــامع الحــالي. ولم يبق من هذه الكاتدرائية الأولى سوى كتابة يونانية على ســاكف جميــل، هــو اليوم عبارة عن دعامة لباب المسجد. تدلنا هذه الكتابة على أن الكنيسة قد بنيت : "بعون الله وبهمة قوزما ويعقوب، وذلك سنة ٥٧٧ م [1] وكان هناك الكاهن ساويروس". وساكف آخر يستخدم اليوم عتبة للباب نفسه بإمكاننا أن نقرأ عليه كتابة سريانية .

أمــا الكاتدرائيــة الثانية فتقع على التخم الشمالي للقرية الحالية في قلب الوادي، وكــان لها برجان يزينان واجهتها. ويرجع الأب ماتيرن، مستنداً إلى بعض تفاصيل الــنقوش، تــاريخ البــناء إلى القرن السادس[2]. (الرسم/6- الرقم/2) وبعد أن قمنا بزيارة المكان لم نعثر على أثر للكنسية، فقد اندثر كل شيء، ووحدها الذكرى تبقى في ذاكــرة كبار السن، الذين يروون أنه في قديم الزمان كانت تقوم في هذا المكان كنيسة مســيحية. ومكــان العــبادة الــثالث هو الكنيسة التي يرجع تاريخها أيضاً إلى القرن الســادس، ويمكنــنا أن نراها، فهي محفوظة بشكل كامل تقريباً في شرق القرية على مــرتفع يسميه السكان -الدير- وهي على بعد ثلاثمائة متر من بعض البيوت بالقرب من عمود العمودي يونان . (الرسم/6- الرقم /3)



الرسم (5): منطقة كفر دريان



الرسم (6): قرية كفر دريان وأماكن العبادة القديمة فيها

– اقرأ من اليسار : "باشمشلي". ومن اليمين : "يونان"

١– الكاتدرائية الغربية .

٢– الكاتدرائية الشمالية الشرقية .

٣– الدير .

ب- من كان العمودي يونان ؟

أشـــار مخطوط من المتحف البريطاني - نشره ف. رايت عام ١٨٧١م، وترجمه إلى اللاتيــنية الأب ج. ب شــابو - ، إلى مـــار يونان عمودي قرية كفر دريان[3]. وبفضـــل هذه الإشارة تمكن الأب ماتيرن خلال زياراته الأثرية إلى هذه المنطقة سنة ١٩٢٩م. أن يــتحقق مــن وجــود هذا المكان. فبالرغم من انتشار العمودية في القرن السادس الميلادي لم يهتم أي مؤرخ بأن يحدثنا بالتفصيل عن العموديين، باستثناء الذين اشــتهروا بعجائــبهم، أو بقداسة حياتهم، كما هو حال القديس سمعان الكبير، والقديس سمعان الصغير، ومعلمه يوحنا[4] .

كـــان مار يونان واحداً من جيوش الرهبان القديسين الذين بدافع تعطشهم للتوبة، وغيرتهم الكبيرة على النفوس، اندفعوا إلى أقصى أشكال البطولة باختيارهم العمودية، فعاشـــوا على عمود، وانصرفوا إلى التأمل والوعظ. ونحن لا نعلم أي شيء آخر عن حياة مار يونان سوى ما ذكره مخطوط المتحف البريطاني: فبصفته أرشمندريتاً شارك فـــي الاجتماع الذي عقده كبار المدافعين عن المونوفيزية[5] السورية في دير باتبو[6] فـــي ١٧ أيـــار ٥٦٧ م. ففي النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، اندلع خصام عـــنيف بيـــن المونوفيزيين الذين قبلوا بعقائد مجمع نيقية من جهة، وبين المونوفيزيين المعـــروفين بأصـــحاب مذهب التثليث الإلهي الذين أنكروا وحدة الجوهر في الثالوث الأقـــدس[7] مـــن جهـــة أخـــرى. وكان على رأس الفئة الأولى ثيودوسيوس بطريرك الإسكندرية[8]، ويعقوب البرادعي[9]. وعلى رأس الفئة الثانية، كان الراهب أثناثيوس ابـــن أخ الإمـــبراطورة تيـــودوره، والأسقفان كونون الطرسوسي وأوجيه من سلوقية إيـــزوريا. ولكن الأمور تأزمت بشكل خاص عندما سعى بعد ٢٢ حزيران ٥٦٦ م كل مـــن أثناســـيوس وبطريرك أنطاكية بولس الأوكامي للحصول على كرسي الإسكندرية الذي أصبح شاغراً بوفاة ثيودوسيوس [10].

إن الخلافـــات حول العقائد والمصالح الشخصية مزقت طوال سنوات عديدة الكنيسة المونوفـــزية. فكـــانت الشـــتائم والافتراءات تختلط مع البراهين اللاهوتية. وكان النزاع يستهدف شخص بولس أكثر منه مسألة الثالوث الأقدس، خاصة عندما راودت بولس تلك الفكرة السيئة، إذ كتب رسالة إلى أهل الإسكندرية يحثهم على حجب الثقة عن أثناثيوس.

ففي هذا الجو المحموم والمثقل بالضغينة، أوحى رؤساء القسطنطينية إلى الرهبان المونوفيــزيين، في منطقة أنطاكية، بالدعوة إلى عقد سينودس، من شأنه تعزيز إيمان المؤمــنين وإظهــار قــوة المونوفيزية، في وجه أنصار مذهب التثليث الإلهي. والتأم المجمــع فــي دير باتبو الكبير، وقد يكون هذا الدير كما يشير اسمه بمنزلة الدير الأم لكــل أديرة منطقة أنطاكية، ولهذا كان ذا تأثير كبير على الأديرة الواقعة بين أنطاكية وبيــريه (حلب)، هذه الأديرة التي انتمت بأغلبها إلى المونوفيزية، وذلك بفضل نشاط ســاويروس وفيلوكســين[11]. ضــم الســينودس أربعاً وخمسين مشاركاً كلهم برتبة أرشــمندريت، ما عدا شخص باسم لعازر، ذكر بعد توقيعه أنه كاهن يوناني. ولما علم مــار يونــان بالتئام السينودس، ترك التوحد في هضبة الدير وتوجه إلى باتبو فوصل إليهــا بعــد ســاعتين مــن المشي. وتكفي قراءة نص أعمال المجمع حتى ندرك أن الســينودس، إضــافة إلى مناقشته الأفكار الهرطوقية لأصحاب مذهب التثليث الإلهي، ناقش مسألة الطاعة للبطريرك بولس، إذ قال :

" نعــلن محــروماً كــل من يؤكد ثلاث طبائع أو ثلاثة جواهر، أو ثلاثة آلهة في الــثالوث، وكــل مــن يــرفض الاعــتراف بالآباء القديسين ساويروس التيوبوليسي (الأنطاكي) وأنيثمس القسطنطيني وتيودوسيوس الإسكندري، وقبول كتاباتهم وتعاليمهم الشفهية. ونعلن محروماً أيضاً كل من يرفض قبول بطريركنا الموقر والمغبوط بولس، الــذي بإرادة الروح القدس، ورضى بطريركنا الموقر تيودوسيوس عين لنا بطريركاً لمدينة أنطاكية"[12] .

وانــتهى الاجتماع بتوقيع المشاركين وكان أولهم ماريس كاهن وأرشمندريت دير مــار بــاس فــي باتبو، ويليه بر حاب شابا كاهن وأرشمندريت دير تلعاده الكبير، ثم تواقيــع ســائر المجتمعين كل واحد بدوره. وكان التوقيع الثاني والعشرون هو توقيع راهبنا العمودي: "يونان، الارشمندريت، القائم على عموده في قرية كفر دريان" [13].

وبعــد ذلــك أُرسل نص المجمع إلى رؤساء الكنيسة المونوفيزية في القسطنطينية لطمأنــتهم عــلى إخلاص الرهبان السوريين للقضية المونوفيزية، ولإعلامهم بتعلقهم الكــبير بشخص البطريرك بولس. أما مار يونان فبعد أن أتم واجبه نحو بطريركه قفل

راجعــاً، ليصعد من جديد على عموده، وليتابع وهو في أعلاه تسبيح الله ووعظ الناس المتعطشين إلى الحقيقة. غير أن الهدوء الذي كان يأمله رؤساء القسطنطينية والرهبان الســوريون من مجمع باتبو لم يحصل، بل ازدادت النزاعات بشكل مخيف، مما حملهم على تحديد موعد عاجل لسينودس آخر في السنة التالية. ولكن هذه المرة لم يذهب إليه العمودي يونان. فما هي أسباب ذلك ؟ إنها قد تكون متعددة : فلربما كان العمودي قد توفــي في هذا التاريخ. أو حار في أمره فسمح لإحساس بالإحباط أن ينساب إلىنفسه. ولا عجــب فــي هــذا الأمــر، أفلم يكن أصحاب مذهب التثليث الإلهي، في دعايتهم، يــروجّون الخبر بأن يعقوب البرادعي نفسه قد ترك البطريرك بولس، وأن هذا الأخير قــد اســتولى عــلى أمــوال المرحوم تيودوسيوس؟ وفي الحقيقة كان بولس، وهذا ما ستكشــفه لنا طريقة تصرفه بعد بضع سنوات، يفكر بمصلحته الخاصة أكثر من الدفاع عن المونوفيزية. فمن البديهي أن لا يكون الجميع ينظرون إلى الكنيسة ببساطة راهبنا العمودي نفسها، هذا العاشق الولهان بصليب المسيح .

وأتى المــوت ليحصــد مار يونان من على عموده، فقام رهبان ديره بدفن جثمانه على مقربة من عموده، في قبر محفور بقلب الصخر .

ج – المكان :

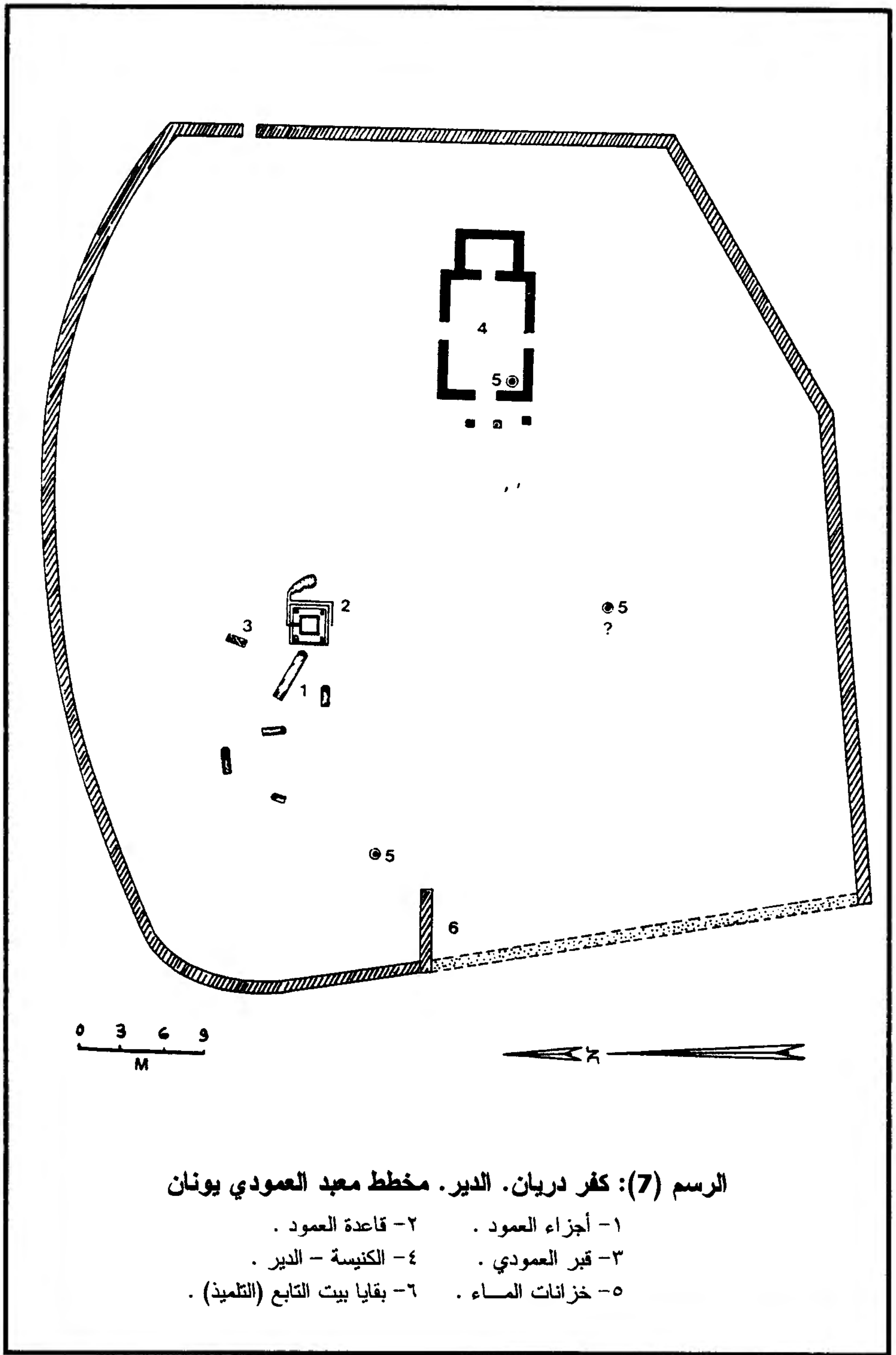
يسمى المكان الذي أشرنا إليه آنفاً – الدير– وقد بقي منه :

١– عمود العمودي يونان .

٢– قبره .

٣– الكنيسة أو الدير .

ويحيــط بكــامل البناء جدار من/ ٤٠×٥٠ م –٥٠×٥٠ م في الوسط – بني من أحجــار كبيرة مضلعة. لكن لم يبق منها سوى أجزاء من الجهتين الشمالية والجنوبية. وفي الجهة الشرقية توجد دعائم باب يؤدي إلى حرم الدير. (الرسم/7)



الرسم (7): كفر دريان. الدير. مخطط معبد العمودي يونان

١- أجزاء العمود .　　　٢- قاعدة العمود .

٣- قبر العمودي .　　　٤- الكنيسة - الدير .

٥- خزانات المـــاء .　　　٦- بقايا بيت التابع (التلميذ) .

١- العمود :

يرقد العمود على الأرض بأجزائه الأربعة ذات المقاييس التالية : (٣,٨٠ م –١,٥٠م – ١,٧٥م – ٠,٦٥م) مما يدل على أن ارتفاع العمود كان٧,٧٠م وقاعدته٠,٤٠م. ومصطبته٠,٦٠م فيصل بذلك إلى ارتفاع٨,٧٠م. وأكبر قطعة من العمود، وهي ملقاة بالقرب من القاعدة، يبلغ قطرها ١م، وطرفها السفلي فيه ثقب هو بلا شك ليستوعب لساناً من الحديد يعمل على تثبيت العمود على مصطبته بشكل محكم. أما أصغر قطع العمود فتحتوي على شقوق لاستيعاب القضبان التي تسند حجيرة العمودي. ولهذه الأجزاء الأربعة مقطع واحد، (اللوحة /2+1:1) وأما القاعدة التي تسند المصطبة فهي منحوتة في الصخر نفسه، ومقاساتها :٢,٨٠ × ٢,٧٠ م، وارتفاعها٠,٤٠م. وكان الثقب الموجود في حافة القاعدة الشرقية يستخدم على الأرجح لربط السلم الذي يصعد عليه الخادم أو التلميذ، بعد غروب الشمس ليقدم لمعلمه القسط اليومي من الخبز ومن الخضار النيئة، ومعها إبريق الماء. كما كان يستعمل السلم الأشخاص الذين يحصلون لسبب خاص على السماح لهم بالتحدث مع العمودي على انفراد .

ويوجد في القاعدة أربع حفر مربعة، حفرة في كل زاوية من زواياها، وفي هذه الحفر الصغيرة كانت تغرز قواعد الحاجز الذي يبقي الحجاج واقفين على مسافة من العمود. (اللوحة / 2) ويلاحظ في وسط القاعدة حفرة أخرى مربعة، يبلغ ضلعها /١,٦٥ م وعمقها لا يتجاوز بضعة سنتيمترات، تنطلق منها قناة بعرض /١٦سم وعمق/ ١٧سم في البداية، ليبلغ هذا العمق/ ٣٣سم في النهاية، وتبدأ متجهة شرقاً. ثم تنحرف نحو الجنوب الشرقي، لتصب في حفرة طبيعية، طولها/١,٥م وعرضها / ٠,٦٠م وعمقها /١,١٠م، وهي على بعد/ ١,١٥م عن القاعدة. ومن البديهي أن هذه القناة كانت تستخدم لصرف النفايات التي تنحدر من حجيرة العمودي عبر أنبوب مثبت بالحديد على العمود .

٢- القبــر :

وهــو محفور في الصخر، وقد وجه إلى الجنوب والشمال. يبلغ طوله /١,٩٨م، وعرضـــه /٩٠سم، وعمقه /٩٠سم. وفي الجهة الجنوبية، أي في الموضع الذي يستند إليـــه رأس الـــراقد تحـــت الصـــخر بشكل منحدر على طول/ ٠,٣٢م، مع فارق في المســـتوى بقدر/ ١٢سم. وما الحفرة التي تظهر في الوسط إلا عبارة عن عيب طبيعي فـــي الصخر. وتحيط بالقبر قناة صغيرة بعرض/ ١٠سم وغايتها منع مياه الأمطار من التســـرب إليـــه. أما غطاء القبر فهو في غاية البساطة، فلا قواعد للتماثيل عليه، ولا رســـوم أو رمـــوز. وترقد إحدى قطعه، وطولها/١,٢٠م، بالقرب من القبر. والقطعة الأخرى لم يعثر عليها .

٣ - الكنيسة أو الدير :

تقـــع الكنيســـة أو الدير على بعد/ ١٥ م جنوب شرقي قاعدة العمود. وتتألف من غرفتين، الواحدة فوق الأخرى، مقاييس البناء/ ٩× ٦,٦٠ م. (اللوحة / 2:1)

فالغـــرفة السفلية تستخدم ككنيسة صغيرة، والغرفة العليا كمسكن. إنه دير صغير، وقـــد يكـــون أصغر دير معروف في سورية، ولا ينبغي أن نستغرب أبعاده الصغيرة، فالديـــر القـــائم في قيمار قرب عمود راهب عمودي لا يكاد يكون أكبر بكثير، إذ تبلغ مقاييســـه/ ١٠,٣٥×٦,٧٥م. ويجـــب ألا نستغرب أن يتم السكن فوق الكنيسة، فهذا ما نـــراه أيضـــاً في ديرين آخرين من القرن السادس الميلادي، دير قصر البنات في دانا الجنوبية[١] نواحي معرة النعمان، والدير الواقع جنوب شرقي دير سمعان (تل نيشين).

ومن باب الاحترام لقدسية الهيكل ولذخائر الشهداء، كانوا يحرصون على بناء قبة الهيكـــل خـــارج حدود الطابق الأعلى. ونرى هذه الميزة في كل من دير كفر دريان، ودير قصر البنات في دانا الجنوبية، والدير في دير سمعان[14] .

---

(١) دانـــا الجنوبية : قرية أثرية في جبل الزاوية. شمال معرة النعمان بـــ ٥ كم، غنية بآثارها منها بيوت جميلة تتميز بزخارفها، وقبر هرمي كبير، محاط بأروقة تحملها أعمدة بتيجان مزخرفة، ودير كبير ومدافن .

يظن الأب ماتيرن أن الحبيسات الورعات اللواتي كان عليهن أن يخضعن للإرشاد الروحي من قبل العمودي مار يونان، كن يقمن في الطابق العلوي، ومن الشرفة التي تعلو مدخل الكنيسة كان بإمكانهن التحدث إليه[15]. أما تشالنكو فيظن أن الغاية من الشرفة هي السماح للعمودي بالتمكن من إسماع صوته للحجاج، عندما يرشدهم ويعظهم. وتستخدم الغرفة التي تعلو الكنيسة قاعة للاجتماعات[16]. ومع ذلك بما أن العمودي يونان يوقع في ذيل صفحة أعمال مجمع باتبو الأول، معرفاً عن نفسه بأنه ارشمندريت، فلهذا الأمر دلالة تحملنا على الاعتقاد بأن الطابق الذي يعلو الكنيسة كان حرياً أن يستخدم لسكن الرهبان المقيمين تحت سلطته. وهذا ما يفسر أيضاً اسم – الدير– الذي يطلقه أهالي المنطقة على هذه التلة .

لقد بني هذا الدير الصغير على الأرجح والعمودي على قيد الحياة[17]. فالواجهة الجنوبية للكنيسة مزينة بقطعتين من النتوءات الكلاسيكية من القرن السادس الميلادي، وهما دون شك بقايا أبنية قد هدمت أثناء الهزات الأرضية عام /٥٢٦م وعام/ ٥٢٨م. كما أن وجود ثلاث نوافذ تطل على الخورنية[٢] يبدو أمراً مقصوداً. فهذا الرقم الثلاثي، الذي يراد به تكريم الثالوث الأقدس، يعود ببناء الدير إلى فترة الصراع ضد مذهب التثليث الإلهي. ويوجد للكنيسة ثلاثة أبواب : الباب الرئيسي من الجنوب ، – عرضه /١,٣٥م – وكان لدخول النساء اللواتي يشاركن في الصلوات الإلهية وهن في آخر الكنيسة. أما البابان : الجنوبي – عرضه /١,١٤م، وطوله/ ٢,٦٥م– والشمالي– عرضه /١,١٠م، وطوله/٢,٧٥م– فكانا على العكس من ذلك، فقد خصصا للرجال الذين يجلسون أمام الخورنية .

وأمام الواجهة الغربية توجد عدة أعمدة تتألف من قطعة حجرية واحدة لتسند شرفة الطابق العلوي، وتؤلف معها رواقاً بعرض/١,٣٠م. أما الدرج فكان خارجياً في زاوية الكنيسة الشمالية الغربية. والبناء بمجمله ليس جميلاً، وأبعاده غير متناسقة،

---

(٢) الخورنية : كما أن المطرانية مكان سكن المطران، الخورنية مكان سكن الخوري أو كاهن الكنيسة، وتكون عادة بجانبها أو ملحقة بها، ويعيش فيها الكاهن ويمارس نشاطاته الرعوية .

فالرسـومات الناتـئة التي تزين الأبواب عادية جداً. ثم إن الفسحة بين عمودي وسط الكنيسـة، وكذلك الباب الواصل بين الشرفة، وقاعة الطابق العلوي أزيحا باتجاه الجهة الشـمالية لمحور الكنيسة الرئيسي. وكانت الخورنية بارزة بقياس/ ٤,٧ × ٢,٨م، وهي اليـوم ممتلئة بالتراب، ولم يبق منها إلا الأساس المبني بأحجار كبيرة بطول /٧٠سم، وتتصـل بصـالة الاجتماعات الكبيرة بوساطة باب بسيط، عرضه /١,٠٧م، وطوله/ ٢,٣٨م، تعـلوه ثـلاث نوافذ مرتبة بشكل مثلث، وهي للزينة والرمز أكثر من كونها لإيصال الضوء. أما رصيف الكنيسة، الذي لا يزال رصفه جيداً، فقد رُصِف ببلاطات حجرية كبيرة قياس /٢× ٠,٧٥م. ويستخدم القبو خزاناً، ويعتقد الأب ماتيرن أن الأمر كان دائماً هكذا. ولكن بوتلر يصنف القبو في عداد القبور [18].

وهـناك أخيـراً مجموعة من القنوات الصغيرة لاستقبال ماء المطر المنحدر من السـطح ومن المرتفع الصغير الواقع شمالي المبنى. ويوجد خزان ثان على بعد ١٥م غـربي قاعدة العمود، وهو لتأمين الماء لجموع الوافدين لسماع رجل الله. ويذكر الأب ماتيـرن وجود خزان ثالث جنوبي العمود، لم يبق منه أي أثر. حتى إن مالك الأرض نفسه لم يتمكن من قول أي شيء لنا عنه. أما المسكن الصغير الخاص بالتابع المكلف بالـتموين اليومي للعمودي، وبترتيب أحاديثه مع الزوار، فقد اندثر كله، وكان يقع في الجهة الغربية، بالقرب من مدخل الحرم الرئيسي. وفي الحقيقة حفظت لنا تلة الدير كل العناصـر التي كانت تؤلف الإطار الذي عاش ومات فيه مار يونان : السور، العمود، القـبر، الكنيسـة، والخـزان. إنه بكل تأكيد الموقع الأكثر حفظاً من بين كل المواقع السـورية التي تذكرنا بالعموديين، بعد الموقع الذي عاش فيه القديس سمعان الكبير. إذ يكفـي تـرميم بسـيط للكنيسة كي يصبح هذا المكان، الذي يعني الكثير لعلماء الآثار ولدارسي التاريخ المسيحي القديم، مكان زيارة رائع .

إن قرية كفر دريان الحالية قد حافظت على تنظيم القرية القديمة نفسه، وهي تحتوي على الكثير من الآثار البيزنطية. وكثيرون من الأهالي سكنوا في البيوت البيزنطية المرممة. وأكثر من باب فيها مزين برسوم مسيحية[19]. ويتجاوز الآن عدد سكان كفر دريان ألف نسمة بقليل. ومدرستها الابتدائية تقع في مدخل القرية، وقد حفر فيها بئر ارتوازية منذ عدة سنوات. وهناك وسائل نقل يومية تصل القرية بمدينة إدلب ومدينة حلب[20].

٢- بولس من يحمول

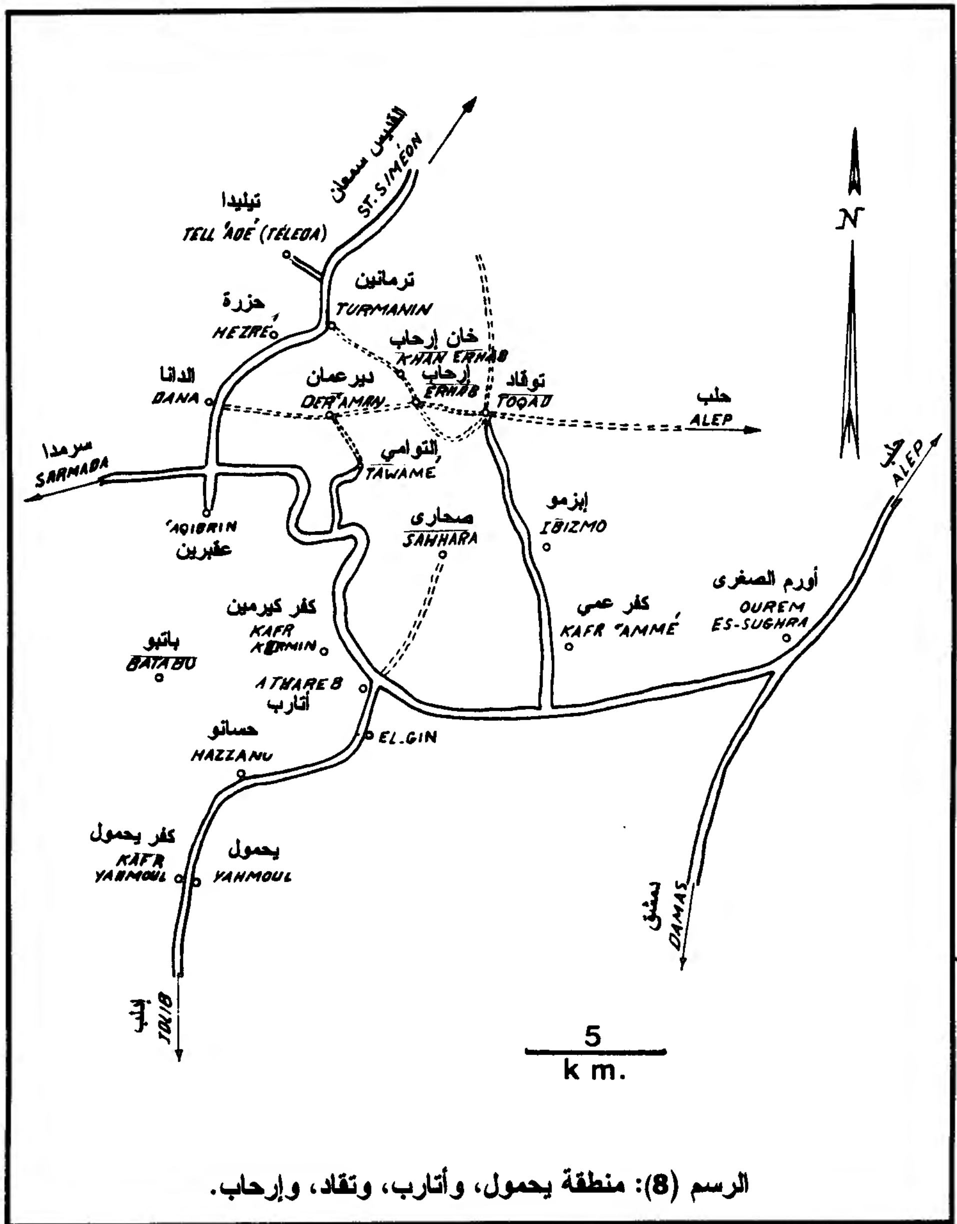
آ- مزرعة يحمول :

في لائحة الرهبان المونوفيزيين الذين شاركوا في اجتماع باتبو الثاني في ٣ كانون الثاني ٥٦٨م، يوجد شخص باسم بولس عمودي من حاميلا[21]. وبحسب تشالينكو، فحاميلا هي نفس يحمول، الواقعة جنوبي كفر دريان، في القسم الشمالي من سهل قنسرين. وفي الحقيقة حفظت لنا المواقعية اسم موقعين مختلفين: موقع يحمول، وموقع كفر يحمول[22]. قمنا بعدة زيارات لهذين الموقعين، وكلنا أمل بأن نجد بعض الذكريات عن العمودي بولس. كانت أقصر الطرق إليهما من حلب هي الطريق المؤدية إلى كنيسة القديس سمعان الكبير، فعند الكيلو متر ٢٩، من مدخل الأتارب، توجد لوحة تشير إلى الاتجاه المطلوب : معرة مصرين. وبعد تجاوز قرية إلجين -٣١كم-، وقرية حزانو - ٤٢كم-، حيث كانت تزدهر في الماضي أديرة المونوفيزيين، نصل إلى كفر يحمول[23] - ٤٥-كم. (الرسم/8)

كفر يحمول قرية صغيرة تضم حوالي ألفي نسمة. ولم تحافظ إلا على القليل من آثار العهد البيزنطي : بعض الحجارة المربعة، وبعض أجزاء أعمدة ذات قطر صغير. وفي وسط القرية بالقرب من مدخل الجامع يمكننا أن نرى مغارة، استخدمت على الأرجح، للدفن في الماضي. إن ما نحصل عليه في هذه الأماكن غالباً، هو المعلومات التي تقدمها لنا الروايات الشفهية الثمينة للغاية تاريخياً، ولكن عندما طرحنا الأسئلة على الأهالي، لم نجد أياً منهم يذكر أنه سمع حديثاً عن أشخاص كانوا يعيشون على الأعمدة، أو عن أديرة مندثرة أو عن بقايا أعمدة .

إذن فلنتوجه إلى يحمول.

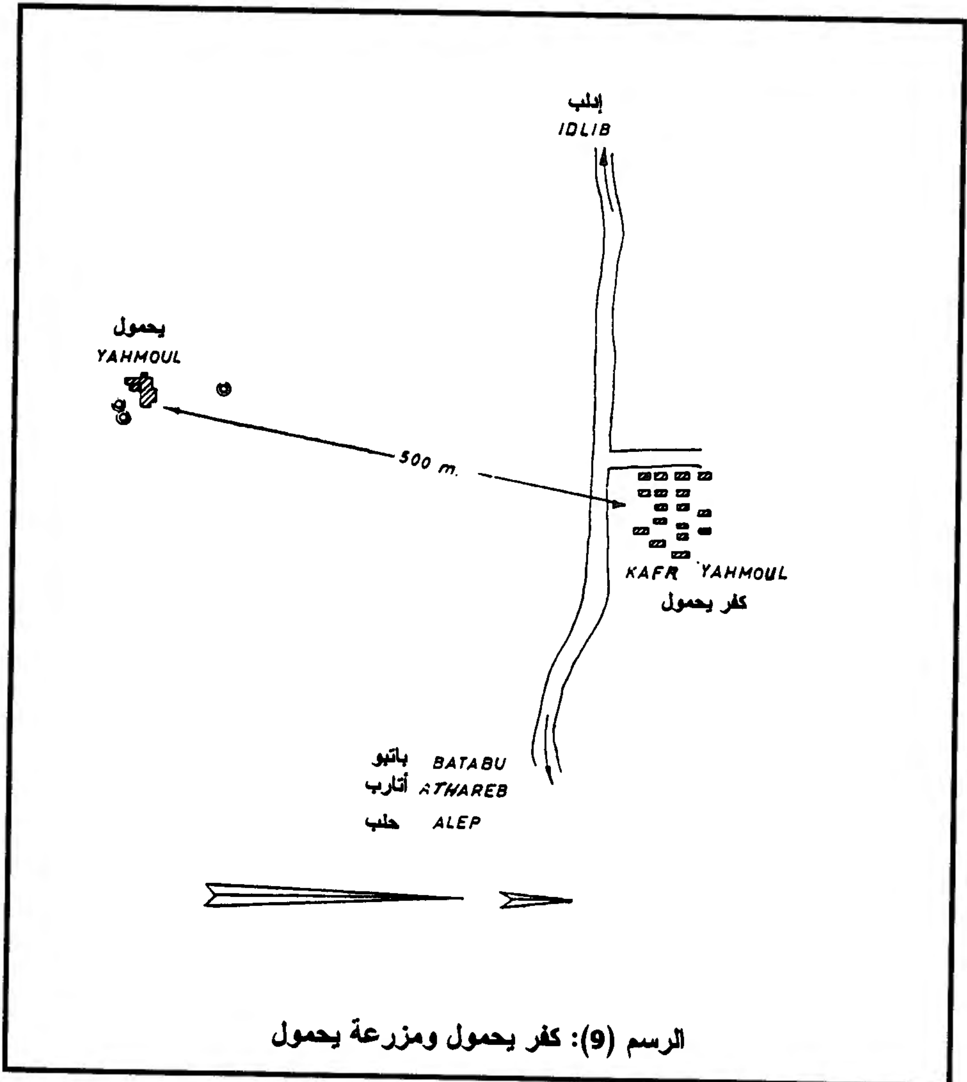
على بعد٥٠٠ م جنوب غربي كفر يحمول توجد مزرعة صغيرة، تملكها عائلة سلطان المقيمة في حلب. (الرسم/9 . واللوحة / 1:3) وفي يحمول نفسها تعيش الآن



الرسم (8): منطقة يحمول، وأتارب، وتقاد، وإرحاب.

بعــض العائلات من المزارعين الذين يربون الأبقار ويزرعون القطن والحبوب. وعند وصولنا استقبلنا أحدهم بود كبير، وكان لنا بمنزلة الدليل، فاغتنمنا الفرصة لنسأله عن وجــود بقايــا لعمود، فأجابنا- إنه لا يوجد في المنطقة إلا بئر يعرف باسم "جب أبي العمود"، وهذا يعني بئر رجل العمود أو بشكل أصح بئر العمودي(24) .

وبذلــك تــبلغ جولتــنا هدفها ولم تذهب جهودنا سدى، فالمزرعة التي تحمل اسم الموقــع القديم، واسم البئر المرتبط بذكرى رجل عاش على عمود، كلها تشكل عناصر ثمينة تذكرنا بحاميلا القديمة، وبقداسة العمودي بولس .



الرسم (9): كفر يحمول ومزرعة يحمول

وتحـــتوي المـــزرعة على بعض الآثار القديمة كأساسات الجدران شرقي وجنوب شرقي الحرم، وبالتأكيد بعض السواكف، وإحداها تحمل صليباً. وبعض آثار من نقوش نـــباتية، وعدداً من المعالف المحفورة في صخور من قطعة واحدة، وقد أعيد استخدام بعضـــها مـــنذ بضع سنوات. بالإضافة إلى آبـــار كثيرة، يصل عددها، كما قال دليلنا إلى/ ٣٥ بـــئراً، ولكـــل بئر منها اسم خاص. ويتوافق وجود هذه الآثار بشكل تام مع وجـــود ديـــر ومضافة للحجاج، وقد زالت كلها الآن. فقد كان وجود خزان ماء كبير ضرورياً سواء للرهبان والحجاج أم لمواشيهم وزراعتهم. ويقع بئر رجل العمود على بعـــد /٢٥م مـــن زاويـــة المزرعة الجنوبية الشرقية، وعلى بعد حوالي ٥٠م من البئر المسمى - بئر الحصان -. أما سائر الآبار، كآبار المزرعة، والآبار الأخرى، فأغلبها اليوم ممتلئ بالتراب والحجارة .

ب- ديـــر يحمـــول :

إذا كان دير يحمول قد بني على بعد بسيط من قرية كفر يحمول القديمة فذلك دون أي شـــك، يرجع إلى سببين : الأول تحقيق العزلة والخلوة للرهبان، وهما أساس الحياة الرهـــبانية. والثاني هو ضرورة وجود أراضٍ حول الدير لتأمين معيشة الرهبان الذين كـــانوا، وفق قول القديس يوحنا فم الذهب، وتيودوريطس القورشي، يؤمنون حاجياته بعمـــلهم اليدوي[25]. فالأراضي المجاورة، وهي خصبة بشكل غريب، صالحة لزراعة الحـــبوب والخضـــار. ويوحـــي غيـــاب معاصر الزيت بعدم وجود شجر الزيتون في أراضي دير حاميلا.

ولا نعـــرف عـــن هـــذا الدير إلا أن رهبان حاميلا كانوا مونوفيزيين في القرن الســـادس الميـــلادي، وأنهـــم يعترفون لدير باتبو ببعض السلطة. وهذا ما يحملنا على الاعـــتقاد باحتمال وجود علاقات تاريخية بين الديرين. ثم إنه ليس من المستحيل أن يكـــون راهـــب من باتبو قد أسس دير حاميلا. وفي الحقيقة، أليس دليلاً على ذلك أن نرى اسم أرشمندريت دير مار باس في باتبو يُذكر دائماً في المرتبة الأولى، سواء في الرسائل التي وجهها أرشمندريتات سورية إلى أساقفة القسطنطينية المونوفيزيين، أم في

أجوبة هؤلاء عن تلك الرسائل على حد سواء، وفي لائحة التواقيع الموجودة في ذيل أعمــال المجمعين الذين عقدا على التوالي في/ ١٧ أيار ٥٦٧ م وفي/٣ كانون الثاني ٥٦٨ م ؟ (26)

ج- العمودي :

لــم نعــرف إلا القليل النادر عن هذا العمودي، الذي كانت شهرة قداسته وحياته البطولية، التي قضاها على العمود، قد جذبت رجالاً كثيرين إلى الاعتزال في حاميلا، لكننا نعرف أن اسمه بولس، فقد حفظه لنا مخطوط المتحف البريطاني. ونعرف أيضاً حدثــاً واحــداً تــم في حياته، وهو اشتراكه في السينودس الثاني الذي عقده في باتبو رؤســاء المونوفيزية في سورية الأولى. فبناء على الدعوة التي وجهت إليه ذهب إلى الدير الذي كان يبعد عن حاميلا حوالي ساعتين من المسير. وكان على سينودس باتبو الثاني أن يحرز النصر على أصحاب مذهب التثليث الإلهي، الذين بعد أن عقدوا اتفاقاً هشــاً فــي الســنة الســابقة فــي الإســكندرية وفي القسطنطينية مع رؤساء الكنيسة المونوفيــزية (27) عادوا فنقضوا الاتفاق، وكثفوا دعايتهم إلى درجة زرعت البلبلة بين الرؤســاء المونوفيزيين أنفسهم، "رجال سفهاء مصابون بهرطقة نجسة ويفترون على بطريركــنا المغــبوط بولس"(28). فقد مضى هؤلاء الرجال يؤكدون في كل مكان أن يعقوب البرادعي قد ترك بولس، وانضم إليهم وقد حذا حذوه أيضاً أساقفة القسطنطينية المونوفيــزيون، وكذلك الأرشمندريتات السوريون، ما عدا اثنين منهم(29). أما رؤساء ســورية المونوفيــزيون الذين فاجأتهم الحملة الهوجاء، التي كادت أن تحقق مسعاها، بترويج رسالة هجاء باللغة السريانية في صفوف المونوفيزيين(30)، فقد تشجعوا برسالة مــن أســاقفة القسطنطينية المونوفيزيين بلغهم إياها قورش الرقاوي، ورهبان دير مار زكا، ورأوا أنه من الضروري الاجتماع من جديد في دير مار باس، الذي أصبح الآن بيد القديسين، ليقرروا بشكل أفضل ما ينبغي فعله (31).

ضــم السينودس ثمانية وخمسين شخصاً : ثلاثة وثلاثين أرشمندريتاً، خمسة عشر راهباً، أربعة حبساء، ثلاثة كهنة، ثلاثة عموديين. وأرادوا أن يعطوا السينودس الثاني

هـــذا أهميـــة أكـــثر مـــن التي أعطيت للأول. لذلك دعي عدد أكبر من المشاركين : أرشمندريتات أصحاب نفوذ، حبساء، وعموديون مشهورون بقداستهم .

"بعون الثالوث الأقدس الكلي القداسة اجتمعنا في اليوم الثالث من كانون الثاني عام ٦١٩/، بحســـب الــتقويم الأنطاكي. واستمعنا معاً إلى قراءة رسائل الأساقفة، فسمعنا الــتجاديف – الهرطقات – التي جاءت في هذه الكتب والمكتوبة على نحو يرثى لـــه، ويستحق الشفقة حقاً " (32) .

تمـــت أولاً دراسة القضايا المطروحة، ثم كان الانتقال إلى كتابة أعمال السينودس الـــتي تهـــدف إلى الـــتركيز على التعلق بالإيمان الأرثوذكسي، وبتعاليم ثيودوسيوس المكـــتوبة والشـــفهية، وكذلـــك بـــتعاليم أنثيموس، وساويروس، وأيضاً على الطاعة "للبطريرك القديس بولس، الذي أعطي لنا بمشيئة الروح القدس وعونه، ومشيئة وعون مـــن هو الآن بصحبة القديسين البابا الشهيد تيودوسيوس" (33) إذن، لقد أعلن الحرمان ضـــد أصحاب مذهب التثليث الإلهي ثم تقرر بأن يكتب كل واحد إلى رسله الخاصين "من مندوبين أو قاصدين بابويين" ليحذرهم من :

"هـــؤلاء المرائين الذي يدّعون الوحدة، ولكنهم في الحقيقة يقيمون العقبات ضدها، ســـواء بالكـــتابات أم بالكلام، فيثيرون بذلك الانشقاقات الخطيرة. ولا يكفون عن قذف الافـــتراءات عـــلى الله وعليـــنا وعـــلى بولس بطريركنا القديس. لذلك نعتقد أنه من الضروري الموافقة على الإعلان المذكور أعلاه، والعمل على تبليغه إلى كل المؤمنين القريبين والبعيدين" (34) .

ثم تلت تواقيع المشاركين في السينودس :

١– مـــاريس : كـــاهن وأرشمندريت دير مار باس في باتبو، يقبل ويوافق على ما هو مكتوب أعلاه .

٤٠– أوسطاطيوس : عمودي في تقاد، يقبل ويوافق ...

٤١– شمعون : عمودي في إرحاب،...

٤٢– داود : حبيس سِحَرت،...

٤٤- جورجيوس : حبيس دير عمان،...

٤٨- بيسبوس : حبيس في كفر كارم،...

٥٤- بولس : عمودي حاميلا،...[35].

وبعـــد أن وضـــع توقيعه في ذيل الإعلان، أخذ بولس طريق العودة إلى حاميلا، لمـــتابعة رسالته القائمة على تذكير الناس بقيم الإنجيل بوساطة الصلاة، وعلى أعمال التعبد والوعظ، ثم دخل في عالم النسيان. ومع ذلك عندما يذهب فلاحو مزرعة يحمول الطيـــبون كـــل يوم لسقاية ماشيتهم من بئر رجل العمود يتابعون تجديد ذكرى راهبنا العمودي. وهناك بعض المولعين بالتاريخ الديني السوري، الذين يعملون على التعريف بهـــذه الأمـــاكن الموجـــودة حولهـــم، يتمنون أن ينقذوا من النسيان هذه الأديرة التي استطاعت وهي وسط نزاعات لاهوتية مريرة، لم تكن دائمة الوضوح، ولم تخلُ تماماً من دوافع سياسية وقومية، أن تعطي لكنيسة المسيح رجالاً جديرين بأن تفخر بهم. وهم يتمـــنون أيضـــاً أن يعيدوا في قلوب المسيحيين إحياء صورة هؤلاء الرجال، الساعين وراء الـــتوبة، العظمـــاء والمجهولين في آن واحد، الذين يبدو أن ذكرهم، بكل أسف، معرض للضياع إلى الأبد.

٣- أوسـطاطيـوس من تقـاد

آ - القرية الحالية والقديمة :

على الطريق المؤدية من حلب إلى الحدود السورية التركية عبر باب الهوى[٣]، وإلى ديـر القديس سمعان الكبير، عند الكيلومتر/٢٥ وعلى اليمين، توجد لوحة تشير إلى القرى التالية : كفرعمة [٤] ٢ كم، إيزمو[٥] ٥ كم، تقاد ١٠ كم. والطريق المؤدية إلى تقاد سالكة، وهـي جيدة ما عدا بعض الأماكن. (الرسم/8) وتقاد هي الآن قرية، فيها ١٥٠٠ نسمة، تتـبع إدارياً مـنطقة جبل سمعان[36]. وفي طرفها الشمالي الشرقي يمكننا رؤية بعض الحجارة من العهد البيزنطي، وقد استعملها السكان في تشييد أبنيتهم. (اللوحة/ 3، رقم 2) أما القرية القديمة فهي تمتد بين حدود القرية الحالية، والمنطقة الواقعة في منخفض الدرب الـترابي القديـم الذي كانت تسلكه الدواب بين حلب وترمانين[37]، حيث نجد بعض بقايا الجدران وبعض أبواب قائمة، وخزانات ومعاصر زيت .

فـي شرقي القرية، على مرتفع يسميه أهالي المنطقة شيخ معافى، ما زالت هناك بقايـا قـلعة قديمة، وأساسات مسكن بطابقين من القرون الوسطى، وإذا ما أخذنا بعين الاعتـبار محرابه الصغير، فقد يكون الطابق السفلي قد استخدم جامعاً. وساكف الباب الجـنوبي الذي يطل منه المحراب مزين بصليب بسيط. أما المدخل الغربي، فقد زين بصـليب مميز لهذه المنطقة، وهو مؤلف من أربع مستطيلات. وعلى المنحدر المقابل للسفح الذي تقوم عليه القرية الحالية، أي باتجاه الجنوب، ترتفع بيوت جديدة حول النبع

---

(٣) بـاب الهوى : قرية أثرية في ناحية الدانا، منطقة حارم، محافظة إدلب، على بعد ٣٠ كم شمال سرمدا، وتقع عـلى الطريق الرومانية بين حلب وأنطاكية. وقد سميت باب الهوى نسبة إلى قوس حجري كبير كان مدخلاً لسهول الدانا يعود إلى القرن السادس الميلادي وبجواره كنيسة من القرن الرابع الميلادي، والموقع الآن هو نقطة الحدود الدولية بين سورية ولواء الإسكندرون الذي أتبع لتركيا .

(٤) كفـر عمـة : مزرعة في جبل سمعان، ٧كم شرق الأتارب، وهي تتبع قرية الإبزمو التي تبعد عنها ٣كم إلى الشرق، في منطقة جبل سمعان، محافظة حلب .

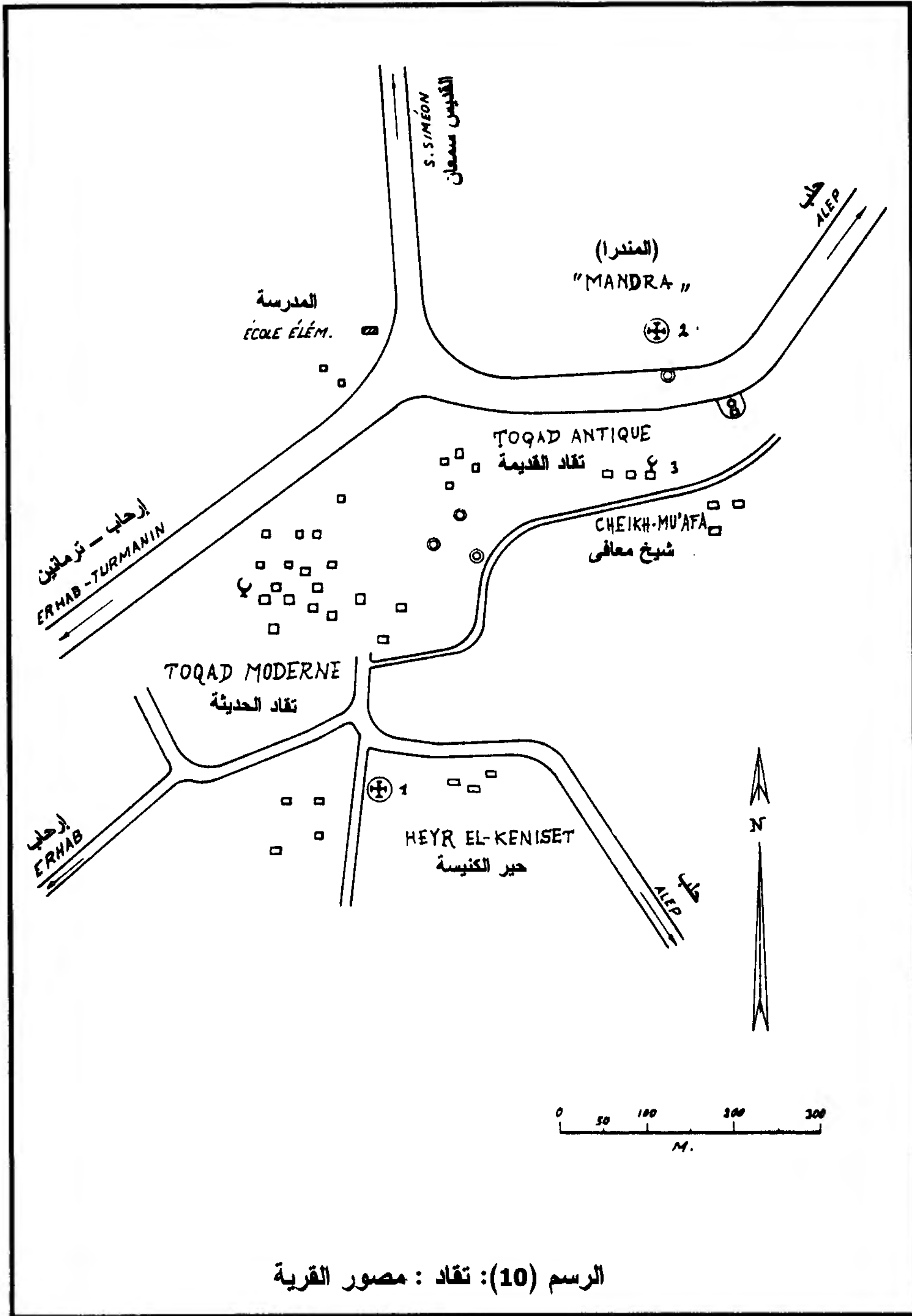
(٥) الإبزمو : قرية في جبل سعان، ٥٠ كم شمال شرق الأتارب، منطقة جبل سمعان، محافظة حلب .

بالقــرب من أرض تسمى حير الكنيسة – وهذا يعني: بستان أو أرض الكنيسة –، ولا شــك فــي أن هذه الأرض كانت قديماً من أملاك كنيسة تقاد. (الرسم/ 10) في أثناء جولتنا الأولى عام ١٩٧١ م لم نجد سوى ركائز باب وساكفه، فالركائز لا تزال قائمة أما الساكف المزين بصليب منحوت بشكل خشن فهو ملقى على الأرض.

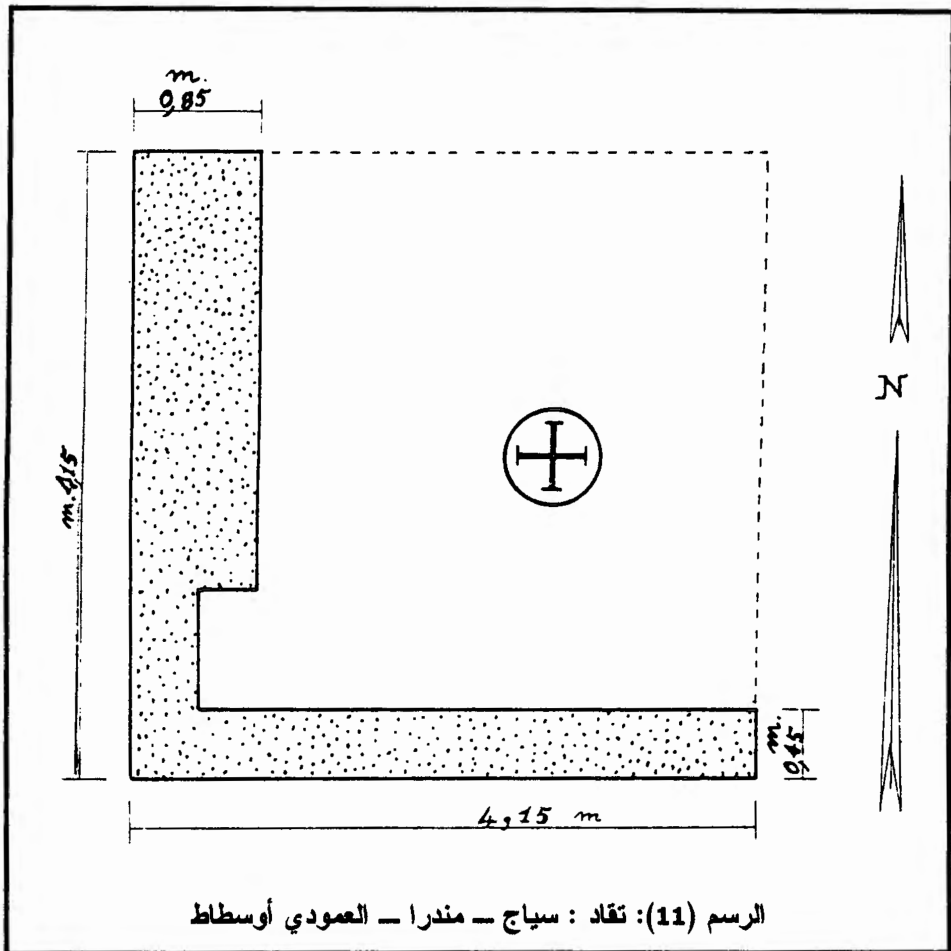
ب – أرض الصومعــة :

إن الأب بولــس يتيم، الذي بدأ هو بدوره القيام بتنقيبات، قد عثر في شمال شرقي القــرية على أرض أخرى تدعى الصومعة، وهذا ما يمكن ترجمته بأرض العمود، أو بمكان مرتفع قليلاً، كان يعيش فيه ناسك. من هو يا ترى هذا المتوحد الراهب الذي قام فــي /٣ كــانون الثاني سنة ٥٦٨ م بوضع توقيعه في ذيل أعمال مجمع باتبو الثاني. وهكــذا عرّفــنا عــلى اسـمه وعــلى نمــط حياته، وعن مكان وجود عمود، إنه : أوسطاطيوس عمودي تقاد[38].

فــي/٣٠ أيار ١٩٧٢م وقد كنا هذه المرة في طريق العودة من إرحاب، رجعنا إلى هــذه الأمــاكن لــزيارة الأرض برفقة الأب يتيم نفسه، فاتخذنا الطريق الترابية القديمة، المخصصــة لــلدواب، كما كان يفعل في القرن السادس الميلادي أصحاب القوافل، الذين كــثيراً مــا ســمعوا عظات العمودي أوسطاطيوس التقادي. فعلى مرتفع شرقي المدرسة الابــتدائية الحاليــة تقع أرض الصومعة التي تشرف على القرية القديمة، وعلى الطريق الــبرية (الرســم /2:10). وقمنا بالبحث في نواحي هذه الأرض علّنا نعثر على أثر من عمود أوسطاطيوس، ولكن دون جدوى. ومع ذلك ففي مكان من الأرض أكثر ارتفاعاً ما زال يقــوم فيه جداران صغيران مبنيان من الحجارة الكبيرة المربعة، وهما يؤلفان قاعدة الجــانب الغــربي والجــانب الجــنوبي للسياج (المندرا) الذي كان مع الحاجز يحمي العمــودي من الاندفاع الحماسي الديني لهؤلاء الأتقياء المعجبين به. أما الجانبان الآخران فقــد اندثــرا[39] (اللوحة /3:4). كان السياج (المندرا) مربعاً، طول ضلعه ٤,١٥م، ويــرتفــع عن الأرض ٠,٦٥م، تبلغ سماكة الجدار الصغير ٠,٨٥سم من الجهة الغربية، و٤٥ ســم من الجهة الجنوبية. (الرسم/11) ويتوضع السياج (المندرا) اليوم وسط حقل مــن الكــروم ومــن الزيتون على بعد ٣٠٠م من المدرسة الابتدائية، و٢٠٠م من خربة الشيخ معافى، و٨٠٠ م من مركز القرية الحالية .



الرسم (10): تقاد : مصور القرية



الرسم (11): تقاد : سياج ـ مندرا ـ العمودي أوسطاط

إن بعـض حصـى الفسيفساء المتعددة الألوان، والتي لا تزال مرئية حتى الآن، تشـهد بـأن المؤمنين في تقاد تابعوا تكريمهم للمكان حتى بعد وفاة العمودي. فحافظوا بذلك على العمود بعناية فائقة. ومن هذا المكان المرتفع كان أوسطاطيوس يثير فضول المارّين وتعجـبهم. فأصحاب القوافل والتجار والعابرون مصادفة كانوا يسلكون هذه الطـريق المختصرة للسفر من أنطاكية إلى بيريه (حلب)، فكان الذي اختار هذا النوع مـن حياة التوبة هو من يوجه للجميع إرشاداته، ويدعو الناس إلى المسيح. وإن وجود خـزانٍ ماء على بعد عشرة أمتار من السياج (المندرا) يزيد أيضاً من الاحتمال بأن عمودياً قد عاش في هذه الأماكن .

وكمـا ذكـرنا سابقاً شارك أوسطاطيوس في الاجتماع الثاني الذي عقده الرهبان المونوفـيزيون السوريون في باتبو. والتقى هناك مع إخوة لـه، أتوا من أماكن قريبة

جـداً من تقاد، أمثال : سمعان الإرحابي، وداود السحرتي، وجرجس الدير عَماني[٦]، وبيسـبوس الكفـر كـرمي[40]. وعـلى غـرار كل المشاركين في السينودس وضع أوسـطاطيوس توقيعـه فـي ذيـل الإعلان، وبالرغم من أن توقيعه يأتي في المرتبة الأربعين من اللائحة، هو أول من وقّع لكونه دون شك أقدم من الآخرين. وبما أنه أدى هذه الخدمة لكنيسته وللبطريرك بولس، وهي ما كان ينتظرها منه رؤساؤه، يمكنه الآن أن يرجع ويعتلي عموده .

ج- أين موقع الدير؟

إن معاصـر الـزيت الثلاث والخزانين، التي يمكن رؤيتها أيضاً على بعد/١٠٠م جـنوب شرقي السياج (المندرا) هي الآثار الوحيدة الباقية من الماضي. وليس هناك من خرائب أو آثار لأية أبنية قديمة في النواحي المباشرة، أو في الأراضي المجاورة. إذن ألا يـنبغي أن نـبحث عـن دير تقاد في موضع آخر؟ وربما يجب أن نبحث في الأسـفل قـليلاً فـي نواحي الشيخ معافى، على بعد ٢٠٠م جنوبي السياج، حيث تمتد الخـرائب المعـروفة بخرابات الجامع العمري " جامع عمر "، أفليس من الممكن أن الجـامع يحـتل مكـان كنيسة الدير؟ (الرسم/10) ويمكننا الظن أيضاً أن الدير كان جنوبي المدرسة الابتدائية الحالية، حيث توجد بقايا جدران بيزنطية، مبنية من الحجارة الضخمة المربعة، التي لا تزال باقية حتى الآن .

وفي الحقيقة، وكما رأينا، فنحن لا نعرف الكثير عن العمودي أوسطاطيوس. وإذا كان في الإمكان تقديم بعض الأدلة بشكل أكيد، فكم من التفاصيل تبقى بالمقابل في عالم الاحتمالات، وستبقى كذلك إلى الأبد دون شك .

---

(٦) ديـر عَمـان : يـتحدث ياقوت الحموي في معجمه عن هذا الدير ويقول إنه في نواحي حلب وإن تفسيره بالسريانية : دير الجماعة، ثم يذكر مجموعة أشعار قيلت فيه .

٤- ســمعان من إرحـــاب

آ- الطرق المؤدية إلى إرحاب :

للذهاب من تقاد إلى إرحاب يمكن اتخاذ الدرب الترابي الذي يبدأ من مدخل القرية، ثم يمتد على طول الوادي نازلاً نحو الغرب. ويمكن أيضاً اتخاذ طريق القوافل القديمة التي تقود من تخوم تقاد الشمالية حتى أسفل إرحاب. وتمر الطريق الثانية بالقرب من خان من القـــرون الوسطى يحمل الاسم نفسه، ثم تصل إلى ترمانين. فهو أقصر من الأول، وأكثر ســـهولة أيضـــاً. وتبعد كل من تقاد وإرحاب، الواحدة عن الأخرى، حوالي عشرين دقيقة مشياً على الأقدام. وكما يقول ديسو: "كانت الطريق القديمة من أنطاكية إلى حلب مستقيمة أكـــثر مـــن الطريق الحالية". وهذا ما يذكره العمري[٧] في القرن الرابع عشر: " باياس، باغراس، ياغرا، تيزين[٨]، إرحاب، تقاد، حلب". وعند الحمام[٩] قبل جنديرس[١٠] ينفصل الدرب الترابي عن الطريق الســـالكة فيخترق المنطقة الجبلية ليصل حلب مروراً بِحزر، وترمانين[١١]وإرحاب، وتقاد"[41] (الرسم/ 8) .

---

(٧) العمـــري : شـــهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، (٧٠٠-٧٤٩هـــ١٣٠١-١٣٤٩م) مؤرخ وجغـــرافي حجة في معرفة الأقاليم والبلدان، عارف بالأخبار والتراجم، تخصص في تاريخ ملوك المغول، عاش ومات في دمشق، أهم كتبه: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وله عدة كتب غيره.

(٨) تيـــزين : يوجـــد ثلاث قرى في سورية بهذا الاسم، والمقصود هنا: خربة أثرية في جبل باريشا تتبع قرية رأس الحصـــن (باشمشلي)، في منطقة حارم محافظة إدلب. وهي واحدة من عشر قرى أثرية تعود خرائبها للقرن الثاني الميلادي، وفيها آثار لكنيسة ومبان أثرية جميلة ومعاصر زيتون ومدافن .

(٩) الحمام : قرية تبعد ٩كم غرب جنديرس عند خط الحدود الدولية مع لواء إسكندرون .

(١٠) جـــنديرس : ناحيـــة تبعد ٢٠كم جنوب غرب عفرين. يقال إن أصل اسمها هو جندر إيرس نسبة إلى قائد رومـــاني عسكر فيها. وهي بلدة قديمة زالت معالمها التاريخية بسبب الزلازل، ولا تزال القطع الأثرية العديدة تتناثر في أطرافها، كالفخار والأعمدة والأحجار .

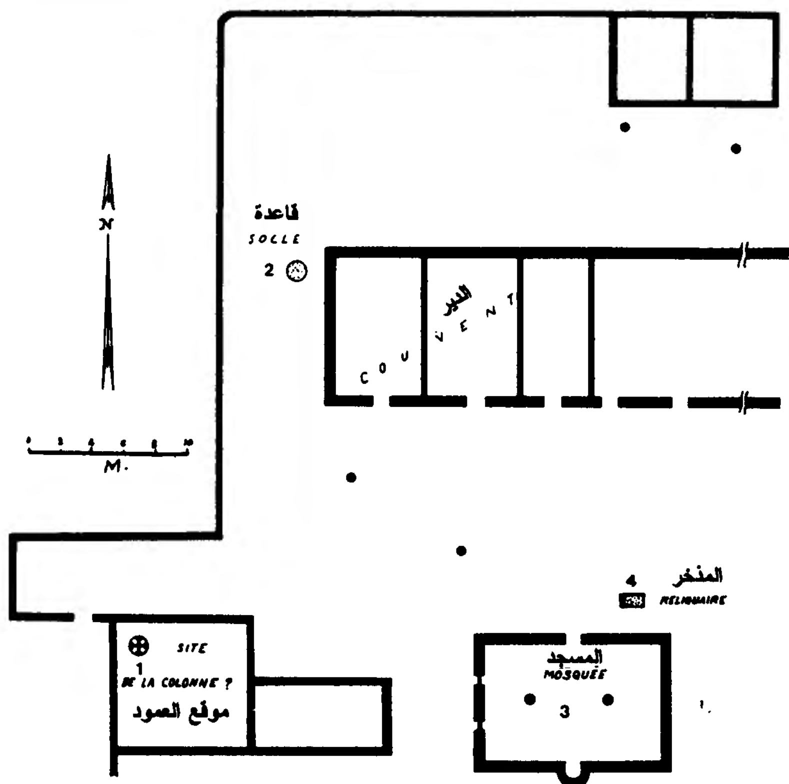
(١١) ترمانين: قرية في جبل سمعان تبعد ٤٠كم شمال شرق الدانا في منطقة حارم، محافظة إدلب. فيها آثار بيزنطية أهمها:
١- **الدير** : ويعود لأواخر القرن الخامس الميلادي وهو من أهم أديرة شمال سورية، ولا تزال قاعته الكبرى قائمة ويحيطها الأروقة المحمولة على أعمدة، وشرقيّه خزان ماء كبير محفور بالصخر.
٢- **كنيسة** : جنوب الدير وتشبه كنيسة قلب لوزة بزخرفتها وأقواسها .

لم تكن إرحاب قرية بكل معنى الكلمة، بل بالأحرى كانت تجمعات سكنية للسادة، كما هو الحال أيضاً في أماكن أخرى من سورية الشمالية. وكان لإرحاب ديرها، وربما أيضاً خانها. (اللوحة/ 5 ، الرقم/1) وقد انتصبت المساكن على المنحدرين الشمالي والجنوبي للمرتفع، وتوجد هنا قطعة أرض كبيرة لا تزال تحتفظ بتابوت حجري موضوع على مدفن عائلي كان على الأرجح يخص أصحاب المسكن الواقع غربي الأرض. وتطل، على مرتفع إرحاب هذا، خرائب ضخمة، يسميها أهالي المنطقة القشلة (الثكنة). إن مجموعة هذه الخرائب والمعالف الباقية في أمكنتها، ولا سيما المدخل الضخم ذو الأمتار الثلاثة، والدعائم التي لا تزال باقية، إنها كلها تجعلنا نعتقد بأن كل هذه البقايا تتعلق بالخان الذي كان من الضروري أن تمتلكه إرحاب نظراً لعدد الحجاج الكبير، الذين كانوا يقصدون هذا المكان طالبين بركة العمودي .

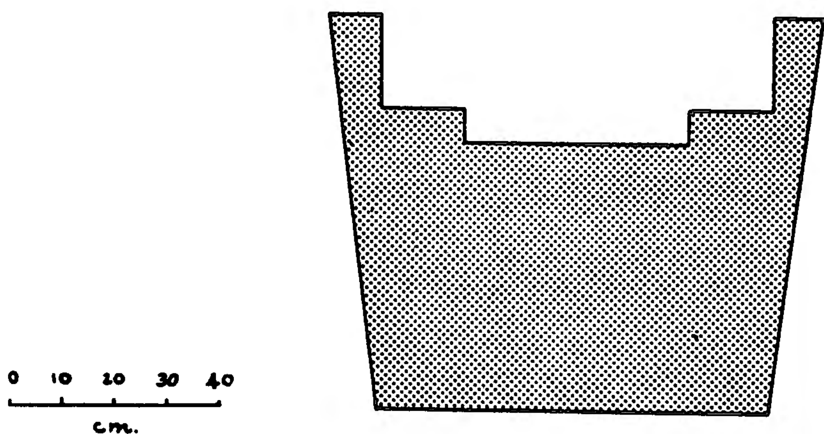
فمن هو عمودي إرحاب ؟ يقول لنا مخطوط المتحف البريطاني، المذكور سابقاً، إن شخصاً باسم سمعان شارك مع عدد كبير من الرهبان والحبساء والعموديين في سينودس باتبو الثاني، الذي عقد في ٣ كانون الثاني عام ٥٦٨ م، ليحاول ما أمكن تهدئة الهيجان في الشرق المونوفيزي[42] .

ب- أين سكن العمودي سمعان ؟

في أثناء جولتنا الأولى في إرحاب في نيسان ١٩٧١م، استقبلنا زعيم القرية بنفسه، وهو شيخ قصير وطيب. وبما أنه قدم نفسه ليكون بمنزلة دليل لنا، سألناه إذا ما كان يوجد في هذا المكان بقية من عمود، فأجاب بالنفي. ولكن بعد زيارة الجامع، وعندما جمعتنا القهوة العربية التقليدية في بيته، دار الحديث واحتد وباح لنا مضيفنا بشكل شبه سري، بأنه حسبما سمع من أشخاص يتقدمونه عمراً: هناك رجل قد عاش قديماً على عمود جنوب غربي الدير. (الرسم/12 ، الرقم/1) وهذا المكان، الذي يبعد قليلاً عن الدير، يتجاوب بشكل رائع مع هذا الاحتمال. ففي الحقيقة كان العموديون ينصبون أعمدتهم بشكل عام خارج حرم الدير، ليجنبوا الرهبان الإزعاج الناجم عن قدوم الحجاج وإيابهم المستمر، وعن تعبيرهم الشعبي عن الإيمان، أو عن الدواب التي تنقل الزوار والمرضى.



الرسم (12): إرحاب، مخطط الدير



الرسم (13): إرحاب، مقطع في قاعدة عمود العمودي سمعان

ج- ماذا عن عمود العمودي سمعان اليوم ؟

لقـد سـمحت لنا جولة ثانية في إرحاب، في/٣٠ أيار ١٩٧٢م بأن ندرس المكان بشكل أفضل. فبالقرب من جدار الدير الغربي، توجد قاعدة تمثال بارتفاع /٠,٧٥م، وعرض طرفها العـلوي ٩٥سم، وفي داخلها حفرة ذات مستويين مختلفين، (الرسم/ 13) إن شكلها وحجمها يسمحان لنا أن نؤكد أنها ليست حوض سقاية، ولا جرناً لطحن الحبوب أو الفلفل. إذن، أليس مـن الممكن أن تكون قاعدة لعمود العمودي سمعان؟ وحتى نتيقن من ذلك، قابلنا بين مقاساتها وبيـن مقاسات قطعتي العمود الموجودتين في الجامع (الرسم12 / الرقم 3). فلهاتين القطعتين ولجـوف قاعدة التمثال قطر دائري قياسه /٢,٤٢م. فإذا ما أزلنا عن القطعتين ما يطليهما من دهان، فهناك إمكانية كبيرة بأن ينزلا في جوف هذه القاعدة، وهذا ما يجعل أكثر من مرجح أن هذه القاعدة وهاتين القطعتين تخص العمود نفسه، ألا وهو عمود عمودي إرحاب.

ومـن الواضـح أنه ينبغي لهذه القاعدة، ذات الشكل المخروطي قليلاً، أن تغرز داخـل قاعدة أخرى مبنية. وبما أن لكل من قطعتي العمود الارتفاع عينه وهو١,٦٥م، فـربما كـان ارتفاع العمود ٤ أمتار. هذا إذا افترضنا أن القطع تتغرز بمعدل٤٠ سم تحـت مسـتوى البلاط. وإذا ما أضفنا على هذا الارتفاع حوالي المتر لقاعدة العمود نستطيع القول : إن العمودي كان يعيش على ارتفاع خمسة أمتار عن الأرض .

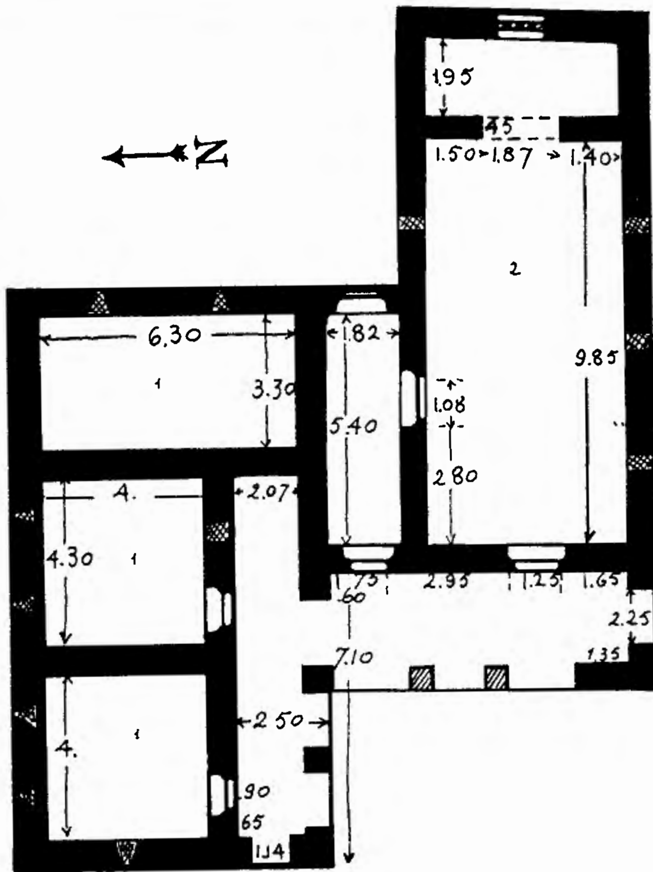
د- الديـر :

لا يـزال الهيكل الخارجي لدير إرحاب قائماً حتى يومنا هذا، بشكله الكامل تقريباً باسـتثناء بعض القطع من جزئه الشرقي التي اندثرت (اللوحة/5، الرقم/1، لاحظ في الخلفية جبل كوريفة). فقبل إشغال الدير من جديد، قامت عائلة "أبو عبدو" بإعادة صب السـطح والتقطيعات الداخلية، وتولت أيضاً تنظيف بعض الخزانات الاثني عشر التي كـانت موجودة في السابق. أما مقاييس الدير، فطوله ٢٦م وعرضه١٠م. وعلى غرار كل أديرة منطقة أنطاكية كان اتجاهه نحو الشمال، والمصلى أو الكنيسة نحو الجنوب. وتقوم أقواس ترتكز على أعمدة منحوتة من قطعة حجر واحدة بربط الكنيسة بالدير.

إن أبعـاد هذا الدير وترتيب الغرف هي نفسها كما في الدير الصغير الذي يعود إلى القرن السادس، والواقع على التخوم الشمالية الغربية لخربة برج حيدر[١٢].

---

(١٢) برج حيدر : قرية في جبل سمعان، منطقة عفرين، تبعد ٢٥كم جنوب غربي حلب، إعمارها قديم، فيها آثار رومانية كثيرة منها برج وكاتدرائية .



الرسم (14): برج حيدر. مخطط الدير

١- الدير .

٢- الكنيسة الديرية .

لم تكن الكنيسة الديرية أكبر بكثير من الجامع الحالي، الذي تبلغ مقاييسه /١٢,٥× ٨,٧م. والشيء الباقي اليوم من هذه الكنيسة هو جزء من ساكف الباب الرئيسي، ونافذة صدر الكنيسة والمُذخر. وقد غرز جزء من الساكف في جدار الزاوية الشمالية الغربية للجـــامع. وهو ساكف جميل بل نقول إنه جميل جداً بالنسبة إلى كنيسة ديرية من شأنها أن تتنشـــق أجـــواء الخشـــونة والبساطة الكاملة. أما النافذة فتتألف من بلاطة حجرية

مســتطيلة، وقد حفرت فيها أربعة ثقوب. وتكفي نظرة إلى طريقة ترتيبها ليخطر على بالــنا مباشرة رسم الصليب، (اللوحة/5 ، الرقم/3). وهي في كل شيء تقريباً تشبه نــافذة صـــدر الكنيسة في برج حيدر، ومع ذلك تختلف عنها بعض الشيء. فقد بقيت نــافذة بــرج حيــدر في موضعها أما في إرحاب فبدلاً من أن تكون باتجاه الشرق فقد أزيحت نحو الغرب. أما المذخر (الرسم/12، الرقم/4) فقد وصل إلينا بحالة جيدة، فمن كــل جهة من جهات الجوف حيث كان يجمع الزيت، يمكننا أن نرى دائرتين ترتكزان عــلى نصــف دائرتين أخريين، وقد أزيل بالطرق كل من الدائرة اليسارية وجزء من الدائــرة اليميــنية، وكانـــتا دون شك لتكريم شخص الشهيد الذي تحفظ ذخائره، وذلك بوضـــع رسمه، أو كتابة اسمه، أو بكتابة ابتهال ما (اللوحة/6 ، الرقم/1). وسيستخدم هــذا المُذْخَر فيما بعد ليشكل قاعدة لدعائم باب ما زال قائماً بالقرب من زاوية الجامع الشـــمالية الشـــرقية. وكانت مقاسات المذخر كالتالي: عرضه /١م، وارتفاعه/ ٨٦سم، وســماكته ٥٦ســم، أمـــا الجوف حيث كان ينزل الزيت بعــد مروره ولمســه ذخائر الشهيد، فعرضه /١٢سم، وطوله٢٠سم، وعمقه/٣٠سم. ويعلوه قوس ارتفاعه /٣٤سم، وعرضـــــه/ ١٨ســم. ولقد أصاب الحوض الذي يضم الذخائر بعض التلف، إذ كان طوله / ٦٧سم، وعرضه /٣٣سم، أما اليوم فلم يبق له من عمق سوى/ ٥ سم .

إن مـــا بقي من الدير القديم ومن كنيسته، ومن عمود العمودي، يذكرنا حتى اليوم بقداسة العمودي سمعان، الذي جعل من قرية إرحاب الصغيرة قرية مشهورة.

٥- أبراهام من تيليدا (تلعاده)

آ-مهد الرهبنة السورية :

يطلعنا تيودوريطس القورشي في تاريخه الديني على رجلين ورعين هما : أميانوس وماريانوس، رغبا في أن يعيشا حياة نسكية، فاعتزل الأول في نواحي القرية السورية تيليدا، في سفح جبل كوريفة (وهو حالياً شيخ بركات). واعتزل الثاني على بعد ٤كم عن هذا المكان. وسرعان ما التحق بعض الأشخاص بمنسك أميانوس، ونظراً لتواضعه الشديد قرر أن يعهد بأمر إدارتهم إلى اوسابيوس، وهو ابن أخي ماريانوس، ونجح في إقناعه والتغلب على ممانعته بعد أن ألح عليه كثيراً. ثم تأسس مركز آخر للحياة النسكية بهمة أوسيبوناس وأبيبيون، وهما تلميذا أوسيبيوس. وهكذا نشأت أديرة تيليدا الشهيرة: دير أوسيبوناس شمال القرية، ودير آخر يعرف بالدير الكبير شرقي القرية نفسها[43]. ولقد بدأ سمعان العمودي "الكبير" حياته النسكية في دير أوسيبوناس. فبعد أن أقام فيه عشر سنوات طرد منه عملياً بسبب إماتاته، التي اعتبرت زائدة عن حدها، وغريبة أيضاً، مما اضطره فيما بعد إلى فكرة كانت تعد مستهجنة، وبغاية التطرف، وهي أن يمارس تقشفاته من فوق عمود[44] .

بعد المجمع الخلقيدوني بقي ديرا تيليدا كلاهما متمسكين بالعقيدة المونوفيزية، على غرار أكثرية أديرة سهل الدانا. وفي عهد البطريرك بولس اليهودي طرد الرهبان منهما بسبب تعلقهم بالمونوفيزية، غير أنهم رجعوا إليهما فيما بعد[45]. وفي عام/ ٥٦٧م نرى أرشمندريت الدير الكبير في تيليدا يشارك في اجتماعات باتبو الرهبانية الشهيرة[46]، ونراه أيضاً من موقعي الرسائل التي أرسلها أرشمندريتات سورية إلى الأكليروس المونوفيزي في القسطنطينية، وإلى البطريركين ثيودوسيوس، وبولس الأسود. وبالرغم من أنهما أقل شأناً من دير باتبو بقي ديرا تيليدا على الدوام الديرين الرائدين للمونوفيزية السورية. وفي عام/ ٦٣١م انتخب يوحنا الملقب بسيدرا، وهو راهب من دير أوسيبوناس، بطريركاً على أنطاكية[47]. وحوالي نهاية القرن الثامن الميلادي التجأ يعقوب الرهاوي إلى دير أوسيبوناس، ثم إلى الدير الكبير، وخلال إقامته في هذين الديرين قام بمراسلات مستمرة مع العمودي يوحنا الأتاربي[48]. وفي

القرن العاشر الميلادي اختار أربعة من بطاركة أنطاكية تيليدا مكاناً لسيامتهم البطريركية، وهم : يوحنا الخامس- سيم بطريركاً في/ ٩٣٦/٨/٢٨م، ويوحنا السادس- سيم بطريركاً في/ ٩٥٤/٧/١٦م، وديونيسيوس الثالث- سيم بطريركاً في ٩٥٨/١١/٢٨م، وأبراهام- سيم بطريركاً في /٩٦٢/٥/٢٥م .

وكان رؤساء هذين الديرين حتى القرن العاشر الميلادي يهتمون بتدعيم جدران حرم الأديرة، وبناء البروج لها(49). ونحن نجهل الوقت الذي هجر فيه الرهبان تيليدا، وربما كان ذلك بين نهاية القرن العاشر الميلادي وبداية القرن الثاني عشر الميلادي على الأرجح، أي بين إعادة احتلال المنطقة على يد نقفور فوكاس[١٣]، وبداية الصراع الذي دار بين أمير أنطاكية[١٤] وأمير حلب[١٥]. وبين هذين التاريخين، كانت تيليدا، بموقعها على الحدود، شاهدة على الأحداث المسلحة العديدة التي دارت في السهل الذي تطل عليه. وقد عزز المحتلون هذه القرية لوقوعها على مرتفع، وأقاموا فيها قلعة صغيرة لمراقبة سهل الدانا، الذي كان يؤدي إلى الطريق الرئيسية بين أنطاكية والرها. وقد وقعت تيليدا بيد تانكريد – Tancrede [١٦]، على إثر معركة خاضها ضد رضوان في/ ٥ آب ١١٠٥م في نواحي تيزين. ثم استولى عليها عماد الدين زنكي[١٧] في نيسان ١١٣٥م (50)، وبعدها غابت تيليدا في طي النسيان .

---

(١٣) نقفور فوكاس : إمبراطور بيزنطي تسميه المصادر العربية نقفور الفقاش، حكم ما بين ٩٦٣-٩٦٩م، كان قائداً عسكرياً، وبدأ حكمه بحملات مكثفة ضد الدولة العربية، فاحتل قبرص وصقلية وأنطاكية. ثم اغتاله يوحنا شمشقيق بالاتفاق مع زوجته ثيوفانو، وتولى الحكم باسم يوحنا الأول (٩٦٩-٩٧٦م)، وواجه مصير نقفور إذ سمه خلفه باسيليوس الثاني .

(١٤) أمير أنطاكية : هو بوهمند الأول(١٠٩٨-١١٠٤م). أحد قواد الحملة الفرنجية الأولى، تولى إمارة أنطاكية بعد احتلالها مباشرة، وهو نسيب القائد النورماندي تانكريد .

(١٥) أمير حلب : هو رضوان بن تتش بن ألب أرسلان (١٠٩٥-١١١٣م) أحد أمراء السلاجقة في الشام .

(١٦) تانكريد : أحد أهم قادة الحملة الفرنجية الأولى، كان يقود الفرقة النورماندية القادمة من جنوب إيطالية، وبعد نجاحات الحملة في أنطاكية والرها، توسع في كيليكيا واحتل طرسوس ثم توجه جنوباً ليشارك باحتلال القدس، وسيطر على بيسان ونابلس، وأخيراً استقر في طبريا ضمن مملكة القدس الفرنجية. في عام ١١٠١م خلف عمه بوهمند الأول الذي أسره العرب على حكم إمارة أنطاكية الفرنجية .

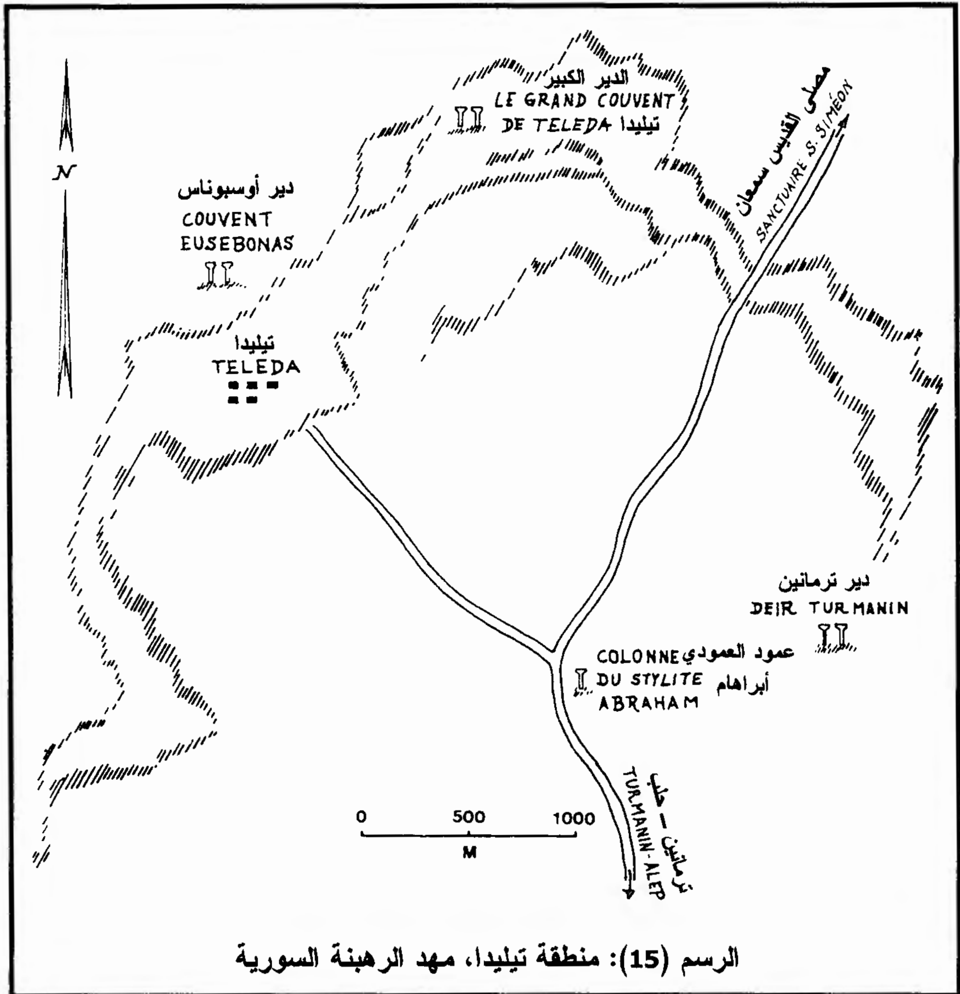
(١٧) عماد الدين زنكي : زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر (٤٧٨-٥٤١هـ /١٠٨٥-١١٤٦م). كان والده من أصحاب السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان. مات وترك زنكي صغيراً فتعهده أصحابه بالرعاية، ولما كبر أقطع واسط، ثم قاد ميمنة جيش الخليفة المسترشد، فأقطع البصرة لظفره، ثم تولى الموصل والجزيرة. وعهد إليه السلطان محمود بتربية ابنه (فرخشاه)، فسمي لذلك (أتابك)، ثم تملك حلب وتصدى للفرنج فحرر الأتارب والرها. قتل غدراً وهو يحاصر قلعة جعبر ودفن بصفين. أسس أسرة الأتابكة التي كان أشهرها ابنه نور الدين محمود .

ب- العمــودي :

يطلعــنا ميخائــيل الســوري فــي كتابه تاريخ الأحداث، على أن هناك شخصاً باسم أبــراهام، عمــودي تيلــيدا، قــد رقي إلى كرسي الرها الأسقفي على يد البطريرك يوحنا الخِـامس الــذي كان راهباً في الجبل الأسود بالقرب من أنطاكية(51)، والذي تعرف دون شك خلال سيامته البطريركية في تيليدا عام/٩٣٦م على حياة التقشف التي يعيشها أبراهام.

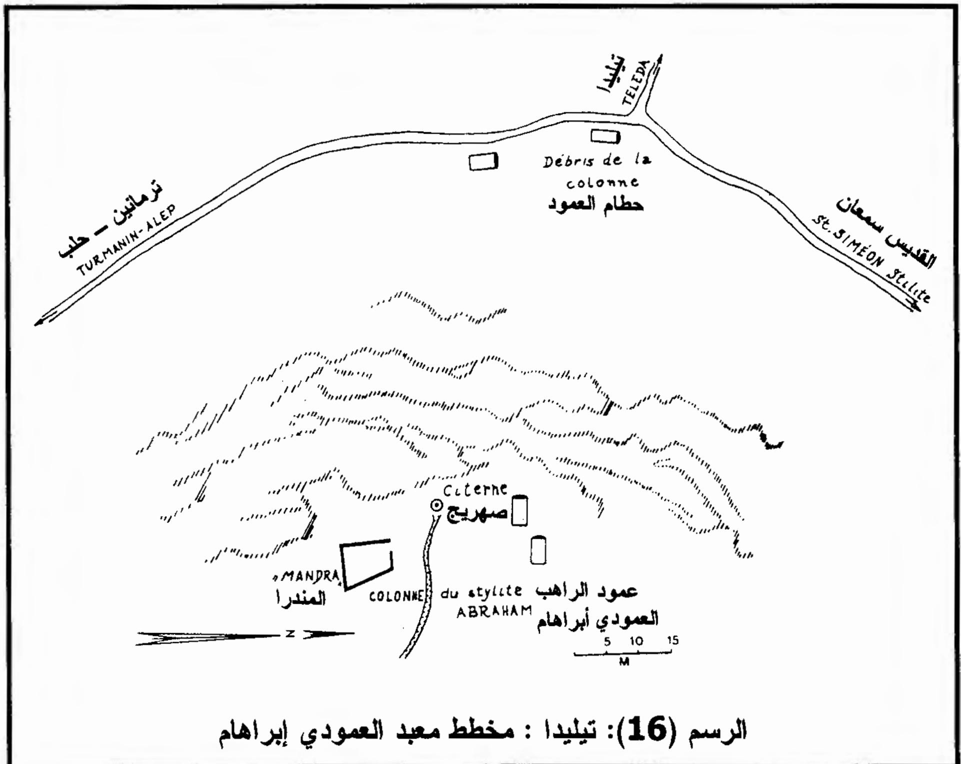
فهل يوجد هذا العمود أيضاً ؟

يــتحدث تشــالينكو عــن بقايا عمود، ملقى على الأرض، غربي دير ترمانين، فوق تل طبيعي بالقرب من المفرق بين طريقي القديس سمعان وتيليدا. ويبدو في نظره أن هذا العمود قد يكون عموداً جنائزياً، أو عموداً تكريمياً على حدود مساحية(52) (الرسم/ 15) .



الرسم (15): منطقة تيليدا، مهد الرهبنة السورية

أمـــا نحن، بعد أن قبلنا مبدئياً رأي تشالينكو، فقد مررنا عشرات المرات أمام بقايا هذا العمــود، دون أن يخطـــر على بالنا النزول من السيارة لنزور الموقع الكائن على بعد حوالي ستين قدماً من الطريق المعبد. ولكن في نهاية المطاف تساءلنا : لمَ لا يكون هذا العمــود هــو عمــود العمودي أبراهام، الذي حدثنا عنه ميخائيل السوري ؟ وفي أحد الأيـــام، وقد أخذنا الشك كل مأخذ، قررنا أن نذهب لزيارة المكان، وكان ذلك في/ ١٨ نيسان ١٩٧٢م. وبددت زيارتنا الأولى كل شك، فقد كانت على العمود كلمة، لا نراها، تُستخدم إلا للأشياء المقدسة. إذن لا يمكن لهذا العمود أن يكون عموداً لحدود مساحية، ولا عمــوداً جــنائزياً أيضـــاً، إذ لا يوجد أي قبر في المناطق المجاورة. ثم هناك هذا الدلــيل الهـــام : فقــد احـــتوى الموقـــع كل العناصر التي تؤلف عادة الإطار الحياتي للعمــودي: الســياج (المندرا)، خزان ماء، والقرب من الطريق السالكة. وهذا شيء ضـــروري لراهـــب مفعم بالغيرة الرسولية (الرسم/16). وكان لا بد من زيارة جديدة لهـــذه الأماكن لدراسة الموضوع عن كثب، ولهذا السبب رجعنا إليها في/ ٢٧ تشرين الثاني، وفي/ ٥ كانون الأول من السنة نفسها .



الرسم (16): تيليدا : مخطط معبد العمودي إبراهام

ج- العمود :

كان العمود يتألف من قطعتين أسطوانيتين، الأولى مثبتة على القاعدة الصخرية بوساطة لُسَيْن من حديد، وهي تستلقي بالقرب من الخزان وقد شطرت إلى جزئين (اللوحة/6 ، الرقم/2). أما القطعة الأسطوانية الثانية فهي أيضاً مشطورة إلى جزئين وكلاهما بالقرب من مفرق تيليدا. كان الأول على بعد /٦٠م من المندرا، والثاني على بعد/١٠٠ م منها، وفي القسم العلوي من هذا الجزء الأخير يمكن رؤية مكان القضبان والمسامير الكبيرة التي تثبت الدعائم الحديدية الساندة لحجيرة العمودي. وقد كانت القطعتان الأسطوانيتان مترابطتين بمتانة بعضهما مع بعض بوساطة قفص حديدي يتألف من قضبان وأطواق. أما مقاسات العمود فهي كالتالي :

- القطعة الأسطوانية الأولى (٢,١٩م) :

الجزء الأول : طوله ١,٧٦م. وقطره ١م .

الجزء الثاني : طوله ١,١٥م. وقطره ٧٦سم .

- القطعة الأسطوانية الثانية (١,٥٧م) :

الجزء الأول : طوله ٥٧سم وقطر ٧٦سم .

الجزء الثاني : طوله ١ م وقطره ٧٦سم .

فيكون بذلك ارتفاع العمود ٤,٤٨م .

وفي الحقيقة، لجزئي القطعة الأسطوانية الأولى أهمية خاصة. إذ نجد على الجزء الأول منها كلمة – AFIER(OMA) – بالأحرف اليونانية. وهي تعني: هبة، تقدمة، نذر، وأيضاً تكريس أو تقديس. والكلمة مكتوبة من اليسار إلى اليمين بشكل طولاني، مما مكننا منطقياً من أن نستنتج أنها قد حفرت قبل أن ينتصب العمود على قاعدته[53]. أما الجزء الثاني من القطعة نفسها فيوجد فيه تجويف مستطيل الشكل بعمق /٣٠سم، وعرض /٢٠ سم، ودون شك كانت توضع في هذا التجويف أيقونة العمودي – بعد موته– أو أي ذخيرة أخرى [54].

د – السياج (المندرا) :

كمـــا ذكـــرنا ســـابقاً، فالسياج (المندرا) يوجد على بعد حوالي ٦٠م من الطريق المعـــبد، وشـــكله غير منتظم، وفي طرفه الشمالي توجد قطع حجارة مربعة ضخمة، بطول ١م، وبارتفاع ٥٠ سم، وسماكة تتراوح بين٦٠سم و٤٠سم. أما أطرافه الأخرى فهـــي مبنية من حجارة مربعة وحجارة غير منتظمة. (اللوحة/6 ، الرقم/3 – لاحظ : جبل كوريفة والطرف الغربي من سياج تيليدا) .

وفـــي زاوية السياج الشمالية الغربية، يمكننا رؤية ثقوب كانت تغرز فيها دعائم الحاجز الـــذي يبقي الحجاج بعيدين بعض الشيء. ولأن المكان ممتلئ الآن بالحجارة لم نتمكن إلا من قيـــاس أطـــراف السياج فقط، حيث بلغ الطرف الجنوبي له ٧م، والطرف الشمالي/٥,١٠م، والطـــرف الشرقي/٧,١٥م، والطرف الغربي/ ٨,٠٧ م. (الرسم/16) والتنقيبات وحدها هي التي ستتيح لنا التعرف على المكان الدقيق للقاعدة التي كان يرتكز عليها العمود .

هـــ – خزان الماء :

يقع الخزان بين السياج وجزئي قطعة العمود الأسطوانية الأولى، وهو محفور بكامله فـــي الصخر، بعرض/ ٢,٥م، وفتحته متر واحد، وقد غطي المتران الأخيران من أعلاه بالآجر والطين. أما القناة التي تشاهد شرقي الخزان فهي لإيصال ماء المطر إليه.

لـــم يكـــن الخزان يخدم العمودي وتلميذه فقط، بل المسافرين أيضاً الذين يرتادون هذه الطريق الرئيسية، فعند مرورهم من هنا كانوا يستفيدون في الوقت نفسه من الماء العـــذب، ومـــن الكلمة الطيبة التي يتلوها عليهم العمودي أبراهام. وبما إنه لم يبق أي أثـــر، أو أي بقية لعمود في الأطراف المجاورة مباشرة لديري تيليدا : دير أوسابوناس والديـــر الكـــبير، يـــبدو أن العمـــود الذي يشير إليه تشالينكو، والذي يقع غربي دير ترمانين، هو عمود أبراهام، الراهب من الدير الكبير في تيليدا، وقد ترك عموده نزولاً عند إرادة البطريرك يوحنا الخامس الذي عهد إليه بأبرشية الرها. ونحن على علم بما كان لتيليدا من دور كبير في تاريخ الرهبنة السورية، ومع ذلك لم يبق لنا اليوم من هذا الماضي شبه الأسطوري سوى عمود عمودي، وبعض آثار خربة لديرين .

٦- يوحنا من أتارب

آ- العمودي الكاتب :

في معرض حديثه عن الجدل، الذي دار بين الكنيسة المونوفيزية الرسمية وكنيسة أصحاب مذهب التثليث الإلهي، يقدم لنا البطريرك ميخائيل السوري مقطعاً من المقالة التي كتبها يوحنا، عمودي أتارب، ضد هؤلاء الأخيرين [55].

ففي القرن السادس الميلادي وبقيادة يعقوب البرادعي، الذي كان يزور سراً كنائس سورية ويزودها باكليروس محلي، كان الرهبان المونوفيزيون يقاتلون بحمية ضد العقيدة التي تبناها المجمع الخلقيدوني المسكوني، وضد بعض جماعتهم ممن تحولوا إلى هراطقة لقبولهم فكرة تعدد الجواهر في الثالوث الأقدس. وقد طال النزاع مع الهراطقة كثيراً، إذ امتد طوال القرن السادس الميلادي، واستمر حتى القرن السابع الميلادي. والمقالة التي كتبها يوحنا الأتاربي للدفاع عن وحدة الجوهر الإلهي ترجع بالفعل إلى نهاية القرن السابع :

"لدى قراءتهم كتابات الآباء أعلن أصحاب مذهب التثليث الإلهي أنه ينبغي الاعتراف بكل شخص من أشخاص الثالوث الأقدس بأنه الله. فتصوروا، إذن، ثم أصدروا قراراً بوجود ثلاثة آلهة، وثلاث طبائع، وثلاثة جواهر" [56] .

إننا نعلم أن العمودي يوحنا الأتاربي كان يجمع، وهو على عموده، بين دراسة الكتب المقدسة والدفاع عن العقيدة، وبين الصلاة والوعظ. ونعرف نشاطه الأدبي، وخاصة من خلال أجوبة يعقوب الرهاوي عن رسائله، ومن خلال كتابات ميخائيل السوري. فكان يوحنا بانصرافه إلى دراسة الكتب المقدسة وكتب آباء الكنيسة يسعى دون كلل إلى تعميق معارفه. ولذلك كان يتوجه إلى أشخاص ضليعين في الموضوع. كما كتب سفراً عن تاريخ الأحداث، وهو مفقود الآن، اعتمد عليه ميخائيل السوري في كتابة مؤلَّفه [57]. وقد حملته رغبته في تعميق الموضوعات اللاهوتية على القيام بمراسلات مستمرة مع يعقوب الرهاوي. وقد انزوى هذا الأخير، بعد طرده من كرسيه الأسقفي عام ٦٨٨م، في تلعادة، حيث كانت المونوفيزية مترسخة بقوة، وذلك في دير أوسابوناس أولاً، ثم في الدير المعروف بالدير الكبير. ومن خلال أجوبة يعقوب عن

رســائل يوحنا نطّلع على النقاط المتعددة التي كان يوحنا يسعى إلى توضيحها. وهي تــدور حــول: الأحــداث الكتابية[١٨]، وعدد الكتب القانونية الأولى، والكتب القانونية الثانية، وعظات القديس أفرام ويعقوب السروجي، وأصل عيد الصليب المقدس إلخ..

ويعتقد ف. نو أن أجوبة يعقوب الرهاوي إلى يوحنا لم ترسل كلها من تلعادة، مما يعــني أن يوحنا بقي على صلة بيعقوب حتى في أثناء إقامة يعقوب الثانية في الرها، وهذه الأجوبة تظهر لنا ما كان يكنه يعقوب من تقدير كبير للعمودي.

فإحدى إجاباته تبدأ هكذا: "إلى أخينا الروحي والمحبوب، إلى الراهب والكاهن الورع مــار يوحنا". وفي جواب آخر يصف يعقوب يوحنا بــ:" صديق الله والكلمة "[58][١٩]. إن هذا التقدير المتبادل دفع يوحنا إلى أن يطرح على يعقوب مسائل متعددة. إلا أن يعقوب لم يجــب فــي أغلب الأحيان، إلا على المسائل الرئيسية. فهل كان ذلك بسبب ضيق الوقت؟ أو لمــا كان يسبب له ذلك من تعب، حتى إن "ضعف جسمه" لم يكن يسمح له بتحمل مثل هــذا الجهــد ؟ [59] ولما طرح عليه يوحنا ذات يوم مشكلة ضميرية، لم يجبه يعقوب إلا عــلى مضــض، وبشــيء من التهرب. وكان ذلك بلا شك لأنه لم تكن لديه الثقة التامة بالشــخص المكلف بحمل الرسالة، فقد خشي أن يقع جوابه في أيد أخرى غير يدي يوحنا، وأن يســاء تفســير فكرته، فينتج عن ذلك شر أكثر منه خير. وقد حدث أن شخصاً أهان يعقوب فجاء ذات يوم إلى تحت عمود يوحنا راجياً منه أن يحصل لــه على المسامحة من صــديقه، فكتب يوحنا إلى يعقوب متوسطاً لصالح من أهانه. ولكن يبدو أن الإهانة كانت كبيرة بما فيه الكفاية لأن يعقوب أجاب بأنه سيعامل المهين بقدر ما شعر به من ألم [60].

ولقــد حفظــت لنا المخطوطات السريانية رسالة أخرى وجهها إلى شخص اسمه دانيــال كاهن قبيلة تاوايو العربية[61]. وتوفي راهبنا العمودي عام ٧٣٧م وفق ما ذكر لنا كتاب تاريخ الأحداث للمؤلف المجهول الاسم [62].

ب- بئر العمود :

فــي حزيــران ١٩٧١، ذهبــنا إلى أتارب على أمل العثور على عمود العمودي يوحــنا. وفي هذه المرة أيضاً لجأنا إلى الموروث الشعبي، فعرفنا أنه لا يوجد أي أثر

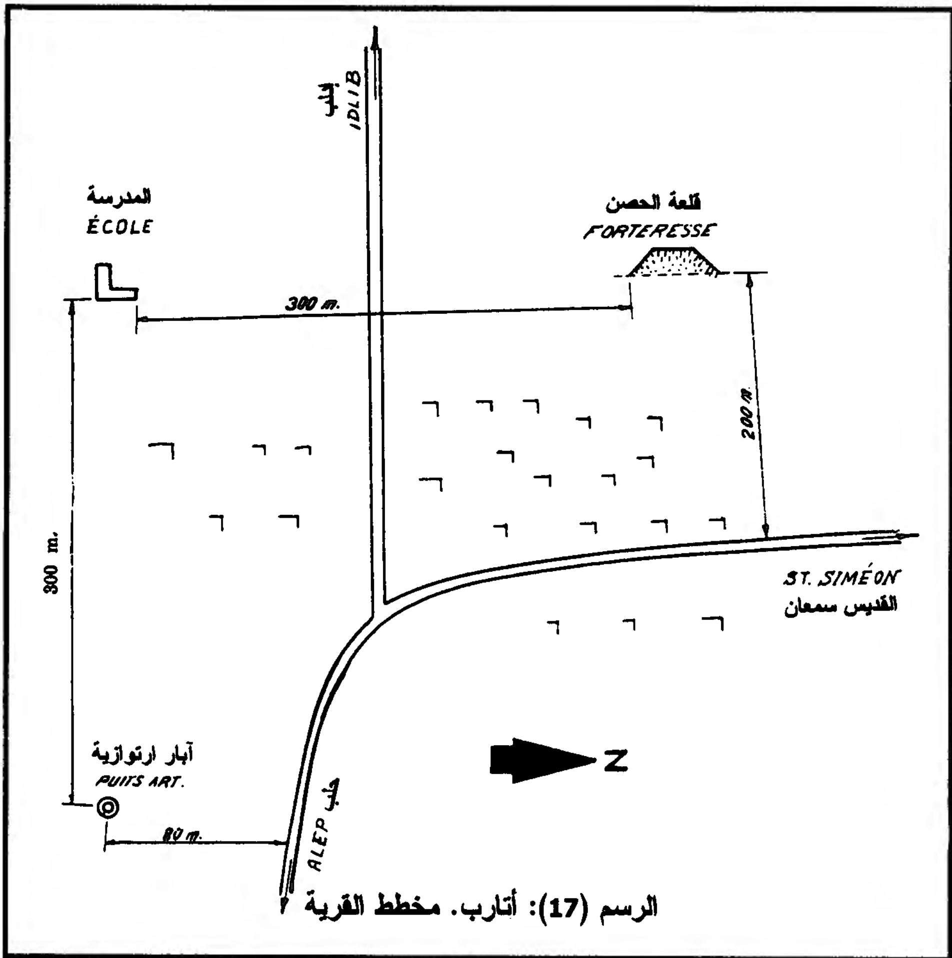
---

(١٨) أحداث الكتاب المقدس .

(١٩) الكلمة هي السيد المسيح .

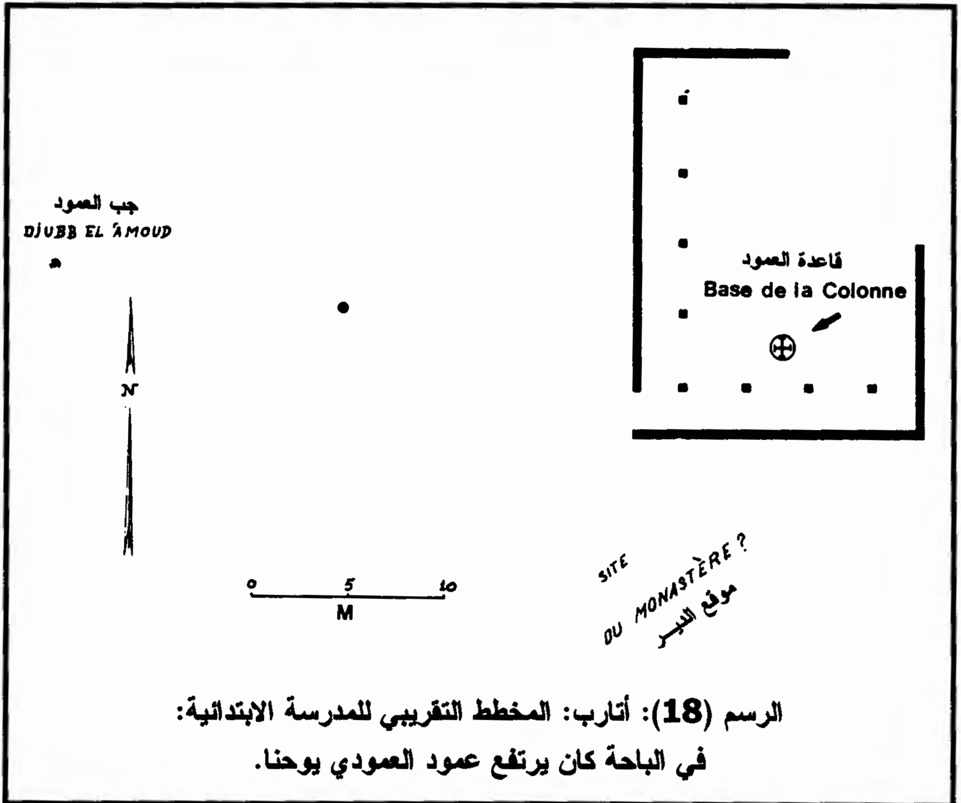
لعمود، إنما توجد بئر باسم جب العمود. وحُدد لنا مكان البئر بأنها جنوب شرق القرية، حيث تقوم اليوم مدرسة ابتدائية (الرسم/17). فذهبنا إلى هناك، وقال لنا المستخدم، إنه مــنذ زمــن قصــير كانت توجد في باحة المدرسة على بعد حوالي ٤٥م شرقي بئر العمود، قطعة منتصبة من عمود، بقطر ١م، وارتفاع٢٠،١م، وكانت تعيق الحركة في الباحة دون جدوى، بالإضافة إلى حاجة المدرسة إلى رمل لبناء قاعات صفوف جديدة، فــتم تكســير هــذه القطعة، ثم طحنت فيما بعد مع حجارة أخرى جمعت من الحقول المجاورة. أما الحفرة التي كانت مغروزه فيها قطعة العمود، فلم تكن قد مهدت بعد.

وعلــى مــا يبدو، كل ما بقي من آثار عمود العمودي يوحنا التي هي الآن غير معروفة، هما هاتان الكومتان من الرمل الموجودتان على مقربة منا (الرسم 17) .



الرسم (17): أتارب. مخطط القرية

وقــد أكد لنا أحد أهالي القرية، وكان مالكاً للأرض التي بنيت عليها المدرسة، أن قطعــة العمــود هذه كانت محفورة في داخلها، ولها حافة بارتفاع بين ١٠سم و٢٠سم، وأنه كان يجلس عليها أيام الصيف لمراقبة حقول البندورة والبطيخ العائدة له. إذن، من المحتمل جداً أن تكون هذه القطعة هي القاعدة التي يرتفع عليها العمود. كما أطلعنا هذا الفلاح أيضاً على وجود مغارة – قبو للدفن ؟– تحت قاعات صفوف المدرسة، وخزان للماء، وذلك على مقربة من مكان وجود قاعدة العمود. وبالقرب من التمديدات الصحية للمدرســة جهــز خــزان آخر كحفرة لجمع النفايات. أما الخزان الثالث، المسمى جب العمود والواقع على بعد ٣٠م غربي المدرسة، فهو الذكرى الوحيدة الباقية التي حفظتها لنا القرية من العمودي يوحنا الأتاربي (الرسم/18، واللوحة/8) .



الرسم (18): أتارب: المخطط التقريبي للمدرسة الابتدائية:
في الباحة كان يرتفع عمود العمودي يوحنا.

وبعد مضي شهر على زيارتنا الأولى، رجعنا من جديد إلى هذه الأماكن لنستعلم، أكـــان العمـــود حقـــاً يقـــوم على الصخرة المشار إليها ؟ أم نقل إلى هذا المكان؟ فقام بمســـاعدتنا أحـــد أهالي القرية ومعلم من المدرسة لإزاحة حوالي ٤٠سم من الأتربة. وعندها تأكدنا أن الصخرة قد سويت لتستقبل قاعدة ملساء. ومن المؤسف أننا لم نتمكن من تفحص مساحة أكبر من الأرض، إذ كان ينقصنا الوقت والمال لدفع أجور العمال، بالإضـــافة إلى أننا لم نكن قد حصلنا على ترخيص بذلك. فالتنقيبات الجدية وحدها هي التي بوسعها أن تقدم لنا تفاصيل مفيدة حول قاعدة العمود .

وفي أثناء زيارتنا الثالثة في/٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٢، عثرنا على عدة قطع من القـــرميد، مـــع كميـــة كبيرة من مكعبات الفسيفساء المصنوعة من حجارة بيضاء أو حمراء، تنتشر على مساحة طول ضلعها حوالي /٤٠م، وتقع وراء المدرسة .

إن هـــذه البقايا مع تاج العمود السوري، وبعض قواعد وقطع الأعمدة الصغيرة، التي عثرنا عليها في الجوار، سمحت لنا بافتراض أن الدير، الذي كان العمودي يوحنا تابعاً لـــه، كان قائماً في هذه النواحي[63]، ويشهد سينودوس باتبو الثاني بوجود الدير. فالـــتوقيع الخامس والعشرون من بين التواقيع الموجودة هو توقيع " قورياقس من دير ليتاربا " [64].

ولكن، مع الأسف، تلاشى كل أثر للدير، كما تلاشت المساكن القديمة. ويفسر ذلك بســـبب الـــنزاعات القائمة قبل وصول الصليبيين[65]، تلك التي استمرت فيما بعد بين إمارة أنطاكية الفرنجية، وإمارة حلب الإسلامية. فكل منهما كان يحاول الاستيلاء على هذه الشبكة الهامة من الطرق التي تحميها القلعة.

القريـــــة :

لقــد عـــانت مـــنطقة الأتارب الكثير خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، فحوالي عيد ميلاد سنة/ ١١١٠م، استولى تنكريد على قلعتها، وكانت آنذاك بيــد الملك رضوان وقد استرجعها إيلغازي[٢٠] سنة/ ١١١٩م. ولكن في سنة/ ١١٢٣م تــنازل عــنها بــدر الدولة سليمان خليفة إيلغازي على إمارة حلب للملك بودوان[٢١]، ليتخلص من الغزوات المستمرة، التي كان يشنها هذا الأخير على مناطق حلب. ولكن بعــد فــترة وجيــزة وقع بودوان في الأسر، فوعد بإرجاعها إلى تمرتاش بن إيلغازي مقــابل فــك أسره، وبالرغم من وعد بودوان، فقد بقيت الأتارب بيد الصليبيين، حتى سنة/ ١١٣٥م، حيث استولى عليها عماد الدين زنكي .

---

(٢٠) إيلغازي : هو إيلغازي بن أرتق بن أكسب، كان والده أرتق أحد قواد السلطان تتش بن ألب أرسلان أحد أكــبر ســلاطين السلاجقة في بلاد الشام. وعندما كان تتش يحكم دمشق أقطع أرتق القدس. وقد استدعي إيلغازي من قبل أهل حلب لتسلم مدينتهم عندما عجز ملكها سلطان شاه بن رضوان لصغر سنه عن الدفاع عــنها ضد الفرنجة. فحكمها وقاتل الفرنجة وهزمهم في عدة مواقع، وحرر الكثير من أعمال أنطاكية. وبعد موته تولى حلب ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، ولكنه قتل في حروبه مع الفرنجة فتولى مكانــه تمــرتاش بن إيلغازي. الذي صالح الملك بلدوين وأطلقه من أسره على شروط منها : تسليم أراضٍ وقــلاع، ودفع أموال، لكنه لم يف بأي منها. راجع: (تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، أحمد علي إسماعيل، ١٢٨-١٤).

(٢١) بــودوان : وقــد عرف في تاريخ الحروب مع الفرنجة باسم بلدوين : وهو بلدوين الثاني صاحب الرها التي تســلمها مــن بلدوين الأول الذي أصبح ملكاً للقدس بعد وفاة أخيه غودفري. أسر عام ١١٠٧م عند نهر البــليخ- قرب قنطرة سنجة- وسجن في الموصل لمدة عام ثم أطلقه جاولي سقاوة حاكم الموصل السلجوقي الجديد بفدية. وعاد إلى الرها ثم ذهب إلى القدس ليخلف على عرشها بلدوين الأول الذي مات في أثناء غزوه لمصر. وعندما قاد جيوشه ليتصدى لنور الدين بلك بن أرتق في شمال سورية هزم، وأسره بلك وسجنه في قلعة زيــاد بأعــالي الجزيرة. ثم نقل إلى سجن حران ثم إلى سجن حلب. راجع : (زبدة الحلب، ابن العديم، ٢/ ٢١٧). وبقــي مســجوناً حتى أطلقه تمرتاش بن إيلغازي بعد أن وعده بأشياء كثيرة لم ينفذها. ومات عام ١١٣١م. راجع : (الحروب الصليبية، سهيل زكار، ٢ / ٤٦٦ وما بعدها) .

وفي سنة ١١٣٧م استولى عليها من جديد القائد الأرمني طوروس، وهو في خدمة جــان كومنان[٢٢]. ولكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ استرجعها زنكي نهائياً في شهر أيلول من السنة نفسها[66]. وكل هذا يجيب عن سؤالنا، لماذا لم يبق إلى اليوم من قرية أتــارب، التي تطل عليها مئذنة القرية وتل القلعة، سوى بعض المساكن البائسة المبنية من القش والطين (اللوحة/ 2:8) .

غيــر أن أتــارب وســكانها الذيــن يعدون الآن٣٠٠ نسمة هي في طريقها إلى الازدهــار من جديد [67]، بفضل شبكة الطرق الممتازة التي تتصل بها الآن، وتسمح لهــا بالارتباط مع حلب وإدلب والقرى المجاورة. كذلك تم مؤخراً حفر بئر ارتوازي فيهــا، وقــد تدفق منها الماء بغزارة. وأن التعليم فيها ميسر بفضل المدارس الابتدائية والإعدادية .

---

(٢٢) جان كومنان: الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني- كومننس- ١١١٨-١١٤٣م، كان محارباً قوياً استطاع أن يستعيد السيطرة على قسم من آسيا الصغرى التي كانت تحت سيطرة السلاجقة الأتراك. وفرض سيطرته على الفرنجة في شمال سورية. وفي عام ١١٣٧م قاد حملة كبيرة نحو قلب سورية، لكن الفرنجة غرروا به وضللوه، فباءت حملته بالفشل، وعاد خائباً بعد أن فقد ابنيه. راجع : (الحروب الصليبية، سهيل زكار، ٢/٢١١) .

٧- البطريـــركـــان يوحنا الرابع ويوحنا السادس

آ- الآثار القديمة الباقية في قور زاحل :

تقع قور زاحل(68)، وهي قرية سكانها/٨٠٠ نسمة، بالقرب من المدينة الحثية تل عين دارا(٢٣)، اعتنق سكانها، وهم من أصل يزيدي(٢٤)، الإسلام منذ حوالي مئة سنة. وهم لا يزالون حتى اليوم يتكلمون الكردية .

ولــلقرية جامعهـــا، ومدرستها الابتدائية. ويقع الجامع قرب العين حيث يستقي أهل القـــرية الماء. وعلى بعد ٦٥كم شمالي حلب تقع بلدة عفرين على ضفة نهر يحمل الاسم نفسه. ويبلغ عدد سكانها حوالي١٥٠٠٠ نسمة، وأغلبهم من الأكراد. وينحدر طريق معبد من عفرين باتجاه الجنوب، يصل إلى نبع توروندا -عند الكيلومتر/٦٩-، حيث يمر بقربه درب بـــري ترابي للدواب، يوصل إلى قورزاحل. وهناك طريق بري ترابي أيضاً، بعد بحيرة عين دارا الصغيرة - عند الكيلومتر/٧٠-، وهما طريقان سالكان في الصيف.

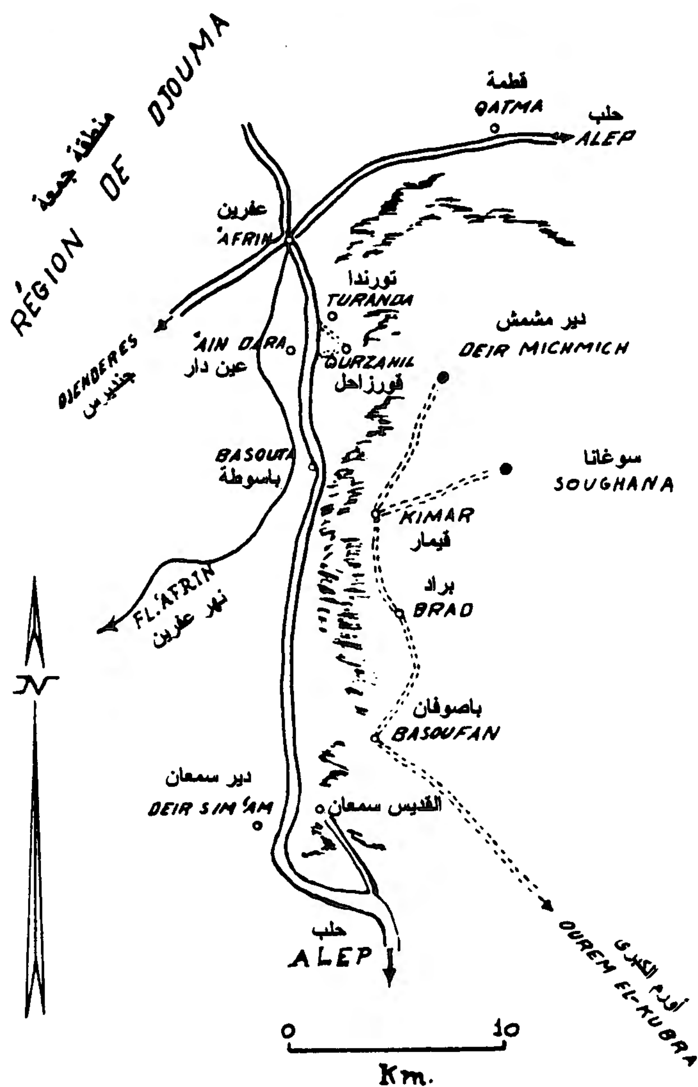
إن أطـــوال التيجان التي لا تزال تشاهد في المساكن، جنوبي قرية قورزاحل، تسمح لنا بالـــتيقن مـــن وجود أبنية ضخمة تعود للقرون الأولى من العصر المسيحي، كان فيها قديماً أرضيات من الفسيفساء في أماكن مختلفة، وبإمكان أهالي القرية أن يطلعونا على ثلاثة منها:

المكان الأول : ويقع في طرف القرية في بيت يدعى "بيت الرسول" .

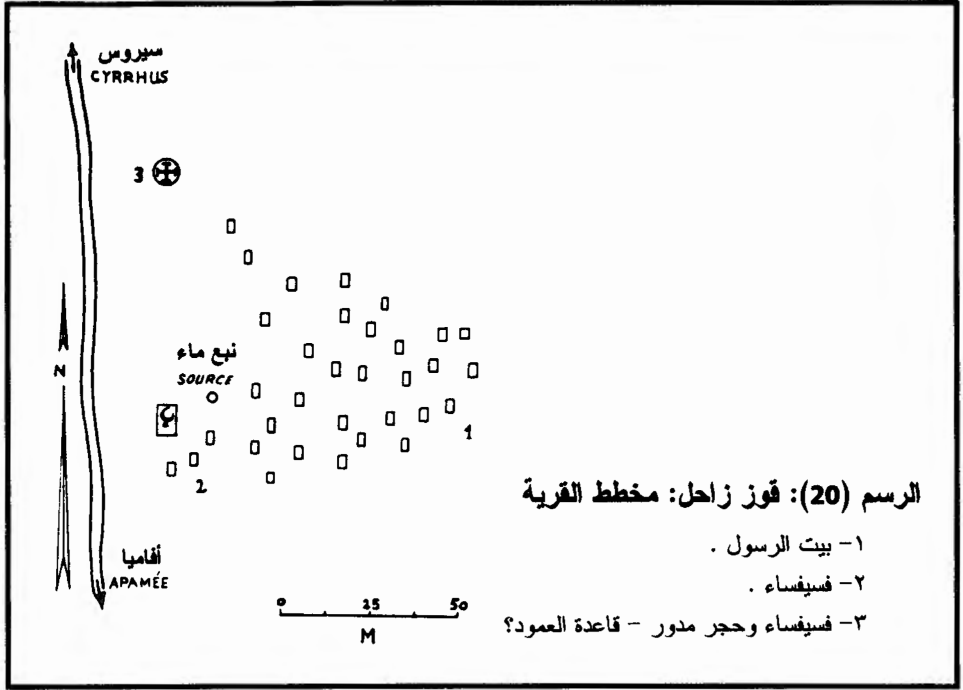
---

(٢٣) عـــين دارا : ينبوع ماء تنسب إليه قرية تقع على السفح الغربي لجبل سمعان، تبعد ٥ كم جنوب عفرين في محافظة حلب. فيها تل كشفت فيه آثار مدينة آرامية تعود للألف الأول قبل الميلاد، وفيها معبد ضخم. وهي ليست حثية كما ورد في النص، راجع : (الآراميون، علي أبو عساف، ٢١٧) .

(٢٤) اليزيدية : مذهب ديني لفرقة من الأكراد يتألف من مجموعة عقائد وأديان شرقية. وهناك خلاف على سبب هذه التســـمية فهـــي نســـبة إلى إله يعتقدون به هو (يزدان)، أو نسبة إلى يزيد بن معاوية، واعتقادهم بإمامته، أو لأنهم (اليـــزدانيون) إحدى فرق الزردشتية. يعتقدون أن الله تعالى يسكن في (لاش) أحد جبال الهكارية في كردستان، فهي أقدس بقعة على سطح الأرض. وكتبهم المقدسة هي (الجلوة)، و(مصحف رش - الأسود). يحجون إلى زاوية الشيخ عدي بن مسافر الهكاري الأموي التي دفن فيها. يؤمنون بإله خالق واحد خلق الكون وفوض أمره إلى الملك الطاووس الذي يرتفع بنظرهم إلى مرتبة الألوهية، مع أنه عصى الله أول الأمر، لكنه ندم واستغفر وبكى سبعة آلاف سنة حتى أطفأت دموعه نار جهنم فأعاده الله إلى مركزه، وهو أيضاً عزازيل رئيس الملائكة، وقد تحدرت من نسله الملة اليزيدية. ومن هنا ينسبون إلى عبادة الشيطان. راجع: (اليزيدية واليزيديون، د. خلف الجراد) .



الرسم (19): منطقة قور زاحل



الرسم (20): قوز زاحل: مخطط القرية

١- بيت الرسول .

٢- فسيفساء .

٣- فسيفساء وحجر مدور - قاعدة العمود؟

ويقـــول لـــنا الأب يتـــيم الذي زار المكان في السابق، إن الفسيفساء كانت تغطي كـــامل الجـــزء الجنوبي من المسكن، وذلك منذ بضع سنوات. وأصابها التلف أولاً ثم تكســـرت بســـبب لعب الأولاد اليومي هناك، وتلاشت شيئاً فشيئاً. ولم يسلم منها إلا ما يكـــاد يـــبلغ نصـــف متر مربع. فلم يبق إلا الرسوم السداسية، المتعددة الألوان، للوحة أرضية في وسط المكان، وللطرفين الجانبيين.

إن دقـــة هـــذه الرســـوم " ٤-٥ مم " تجعلنا نرجع تاريخ هذه الأرضية إلى القرن الثانـــي أو الثالـــث الميلادي. وعلى بعد بضعة أمتار شرقي البيت نرى جداراً ضخماً، مما يدفعنا للاعتقاد بوجود بناء قديم لأحد السادة .

أما القطعة الثانية من الفسيفساء، التي زالت اليوم بكاملها، فكانت توجد مكان آخر بيت جنوبـــي القرية (الرسم/20 ، الرقم/2). ويؤكد صاحب البيت أنه في أثناء الشروع بأعمال البـــناء تـــم العـــثور، ليس فقط على الفسيفساء، بل على قواعد أعمدة وتيجان أيضاً. وهذه التـــيجان لا تـــزال موجـــودة في الباحة التي وجدت فيها، وفي باحة البيت المجاور أيضاً، وهـــي ضخمة جداً، ويمكن أن تكون تيجاناً لأعمدة مزدوجة. أما الغياب الكامل للرسومات المسيحية، فيحملنا على الافتراض أنها كانت جزءاً من بناء عام، أو من معبد وثني.

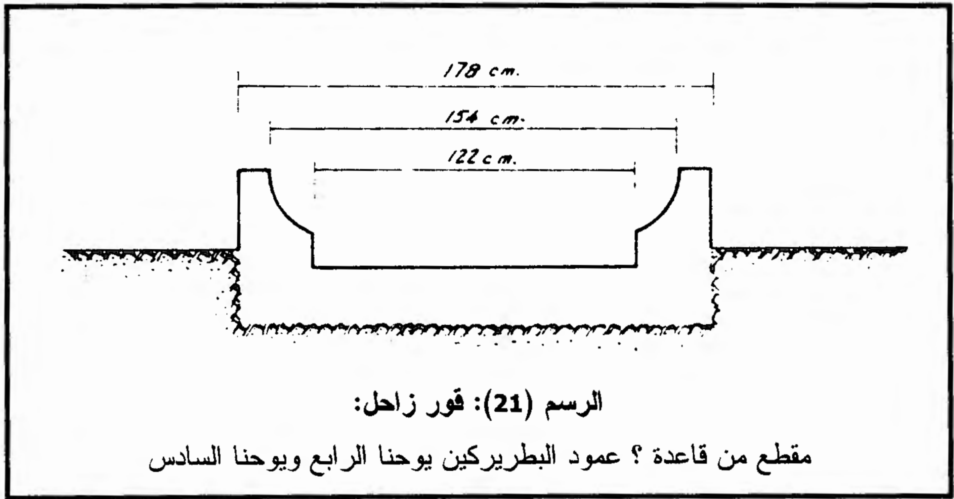
أما المكان الثالث، الذي بوسع الأهالي أن يرونا إياه، فيقع في الطرف الشمالي من القـرية، بالقـرب من الدرب الترابي الآتي من توروندا، ويقتفي أثر الطريق الروماني القديـم الآتـي مـن قـورش إلى طريق أنطاكية، قنسرين، أفاميا. إن هذه القطعة من الفسيفساء مصنوعة من مكعبات بيضاء كبيرة جداً /١×٣سم، ٢×٣سم، ٤×٤سم. وتبلغ مساحة هذا المكان المكتشف/٣٠×٣٠سم. (الرسم/20 ، الرقم/3) .

ب- قاعدة العمود :

رجعـنا إلى قورزاحل في/ ٣١ أيار ١٩٧٢م. وتذكر الأب بولس يتيم، وهو يرافقنا أنـه كـان قـد لاحظ، بالقرب من قطعة الفسيفساء الأخيرة، حجراً مستديراً مجوفاً. فكان علينـا أول الأمر أن نبدد حذر صاحب البيت، نوري محمد، ثم القيام بتنظيف المكان، قبل أن يظهـر لنا الحجر الكبير المدور بحافته وتجويفه، الذي بدأ مائلاً ثم نزل بخط مستقيم. لِمَ استُخدم هذا الحجر؟ وماذا يمكن أن يكون؟ أحجر طاحون هو؟ أم حوض للشرب ؟

إنه ليس بحجر طاحون، بكل تأكيد، لأن تجويفه عميق جداً، ولا يوجد في وسطه حلقة حجرية، يثبت عليها عادة محور الرحى وهي تدور. وليس بحوض للشرب، لأنه عميـق جـداً، ومختلف عن سائر أحواض الشرب المعروفة، بسبب شكله، أو لغياب فوهـة السـكب. إن كل ذلك يحملنا على الاعتقاد بأنه قاعدة عمود شبيهة بتلك القواعد الموجودة في قيمار، وفي إرحاب، مع بعض التعديل الطفيف الذي طرأ عليها فيما بعد، بإعطـاء هـذا الميلان للتجويف، الذي لم نعرف بعد الفائدة منه. يبلغ القطر الخارجي للحجر/ ١,٧٨م، وقطره الداخلي/ ١,٥٤م، وقطر التجويف/ ١,٢٢م فقط. ولأننا لم نـتمكن من إخراج الحجر بكامله فلم نعرف ارتفاعه من الخارج. ويبلغ عمق التجويف ٥٥سم . (الرسم/21) .

وعلى بعد/ ٤,٣٥ م من هذه القاعدة المستديرة، يوجد جدار صغير طوله/٥,٥٠م، وسـماكته /٠,٦٦م، يـتجه نحو الغرب أولاً، ثم نحو الشمال، ماراً تحت دار صاحب الأرض. لا يختلف هذا الجدار بشيء عن السياج (المندرا) المعروف الذي نجده في كل من تقاد وتلعادة أو في تل نيشين. وهذا القرب من طريق قورش- أفاميا، يزيد في

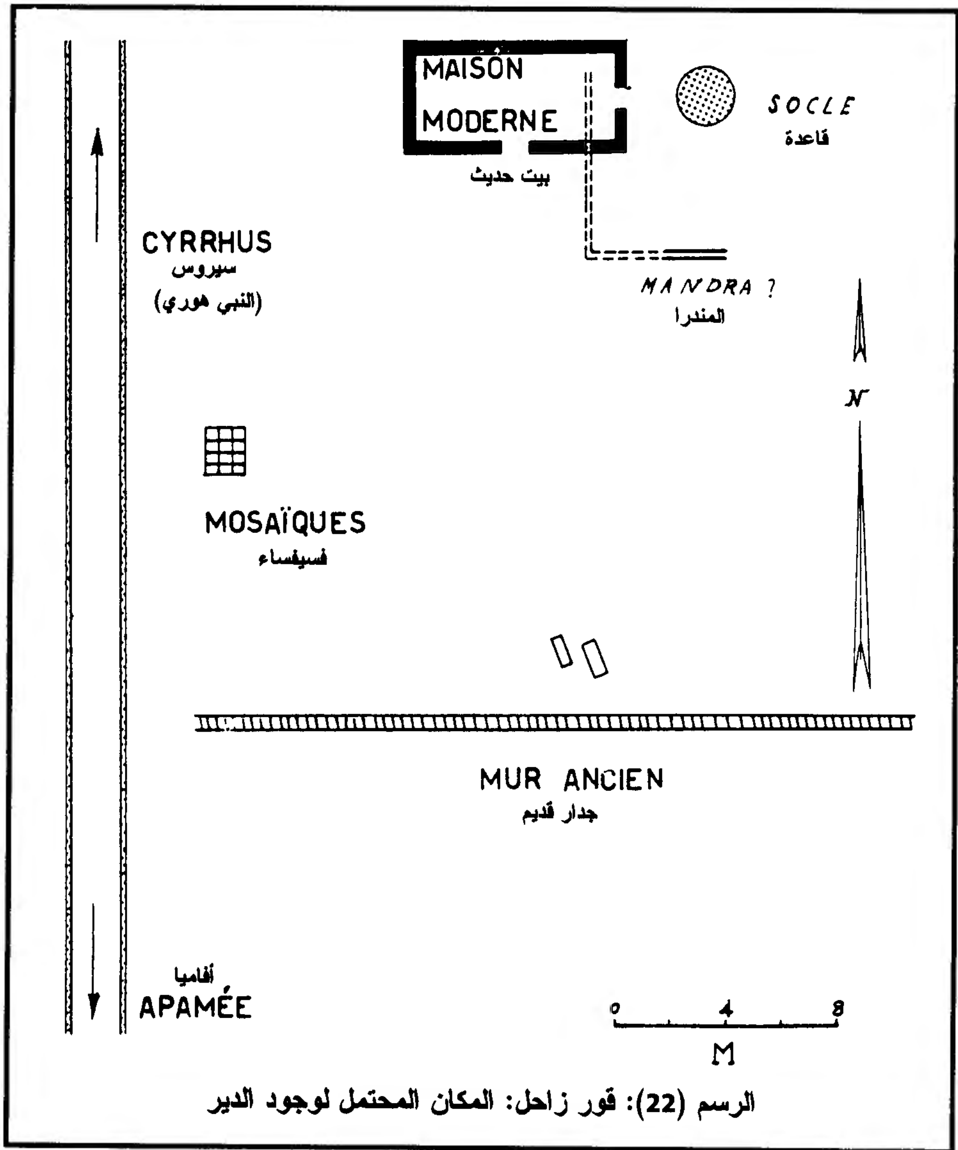


الرسم (21): قور زاحل:

مقطع من قاعدة ؟ عمود البطريركين يوحنا الرابع ويوحنا السادس

احـــتمال وجـــود عمودي في هذه الأماكن. وفي المكان نفسه، لا تزال توجد قطع من أعمـــدة القناطر، وبالإمكان رؤية بقايا جدران بيزنطية متجهة شرقاً وغرباً، على طول ثلاثين متراً تقريباً، وتبعد عشرين متراً جنوبي القاعدة المستديرة المذكورة سابقاً.

فهـــذا الجو يبدو أنه جو دير. أما مكعبات الفسيفساء فيمكن أن تكون لتزيين إحدى القاعـــات العامة، أو الباحة، أو كنيسة الدير. أما المكان، ببعده عن المساكن، وبسهولة الوصول إليه، فهو يبدو المكان المناسب تماماً موقعاً لدير (الرسم/22) .



الرسم (22): قور زاحل: المكان المحتمل لوجود الدير

وعندما تتكلم النصوص عن عمليات التطهير التي عرفتها بطريركية أنطاكية في عهـد خلفـاء سـاويروس : بولـس، وأوفراسـيوس، وأفرام، فهي لا تذكر أبداً دير قورزاحـل. ويعطيـنا ميخائيل السوري لائحة بالجماعات التي طردت من أديرتها في

عهـد البطاركة المذكورين، فلا نرى فيها قورزاحل. ثم إنه لا ذكر لها، في أي مكان آخـر، عـندما يدور الحديث عن فترة المنازعات العنيفة بين المونوفيزيين وأصحاب مذهـب التثليث الإلهي. بالإضافة إلى أن لائحة المشاركين في مجامع باتبو لا تقدم لنا أي اسم راهب من دير قور زاحل، مما قد يعني أن هذا الدير لم يعتنق المونوفيزية إلا فـي حقـبة متأخرة، أي بعد الفتح العربي عام/ ٦٣٨م. حين أصبح تأثير القسطنطينية شبه معدوم.

ج- البطاركة ـ العموديون:

في القرن العاشر الميلادي، كان دير قورزاحل مشهوراً، دون شك، بفضل قداسة الحيـاة النسكية فيه، وذلك لأن اثنين من رهبانه، حصلا على الشرف الرفيع بترقيتهما إلى أعـلى كـرامة في الكنيسة اليعقوبية. ويروي ميخائيل السوري، في كتابه " تاريخ الأحداث "، أنه: عند وفاة البطريرك ديونيسيوس الثاني، دعي يوحنا الرابع وهو آنذاك على"عموده في قورزاحل بمقاطعة أنطاكية" ليخلفه، وقد منحه الكرامة الأسقفية يوحنا، أسقف مرعش[٢٥]، فرسمه بتاريخ٢١ نيسان٩١٠م في دير بيت سافار الواقع في ظاهر حـران[69]. ويـبدو أن الاهـتمام الـرعوي للبطريرك الجديد قد انصب على تنظيم الأبرشيات في بطريركيته، وقد رسم بالفعل واحداً وأربعين أسقفاً.

وبعـد أن أدار بطريركيـته خلال اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر توفي في السبت الأخير من تشرين الثاني سنة ٩٢٢م في دير سافيلوس في رأس العين[٢٦]. وقد خلفه كل من: مارباسيليوس "المتوفى في/٢٥ آذار٩٣٥م "، ومار إيونيس (يوحنا الخامس) وهـو راهـب متوحد، من الجبل الأسود - رسم أسقفاً في تلعادة، في ٢٨ آب ٩٣٦م، وتوفـي فـي ٣ تموز٩٥٣م -. وبعد موت يوحنا الرابع، لجأ الأساقفة السوريون من

---

(٢٥) مرعش : بلدة في كيليكيا شمال سورية، شمال بلدة عنتاب، وتقع الآن ضمن الحدود التركية .

(٢٦) رأس العين : مدينة ومركز منطقة في الجزيرة السورية العليا، تقع على بعد ٨٤كم شمال غرب الحسكة. وهي مركز حضارات قديمة، وفيها آثار كثيرة، اسمها السرياني ريش عينو. حولها عدة ينابيع، تشكل أهم روافد نمر الخابور.

جديد إلى دير قور زاحل، ليرقّوا عمودياً آخر إلى الكرامة البطريركية. ولنستمع أيضاً إلى ما يقوله ميخائيل السوري :

"فـــي عهـــد الإمـــبراطور رومانوس[٢٧] سنة/٩٥٤م، وفي اليوم السادس عشر من تمـــوز، وهـــو يوم أحد، وفي قرية تلعادة، تمت سيامة مار إيونيس (يوحنا السادس) الـــبطريركية، الـــذي دعي من على عموده الذي كان يعيش عليه في قور زاحل، على ضـــفة نهر عفرين. وعلى يد يعقوب، متروبوليت كالينيك " الرقة "، تمت سيامة يوحنا الســـادس بطريـــركاً، فأدار البطريركية خلال سنتين وستة أشهر ونصف الشهر، ونال السيامة الأسقفية على يديه عشرة أساقفة. ثم توفي في اليوم الأخير من كانون الثاني، وهو يوم جمعة، ودفن جثمانه في دير مار سالومة في دوليتشة"[70] .

ومـــن المحتمل أن العمود الذي عاش عليه يوحنا السادس، ما هو إلا عمود سلفه يوحـــنا الرابع. وما دعوة هؤلاء الرجال النساك التائبين إلى المراتب التكريمية الرفيعة إلا تعبير عن أن حياة هؤلاء الرهبان القديسين كان لها أثر بناء كبير على معاصريهم. إنهـــم، عـــلى غرار القديس سمعان الكبير، والعمودي المجهول الاسم في منطقة قيمار المجـــاورة، كانوا يؤكدون، بطريقة حياتهم، أن الوحدة والصلاة، هما وسيلتان ناجعتان جداً لإعطاء المسيح إلى العالم .

---

(٢٧) رومانوس : الإمبراطور البيزنطي رومانوس الأول (٩٢٠-٩٤٤م)، أرمني الأصل نحى صهره الإمبراطور الشاب قســـطنطين السابع (٩١٣-٩٢٠م) عن العرش. وحكم الإمبراطورية بقوة، فتصدى للملاكين الكبار وتجاوزاتهم عـــلى الدولة. وقاد عدة حملات على العرب والبلغار لكن أبناءه قاموا بخلعه عن العرش. فعاد إليه قسطنطين السابع مرة أخرى من ٩٤٤-٩٥٩م . وبذلك نجد أن ما يقوله ميخائيل السوري في أنه حدث عام ٩٥٤م بعهد الإمبراطور رومانوس غير صحيح، ففي هذا العام كان إمبراطور القسطنطينية هو ميخائيل السابع.

٨- العمودي المجهول من تيلانيسوس

آ- عمودي جديد :

في ٥ كانون الأول ١٩٧٢، ولأن التنقيبات التي بدأت في جبل باريشا لم تعط أي نـتيجة، ذهبـنا إلى تـل نيشين- تيلانيسوس- في جبل سمعان، لنلتقط بعض الصور لنشرها في كتابنا هذا. وبين الأنقاض في الطرف الشمالي الشرقي من آثار تل نيشين، ينتصـب بناء رباعي الشكل (اللوحة/ 10 ، الرقم/1). وهناك لا تزال واقفة حتى اليوم قطعة من عمود يزينها صليب جميل نحت عليها. إن اكتشاف هذا الصليب على عمود ذي قطـر غير عادي دفعنا لمتابعة تنقيباتنا في النواحي المجاورة. فتم حينها اكتشاف ثـلاث قطـع أخرى من العمود : جزء من القطعة الأولى، ونصف الثانية، وقد رصفا تحـت بـنيان الجـدار الصغير المصنوع من اللبن المجفف، والمحيط بالبناء الرباعي الشكل وبالساحة والخزانين. أما القطعة الثالثة فتحمل صليبين شبيهين بالصليب الأول. وكمـا فـي تـلعاده وقيمـار، يمكن أن نرى فيها الأخاديد والثقوب المخصصة لغرز المسـامير الكـبيرة اللازمة لتثبيت قاعدة المسكن الصغير للعمودي على العمود. ومن الواضـح أن عموديـاً عـاش على هذا العمود. وهكذا يضاف اسم جديد على لائحة الأماكن التي قدست بوجود العموديين التوابين.

ولأن الكُتاب المهتمين بالآثار السورية القديمة أمثال: بوتلر- تشالينكو- ماتيرن- لاسـوس-..إلـخ كانوا مهتمين فقط بماله علاقة بدراستهم لم يلاحظوا وجود العمود. واكـتفوا بوصـف البـناء، أو أيضاً، وبكل بساطة، التجمع الكنسي الموجود على بعد خمسين متراً من هذا المكان، باتجاه الشرق(71).

ولـم تذكـر أي من الوثائق القديمة عمودي تل نيشين. ومن جهة أخرى لا توجد لدينا لائحة كاملة عن عموديي المنطقة، ولا عن عموديي سورية. فيعرفنا تيودوريطس القورشـي عـلى حياة القديس سمعان العمودي " الكبير ". وفي عهد الازدهار العظيم

لـــلعمودية يكـــتفي إيفاغر بالإشارة إلى السمعانيين " الكبير والصغير ". أما نيقفوريوس فيحدثنا عن القديس سمعان الصغير وعن معلمه يوحنا. ويعطينا يوحنا موسكس بعض التفاصـــيل الصـــغيرة غير المهمة عن أربعة عموديين من كيليكيا، وعن عمودي من هيـــرابوليس " منـــبج "، قـــد ترك المونوفيزية بعد أن قبل البطريرك أفرام الخضوع للاختـــبار بالـــنار(٢٨) الذي عرض عليه(72). ومن خلال التواقيع على مجمعي باتبو، نـــتعرف عـــلى أسماء العموديين الأربعة الذين سبق أن تكلمنا عنهم. ويذكر ميخائيل السوري في كتابه " تاريخ الأحداث " الراهب يوحنا، عمودي في أتارب. ويذكر أيضاً الـــبطريركين يوحـــنا الرابع ويوحنا السادس، الذين كانا قبلاً عموديين في قورزاحل. ويذكر أيضاً مار زعورة .

وعلينا، دون شك، أن نضيف إلى عدد العموديين المعروفين لدينا آخرين لم تصل إليـــنا أســـماؤهم. وشـــهادة المؤلفين موجودة لتؤكد ذلك. فيحدثنا إيفاغر عن الأحداث المتعلقة بحياة الرهبان قائلاً : "ينتمي القديس سمعان العمودي " الكبير" إلى جماعتهم – جماعـــة الرهبان –، وهو أول من راودته فكرة الإقامة على عمود والعيش عليه"(73). ويـــروي لـــنا ميخـــائيل الســـوري، فـــي معرض وصفه للنزاعات بين الخلقيدونيين والمونوفيـــزيين فـــي بطريـــركية أنطاكيـــة خلال النصف الأول من القرن السادس الميـــلادي، أن بولس خليفة البطريرك ساويروس أُنزل من على الأعمدة العديد منهم، أي مـــن العموديين المونوفيزيين(74). فلماذا لا يكون عمودي تل نيشين المجهول أحد هؤلاء العموديين ؟.

---

(٢٨) الاختـــبار بالـــنار : هو اختبار لصدق الإنسان، كان يطبّق في حال عدم وجود إثبات قاطع، فتشعل كومة كبيرة من الحطب وتترك حتى تتحول إلى جمر، ويقوم الشخص المراد اختباره بالمشي فوق الجمر حافياً، ويعتقد أن الصادق يعبر دون أن يتأثر بالنار .

ب- الوضع الديني للبطريركية الأنطاكية خلال النصف الأول من القرن السادس الميلادي :

تميــزت الســنوات العشــر الأولى من القرن السادس الميلادي بالطريقة السمحة واللينة التي فسرّ بها الأساقفة قرار زينون(٢٩) المسمى "هينوتيكون ". فخلال هذا العقد بقــي كــل من المونوفيزيين والكاثوليك متمسكين بكراسيهم الخاصة، بطريقة سلمية. وعلى النقيض من ذلك، تميز العقد الثاني بالانتصار الكامل للمونوفيزية. هذا الانتصار جــاء تــتويجاً للنشــاط المكثف لأسقف منبج فيلوكسين، وللبطريرك ساويروس، وهو راهــب قديم من فلسطين، وأصله من سوزوبوليس بسيدية(٣٠). وهذه الحقبة التي بدأت مــع سيامة ساويروس البطريركية عام/ ٥١٢م انتهت عام/ ٥١٨ م بموت الإمبراطور أنستاس(٣١).

وقــد غيــر الوضــع قدوم الإمبراطور بوستينس الأول/ ٥١٨ م، فحكم بالنفي على الأساقفة المونوفيزيين، واستبدل بهم أساقفة موالين للعقيدة الخلقيدونية. كان أول من عانى مــن نــتائج انتصار الكنيسة المونوفيزية هو البطريرك فلابيانوس الثاني الذي حكم عليه بالــنفي عام/٥١٢ م. ولكن في عام ٥١٨ م كان دور البطريرك ساويروس أن يقاسي من انقــلاب الوضــع، فقد تلقى حاكم الشرق إيرينه الأمر بإرسال ساويروس تحت الحراسة إلى القســطنطينية، حيــث كان بانتظاره عدوه الشخصي فيتاليانوس الذي كان آنذاك في أعــلى مــراتب الإمــبراطورية، وحتى يعاقبه طلب من فيتاليانوس نزع لسانه(75). لكن

---

(٢٩) زينون : إمبراطور بيزنطي (٤٧٤-٤٩١م)، حاول التوفيق بين المونوفيزية و الكاثوليكية، فأصدر عام ٤٨٢م قرار التوحيد بينهما المسمى (هينوتيكون)، وقد أدى إلى خلاف مع روما دام ٣٥ سنة، فقد انشق الرومان عن كنيسة القسطنطينية (انشقاق أكاليوس)، واستمر حتى عهد يوستين الأول (٥١٨-٥٢٧م) الذي أعاد توحيد الكنيسة وحارب المونيفيزيين .

(٣٠) بسيدية : مقاطعه بيزنطية في آسيا الصغرى، تقع على امتداد جبال طوروس غرب كليكيا، وتمتد شمال ساحل أنطاكية على البحر المتوسط .

(٣١) أنستاس : هو الإمبراطور البيزنطي أنستازيوس الأول (٤٩١-٥١٨م)، اتبع العقيدة المونوفيزية، من أهم آثاره بناء سور القسطنطينية .

ساويروس استطاع الإفلات من مراقبة الحرس الإمبراطوري، وهرب إلى سلوقية، ومنها أبحر إلى مصر. وفي الأشهر الأولى من عام/ ٥١٩م خلف ساويروس البطريرك بولس الذي كان المونوفيزيون يدعونه باليهودي. حاول اللجوء إلى أسلوب الإقناع أولاً، وعندما لم تأت جهوده بالنتيجة المرجوة، لجأ عندها إلى تطبيق القرارات الإمبراطورية الآمرة بنفي الأساقفة وبطرد الرهبان من أديرتهم (76).

لم يقم بولس بإدارة بطريركيته سوى عامين، لكن خلفه أوفراسيوس بار مَالاحا اتبع الأسلوب نفسه. فبعد موته الذي وقع خلال الهزة الأرضية في/ ٢٨ أيار ٥٢٦م، عين أفرام الآمدي بطريركاً، وكان قبلها حاكماً للشرق. ومنذ بداية ولايته انصرف بكليّته لاقتلاع المونوفيزية في بطريركيته من جذورها. ولم يكفه أقل من عشر سنوات من العمل الدؤوب، لمنطقة أنطاكية وحدها، وذلك لأن القرارات الإمبراطورية لم تكن بعد قد طبقت فيها بكل صرامتها، ولا سيما فيما يتعلق بالرهبان. وخلال شتاء /٥٣٦-٥٣٧م، في عهد يوستنين(٣٢)، وعندما انتشرت موجة جديدة من الحملات المناوئة للمونوفيزية، قام أفرام بزيارته الرعوية للمقاطعات الشرقية من بطريركيته. فذهب إلى خلقيدونية، وإلى منطقة الفرات ومنطقة أعالي ما بين النهرين، بهدف تخليص هذه المناطق من المونوفيزية. فعمل دون تردد، ودون استثناء أحد. وقد سبب له هذا التصرف الصارم حقد الكتّاب المونوفيزيين، ابتداء من يوحنا الآسيوي، الذي اعتبره "بولس المضطهِد، وأفراسيوس الأسوأ " (77).

ج - عمودي من تل نيشين :

مما لا شك فيه أن راهبنا العمودي قد عاش على عموده في بداية القرن السادس الميلادي. ومن المحتمل أنه كان مقيماً عليه أيضاً في عهد بطريركية بولس وأفراسيوس، وربما في السنوات الأولى من بطريركية أفرام أيضاً .

---

(٣٢) يوستنين : الأول، إمبراطور بيزنطي (٥٢٧ - ٥٦٥م)، حاول توحيد الإمبراطورية في السياسة والدين والقانون. ساعدته زوجته تيودورا، لكن سياسته الدينية أخفقت. أكمل بناء كنيسة أياصوفيا. حارب الفرس والفاندال واستعاد إيطالية وشمال أفريقية.

فبعد شجب مجمع القسطنطينية للمونوفيزية في سنة /٥٣٦م، وبعد طرد المونوفيزيين من منطقة أنطاكية، وقبل زيارة أفرام الرعوية للمنطقة الشرقية من بطريركيته، من المؤكد أن عمودّينا ترك عموده ليتبع إخوته الرهبان المطرودين من الدير الذي كان تابعاً له. وفي الحقيقــة كان هؤلاء الرهبان مونوفيزيين، وهذا ما تؤكده لنا رسالة من فيلوكسين المنبجي إلى أرشمندريت تلعادة. ثم إن ما قام به محتلو الدير الجدد لمحو ذكرى العمودي هو دليل آخر على ذلك. فمكان العمود الذي حطموه، بنوا من بقايا الأبنية حجرة صغيرة للحبساء. ومن المحتمل أنها تهدمت بسبب زلازل عامي/ ٥٢٦ و٥٢٨ م .

أمـــا تـــاريخ طـــرد العمودي وبناء هذه الحجرة الصغيرة، فيرجع دون شك إلى النصـــف الأول مـــن القـــرن السادس، لأنه بين عامي/٥٦٠ م و٥٧٠ م كان الرهبان المونوفيـــزيون فـــي ســـورية الكـــبرى على أحسن حال من التنظيم، وقد رجعوا إلى أديـــرتهم. كمـــا كـــان العموديون المناهضون للعقيدة الخلقيدونية يعيشون بسلام على أعمدتهم. وإذا افترضنا أن الرهبان المونوفيزيين لم يغادروا ديرهم في تل نيشين، فإنهم ما كانوا ليسمحوا لأحد منهم أن يدمّر العمود بأي ثمن كان. كما يمكننا القول : إنه إذا كان رهبان الدير يتبعون العقائد نفسها التي يتبعها راهبنا العمودي، فما كانوا ليسمحوا أبداً لأحد منهم أن يبني حجرته في موضع العمود نفسه. فهذا يعني لهم إضاعة فرصة امـــتلاك مزار جديد، ومن ثم مركز جديد للحج قرب ديرهم، وهي فرصة ثمينة للغاية، خاصـــة أن المعبد الشهير للقديس سمعان الكبير كان بأيدي رهبان من أصحاب العقيدة الخـــلقيدونية[78]. ومـــن المستحيل أن يأتي راهب حبيس، من معتقد يختلف عن معتقد رهبان الدير، ويستقر في مكان يعود لهم .

ومما سبق يمكننا أن نستنتج أن عمودي تل نيشين، قد عاش في زمن عمليات التطهير الشـــهيرة التي قام بها بولس وأفراسيوس وأفرام. وإذا كان الأمر غير ذلك، فلا يسعنا أن نفسر أمر بناء حجرة الحبيس في المكان الذي كان سابقاً يرتفع فيه العمود .

د- المعبـــد :

يقـــع المعبد على بعد حوالي خمسين متراً غربي الدير الشمالي الشرقي. ويرتكز العمـــود عـــلى قاعدة مربعة طول ضلعها/١,٩٠م، وترتفع /٦٠ سم عن الأرض. فهل نحـــتت هـــذه القـــاعدة على صخرة مرتفعة؟ أم كانت بكل بساطة قطعة من الحجر ؟

ولمعـــرفة الجـــواب يجب إزاحة الحجارة الكبيرة المحيطة بها من كل جانب. وهذا ما يبدو صعباً في الوقت الحالي، ولعدة أسباب. حفر على سطح هذه القاعدة أخاديد، كانت تســتخدم بعـــد ملئها بالملاط، لتثبيت العمود على القاعدة. ونلاحظ أيضاً وجود دائرة قطرها/١,٤٠م، وكان الغرض منها بلا شك هو الإشارة إلى المكان الذي يجب أن يقام فيـــه العمـــود يـــوم نصبه. وتوجد غربي القاعدة حجارة ضخمة، ذات أطوال مختلفة، ولكنها بالسماكة نفسها. ومن الممكن أن تكون هذه الحجارة جزءاً من السياج (المندرا). وهذا العمود ذو القاعدة الأسطوانية الفريدة، والذي يبلغ طوله الإجمالي٥,٩٠م، لم يبق مـــنه اليوم إلا أربع قطع. تقع القطعة السفلية على بعد ثلاثة أمتار عن الجدار الشرقي للحجرة الصغيرة، وطولها ٨٢سم. وعلى ارتفاع ٤٨سم من أسفلها يوجد صليب قياسه/ ١٠×١٠ســـم. (اللوحة/10، الرقم 2 والرقم 3). وهذه القطعة المحطمة طولانياً ترقد، كمـــا ذكـــرنا سابقاً، في الجدار الصغير المصنوع من اللبن المجفف والمحيط بالبناء. ويبـــلغ قطـــر هـــذا الجدار الصغير ٧٨سم، وفي وسط هذه القطعة من العمود وعلى ســـطحها الخـــارجي يوجد أخدود وثقب، وقد أعدّ لاستقبال القضبان الحديدية واللسين الذيـــن مع الركائز الأربع والعشرين المغروزة في الثقوب، والتي لا تزال ظاهرة حتى الآن حول جذع العمود، كانت تسند حجيرة العمودي المثبتة بمتانة على العمود .

وعـــلى ارتفـــاع/ ٣٥ســـم من رأس القاعدة الأسطوانية يمكن رؤية صليبين أيضاً، وقياسهما على التوالي/ ١٧×١٥ سم، و/١٥×١٢سم. وهناك بئران محفورتان في الصخر تقعـــان غربي البناء المربع الشكل. الأولى تبعد عن القاعدة/١٠م، والثانية/١٣م. وما زال أهالي القرية يستخدمونها حتى اليوم، كما كان يستفيد منهما في السابق معاصرو العمودي.

يحيـــط جـــدار صغير من اللبن المجفف بكل من القاعدة والعمود والبئرين ويبلغ قياسه/ ٢٠×١٠م .

هـــ - قرية تل نيشين:

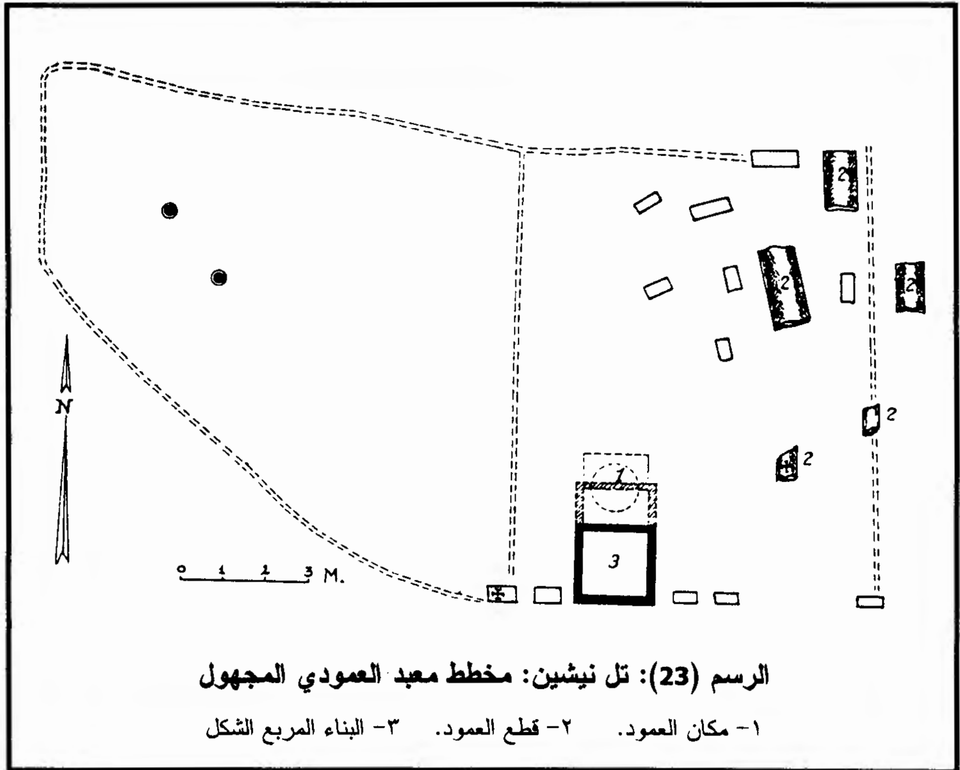
كانت تقع على الطريق المؤدية من قورش إلى كيليكيا وإلى آفاميا، وقد ظهر فيها أقـــدم تجمـــع سكاني في المنطقة الشمالية، بين القرنين الأول والرابع الميلادي، وكان ســـكانها يتكـــلمون الـــلغة السريانية. ولما وصل القديس سمعان الكبير إلى تل نيشين،

حوالي عام ٤١٢ م، كان هناك دير يرأسه ماريس بن بَرعَتون. وقد ازدهر فيها النشاط الفندقي منذ وفاة القديس سمعان، لأن الحجاج تهافتوا جماعات جماعات لتكريم عموده المشـــهور الذي ينتصب على الجبل المجاور، وفي الحال بنيت فنادق كثيرة. وسرعان مَـــا تحولـــت قـــرية الفلاحين البسيطة هذه، إلى مدينة صغيرة، بكل معنى الكلمة، بما تضمه من أبنية جميلة .

وهناك بعض الآثار في تل نيشين، تستحق أن نذكرها منها :

الأنـــدرون : بالقرب من قوس النصر، على الطريق المقدس، وهو بمنزلة مركز للاجـــتماعات العامـــة ومقـــر للقائد العام. ولا تزال قاعات طابقه الأرضي، وقاعات الطابقين العلويين، محفوظة بشكل جيد .

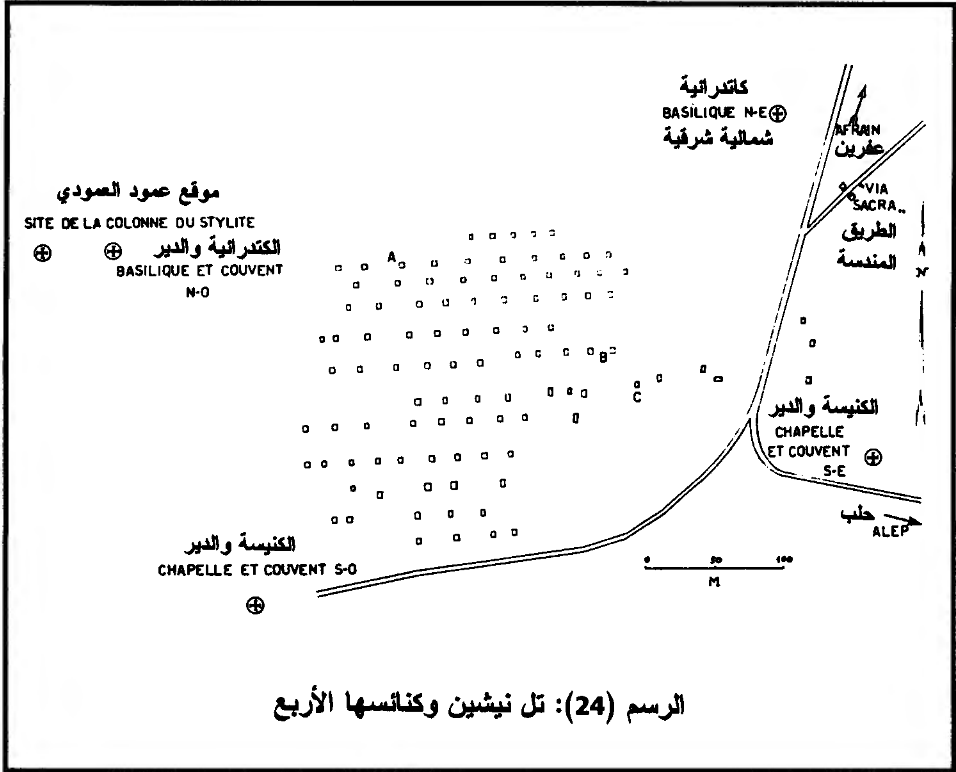
وقـــد تـــم بـــناء الديـــر الشمالي الغربي والدير الجنوبي الغربي، والدير الجنوبي الشـــرقي، والكنيســـة في الجهة الشمالية الشرقية، ما بين نهاية القرن الخامس ونهاية القرن السادس الميلادي[79].



الرسم (23): تل نيشين: مخطط معبد العمودي المجهول

١- مكان العمود. ٢- قطع العمود. ٣- البناء المربع الشكل

كانـــت تل نيشين مدينة صغيرة محظوظة، تحيط بها أبنيتها المقدسة الأربعة، التي تـــرتفع مـــنها دون انقطـــاع ترانيم الرهبان والأكليروس(٣٣)وتسابيحهم، وكأنها تبتهل لحمايـــة المديـــنة. وإلـــى هـــذه الترانيم كانت تنضم صلوات أهالي القرية، وصلوات الحجـــاج، الذيـــن يمضون الليل فيها، قبل أن يصعدوا الجبل، الذي أصبح مشهوراً لما يقوم به القديس سمعان من عبادات ومعجزات(80) .



الرسم (24): تل نيشين وكنائسها الأربع

---

(٣٣) الأكلـــيروس : وهـــم السلك الإكليركي، وهي كلمة لاتينية تعني جماعة الكهنوت في الكنيسة المسيحية، أو رجال الدين المسيحي، ويقابلها كلمة علماني وعلمانيين أي جماعة المؤمنين غير الكهنة .

والقــرية الحاليــة تحمل اسم دير سمعان على شرف العمودي الكبير، وبقيت تحــافظ بشــكل جيــد على الشبكة القديمة لطرق تل نيشين. وفي الحارة الجنوبية استقر حوالي مئتا شخص، وأصلهم من دارة عزة[٣٤]، داخل جدران المباني القديمة (81) ويعمــلون بالزراعة. ويحصلون على المياه باستمرار من الصهاريج القديمة. ولــلذهاب إلى سوق الأربعاء الأسبوعي، في مدينة عفرين الصغيرة -على بعد ٢٢ كــم-، يســلك أهــالي تل نيشين طريقاً سيعبد عن قريب. أما الطريق الواصل إلى كنيســة القديــس ســمعان والذي تم تعبيده خلال السنوات العشر الأخيرة فيتيح لهم الوصول إلى مدينة حلب - على بعد ٦٢كم- .

---

(٣٤) دارة عزة : بلدة ومركز ناحية تتبع منطقة جبل سمعان، تقع غربي حلب ٣٠كم. فيها آثار رومانية وبيزنطية منها آبار ومقابر وبرجان دفاعيان .

٩- العمودي المجهول من قيمار

قيمــار قرية صغيرة يسكنها حوالي٤٠٠ نسمة. وتقع في القسم الشمالي من جبل سمعان، حيث ينحدر الجبل بشكل شاقولي تقريباً باتجاه قرية باسوطة[٣٥]. وحتى اليوم يستخدم أهالي القرية الصهاريج القديمة، التي يوجد واحد منها شرقي كنيسة العمودي. ومنذ بضع سنوات أصبح للقرية مدرستها الابتدائية.

ومــن قرية باسوطة التي تبعد ١٠٠كم عن عفرين يمكن الوصول إلى قيمار عن طــريق الصعود في الجبل سيراً على الأقدام حوالي ساعة وربع[82]. وبعد هذا التسلق الشاق يجد المرء نفسه فجأة مشدوهاً بالسكون المخيم في أعلى الجبل، وبالمشهد المؤلم الــذي يعرضــه الســهل الفسيح للأنظار من خرائب لا تنتصب منها إلا حنايا صدر كنيســتين من القرن السادس الميلادي، وأروقه بعض المساكن. ومن يرغب أن يوفر على نفسه عناء التسلق يمكنه أن يستقل سيارة جيب ويسلك الطريق المؤدي من دير جمــال[٣٦]- عــلى بعد ٢٣ كم من حلب- إلى سوغانا[٣٧]. وحتى يصل إلى قيمار لا يبقى عليه، عندها إلا أن يقطع ٣كم على درب ترابي ممهد[٣٨].

كــانت قيمار القديمة مدينة صغيرة تعيش من زراعة الزيتون. وتقوم فيها المباني الجميــلة مــع ثــلاث كنائس، كنيسة من القرن الخامس الميلادي وكنيستان من القرن السادس الميلادي[83].

---

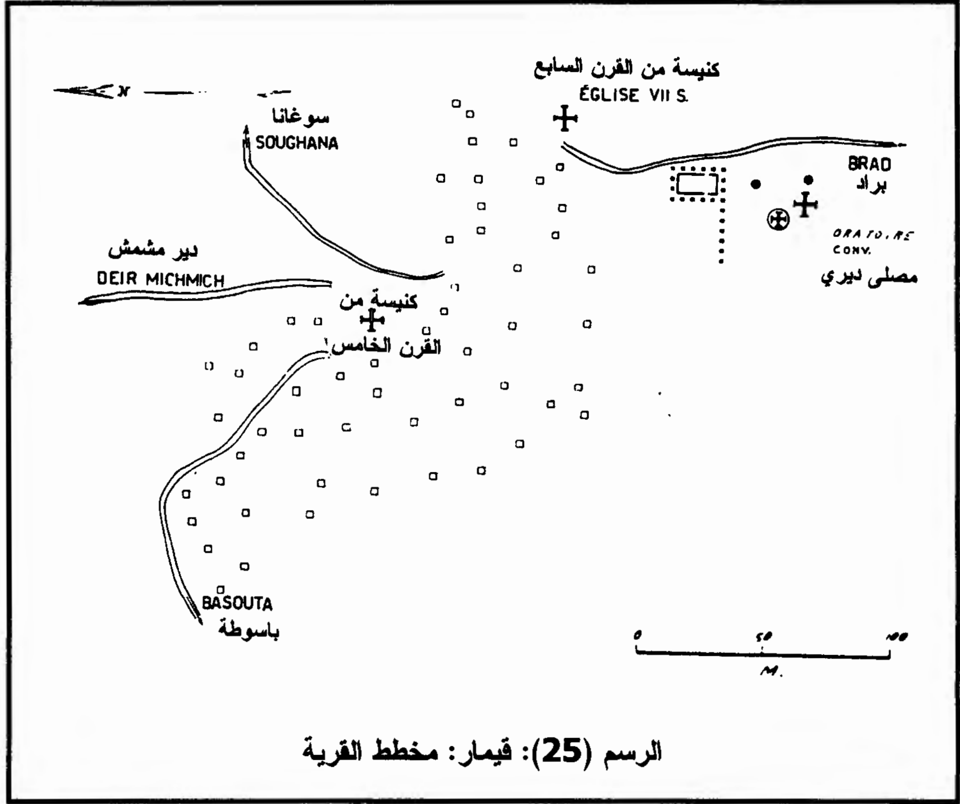
(٣٥) باسوطة : قرية في وادي عفرين، على بعد ١٢ كم جنوب عفرين، وشرقيها يقع نبع الباسوطة الغزير. تتدرج بيوت القرية على سفح جبل ليلون .

(٣٦) ديــر جمال : قرية في هضبة حلب الغربية، جنوب تل رفعت ٧كم، منطقة اعزاز، جاءت تسميتها من بقايا دير قديم، وفيها عدة آثار رومانية، وكانت تقع على مفترق الطرق التجارية القديمة .

(٣٧) سوغانا : قرية تقع غرب دير جمال ١٠كم قرب قيمار وبراد، فيها آثار بيزنطية عديدة، وقد أعيد سكنها الآن .

(٣٨) لقد أصبحت الآن كل هذه القرى مربوطة بشبكة مواصلات معبدة .

ونظـــراً لموقعها الجغرافي، كان من الصعب عليها أن تتصل بسهل عفرين الذي تطل علـــيه، لذلـــك ازدهـــرت تجارتها مع المنطقة الشرقية، ومع المراكز الجنوبية. وكان ثمة طـــريق يخـــترق المرتفعات على طول سلسلة جبل سمعان ويصل قيمار بدير مشمش[٣٩]، وبقاطمـــة[٤٠] شـــمالاً، وبراد، وباصوفان[٤١]، وأورم الكبرى[٤٢] جنوباً. ومن أورم الكبرى يصبح من السهل الوصول إلى بيريه (حلب)، وإلى قنسرين[83] (الرسم/ 19) .



الرسم (25): قيمار: مخطط القرية

(٣٩) دير مشمش : خربة أثرية في جبل سمعان، على السفح الشمالي الغربي لامتدادات ليلون تبعد عن عفرين ٣٥ كم، وفيها بقايا كنيسة ودير ومدافن وصهاريج تعود للعهدين الروماني والبيزنطي .

(٤٠) قاطمة : قرية قديمة مسكونة حالياً، شمال حلب ٤٦كم على الطريق العام بين عفرين واعزاز .

(٤١) باصـــوفان : قـــرية في جبل سمعان، تبعد ١٩كم جنوب عفرين، فيها بقايا أبنية بيزنطية فيها كنيسة وحمام وسوق ومعاصر ومدافن وصهاريج .

(٤٢) أورم الكـــبرى : اسمها آرامي يعني المكان المرتفع، وهي قرية في جبل سمعان شرق الأتارب ١١كم، فيها آثار قديمة منها مدافن وآبار وبرج يعود للعهد البيزنطي .

آ- معبد العمودي :

فـي الطـرف الجنوبي من الخرائب، وعلى أرض مسطحة، توجد بقايا أثرية ثمينة: العمـود بكاملـه، ولكـنه محطـم لعدة قطع. القاعدة التي لا تزال سليمة وفي موضعها. الكنيسـة، ولا تزال حنية صدرها واقفة. الدير الصغير، وقد حفظ بشكل جيد. والخزانات (الـلوحة/11، الرقم 2 واللوحة/12، رقم1) إن هذه الآثار التي نجت من الخراب سواء بفعـل الـزمن أو بفعل الإنسان، تجعل من قيمار موقعاً لا يقل أهمية عن كفر دريان، تل نيشـين. وقـد تيقنا من أن قاعدة العمود تشكل كتلة ضخمة ترتكز على الصخر المسطح، بيـن رواق الديـر الجـنوبي والكنيسة. وهذه القاعدة ضرورية لتتحمل وزن عمود بهذه الضـخامة، فيبـلغ محيطهـا ٧م، وارتفاعهـا ١م، وقطرها الخارجي/٢,٢٠م. أما قطر الـتجويف حيـث يستقر العمود فهو/ ١,٢٧م، وعمقه /٣٥سم. وهناك ثقب على الطرف الشـمالي للقاعدة قطره/ ١٣سم، وهو يؤلف جزءاً من التمديد الصحي النازل من حجيرة العمـودي (الـلوحة/ 11 رقم 1). ولأن القاعدة كانت تقع على بعد١٣,٢٠م من الكنيسة فإنه كان بوسع العمودي أن يتابع فروض الصلوات الليتورجية من أعلى عموده .

١- العمود :

لقد أُلقيَ أرضاً، وهو موزع على إحدى عشرة قطعة، كلها على صف واحد تقريباً[85]. وتبـلغ أطوالهـا عـلى الـتوالي بدءاً من القطعة الموجودة قرب القاعدة : الأولى: ١,٠٨ م "قطـرها ١,١٨م ". الـثانية :٢,١٠م. الثالثة : ١,٤٩م. الرابعة : ٥٣سم. الخامسة: ١,٤٢م. السادسة : ١,٢٣م. السابعة: ١,٩٨م. الثامنة : ١,١٧م. التاسعة : ٦٦سم. العاشرة : ٢,٨٠م. الحاديـة عشـرة : ١,٤٢م " وقطـرها ٨٢سم "، وبذلك كان يبلغ طول العمود/ ١٥,٦٨ م. والقطعـة الأخيـرة كـان فيها ستة عشر ثقباً لتغرز فيها الدعائم التي تسند حجيرة العمودي. وهذه القطعة تقع على بعد /١٥م عن حنية صدر الكنيسة، وربما في المكان نفسه الذي وقعت فيـه يوم قُلِب العمود. ويظهر (الرسم/26) وضعية هذه القطع كما كانت في أثناء الزيارتين اللتين قمنا بهما في/ ٧ آذار ١٩٧١م، وفي/ ٦ كانون الأول ١٩٧٢.

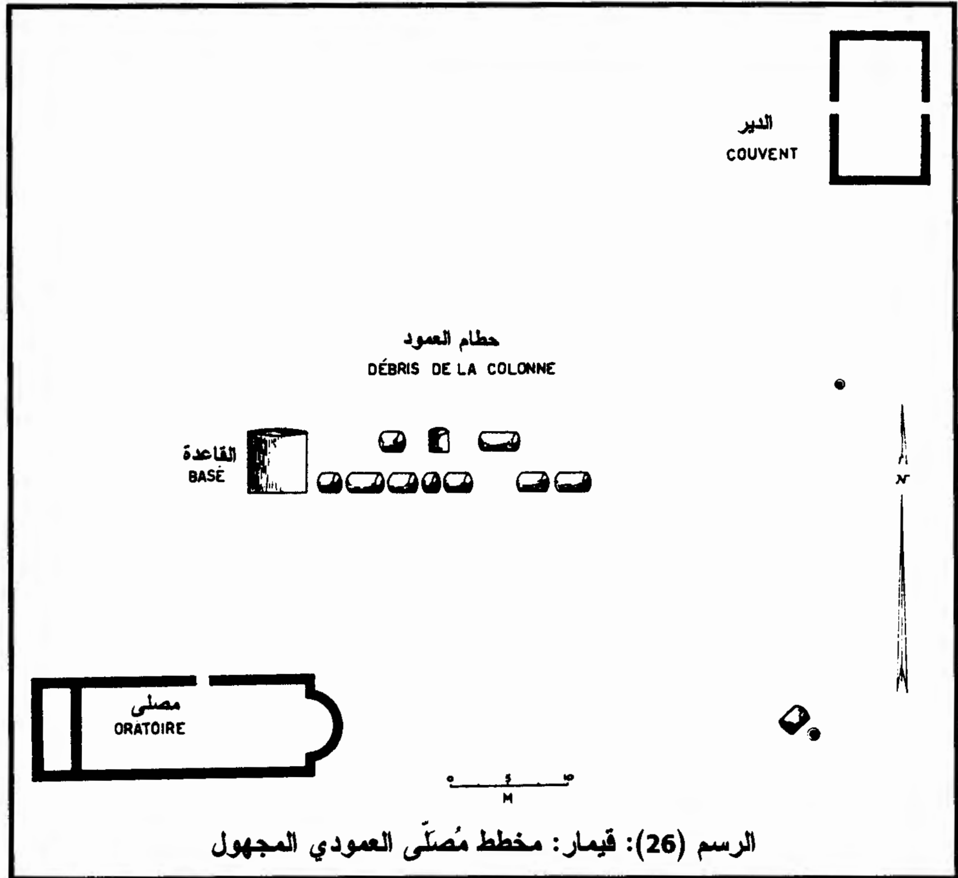
٢- المُصلّى :

المصلى، الذي لا يزال محرابه فقط قائماً، كان ذا جناح وحيد. وأما بقية الجدران، فقد كانت ملقاة على الأرض. وما زال المحراب يحتفظ بحجرين كانا يؤلفان جزءاً من إطـار أحد الأبواب، وعليهما الرسوم البارزة الكلاسيكية من القرن السادس الميلادي،

وهـــي شرائط متداخلة يتلاقى بعضها مع بعض عند القبة. ويسمح هذا المؤشر بإرجاع تـــاريخ بناء المصلى إلى ما يقارب منتصف القرن السادس الميلادي، وبذلك يمكن أن يعود إلى نفس تاريخ بناء كنيسة كفر دريان .

٣- الديـــر :

الديـــر، الذي يقع على بعد خمسين متراً شمالي شرقي قاعدة العمود، يحتل مساحة ١٠,٣٥×٦,٧٥م. وعلـــى غـــرار كـــل أديـــرة سورية الشمالية تقريباً، كان يقع شمال المصلى وتحيطه الأروقة(86). أما قبو الدير فقد جُهز ليستخدم مقبرة، ويتجه مدخله إلى الجهة الجنوبية. وتتوزع القبور فيه على الشكل التالي: أربعة قبور من الجهة الشرقية، وأربعة من الجهة الغربية، واثنان من الجهة الشمالية(87).



الرسم (26): قيمار: مخطط مُصلّى العمودي المجهول

للطابق الأرضي مدخلان : المدخل الرئيس في الشرق، وعرضه/٩٠سم وارتفاعه/١,٧٠م. وله ساكف مزين بثلاثة رسوم بارزة. أما المدخل الثانوي فهو في الغرب وتزينه دائرة يبرز منها صليب : زواياه العليا تتضمن صليبين صغيرين، وزواياه السفلية تتضمن الحرفين اليونانيين ألفا وأوميغا[٤٣].

ويتألف الطابق الأعلى من قاعة كبيرة كانت تستخدم، دون شك، مهجعاً وقاعة اجتماعات في آن واحد. الجهة الشمالية فيه مغلقة تماماً. أما بقية الجهات، فلكل منها نافذة مزينة بصليب بسيط جداً. وفيما كان هذا الطابق يستخدم للنوم، كان الطابق الأرضي يستخدم مطبخاً وغرفة طعام ومخزن مؤونة ومستودعاً لأدوات العمل. إذ ليس من الممكن الاستغناء عن هذه الأمور حتى في الأديرة التي كان يمارس فيها التقشف بكل صرامته .

ولأن الدير لا يمكنه أن يستوعب أكثر من عشرين أو خمسة وعشرين راهباً في الحد الأقصى، يبدو لنا أن عدد القبور مبالغ فيه. فينبغي أن نفترض إذن أن هناك رهباناً آخرين خارج الدير يتبعون لسلطة أرشمندريت دير قيمار الصغير. وهم يقومون بشعائرهم النسكية في النواحي القريبة جداً من القرية، التي يحضرون إليها أيام الآحاد والأعياد، لمشاركة إخوتهم في فروض الصلوات الليتورجية، والمساهمة معهم في أعمال العبادة الجماعية، وإن مثل هذه الممارسات كانت شائعة في مناطق أخرى من سورية(88).

ولأنه لم يكن للدير مصلى خاص به، من المحتمل أن الرهبان كانوا يصلون في الكنيسة القريبة من قاعدة عمود العمودي. وإذا صح ذلك فإن تاريخ الدير يرجع إلى تاريخ الكنيسة نفسه .

---

(٤٣) الألفا والأوميغا : هما الحرفان الأول والأخير من الأبجدية اليونانية، كالألف والياء في العربية. ويراد بهما السيد المسيح، وفق سفر الرؤيا ليوحنا: " أنا الألف والياء والأول والأخير والبدء والنهاية – الفصل ٢٢– الآية ١٣" .

ب- من كان عمودي قيمار :

لا توجـــد أي وثيقة، أو أي كتابة تدلنا على اسم هذا الراهب، الذي كان يعيش في القـــرن الســـادس على عمود، وغايته القداسة. واعتماداً على أبعاد العمود الكبيرة كان عموديـــنا يتمـــتع بتقدير كبير من قبل أهالي القرية. فسخاء المتبرع، ومن ثم، ارتفاع العمود، كلها أمور تتعلق عادة بما كان يتمتع به العمودي من تقدير. ولأن أهالي قيمار كانوا يرون في قديسهم رجلاً عجائبياً قديراً، كانوا يضعون دوابهم تحت حمايته. ويبدو لـــنا ذلك من خلال الأعمدة الصغيرة الأربعة، وسعفة النخل المنمنمة التي قام صاحب اصـــطبل يقع شمالي الخرائب بحفرها بالقرب من معالف اصطبله، وهي الأثر الوحيد الذي بقي محفوظاً لنا مع المعالف التي لا تزال في مكانها .

١٠- العمودي المجهول من باريشا

آ- بئر العمود :

لا يشــير أي مصدر أدبي إلى وجود راهب عاش في القرن السادس، على عمود فــي مدينة باريشا القديمة[٤٤]، أو في جوارها. كما تنقصنا الدلائل الآثارية التي تشهد على وجوده. ولكن بالمقابل، لدينا شهادات تكريمه من مؤمني المنطقة، وتأتي المواقعية المحلية لتؤكد هذه الشهادات .

تمامــاً في مدخل قرية باريشا الحالية، التي تحتل مكان القرية القديمة، والتي كان لهــا الاســم نفسه وبجانب الطريق شرقي المدرسة الابتدائية، يوجد بئر يسميه الأهالي بــئر العمود. فقياساً مع الأتارب ويحمول، هاتين القريتين اللتين حفظتا لنا، مع الاسم الخــاص للآبــار، ذكرى وجود عموديين، نعتقد أنه أيضاً في باريشا بالقرب من هذه البئر كان ينتصب عمود، عاش عليه راهب في القرن السادس الميلادي.

التذكارات في المناطق حول باريشا :

إن دلائل التكريم التي تركها مؤمنو المنطقة عديدة: وقد لاحظناها في بافتين وفي داحــس، وفي باشمشلي وفي باقرحا. وبافتين قرية سريانية صغيرة، لم يبق منها اليوم إلا آثــار كنيستين، وآثار لبعض المباني، وهي تقع على بعد أقل من ١كم شمال شرقي باريشا. والتذكارات موجودة في الكنيستين. ولاحظنا في الكنيسة الشرقية وجود عمود صــغير منحوت على مذخر في الهيكل الشمالي، ووجود منمنمة للعمودي على قاعدة

---

(٤٤) باريشا : اسمها من الآرامية (بيت ريش) أي بيت الرأس، أو بيت الرئيس، لموقعها على رأس جبل باريشا. وهي جنوب شرق حارم في محافظة إدلب. والقرية الحالية تقوم على أنقاض قرية أثرية تعود للقرن الأول الميلادي .

الدرابزين. ويوجد صليب منقوش تحت تجويف مستطيل الشكل على العمود الأخير من صحن الكنيسة الجنوبي. وفي الكنيسة الغربية تحتفظ قاعدة عمود برسم منمنم تذكاراً.

وأمــا داحس فهي قرية صغيرة مهجورة تقع على بعد/ ٢كم شمال غربي باريشا. وهــي بدورها تحتفظ بتذكارات تشير إلى العمودي، وهي: رسم منمنم منقوش بالقرب مــن ساكف الباب الشرقي للكنيسة الشرقية، وعمودان صغيران مقدمان على أنهما نذر على ساكف غرفة الدياكونيكون(٤٥) في الكنيسة الغربية، وعمودان صغيران في بعض فجوات نوافذ بناء ضخم قرب الكنيسة نفسها، وعمود صغير آخر في بيت بالقرب من الكنيسة الشرقية .

ونجــد تذكــارات أخــرى في الشمال : عمود صغير على المذخر الرئيسي لبيت ذخائر الشهداء في كنيسة باشمشلي الشمالية، وعمود صغير آخر على المذخر الرئيسي لــبيت ذخائــر الشهداء في كنيسة باقرحا الغربية، وعمود صغير على مذخر آخر في المكان نفسه .

فمــن هو إذن هذا العمودي المكرم في منطقة جبل باريشا؟ يبدو لنا، بادئ الأمر، أنه يجب استبعاد فكرة أن هذه التذكارات قد نحتت على شرف القديس سمعان الكبير. وذلــك لأن منســكه بعيــد بما فيه الكفاية عن هذه المنطقة. ولا بد أن هذه التذكارات العديدة قد جاءت في وقت متأخر. ومن الممكن أنها تشير إلى مار يونان عمودي كفر دريــان. ولا شيء يمنع من قبول ذلك، خاصة أن كفر دريان لا تبعد عن باريشا سوى خمســة كيــلو مــترات. ولكن ما دام بئر باريشا يسمى بئر العمود، فقياساً على آبار أتــارب ويحمول، نعتقد أن العمودي الذي تشير إليه التذكارات التي هي تكريم شعبي، ليس إلا عمودياً قد عاش على عموده قرب بئر باريشا، وذلك قبل قليل من بناء كنيسة داحس الشرقية التي تعود للقرن السادس الميلادي. وفي الحقيقة الرسم المنمنم المنحوت

---

(٤٥) الديــاكونيكون : كــلمة يونانية، ومعروفة باسم السكرستيا، وتعني حرفياً بيت الشماس الإنجيلي، أي بيت الخدمة. وهي غرفة جانبية في الكنيسة وتستعمل لحفظ الثياب والأواني المقدسة وكل ما يتعلق بخدمة الكنيسة، والشماس هو الذي يهتم بكل ذلك .

على جدار هذه الكنيسة، بجانب الساكف، لم يضف فيما بعد، بل هو نحت لا يتجزأ من البناء. وللأسف فإننا لا نستطيع تحديد التاريخ الدقيق لبناء الكنيسة.

في ذلك الزمن، كان العموديون كثيرين جداً في سورية الشمالية، ويمكن أن يكون عمـــودي باريشـــا فـــي عداد هؤلاء العموديين الذين لم يذكر المؤرخون أسماءهم. إن عمـــودي باريشـــا، بعيشه على العمود، تحمل البرد والحر والجوع والعطش. وبما أنه صـــلب مـــع المســـيح، فقد نسي آلامه وراح ينعش إيمان الفلاحين والرعاة، ومن ثم ينصرف في سكون الليل إلى تمجيد الخالق، فتندمج صلاته بتسابيح الطبيعة.

١١- المسيح ينتصر إلى الأبد

إن صاحب البيت، الذي حفر صيحة الانتصار هذه على باب بيته في قرية البارة، لم يشك، كما أن أحداً في القرن الخامس والسادس الميلاديين لم يكن بوسعه أن يشك، في أن المسيح منتصر لا محالة في سورية. ولم يكن بوسع أحد أن يتصور أن المسيح سيهاجر ذات يوم من هذه المنطقة مع إخوته "الرهبان". ففي سورية كانت كنائس المدن والقرى، ومباني الأغنياء الجميلة، وبيوت القرويين المتواضعة، تنقش على أبوابها كلها علامة النصر، وهي ما كان يوحنا فم الذهب يحب أن يدعو الصليب بها .

"المسيح ينتصر إلى الأبد" : يبدو أن هذا هو الهتاف الذي كانت تردده الجموع المتوجهة لتكريم العموديين. ففي القرنين الخامس والسادس الميلاديين اعتنق سكان منطقة أنطاكية بمجملهم المسيحية. فازدهرت الكنائس على التلال، وتكاثر عدد الأديرة على المرتفعات، وانتصبت أعمدة العموديين كمنارات صلاة على طول الطرق والممرات التي تسلكها القوافل .

هذه النشاطات والجهود لم تنقطع إلا بسبب النزاعات اللاهوتية، والنزعة المناهضة للهيلانية التي انغرزت في نفوس السوريين بعد مجمع خلقيدونية، حيث بدأت الكنيسة السورية تأخذ وجهاً خاصاً، بدأ في الظل، ثم تجلى تحت سوط الاضطهاد. فبالرغم من اضطهادهم ومن طردهم من أديرتهم، حافظ السوريون على الحب نفسه نحو المسيح، الذي كان قد دفعهم ليبنوا له الكنائس والأديرة، خلال القرن الرابع والخامس والسادس الميلادي، تلك التي ما نزال نعجب بها في المنطقة الشمالية الغربية من حلب. وقد تمكنوا من تنظيم تسلسل كهنوتهم وحياتهم الرهبانية، والمحافظة على وضع ديني مزدهر خلال بضعة قرون .

غير أن أحداً لم يخرج منتصراً من هذه النزاعات، وذلك لأن العرب الذين استقبلهم المونوفيزيون بوصفهم محررين، طردوا البيزنطيين من سورية، ثم إن

الظروف الاقتصادية الناجمة عن الوضع الاجتماعي والسياسي الجديد دفعت السوريين باتجـاه مراكز المدن. وبذلك هجرت الكنائس وأصيبت بالخراب(٤٦)، ولم تعد الأديرة قادرة على جمع دعوات رهبانية جديدة .

فـإذا كان السوريون، وهم الذين عانوا من الانفصال عن إخوتهم بسبب الضغائن، ومـن الاضطهاد في أنحاء الإمبراطورية البيزنطية، قد تمكنوا من أن يعطوا الكنيسة نفوساً ملتهبة بالغيرة الرسولية، من أمثال يوحنا الأفسسي(٤٧)ومعاونيه، وإذا كان لديهم متعبدون من أمثال العموديين، الذين درسنا حياتهم، وإذا ما توصلوا رغم انفصالهم إلى هـذه الدرجـة من القداسة، فكم وكم كانوا سيقدمون لكنيسة المسيح فيما لو ظلت شعلة المحبة حية في قلوب مسيحيي الشرق ؟ وكم وكم كانت قد أعطتنا الكنيسة السورية لو أنها، بدلاً من أن تكون منفصلة عنا، كانت كنيسة شقيقة (٤٨).

لقـد محـا الحقـد بين الإخوة في فترة تقل عن مئة سنة كل ما قام به الرسل من جهـود، وهم الذين طافوا أسواق أنطاكية ساعين وراء خلاص النفوس. ومحا ما قدمه الشـهداء مـن تضحيات، وهم الذين بذلوا دماءهم لتعزيز إيمان شعب سورية. ومحا

---

(٤٦) ليـس لديـنا أي تأكيد تاريخي لهذه الظاهرة التي يتحدث عنها المؤلف ولا لنفيها، لغياب النصوص الصريحة حول هذا الموضوع، ولكن القرائن والدلائل التاريخية كلها تشير إلى أن هجران الفلاحين السوريين لقراهم تم قـبل الفتح العربي لسببين هامين، أولهما: احتدام الاضطهادات الدينية التي مارسها البيزنطيون حكاماً ورجال ديـن ضـد الكنيسة السورية، والتي تركزت في الريف المتمسك بإيمانه الذي تحول إلى وطنية، ولأن المدن لم تشهد مثل هذه المواقف المتطرفة، ولاختلاط وكثرة الناس فيها كانت ملاذاً لجأ إليه العديد من أسر الفلاحين السـوريين. والثاني: هو انعدام الأمن خلال مرحلة الغزو الفارسي لسورية، فقد كانت القرى مكشوفة أمام الجيش الفارسي للنهب والسلب قبل استكمال السيطرة النهائية للفرس على سورية، بينما كانت المدن محمية بالأسوار وتنعم بأمن نسبي، لذلك هاجرت أعداد كبيرة من سكان القرى ملتجئة إلى المدن. وبذلك لا يكون الفتح العربي لسورية له أي علاقة بهجران القرى والكنائس ومن ثم خرابها .

(٤٧) يوحـنا الأفسسـي: أسقف من أتباع الطبيعة الواحدة " مونوفيزي "، كاتب ومؤلف، أشهر كتبه : تاريخ القديسين الشرقيين، توفي عام ٥٨٦ م .

(٤٨) يعبر الكاتب عن وجهة نظر الكنيسة الغربية التي يتبع لها، مع أنه في الواقع تعتبر هذه الكنائس شقيقة، فكان يجب أن يقول : كانت كنيسة واحدة .

أيضـــاً صـــلوات العموديين وآلاف النساك. كل شيء قد مات، مات بشكل نهائي.. فقد كـــتب جول ليرْوَا في نهاية فصل (في بلاد العموديين) ما يلي: "تشبه ظلال الكنائس والأديـــــرة المرتفعة نحو السماء العظام الرميمة التي تنتظر كلام حزقيال جديد ليقول لها : "هكذا يقول الرب لهذه العظام الجافة، وأجعل روحي فيكم فتحيون".

المسيح ينتصر إلى الأبد ! .

حواشي القسم الثاني

(1) L. JALABERT, R. MOUTERDE, C. MONDESERT, Inscriptions grecques et latines de la Syrie, Paris 1939, II, n. 568, pp. 314-14. Il s'agit ici de l' Ère d' Antioche; ce qui nous reporte à l'an 529 de l'Ère chrétiénne; cf. Villes Mortes, p. 94

(2) Villes Mortes, p. 93; Villages Antiques, I, p. 279 : cette basilique aurait été un centre de pèlerinage. Le terrain appartient aujourd' hui au Cheikh Abdul- Djelil.

(3) W. WRIGHT, Catalogue of Syriac Manuscripts in the British Museum, London 1871, p. 705, 29. Documenta ad origines monophysitarum illustrandas, trad. I. B. CHABOT, Louvain 1965, réimpression anastatique, pp. 112-15; Villes Mortes, p. 93; Sanctuaires Chrétiens, p. 277; Villages Antiques, I, p. 278; III, App. III. pp. 70,97; J. LEROY, Moines et Monastères, Paris 1958, pp. 183-84.

(4) La vie et les oeuvres de Saint Siméon le Grand nous sont racontées par THÉODORET, évêque de Cyr, au ch. XXVI de son Histoire Religieuse (MIGNE, P. G., LXXXII) et par EVAGRE, aux ch. XIII et XIV du L. I, et au ch. X du L. II de son Histoire Ecclésiastique, (MIGNE, P. G., LXXXVI). EVAGRE parle de Saint Siméon le Jeune et de son maître, au c. XXIII du L. VI de son Histoire Eccl., et Nicéphore dans sa Vita S. Symeonis Junioris (MIGNE, P. G., LXXXVI).

(5) Nous ne parlons ici du Monphysisme qu'en tant que mouvement ethcico-religieux opposé à la hiérarchie religieuse de Constantinople; c'est pourquoi nous n'entrons pas dans les questions dogmatiques relatives à ce mouvement; elles sont sans intérêt pour le présent travail. Vers 570 quelques Monophysites prirent le nom de Jacobites; ce nom fut étendu plus tard à tous les Monophysites syriens.

لا نتكلم هنا عن المونوفيزية إلا باعتبارها حركة وطنية دينية، مناهضة لسلطة القسطنطينية الدينية. لذلك لا نتعرض للمسائل العقائدية لهذه الحركة، فهي ليست في مجال عملنا. ففي عام/٥٧٠م اتخذ بعض المونوفيزيين اسم يعاقبة، وقد اتسعت هذه التسمية فيما بعد لتشمل كل المونوفيزيين السوريين.

(6) (cf. Documenta Mon., p.113; Villages Antiques, III, App. II, 68,69, 88,99).

تقع باتبو على مسير ساعة غربي كفر كرمين، وساعتين عن أتارب. ويقول مار باس : يقع الدير القديم على النتوء الغربي لجبل سرير. ولم يبق قائماً فيه سوى بعض الجدران. إن

اتساع رقعة الخرائب وكثرة الخزانات تدعونا إلى الاعتقاد بأن الدير كان يحتوي عدداً كبيراً مـــن الرهبان، ويستقبل ضيوفاً كثيرين. بالإضافة إلى وجود دير آخر أصغر في القرية. ويطلق ســـكان المنطقة اسم دير باتبو على المكان الذي يحتله الدير الكبير لمار باس. وتقع قرية باتبو الحالية على مسير نصف ساعة جنوب غربي دير مار باس.

(7) (cf. Documenta Mon., p. 101; MICHEL LE SYRIEN, Chronique, trad. de J.-B. CHABOT, Ire édit., Paris 1901, II, pp. 251, 252, n. 2; DEVREESSE, Le Patriarcat d'Antioche depuis la paix de l'Eglise jusqu'à la conquête arabe, Paris 1945, pp. 77, 81. E. HONIGMANN, Evêques et Evêchés monophysites de l'Asie Antérieure au Vie siècle, Louvain 1951, pp. 179-187).

ولد رسمياً مذهب التثليث الإلهي سنة ٥٥٧م وكان يوحنا اسكوتزانكس (والكلمة تعني الرجل ذو الحذاء المصنوع من جلد القربة) المدافع عنه والداعي لـــه. ووجد هذا المذهب في القســـطنطينية داعيـــاً متحمساً في شخص أثناثيوس ابن أخ الإمبراطورة ثيودوره. وفي عام ٥٦٦م اعتـــنق هذا المذهب كل من الأسقفين المونوفيزيين، كونون الطرسوسي وأوجيه من سلوقية إيزوريا .

(8) (cf. Chronique, II, pp. 190-96, 206, 268; Evêchés, pp. 130, 149, 153).

في سنة /٥٣٥م خلف ثيودوسيوس ثيموثاوس الرابع بطريركاً على الإسكندرية. وبعدها بقـــليل نقـــل إلى القسطنطينية لأنه لم يقبل قرارات مجمع القسطنطينية/ ٥٣٦م الذي أدان المونوفيـــزية. وهناك حظي بحماية الامبراطورة ثيودوره. ثم أصبح الرئيس الروحي للكنيسة المونوفيزية بعد وفاة سويروس، إلى أن توفي في ٢٢ حزيران ٥٦٦م.

(9) (cf. Chronique, II, pp. 268, 268, 284, 293, 318, 337; BARHEBRAEUS, Chronicon Ecclesiasticum, trad, ABBELOOS et LAMY, Lovanii 1872, p. 242; JEAN D'EPHÈSE Historia Eccllesiastica, trad. E. W. BROOKS, Lovanii 1936, pp. 35, 150; Evêchés, pp. 160, 168-77; DEVREESSE, op. c., pp. 75, 90-93).

يقعـــوب الـــبرادعي أصله من حاماوا شمالي تيلا في الأوسروين. كان أمين سر البطريرك ثيودوسيوس في القسطنطينية عندما طلب الأمير الغساني الحارث بن جبلة وهو مونوفيزي أيضاً مـــن الإمبراطورة أن تعين أسقفين لأتباعه الذين يدافعون عن حدود الإمبراطورية ضد غزوات العرب والفرس. فعين ثيودوسيوس كلاً من يعقوب والراهب تيودور ورسمهما أسقفين. ولقب يعقـــوب بمـــتروبوليت الـــرها، وتيودور بمتروبوليت بصرى. وكان يقوم وبدون كلل بزيارات لســـورية ليزود الجماعة المونوفيزية بإكليروس محلي. ولكن النزاعات والانقسامات الناجمة عن عـــزل بولـــس الأوكامي (الأسود) ملأت سنوات حياته الأخيرة مرارة، إلى أن توفي في دير

القديس رومانوس على الحدود المصرية في ٣٠ تموز ٥٧٨م. فاتخذ أنصاره في القسطنطينية اسم يعاقبة ليميزوا أنفسهم بوقت واحد عن المونوفيزيين الذين تابعوا مناصرة البطريرك بولس الأوكامي المعزول، وعن أنصار بطرس الرقاوي الذي انتخب مكان بولس.

(10) بولس الأوكامي أو الأسود، هو الشخصية الأكثر تعقيداً طوال فترة الصراع ضد المذهب التثليثي. ولد في الإسكندرية وصار أمين سر ثيودوسيوس في القسطنطينية. ولما أرسله هذا الأخير إلى سورية عام ٥٦٤م ذهب إليها دون أن يعرف الهدف الحقيقي لمهمته. إذ إن يعقوب البرادعي قد تلقى الأمر السري بأن يرسمه بطريركاً لأنطاكية، ولكن بولس قبل بهذا على مضض. وفي الرسالة المجمعية التي أرسلها إلى ثيودوسيوس بعد سيامته البطريركية يشكو أمره بهذه العبارات : " فكل الأقلية كانت تتوقع، بالأحرى، ألا يقع هذا البؤس فيما بينكم ".

(Documenta Mon., p. 68)

وبعد فترة طمع بولس بكرسي الإسكندرية، ويبدو أنه استولى على أموال المرحوم ثيودوسيوس. ولكي ينجو من السجن انضم مرتين إلى المجمع الخلقيدوني، ولكنه انسحب بعد ذلك ولهذا السبب أقاله خصومه وعينوا مكانه بطرس الرقاوي. وهذا الخلاف مع بطرس، الذي أدى إلى إقالته وأثار الانقسامات بين المونوفيزيين في سورية من جهة وبين المونوفيزيين في القسطنطينية من جهة أخرى،جعل يعقوب يشعر بمرارة كبيرة. وفي حديثه عن الفساد الذي عم الكنيسة المونوفيزية بشكل كبير آنذاك يصور يوحنا الافسسي بولس وكأنه "بطريرك آلهة الشر".

(ibid., p. 158)

ويقول بمرارة : "وهم الذين جعلونا نشتم منهم رائحة خلقيدونية، وكان هذا وهماً من قبلنا".

(H. E., Pars Tertia, pp. 35, 174)

قضى بولس السنوات الأخيرة من حياته متوارياً في القسطنطينية وتوفي فيها سنة/ ٥٨٤م

(cf. Jean d'Ephèse, H.E., pp. 150-58, 174-85; Chronique, II, pp. 240-42, 252, 299, 304, 318-19, 353; BARHEBRAEUS, Chronicon Eccl., pp. 235-38; L. DUCHESNE, L'Eglise au Vie siècle, Paris 1925, pp. 350-58, 361, 365, DEVREESSE, op, c., pp. 79-81; Evêchés, pp. 180-204).

(11) – ساويروس : أصله من سوزوبوليس في بسيديا. وقد اعتنق الحياة الرهبانية في فلسطين. وفي عام ٥٠٨م ذهب على رأس ٢٠٠ راهب إلى القسطنطينية ليوشي بالأب المصري نيفاليوس، الذي

طــردهم مــن أديرهم. انتخب ساويروس بطريركاً فكان البطريرك فلافيانوس الثاني الذي أقاله الإمبراطور أنسطاس. ونصب على كرسي أنطاكية في تشرين الثاني عام ٥١٢م. وبقي فيه مدة ست سنوات وهو يعمل دون كلل من أجل قضية المونوفيزية. ثم طرد وحكم عليه يوستين سنة ٥١٨م، فالتجأ إلى مصر. ونجده بعد ذلك في القسطنطينية بيــن سنتي ٥٣٥-٥٣٦م. وبعد حضــور الــبابا أغابيــه إلى العاصمة وشجب المونوفيزية من قبل مجمع القسطنطينية، انسحب ساويروس من جديد إلى مصر وتوفي هناك في ٨ شباط ٥٣٨م بدير ساكا.

cf. Concilia Gener. Eccl. Cathol., Romae 1610, II, pp. 517, 653; Chronique, II, pp. 165-70, 195, 203-221, 243; Evêques et Evêchés, pp. 25, 142-43, 152-53; DEVREESSE, op. c., pp. 69-70; EVAGRE, H. E., L. III, c. XXXIII; L. IV, c. IV. XI).

- فيلوكســين : أسقف هيرابوليس (منبج)، من أصل فارسي. ناضل بضراوة ضد البطريركين كــالانديون وفلافيــانوس الــثاني. ولم يكــل عن مقاومتهما حتى رآهما متنحيين. عمل في القسطنطينية على تعيين ساويروس بطريركاً على كرسي أنطاكية. نفاه يوستين عام ٥١٩م إلى مدينة فيليبوبوليس (شهبا) أولاً ثم إلى غانغرس حيث مات هناك عام/ ٥٢٣م على الأرجح.

(cf. Chronique, pp. 162, 171, 244; Evêques et Evêchés, pp. 19, 25, 66-68; EVAGRE, H. E., L. III, c. XXXI, XXXIII)

(12) Documenta Mon., pp. 112-113.

(13) Idem, p. 113.

(14) يبــلغ قياس المصلى الديري في قصر البنات بدانا الجنوبية ٦,٥× ١٥,٤م، وفي دير سمعــان ١٧,٤٠× ١٤,٨م، ويشير بوتلر إلى بنائين آخرين شبيهين ببناء كفر دريان.

(Publications of an American Archaeological Expedition to Syria in 1899-1900, New York 1903-1930, II, pp. 166-67). Cf. Villes Mortes, p. 92.

(15) Villes Mortes, p. 92.

(16) Villages Antiques, I, p. 171.

(17) Idem, p. 279.

(18) Idem, p. 171; Villes Nortes, p. 93.

(19) لاحــظ الأب فان برشيم خلال رحلته عام ١٨٩٥م أنه في القسم الجنوبي من القرية يوجد أفضل بيت بيزنطي محافظ عليه.

(VAN BERCHEM ET FATIO, Voyage en Syrie, Le Caire 1913, I, p. 69)

(20) كـــان عــدد ســكان كفــر دريــان عـــام ١٩٤٥م يــلغ ٦٣٠ نســمة
(Répertoire Alphabétique des noms de lieux habités, publié par le Service Géographique des F.F.L., Beyrouth 1945, p. 94).

وقد ورد اسم هذه القرية مرتين عام /١٤٦٦م في السجلات الرسمية لأمير حلب حول الأوقاف والهبات النذرية.

(cf. J. SAUVAGET, Alep, Paris 1941, p. 261, n. 1.3.

(21) WRIGHT, op. c., p. 706, 31; Documenta Mon., p. 120.

(22) Villages Antiques, III, App. III, pp. 80, 8198.

(23) Idem, ibidem, pp. 66, 67, 95, 87, 79, 96; Sanctuaires Chrétiens, p. 277; LEROY, op. c., p. 184.

كـــانت الطـــريق التي تصل سهل قنسرين مع سهل الروج وسهل الغاب، ومع مدينة اللاذقية تمر في كفر يحمول .

(cf. C. CAHEN, La Syrie du Nord au temps des Croisades, Paris 1940, p. 156, n. 20)

(24) كـــلمة " أبو " أي الأب تستخدم في العامية لتشير إلى العلاقة بين شخص وشيء ما لتمييز هذا الشخص عن الآخريـــن. فرجـــل لـــه قبعة غريبة يلقب "بأبو قبعة". وبائع الكوسا يلقب "بأبو الكوسا". إلخ..

(25) S. JOHAN. CHRYSOSTOMI Hom. Matth. XXXIII: "Super cathedram Moysis sederunt" "عـــلى كرسي موسى يجلسون" (Bibl. PP. Concionatoria 1662, p. 447) THEODORETI EP. CYRENSIS Historia Religiosa, c. XXX (MIGNE, P. G. IXXXII).

(26) Cf. WRIGHT, op. c. pp. 705, 29; 706,31; 708, 32 et 35; Documenta Mom., pp. 89, 91, 101, 113, 119, 120, 126; Villages Antiques, III, p. 85.

(27) WRIGHT, op. c., p. 705, 26-27; Documenta Mon, pp. 108-9.: "Exemplar syndoctici quod factum est inter nos et eos qui sunt e parte venerabilis Mar Cononis"; Evêques et Evêches, p. 184.

عقد مجمع مثالي فيما بيننا وبينهم وضم، بشكل خاص، الموقر البابا مار تيودور كونون .

(28) Documenta Mon., p. 116.

(29) Idem, ibidem.

(30) Idem, p. 117.

(31) Les Evêques dont parle le ducument sont: Jean d'Ephèse, Eunomios, Etienne, Elisée et Ptolomée. Tous furent exilés à Constantinople; de là, après la mort du Patriarche Théodose, ils présidèrent au destin du Monophysisme. Le monastère de Mar Zakkaï se trouvait dans les environs de Callinique, aujourd'hui Raqqa.

الأســاقفة الذيــن تتحدث عنهم الوثيقة هم : يوحنا الإفسسي، أونوميوس، إسطفان، إليشــاع، وبــتولوميه، وكــلهم قــد نفوا إلى القسطنطينية، ومن هناك بعد وفاة البطريرك تيودسيوس، تولوا مصير المونوفيزية. أما دير مار زكا فيوجد في نواحي كالينيك، الرقة حالياً.

(32) Documenta Mon, p. 117.

(33) Idem, p. 116.

(34) Idem, p. 118.

(35) Idem, pp. 119-20.

(36) في عام /١٩٤٥ م لم تكن تقاد تعد إلا/ ٦٥٠ نسمة.

En 1945, Toqad ne comptait que 650 habitants (Repertoire Alphab., p. 194).

(37) R. DUSSAUD,Topographie historique de la Syrie, Paris 1927, pp. 221, 485.

حتى عام ١٨٦٠م. كان المسافرون من إسكندرون إلى حلب يسلكون هذا الدرب الترابي. يروي ف. فاراسيس أنه في طريقه إلى حلب أمضى الليل في تقاد.

(Souvenir de Syrie- 1860-1861, Milan 1861, p.136)

(38) Les paysans de la région Ouest d' Alep appellent SOM'AT toute colonne ou pilier de la hauteur de deux ou trois mètes.

الفلاحون في المنطقة القريبة من حلب يطلقون تسمية صومعة على كل عمود أو قاعدة بارتفاع مترين أو ثلاثة .

(39) Nous appelons MANDRA l'enclos au milieu duquel s'élevait la colonne du stylite, et qui était muni d' une balustrade. Il ne faut pas confondre la mandra avec l'esplanade où se tenaient les pèlerins. Pour le mot MANDRA, cf. A. J. FESTUGIÈRE, Antioche paienne et chretienne, Paris 1959, p. 351 n. 1, p. 497n, 1 et p. 498 n. 6; LASSUS, Sanctuaires Chrétiens, p. 284; J. LAFONTAINE- DOSOGNE, Itinéraires Archéolo- giques dans la Région d'Antioche. Recherches sur le Monastère et sur l'iconographie de St. Siméon le Jeune, Bruxelles 1967, p. 83n. 4.

(40) – إرحاب : سنتحدث عنها فيما بعد. سحرت: اسمها اليوم صحارى وهي قرية جنوب غرب تقاد – دير عَمان : مجموعة خرائب غربي تقاد. كفر كرم : هي كفر كرمين الحالية القريبة جداً من أتارب.

(41) Topographie historique, pp. 220, 435; R. GROUSSET Histoire des Croisades, Paris 1934, I, p. 553.

(42) WRIGHT, op, c., 706,31; Documenta Mon., p. 116; Villages Antiques, III, pp. 80, 81, 94, 119, 120; J. NASRALLAH, Couvents de la Syrie du Nord portant le nom de Siméon, dans Syria (1972), pp. 156-7; Sanctuaires Chrétiens, p. 277; LEROY, op. c., p. 184.

(43) Villages Antiques I, pp. 134-136, 154; FESTUGIÈRE, op. c,. c. 312.

(44) H. R., XXVI.

(45) Chronique, II, p. 171.

(46) Documenta Mon., pp. 87, 89, 101, 113, 126, 128.

(47) Chronique, II, p. 419.

(48) WRIGHT, op. c., pp. 595-604; cf. Chronique, II, p. 472.

يعقـــوب الرهاوي، من أكبر لاهوتيي الكنيسة السريانية الأورثوذكسية ولد في عين دابـــا، حالياً عين دية في منطقة جوما، على بعد ٥ كم شمال عفرين، اعتنق الحياة الرهبانية في قنسرين (كالسيس)، وهي نبي عيسى الحالية. رسم أسقفاً للرها عام ٦٨٤م. وبعد أربع سنوات تـــرك كرســـي الرها بسبب المعارضة التي وجدها فيها. فانزوى أولاً في دير كيسوم في منطقة الفرات الشمالية، ثم في تيليدا في دير أوسبينوس، وفي الدير الكبير، ومن هنا دعي من جديد إلى كرســـيه الأســـقفي عام ٧٠٨م. ولكن الموت داهمه وهو في الطريق إلى تيليدا التي رجع إليها ليسترد منها مخطوطاته. فدفن رهبان تيليدا جثمانه في المقبرة الديرية التابعة لديرهم الكبير .

(cf. Chronicon Eccl., I, p. 259).

(49) Cf. Villages Antiques, I, pp. 135-36.

(50) يسمي المؤرخون العرب تيليدا، تيلا أغدي. واليوم اسمها تلعاده، ويبلغ عدد سكانـــهـــا أكثر من ألف نسمة يعيشون على الزراعة .

Teleda est appelée Tella Aghdi par les historiens arabes. Aujourd'hui elle porte le nom de Tell 'Ade et compte près de mille habitants vivant d'agriculture.

(51) Chronique, III, p. 124.

(52) Villages Antiques, I, p. 129.

(53) Le mot AFIEROMA se lit souvent sur les icônes offertes aux églises; il est parfois suivi du nom du donateur. On nous a montré dernièrement une image sur toile de l'Evangéliste St. Marc; il s'y trouvait écrit : (Afieroma Stavron Triantafillou)

كثيراً ما نجد كلمة (AFIEROMA - تقدمة) على الأيقونات المقدمة للكنائس، وفي بعـــض الأحيـــان يـــليها اسم مقدم الأيقونة. وقد اطلعنا مؤخراً على صورة قماشية لإنجيل القديس مرقس وقد كتب عليها باليونانية. (تقدمة ستافرو تريانتافيللو) .

(54) La même chose se retrouve a Bafittin (église Est) sur la colonne placée au fond du bas- côté sud.

ونـــرى الشيء نفسه في كنيسة بافتين- الكنيسة الشرقية- على عمود موضوع في آخر الطرف السفلي الجنوبي .

(55) Athareb ou Terib, l' antique Litarba romaine, à 300 stades à l' Est d' Antioche, est aussi la Cerep des Croisés. La route Antioche -Bérée- Chalcis – Apamée y bufurquait au Nord de la plaine de Chalcis et au Sud du Dj. Srir, et y rejoignait la route venant de Lattaquié à travers le Djazar et le Roudj.

أتـــارب أو تيريـــب هي ليتاربا الرومانية القديمة، تقع على بعد /٣٠٠ كم شمال شرقي أنطاكيـــة، وهـــي أيضـــاً سيريب عند الصليبيين. وعندها كان يفترق طريق أنطاكية – بيريه – قنســـرين- أفاميا، شمال سهل قنسرين وجنوبي جبل سرير. لتتصل مع الطريق القادمة من اللاذقية مروراً بالجزار والروج .

(56) Chronique, II, p.260.

(57) A la fin du ch. XX du livre XI, à la page 500, nous lisons: "Aussi Jean le temps, livre que nous avons aussi résumé dans le présent ouvrage jusqu'ici".

في نهايـــة الفصل 20 المجلد 11 الصفحة 500 نقرأ "لقد أنهى هنا يوحنا عمودي ليتاربا الكتاب الذي وضعه عن الأزمنة وقد قمنا نحن أيضاً بتلخيص هذا المؤلف حتى هنا " .

(58) F. NAU, Cinq lettres de Jacques d'Edess à Jean le Stylite (Revue de l' Orient Chrétien, Paris 1909), pp. 428, 434.

(59) IDEM, ibidem, 1900, p. 588.

(60) IDEM, ibidem, 1909, p. 428.

(61) WRIGHT, op. c., p. 988,36.

(62) p. 12: "Anno 1049 (de l'Ere Séleucide) defunctus est Mar Thomas ep. Harran, et Mar Theodorus Samosatae, et Mar Theodotus Germaniciae et Mar Johannes Stylita Litarbae".

في الصـــفحة 12 نقـــرأ : "سنة 1049- من التقويم السلوقي- توفي كل من مار توما أســـقف حـــران، ومـــار تيودوروس الساموسياطي، ومار تيودوتوس الجرماني، ومار يوحنا عمودي أتارب".

(63) يطلق اسم التيجان السورية على التيجان التي تؤلف كتلة واحدة مع الجزء العلوي للعمود، أو عـــلى الركيزة التي لها إفريزان ويستقر عليها طرف العارضة فوق العمود. وغالباً ما كانت

هذه التيجان تزين أعمدة الأروقة في الأديرة، وأحياناً الأعمدة في الكنائس، وتنتشر في كل مكان تقريباً، في جبل الزاوية، وجبل باريشا، وجبل سمعان.

(cf. Villes Mortes, pp. 40-41; cf. également L,article Ricerche sul villaggio di Ghassanieh dans Collectanea du Centre Franciscain d'Etudes Orientales Chrétiennes, Le Caire 1970- 71, n° 14, pp. 16-18)

(64) Documenta Mon., p. 120.

(65) IBNU- L- op. c., II, pp. 78, 194, 198, 204.

(66) IDEM, ibidem, pp. 156, 191, 210, 221, 259, 270; IBNU-L-ATHIR, al- Kamel fit- Tarikh, Le Caire 1935, VIII, pp. 311-31; Topographie historique, pp. 190, 219, 220; GROUSSET, op. c., I., pp. 63; CAHEN, op. c.,pp. 123, 219-28, 272-95, 355-63.

في الصفحة ٢٧٠ من "تاريخ حلب" يروي ابن العديم: "في الثالث من شهر صفر احتل عمـــاد الدين زنكي أتارب. وفي اليوم الثالث عشر من نفس الشهر الموافق يوم الخميس أصابت المدينة زلزلة قوية. فتساقطت الجدران وملأت الشوارع بالحجارة. لقد اهتزت أتارب بكاملها، وزهقت أرواح ستمائة مسلم – وهذا يعني : جنود القلعة –، و لم ينج من الموت إلا القائد وبعض الأشخاص. لقد شوهدت الأرض تموج والحجارة تتراقص كالحب في الغربال" .

وهكـــذا فـــتدمير القلعة الذي ينسبه ابن الأثير إلى عماد الدين زنكي، قد يكون بالأحرى بسـبب الهـــزة الأرضـــية، وقد ضربت الهزات أتارب ودمرتها سنة /١١١٣م عندما كانت بيد الصليبيين (راجع : ياقوت الحموي، معجم البلدان) .

(67) في سنة ١٩٤٥ م كانت أتارب تعد ١٩٠٣ نسمة

(Répert. Alph., p. 16).

(68) Topographie Historique, p. 230; CAHEN, op. c., p. 139; Villages Antiques, III, pp. 103, 125; DELEHAYE, op. c., p. CLI;

يـــروي ابـــن العديم (ص ٩١) أنه سنة ١٠٨٥ م كانت نواحي قورزاحل مسرحاً لمعـــركة داميـــة جـــرت بين سليمان بن قلطاميش أمير أنطاكية، ومسلم بن قريش العقيلي (شـــرف الدولة) أمير حلب، ويضيف ابن العديم أن هذا الأخير قد لقي حتفه فيها. (راجع ياقوت الحموي ، ٣٢٣) قور زاحل هي درع الصليبيين .

(cf. H.LAMMENS, Le Massif du Gabal Sim'ân, M. F.O., II, 1907, p. 384).

(69) Chronique, III, p. 119.

(70) IDEM, ibidem, p. 124. BARHEBRAEUS, qui s'appuie sur le texte de Michel le Syrien pour la rédaction de son Chronicon. (I, pp. 336,400), emploie pour ainsi dire les mêmes mots quand il parle de l'élection des deux Patriarches. CHABOT (Chronique, p. 124n. 4) écrit: "Le 31 janvier 957 était un samedi".

إن ابـــن العبري الذي يستند على نص ميخائيل السوري لكتابة تاريخه المعروف بـــ "الكرونيكون"، يستخدم، إن صح التعبير، نفس الكلمات عندما يتكلم عن انتخاب البطريركين.

(Chronicon I . PP 33)

ويكتب شابو في تاريخه : "كان يوم ٣١ كانون الثاني عام٩٥٧ يوم سبت"، ودوليتشه هي عينتاب الحالية .

(Chabot . Chranque, P. 124 N. 4)

(71) "Les couvents des stylites de la région, connus par les textes ou par les monuments, sont à Kimar, à Qurzahil, à Qal'at Sim'an, à Terib, à Kafr Yahmoul et à Toqad".

حيث نقرأ : إن أديرة عموديي المنطقة الذي تعرفنا عليهم من خلال النصوص أو الآثار، موجودة في قيمار، قورزاحل، قلعة سمعان، كفر دريان، أتارب، إرحاب، كفر يحمول، تقاد.

(72) J. MOSCHOS, Pratum Spirituate, c. XXXVI (MIGNE, P. G., LXXXVII). Ceci dut avoir lieu durant l'hiver 536-37, alors qu'Ephrem visitait la partie orientale de son Patriarcat.

جـــرى هـــذا خـــلال شتاء ٥٣٦-٥٣٧م، عندما كان أفرام يزور المنطقة الشرقية من بطريركيته.

(73) EVAGRE, H. E., 302, A, 1.

(74) Chronique, II, p. 174.

(75) Evêques et Evêchés, pp. 7-9, 15, 21, 142-43; cf. EVAGRE, H. E., 386, B, 3.

(76) Chronique, II, pp. 170-76, 179; DEVREESSE, op. c., p. 72. Flavien II, adversaire de Philoxène, avait également été traité de "juif" (cf. Evêques et Evêchés, p. 148 n. 4). Plus trad le Patriarche Ephrem le fut à son tour (cf. Chronique, II, p. 246). Quant à Euphrose, il ne fut qualifié que de "samaritain"!

وقـــد نعت أيضاً فلابيانوس الثاني، خصم فيلوكسين، بـــ "اليهودي". وفيما بعد نعت بدوره البطريرك أفرام بـــ "اليهودي" أيضاً. أما أوفروسيوس فقد نعت بـــ "السامري" فقط .

(77) JEAN D'EPHÈSE, H. E., p. 35, Historia Eccl. ZACHARIAE RHETORI adscripta, Lovanii 1924, II, p. 118: ".. (Ephrem et Clementinus) alios extruxerunt et de regione in regionem expulerunt.. et fuit tribulatio hominum ob mala in

regionibus diversis quo relegati erant" ; cf. Chronicon Anonymum, Lovanii 1937, p.5; cf. également Vitae virorum apud Monophysitarum celeberrimorum, auctore ELIA, Parisiis 1907, pp. 42-57; Chronique, p. 190: "puis Euphrosius, le persécuteur.., après lui Ephrem encore plus méchant", et à la p. 208: ".., le maudit Ephrem prit la fuite"; cf. Evêques et Evêchés, p. 149.

"ونقرأ في الصفحة/١٩٠ " ثم أوفروسيوس المضطهد.. . وبعده أفرام الأكثر خبثاً أيضاً

ونقرأ في الصفحة/ ٢٠٨ " .. . أما أفرام الملعون فقد هرب" .

(78) Cf. J. NASRALLAH, L'orthodoxie de Siméon Stylite l'Alépin et sa survie dans l'Eglise melchite, dans Parole de l'Orient, II (1971), p. 358.

(79) Villages Antiques, I, pp. 211-219; III, pp. 92, 119. Cf. VAN BERCHEM, op. c., I, p. 67; FESTUGIÈRE; OP., P. 312.

(80) إن ما يقوله يوحنا فم الذهب ينطبق تماماً على تل نيشين: "إن الرهبان وهم كمصابيح تضيء الأرض كلها، يحمون بصلواتهم أسوار المدينة ".

(F. COMBEFIS, Bibliotheca PP. Concionatoria, Parisiis 1662, II, Hom. in Matth, XXIII, p. 447)

(81) Le Répertoire Alphab., à la page 51, nous dit qu'en 1945 le village était toujours inhabité .

يظهر لنا الفهرس الأبجدي ص/١٥ أن القرية في عام ١٩٤٥ لم تكن مأهولة بعد

(82) Cf. Villages Antiques, III, pp. 99, 122; H. LAMMENS, Le Massif du Gabal Sim'ân, dans M. F.O, II, 1907, pp. 367, 382, 385.

(83) Villages Antiques, I, p. 109 in nota, p. 391. Il est certes intéressant de visiter les églises et l'endroit où vécut le stylite; mais sont également dignes d'intérêt la tombe tétrastyle, qui se trouve à l'ouest de la basilique du Vie siècle, une porte ornée de cinq beaux symboles chrétiens et la villa, situées au Nord- Quest des ruines.

إنه من المهم زيارة الكنائس والمكان الذي عاش فيه العمودي، لكن من المهم أيضاً زيارة القـــبر المربع الواقع غرب الكنيسة التي تعود إلى القرن السادس، والباب المزين بخمسة رموز مسيحية جميلة، والفيلا الواقعة كلها شمال غربي الخرائب .

(84) L'inscription publiée par le P. Lammens nous apprend que Kimar était un centre monophysite et que l'église du VIe. s. a été bâtie en l'an 621 de l'Ere d'Antioche (LAMMENS, op. c., pp. 385, 395).

إن الكتابة التي نشرها الأب لامانس، تدل على أن قيمار كانت مركزاً مونوفيزياً، وأن كنيستها التي من القرن السادس قد بنيت عام ٦٢١ بحسب التقويم الأنطاكي.

(85) Sanctuaires Chrétiens, p. 277.

(86) Villages Antiques, I, p. 163, 171. Cf. Sanctuaires Chrétiens, pl. XLIII et XLV. Les portiques n'existent plus aujourd'hui.

(87) Idem, ibidem, pp. 168 n. 1,171.

(88) Cf. THÉODORET DE CYR, H.E., c. II, IV; ETHÉRIE, Voyage, Paris 1964, pp. 175, 184.

تكريم العموديين والرسوم التي تمثلهم

الأب روموالدو فرنانديز الفرنسيسكاني

إن القديـــس ســـمعان، بفكرته العبقرية بأن يعتلي عموداً لينفصل بشكل أفضل عن الناس، أسس بشكل لاشعوري الحركة العمودية، التي وصفت لنا أهميتها الصفحات السابقة. وإن هذا النمط الفريد من التوبة، الذي اتخذته هذه الحركة الرهبانية النسكية، أثار وسط الشعب المسيحي إعجاباً وحماسة لا مثيل لهما. واعتبر سمعان شخصياً بمنزلة الأب والمثال، لتلاميذ عديدين، وأصبح مكان ممارسته للعبادات والإماتات مركز حج على المستوى العالمي .

تميل عقليتنا الحديثة إلى الحكم على حياة العموديين بشيء من السخرية، لكوننا لا ندرك إلا بصعوبة هذا الشكل من الاستعراض على عمود. ولشرح هـــذا الـــنمط، لا ينـــبغي فصله عن الإطار التاريخي والجغرافي الذي ولد وترعـــرع فيه. وهناك نقطتان تلفتان الانتباه: الأولى هي الطابع الخاص جداً للرهبـــنة الســـورية، الـــتي قـــد أبدعت أكثر أشكال الحياة فرادة في الشرق المسيحي لممارسة التوبة. والنقطة الثانية هي حكم معاصري العموديين، أي الطريقة التي رأوا فيها حياتهم، وكيف كرموها .

فـــي هذه الدراسة سنحلل هذا التكريم، الذي كان يؤديه الشعب المسيحي لـــلعموديين في القرون الأولى للميلاد. وسنحصر دراستنا في العهد الذهبي لـــلعمودية. هذا العهد، الذي بدأ باعتلاء سمعان الكبير لعموده، وانتهى بموت سميه سمعان الصغير .

الفصل الأول

تكريم العموديين خلال حياتهم

عـــندما اختلى سمعان الكبير على جبل قلعة سمعان، وأوثق قدمه إلى حجر كبير، بوســـاطة سلسلة طولها عشرون ذراعاً، حتى لا يخرج عن الدائرة التي حددها لنفسه، كـــان عـــندها يتمـــتع بشهرة كبيرة بين الناس. يقول تيودوريطس القورشي عن هذه المرحـــلة من حياة سمعان : "لقد ذاع صيته في كل مكان، وتوافدت الجموع إليه، ليس فقـــط مـــن المناطق المجاورة، بل أيضاً من مناطق بعيدة المسافة، تحتاج إلى عدة أيام لاجـــتيازها. فمنهم من كان يحمل المشلولين، وآخرون يطلبون الشفاء لمرضاهم.. وإذا مـــا حصـــلوا على هذه النعمة يرجعون فرحين ممتنين. وعندما يحدثون عما نالوه من خيـــرات، يـــندفع آخـــرون كثر لطلب هذه النعمة. فكان إقبال الزوار كبيراً، مما جعل المكـــان يشبه مجرى نهر بشري يصب فيه عدد لا متناهٍ من البشر الآتين عبر مختلف الطـــرق ومن كل الأطراف ولا يتدفق فيه أهل المنطقة فقط بل أقوام من الإسماعيلين، والفرس، والأرمن، والإيبريين[1]، والحميريين[2]، وغيرهم من أماكن أبعد وكان الناس يجيئون أيضاً من أقصى الغرب: إسبانيون وبريطانيون إنكليز، وغاليون[3]. ويحكى أنه فـــي مديـــنة رومـــا العظيمة بإيطاليا، وضع رجل مشهور على جميع مداخل حوانيته أيقونات صغيرة لسمعان حتى ينال بها الأمان والحماية.

---

(١) الإيبريون : كانوا يسكنون المنطقة الممتدة بين البحر الأسود وبحر قزوين. وشبه جزيرة إيبريا هي إسبانيا.

(٢) الحميريـــون : نسبة إلى حِمير وهم قبيلة عربية يمانية، أبدعت حضارة، وأقامت دولة قوية في اليمن كانت عاصمتها ظفار. وربما كانت التسمية هنا للدلالة على عرب الجنوب اليمنيين تمييزاً لهم عن عرب الشمال الإسماعيلين .

(٣) الغاليون: سكان غاليا التي هي فرنسة اليوم .

ولأن القادمين إليه كانوا كثيرين جداً، والكل يريد أن يلمس معطفه المصنوع من الجلد ليحصل منه على البركة، قرر الارتقاء على العمود[1].

ويدل هذا الاستشهاد الطويل أن سمعان كان ناسكاً شعبياً قبل أن يعتلي العمود. ومع ذلك هذا النوع الجديد من الإماتة، الذي أراد أن يقوم به سيزيد إعجاب الشعب به وتكريمهم له، وسيتحول العمود إلى مركز جذب عالمي، حيث ستلتقي عنده كل أنواع الأمراض والحاجات الإنسانية. ومع ذلك هناك قسم من الإكليروس، وهم المحافظون على التقاليد، قد أظهروا العداء لهذه الخطوة في البداية[2].

وقد جاءت مجموعات من البادية السورية، وهم من البدو، ليزيدوا من شعبية سمعان، فهؤلاء الناس البسطاء والبدائيون يصلون بالألوف إلى أسفل العمود لينظروا بإعجاب إلى صفيّ الله، وليحلوا نزاعاتهم بخصوص المراعي، وسيكون العمودي بالنسبة إليهم بمنزلة "المصباح الذي يضيء على منارة "[3]. وقد ذاعت شهرة عجائب سمعان، فوصلت إلى ملك الفرس، الذي رغبت زوجته في الحصول على زيت مبارك من العمودي. والأتقياء في البلدان البعيدة راحوا يطلبون من القديس سمعان الزيت المبارك مقابل دفعهم النقود، وذلك بوساطة مرافقي القوافل والجنود والمقربين من العمودي[4].

ابتدأت العمودية مع القديس سمعان، حيث قام مئات النساك يقلدون هذه الطريقة الجديدة من التوبة. وإن شعائر التكريم والتقديس، التي كانت تقدم في البدء لشخص سمعان الكبير، اتسعت لتشمل العموديين كافة، لأن الدعوة العمودية اعتبرت علامة قداسة. وفي كل أماكن العموديين التي زرناها في سورية، ومن خلال البقايا الأثرية، لمسنا دلائل الإجلال الشعبي وشعائر التكريم والتقديس، التي كانت تؤدى لهؤلاء النساك العموديين، سواء في أثناء حياتهم أم بعد مماتهم .

فقد مارسوا تأثيراً كبيراً، ليس فقط في مجال الشؤون العامة – علاقات ومراسلات مع الأساقفة ومع الأباطرة أيضاً – بل في ألف قضية وقضية من قضايا الحياة العامة. نراهم إلى جانب السلطة الكنسية السورية في اجتماعات باتبو. وقد رفعت تواقيعهم من شأن الرسالة التي شجبت مذهب التثليث الإلهي[5].

إن نمـــط حياة العموديين، مع كل ما يتضمنه من تعارض مع متطلبات الطبيعة البشرية، قـــد سحر خيال مسيحيي ذلك الزمان. وقد بدا لهم العموديون كمخلوقات فائقة التكوين، أو أنهم مـــن عالم الأرواح كلياً، وبشكل أدق، اعتبروهم ملائكة في جسد ميت(6). وهذا إيفاغر يقول فـــي ســـمعان الكـــبير : "عاش مثل ملاك في جسم ميت، وعلى خلاف قوانين الطبيعة التي تجذب الأشياء نحو الأرض بحكم وزنها، ارتفع هو ما بين الأرض والسماء" (7).

ومـــن جهـــة أخـــرى، كـــان العمودي يمثل خلاصة المفاهيم المختلفة عن الحياة الرهـــبانية فـــي العصور الأولى "فالعمودي مستقر، إذ يعيش ساكناً على عموده. وهو حـــبيس، إذ يفـــرض عـــلى نفسه البقاء طوال سنوات، معتزلاً في مساحة محصورة. ويعيـــش فـــي الوقـــت نفسه بعيداً عن الناس على عموده، ووسط الناس، فكل عمودي أصبح موضوعاً للتكريم فيه الكثير من الإفراط والتعصب"(8).

وكان العمودي رسولاً أيضاً. فقد استفاد من فرادة تنسكه ليعظ المؤمنين، ويذكرهم بواجـــبات الحياة المسيحية، وليهدي الوثنيين. ولكن، بشكل خاص، كان العمودي شهيداً "فقـــد طـــلب الإمـــبراطور ثيودوسيوس[٤]من الشهيد العمودي الكلي القداسة - القديس سمعان- أن يصلي إلى الله من أجله"(9).

إنـــه شهيد بسبب حياة الإماتة التي يعيشها، وما يقوم به من أعمال تقشف رهيبة. فعندما رأى الإماتات الرهيبة، التي يقوم بها القديس سمعان الصغير، قال له معلمه: "لم يبق لك إلا أن تأخذ سيفاً وتقتل نفسك"(10). ولقد كان القديس سمعان الكبير أول ناسك يصـــبح موضوع تكريم خاص كالشهداء مع كل ما يتضمنه ذلك من : تقديس الذخائر، حمـــل بركاته، الدهن بالزيت المبارك، الحج إلى قبره، وهلم جراً. وهناك في رفادة[٥]،

---

(٤) ثيودوســـيوس : هو ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠م) وحفيد ثيودوسيوس الأول. أبعد أركاديوس وخلفه في الحكم. تأثر برأي زوجته أفدوكيا وبأخته، فاتبع مذهب نسطور، ودعا إلى عقد مجمع أفسس الذي خذله. أسس جامعة القسطنطينية ٤٢٥م، وأمر بجمع القوانين التي عرفت بالقانون الثيودوسي.

(٥) رفـــادة : بلدة أثرية بائدة في هضبة حلب، شمال شرقي جبل سمعان، تبعد ١,٥ كم عن بلدة القاطورة الأثرية. ازدهرت في القرن الثاني الميلادي حتى السابع الميلادي، فيها مبان ضخمة وبرج مراقبة، لا يزال معظمها قائماً حتى اليوم .

وهـــي قـــرية صغيرة على بعد كيلو مترين من الجبل المقدس، نقش أثري يسمي مار سمعان بكل بساطة " القديس الشهيد ". وقد بنوا على اسمه كنائس خاصة بالشهداء .

وقـــد تميـــز العمودي خاصة بقيامه بالعجائب. فوفقاً لكتاب سير العموديين، كان كـــثيراً مـــا يجذب الجموع نحو العمود هو قدرة العموديين على صنع المعجزات، وقد أشـــرنا إلى ذلـــك فـــي معرض الحديث عن القديس سمعان الكبير. وفي أسفل عمود القديـــس دانيـــال شـــفيت ابنة الإمبراطور، وأنقذ شخص من المس بالشياطين، ونالت الإمـــبراطورة نعمة الأمومة. وبلغت القدرة العجائبية لدى دانيال درجة كبيرة حتى إن شخصاً اسمه هيباسيوس، حصل على كتابات وزيت مبارك من هذا القديس، كان يشفي في بيته كل مريض يلمس هذه الذخائر الثمينة(11).

وحكايـــات الشـــفاءات الـــتي نمـــت على يد القديس سمعان الصغير تكاد تلامس الأســـطورة : "إن جموع المرضى والممسوسين الذين يأتون طالبين الشفاء تزداد يوماً بعـــد يوم، مما حمل القديس على الاستعانة بتلاميذه، فأعطاهم قضباناً صغيرة مباركة، فعمـــلوا بها مختلف أنواع الشفاءات"(12). ويروي كاتب سيرة هذا العمودي حالة كاهن جورجـــي ذاع صـــيته لمـــا كان يجريه بوساطة مذخر وضع فيه بعض شعرات من القديـــس، وبمجرد لمسه كانت تتم عجائب لا تحصى. فالقديس يشفي بالإقبال عليه، أو بالعصا، أو بالرؤيا، أو بلمس التراب المقدس(13).

فالشـــعب المســـيحي كان يؤدي شعائر التكريم للعموديين وهم على قيد الحياة. إذ إنهم يعتبرون مثل ملائكة على الأرض وشهداء ورسلاً وهم أول من حصلوا، من بين النساك، على التكريم المخصص للشهداء وحدهم. وكانت تتم الاستغاثة بالقديس مباشرة لطـــلب حمايته، أو عن طريق ذخائره، أو بوساطة الشموع المضاءة لـــه أو صوره. فهـــذا عامل من أنطاكية قد شفي بشفاعة القديس سمعان الصغير، فطلب أن يُرسم على بـــاب بيـــته أيقونة للقديس، عرفاناً منه بالجميل الذي حصل عليه، وفرض على نفسه واجب القيام بتزيين الأيقونة بالشمعدانات والثريات(14).

إذن فـــلقد اعتبر العموديون خلال حياتهم الأرضية الفانية مثل قديسين يشاركون، مـــنذ الآن بالـــتحول المقـــدس في السماء. فهم من سكان أورشليم السماوية، وذلك من خلال عيشهم في الأعالي على أعمدتهم .

الفصل الثاني

تكريـــم الرهبـــان للعمـــودي

هـــذا المشـــهد غير المألوف، للعمودي على عموده، أثار وسط الشعب المسيحي، فضـــلاً عن الإعجاب، الرغبة في الاقتداء به. وعادة كان يبدأ الأمر بزائر أو فضولي يـــتأثر بـــنموذج الناســـك المتعـــبد، فيقرر للحال أن ينذر نفسه لله. ومع الزمن تتألف مجموعـــة مـــن التلاميذ تحت أقدام العمود. وهي جماعة تتخذ من العمودي قدوة لها، ومرشـــداً روحيـــاً. وهـــذا ما فعله ضابط في الجيش الإمبراطوري اسمه تيطس، فبعد زيارتـــه للقديس دانيال العمودي " لم يشأ مغادرة السياج – المندرا – وصرف جنوده، بعدمـــا وزع عـــليهم ما يملكه. وأعلن اثنان منهم أنهما لن ينفصلا عن قائدهما. فلبس ثلاثتهم الثوب الرهباني "(15).

وكـــان عـــدد تلامذة القديس سمعان الكبير كبيراً جداً في أثناء حياته. وعند وفاته "قاوموا بالقوة قائد جيش أنطاكية، ومعه بضع مئات من الجنود، عندما أرادوا أن ينقلوا عـــنوة جـــثمان العمودي إلى أنطاكية. وبعدها ببضع سنوات بنيت الكاتدرائية الكبيرة حـــول عموده، ومعها الدير الرحب للاهتمام بالكاتدرائية، وتأدية الشعائر الدينية فيها. ثـــم، وفـــي سفح الجبل المقدس، هذا المسرح الذي شهد إماتات القديس وتقشفه، بنيت "المديـــنة – الديـــر" لخدمـــة الحجاج. وسميت فيما بعد " دير سمعان ". وأمر القديس سمعان الصغير ببناء دير بجانب عموده، وفق مخطط رسمه له ملاك"(16).

وحـــول عمود القديس أليبيوس تكونت جماعتان رهبانيتان، إحداهما من الرجال، والأخـــرى مـــن النســـاء. وعاشت الجماعتان منفصلتين، ولكنهما كانتا تتلوان، سوية،

وبـــرفقة العمـــودي الفروض الإلهية[17]. وفي كفر دريان وعلى بعد بضعة أمتار من عمـــود العمودي مار يونان، انتصب دير لا يزال قائماً حتى اليوم، ويطلق عليه أهالي القرية اسم "الدير". وكذلك كان شأن عمود قيمار، وعمود الأتارب، وهلم جراً .

لقد تمتع العموديون بقدر كبير من الأهمية، حتى إن الأديرة كانت غالباً ما تتفاخر بوجـــود عمود لعمودي داخل حرمها. وإلى جانب الأسباب النسكية، فالدير الذي يضم عموديـــاً، يصبح قبلة لحج أهالي المنطقة. ومن الجدير بالذكر أن من أهم أسباب هيمنة ديـــر مـــار باســـوس في باتبو كان، في الحقيقة، العلاقة التي قامت بين مؤسسة مار باسوس وأبي العموديين .

وعـــلى غرار مسيحيي ذلك العصر، قام عدد من الرهبان بالحج إلى الأماكن التي كـــان يسكنها قديماً عموديون. ويشير التاريخ الكنسي إلى حادثة شهيرة محزنة، وهي حج بضع مئات من الرهبان الأرثوذكس (*) من منطقة أفاميا إلى عمود القديس سمعان الكـــبير عـــام ٥١٧ م. وقد هاجمهم المونوفيزيون في كفر كيرمين وقتلوا منهم ٣٥٠ راهباً[18].

(*) يقول الأب بطرس ضو أن هؤلاء الرهبان القتلى كانوا من الموارنة. (تاريخ الموارنة، ٢ / ١٠) .

الفصل الثالث

ذخائـــر العمـــوديين

نعـــرف أن الكنيسة بدأت بتكريم أجساد الشهداء منذ الأزمنة الأولى من تاريخها. غيـــر أن هـــذا التكريم ازداد في أثناء الاضطهادات الأخيرة فشيدت الصروح الرائعة فوق قبورهم. ولم يقتصر التكريم على أجساد الشهداء فقط، بل شمل أيضاً كل ما كان عـــلى اتصال بهم، أو على تماس مع عظامهم. وقد اعتاد الحجاج الذين يزورون قبور الشـــهداء عـــلى عـــادة تبريكية، وهي أن يجلبوا معهم تذكاراً دينياً : قطعة من ثيابهم، بعـــض الشـــعرات، زيتاً مباركاً، صورتهم، أو أي شيء يذكرهم بوجود القديس الذي ســـيحميهم. وكـــانت أثمـــن هذه الذخائر، بطبيعة الحال، جسد القديس بالذات. فلم يكد يعـــرف بوفاة القديس سمعان الكبير حتى وصل، إلى الجبل المقدس، بطريرك أنطاكية مرطيريوس يرافقه ستة أساقفة، وقائد جيش الشرق يرافقه عدة مئات من الجنود. ثم إن جمعـــاً كـــبيراً تجمهر حول العمود، وتم وضع الجثمان في أسفل العمود، وقدمت لـــه مراسم التكريم الرسمية، ثم نقل تحت الحراسة العسكرية إلى أنطاكية[19].

ففي مثل ذلك الزمان كان ينشب قتال حقيقي للحصول على جثمان القديس، ويشار إلى أن أول قـــتال من هذا النوع قد نشب في سورية. فقبل موت سمعان الكبير ببضع ســـنوات استولت أقوى مدينة في المنطقة، بعد قتال عنيف، على رفات القديس مارون ناسك جبل قلعة قالوطا. وتم أيضاً اختطاف المتوحد سلمانا مرتين للحصول على جسده الثمين وهو على قيد الحياة، وكان يعيش في وادي الفرات[20].

وقد شيع جثمان القديس سمعان بكل حفاوة وتكريم حتى أنطاكية، وكانت الجماهير تنـــتظره وفي أيديهم الشموع على أبواب المدينة الثالثة في الإمبراطورية. فوضع أولاً

فـــي كنيســـة قسيانوس، وبعد شهر نقل إلى كنيسة قسطنطين الفخمة. واعتبرت ذخيرة جـــثمانه أكـــبر كنز في المدينة. فهي التي حمت أنطاكية، بحسب الاعتقاد الشعبي، من الغزوات، ومن الهزات الأرضية، ومن الطاعون[21]. بيد أن ما حصلت عليه أنطاكية بـــالقوة راحـــت مديـــنة أقوى منها وهي القسطنطينية تطالب به. وقد نقل الإمبراطور زيـــنون، وليس دون مقاومة الأنطاكيين الشديدة، جثمان العمودي إلى العاصمة، وشيّد كنيسة فخمة على شرفه بالقرب من عمود القديس دانيال .

ويذكر أيضاً أن جماهير مماثلة تدفقت يوم وفاة القديس دانيال العمودي. فقد حضر الـــبطريرك والإكليروس والشعب، ودفن الجثمان المقدس بجانب جثمان معلمه القديس ســـمعان. ويؤكد نقفوريوس، كاتب سيرة القديس سمعان الصغير، أن عجائب عديدة قد تمت بعد مماته بوساطة جثمانه[22] .

أمـــا مـــار يونـــان عمودي كفر دريان، فقد دفن عند أقدام عموده الذي كان أداة استشـــهاده. وبوســـعنا اليوم رؤية قبره، وهو ما كان بالأمس موضعاً للتكريم الشعبي، ومركزاً للحج .

آ- الأيولوجيات أو البركات [٦]:

بعـــد ذخيرة العمود المقدس التي سنتحدث عنها لاحقاً، تأتي البركات لتلعب دوراً كـــبير الأهميـــة فيما كان يؤدى للعموديين من شعائر التكريم. ويحث القديس يوحنا فم الذهب مسيحيي أنطاكية، بمناسبة حجهم إلى مقابر الشهداء، على الامتناع عن الرقص وعـــن ســـائر التســـليات الدنيوية، فيقول لهم: " قبلوا القبر – المذخر –، وصلوا حتى تذرف الدموع، لأن الأمر لا يتعلق فقط بعظامهم، بل إن قبورهم تغدق البركات... فخذ مـــن الزيت المقدس وادهن جسمك ولسانك وشفتيك وعنقك وعينيك، فلن تغرق بعدها فـــي متاهات الثمالة، ستذكرك رائحة الزيت بمعارك الشهداء، وتقضي على كل بلبلة، وتعزز الثبات، فهي دواء لكل أمراض الروح "[23].

---

(٦) الأيولوجيات أو البركات: كلمة يونانية (ايفلوغيا) تعني البركة والنعمة، وهي كل ما يؤخذ من مزار القديس تذكاراً أو للبركة: أيقونة، صورة بخور، شمعة، زيت مبارك، ماء مبارك، قطعة من ثوبه،...

إن كلمة إيفلوغيا تعني في الأصل بركة أو نعمة تم الحصول عليها بشفاعة القديس. ثم أصبحت تدل فيما بعد على كل شيء يتمتع بفضائل القديس وبقدرته. ومن الملاحظ أن الزيت كان العنصر المرتبط ارتباطاً وثيقاً بتكريم الشهداء، ومن ثم بتكريم العموديين. أما العناصر الأخرى فهي: الماء، الشعر، ثياب الشهداء، وهي تحتل مكاناً ثانوياً. وكان الزيت يوضع في الزجاجات والقوارير الممهورة بختم العمودي. وقد يكون الختم إما صورته، أو كتابة ما، أو ابتهالاً. ومع أن هذه القوارير كانت في القديم شائعة الاستعمال جداً، لا نعرف اليوم إلا بعض النماذج منها. ومن أشهرها القارورة المحفوظة في دير القديس كولومبان في بوبيو بإيطاليا[24] (اللوحة/16، الرقم/1) .

ثم إن وجه القديس مرسوماً على أيقونة هو من البركات الأكثر انتشاراً، وكانت تباع في المزار بعد تمريرها على عمود العمودي، ولها نفس مفعول قوارير الزيت المقدس للحصول على النعم، وقد وصلت إلينا نماذج عديدة منها[25]. وكان الحجاج يأخذون إلى بيوتهم الذخائر أو البركات، ليشركوا أهلهم وأصدقاءهم بنعمة الحج. وغالباً ما ينتهي الأمر بالبركات بتسليمها إلى الكنائس. مع أن الغاية الأساسية منها كانت حماية البيوت، وخاصة غرف النوم. وهذه العادة هي المساهمة الكبرى في انتشار شعائر التكريم التي أداها المسيحيون للعموديين .

لكن أمام ما رافق شعائر تكريم الشهداء من مغالاة، شدد القديس يوحنا فم الذهب على الجانب الروحي للزيت المقدس وللبركات، التي كانت التقوى الشعبية المتشربة بروح العصر الخرافية، تنسب إليها قوة الشفاء والحماية من الشياطين، وبشكل خاص من الإصابة بالعين الشريرة، التي كثيراً ما كانت تخيف سكان الريف. ويروي تيودوريطس القورشي أنه هو نفسه علق على رأس سريره قارورة ممتلئة زيتاً مقدساً، أخذت من على قبور الشهداء، لها قدرة الحماية من زيارة الشياطين الليلية[26]. ولنترك هذه المبالغات، لأننا أمام حدث تاريخي، وهو أن البركات تشهد على الانتشار الواسع لتكريم العموديين، وأن تكريم الناس لها كان لحماية أنفسهم من أصناف الشرور والمخاطر.

الفصل الرابع

عمــود العمــودي

اعتــبر عمــود العمــودي الذخيرة الأهم بعد ذخيرة جثمانه، وهي المقدسة تقديساً خاصــاً. فالعمود هو رمز العمودي، وقد شبه منذ البداية بصليب المخلص، لكونه أداة استشهاد العمودي ومجده في الوقت نفسه .

وقد يتساءل عالم الآثار والسائح، اللذان يزوران اليوم الخرائب الضخمة في قلعة سمعان، كما تساءل الأب ماتيرن قائلاً : " من كان هذا الرجل، لكي يجذب بهذا الشكل الجمــوع الغفيــرة خلال حياته ؟ بل حتى بعد مماته ! كم كانت شهرة قداسته ؟! وكم بــلغت أخباره بوصفه صانع معجزات ؟ لكي يشجع ويبرر بناء هيكل على هذا القدر مــن الاتساع والغنى "[27]. أما الجواب فبسيط، فقد أقيمت هذه الأبنية الضخمة لتمجيد عمود أبي العمودية القديس سمعان الكبير. فبعد نقل جثمانه إلى أنطاكية تمسكت التقوى الشــعبية المتعــلقة بالقديس بمكان تنسكه، وبشكل ملموس بأداة عبادته : العمود، فبني حوله أضخم معابد العالم وهو قلعة سمعان . (اللوحة/15)

آ- العمود محور المعبد :

يشــبه مخطــط معــبد قــلعة ســمعان مخطط معابد الشهداء التي بنيت على شرف القديســين الشــهداء، وهــي بدورهــا تســتوحي هندستها من الهندسة الجنائزية اليونانية الــرومانية. فمخطــط معابد الشهداء يختلف دائماً عن مخطط الكنائس، وذلك لأن الهدف الرئيســي مــن تشييدها هو تكريم ذخائر أبطال الإيمان. فإن المخطط الهندسي لكاتدرائية قــلعة ســمعان قــد صــمم لــتكريم عمــود القديس، قبل كل شئ ، ثم ليخدم الصلوات

والاحـــتفالات الأفخارســـتية، والاجتماعات الدينية للشعب والرهبان. واستوحى مصممو معـــبد القديس سمعان مخططهم من كنيسة الشهداء في قوزية بأنطاكية- عام ٣٨٠م، حيث نـــرى فيهـــا قـــبر الشـــهيد بابيلاس يحتل وسط الصليب. وتم استيحاؤه أيضاً من كنيسة الشـــهداء المثمنة الأضلاع في كبادوكية، التي وصفها القديس غريغوريوس النيصي[28]. وكـــان ذلك ليبنوا أكثر كنائس المسيحية انسجاماً وتناسقاً بمزجهم بين أناقة الشكل المثمن الأضـــلاع وبيـــن بساطة الصليب، وبين المثالية "الاستشهاد"، ومتطلبات العبادة المسيحية "الاحتفالات الدينية" [29].

وإذا مـــا فكـــرنا فـــي أن مساحة الكاتدرائية والدير والفناء وبيت المعمودية تبلغ ١٢٠٠٠م٢، فبإمكانها أن تستوعب بسهولة عشرة آلاف حاج. وإذا ما فكرنا أيضاً في صـــعوبات مشـــروع كهذا على أرض غير مستوية الارتفاعات، فيمكننا أن نستنتج أن قـــلعة ســـمعان هي من أضخم الأبنية في سورية ومن أفخم أبنية العالم المسيحي، فهي لؤلؤة الفن العالمي وخلاصة الماضي الديني السوري [30].

"إن كاتدرائيـــة القديـــس سمعان، من وجهة النظر الهندسية المحضة، هي أضخم صـــرح مســـيحي بقي لنا قبل كاتدرائيات القرنين الحادي والثاني عشر الميلاديين في الغـــرب"[31]. " ويكفي هذا المجمّع من الصروح، التي بنيت بعد قليل من موت القديس ســـمعان، لتكون برهاناً على شهرة القديس. فهذه الصروح تترجم أكثر من أي مصدر آخر حماسة الشعب السوري وتقواه وتكريمه لناسك تل نيشين "[32].

لقـــد بنوا للقديس دانيال العمودي وهو على قيد الحياة حرماً يضم عمود القديس، وكنيسة شهداء كانت تضم جثمان القديس سمعان الكبير، وديراً ومضافة للحجاج. وهذه الأبنية تشبه أبنية قلعة سمعان، ولكنها بأبعاد أقل اتساعاً [33]. وفي الجبل العجيب غير بعيد من أنطاكية، شيد معبد كبير على شرف القديس سمعان الصغير، وقد اعتبر توأم ســـميه معبد قلعة سمعان، ولهذا السبب استوحي معبده من معبد القديس سمعان الكبير. فكنيسة الشهداء لتكريم العمود، والكاتدرائية للاحتفالات الأفخارستية، والفسحات الحرة لـــتجمع الجماهيـــر في أثناء الحج. ومن المؤسف أن جزءاً واحداً من هذه الأبنية قد تم إنجـــازه فقط، وهو المخطط على شكل صليب، والبناء المثمن الأضلاع، والكاتدرائية

لاحتفالات المؤمنين الدينية، بينما ظلت أجنحة الكنيسة الثلاثة الأخرى دون إنجاز. ومع أن هـذا المعـبد يـأتي متأخراً قرناً كاملاً عن معبد قلعة سمعان، نرى فيه تقهقراً في الأسلوب، فنحن في عشية عهد الغزوات(34)(٧).

ب - العمود مركز حج :

إذا كـان القديـس سمعان الكبير يجذب الجموع إليه في أثناء حياته، فإنها ستزداد بعـد موتـه. فـبعد أن حرم الحجاج من ذخيرة جثمانه الثمينة، بدأوا يكرمون عموده. فبحسـب قول الكتاب الأقدمين، كان الزوار يفدون بالألوف. ولإيوائهم وتأمين حاجاتهم بـني حـول عمـود القديس مجمع فندقي كبير. وهكذا بعد وفاة القديس سمعان ببضع سنوات، تحولت قرية تل نيشين الصغيرة في سفح الجبل إلى مدينة من الطراز الأول، تجمع ما بين الدين والتجارة. فكانت الأديرة والفنادق والأبنية العامة والأسواق وغيرها في خدمة الحجاج (35) .

وقـد يكون من المستحيل علينا نوعاً ما، أن نكون فكرة صحيحة عن جو الحبور والاحـتفال الشعبي، الذي كان يخيم على قلعة سمعان في/٢٦ تموز من كل عام، وهو ذكـرى تـاريخ وفاة القديس. فكان يصعد من تل نيشين إلى الكاتدرائية، عبر الطريق المقدس، سيل لا ينقطع من البشر، وهم ينشدون الترانيم، والشموع بأيديهم. وبالإضافة إلى كـل مـا كان يتم من احتفالات أفخارستية، وعظات وإرشادات، وسهرات دينية، كـانت هـناك الـتظاهرات، ومعارض المنتجات الخاصة من كل أمكنة الحجاج، مع رقصات شعبية، وبيع الأشياء المقدسة والتذكارات والبركات وما إليها .

الكـاتب إيفاغـروس المؤرخ "الذي كان يرغب منذ زمن طويل في زيارة الجبل" حقـق أمنيـته عـام ٥٨٠م. وبعد وصفه لعمود العمودي روى انطباعاته وتحدث عن أهالي المنطقة وهم يتهافتون بأعداد غفيرة ويعقدون حلقات الرقص حول العمود، وتكلم

---

(٧) إنما الغزوات الفارسية التي هزمت البيزنطيين واكتسحت سورية واحتلت مدنها، ثم تمكن الإمبراطور البيزنطي هرقل من الانتصار عليهم .

عـن الـنجمة السـاقطة التي ظهرت عدة مرات في الجزء الشمالي من المعبد، فقال البعض: إنهم رأوا وجه العمودي ورأسه مغطى بقلنسوة وبلحيته الطويلة وهو يرفرف في الكاتدرائية. وكان يسمح بالوصول إلى الكاتدرائية، فترى الفرسان يطوفون بخيولهم حول العمود(36). ولم يكن يسمح للنساء بتجاوز عتبة المعبد(37).

وما كل هذا إلا دلالة على ما كان يتمتع به مزار القديس سمعان من شهرة كبيرة بصـفته مركز حج، ليس فقط على المستوى المحلي، بل أيضاً على المستوى العالمي. فـلقد أصـبحت قلعة سمعان مركز حج شبيه بالأماكن المقدسة في فلسطين. وحتى مع انتشـار الإسلام وهجران المعبد، فقد استمر الحج إلى هذا المكان حتى القرن السادس عشـر الميلادي، فتأتي النساء خاصة ليطلبن نعمة الأمومة. ويشهد المؤرخ أبو الحسن عـلي بـن أبي بكر الهروي[٧]على ما كان يحاط به هذا المعبد من تكريم وتقديس في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، فيقول : "في دير سمعان آثار لا مثيل لها فـي العـالم، ففي وسط الدير جذع عمود مفيد للشفاء من الحمى، إذا ما أخذ من تراب هذا الحجر للمريض، على أن يقدم نذر على نيته" (38).

وهـناك أمـاكن أخرى لعموديين تحظى بهذا التكريم الشعبي، ولكن بدرجة أقل. وهـي مزارات العموديين الذين غالباً ما نذكرهم، و الذين تشبه مزاراتهم مزار القديس سمعان أبي العموديين، أمثال القديس دانيال في القسطنطينية، والقديس سمعان الصغير في الجبل العجيب في أنطاكية. وقد تيقنا من وجود فسحات مفتوحة حول سائر أعمدة العموديين التي زرناها، وكانت الغاية منها احتواء جماهير الحجاج أو الزوار كما نرى ذلك في قيمار وتل نيشين وكفر دريان(39) .

---

(٧) الهـروي : عـلي بـن أبي بكر، ت عام ١٢١٥م، رحالة ومؤرخ ولد في الموصل وأقام بحلب، لـه كتاب (الإشارات إلى معرفة الزيارات)، وكتاب (منازل الأرض ذات الطول والعرض) .

الفصل الخامس

الرسوم الممثِّلة للعموديين

يقــدم لنا الفن المسيحي في سورية الشمالية تنوعاً وغنى فريدين من تزيين تيجان الأعمدة، وفي النقوش البارزة والسواكف وأشكال الصلبان.. وغيرها. غير أن هذا الفن يكــاد يــتجاهل كــلياً الرسوم البشرية والحيوانية، سواء كان في النحت أم في الرسم. وبالمقــابل يمــثل العهد اليوناني الروماني في سورية العصر الذهبي في مجال نحت الــتماثيل والرســوم البارزة على القبور، كما تشهد بذلك الآثار الموجودة في متاحف دمشــق وتدمــر وأنطاكيــة. فبعد القرن الرابع الذي شهد انتصار المسيحية اختفى فن الــنحت مــن سورية الشمالية. ففي هذه المنطقة لا نعرف إلا صورة مريم " أم الله "، وصورة " سجود الملوك المجوس " في قلعة سمعان، وصورة رئيس الملائكة ميخائيل وجــبرائيل مــع المسيح في قلب لوزة(٨)، وصورة " حمل الله "(٩) في دير سنبل(١٠)، وحبيس هاوا، والنقش الأثري لراهب كوكناية(١١) (اللوحتان 19+18) .

---

(٨) قــلب لوزة : قرية في أعلى جبل الأعلى، تبعد ١١كم جنوب شرقي حارم بمحافظة إدلب. فيها آثار بيزنطية، أشهرها وربما من أشهر آثار المنطقة كنيسة الثالوث الأقدس .

(٩) حمل الله : هو السيد المسيح .

(١٠) دير سنبل : مدينة أثرية في جبل الزاوية تتبع ناحية احسم منطقة أريحا محافظة إدلب. وتقع شمال غربي معرة الــنعمان بــ ١٢كم. ويعود إنشاؤها للقرن الثالث والرابع الميلاديين، وتمتد آثارها على مساحة واسعة، فيها دارات فخمة وكنيسة كبيرة وخزانات، وقبور ومدافن غنية عليها كتابات مسيحية .

(١١) كوكناية : موقع أثري في جبل باريشا، جنوب شرقي حارم ١٣كم في محافظة إدلب، زار الموقع عدة رحالة وآثاريون وأشهرهم تشالنكو .

كذلك سورية الوسطى، التي قام بدراستها جان لاسوس، لا تقدم إلا بعض النماذج النادرة للقديسة مريم العذراء وللملائكة(40).

فهل يمكننا تفسير ذلك بتأكيد أن جدران الكنائس كانت مزينة بالرسوم التي ضاعت اليوم؟ أو بالتسليم بأن المسيحية السورية قد خضعت منذ بدايتها للتأثير اليهودي، بوساطة المسيحيين ذوي الأصول اليهودية، وهم معارضون للرسوم البشرية. ومع ذلك ينبغي الإشارة إلى أمر غريب، وهو أن العمودية شذت عن هذه القاعدة، إذ إنه في سورية الشمالية لائحة طويلة لرسوم العموديين، وهي بالإضافة إلى أهميتها كشاهدة على ما كان يحظى به العموديون من تكريم، كان لها الدور الكبير في مجمع نيقية الثاني، إذ أنها استخدمت على أنها براهين لصالح تكريم الصور(41).

١- رسوم البركات :

البركات التي وصلت إلينا عديدة، وكلها تتعلق دون استثناء بمنارتي العمودية: القديس سمعان الكبير، والقديس سمعان الصغير .

بركتا قلعة سمعان : وتأتي أهميتهما من مكان اكتشافهما .

البركة آ :

وهي تمثال نصفي لعمودي على العمود. تعلوه قلنسوة. وفي كل من الطرفين العلويين ملاك طائر ويداه مضمومتان. وفي الأسفل، السلم، ومبخرة، والصليب (الرسم/ 27) .

البركة ب :

وهي تمثال نصفي للقديس، مع صليب يعلو القلنسوة، وملاكان يحمل كل منهما إكليلاً. وفي أسفل العمود صورتان بشريتان، تمثل إحداهما على ما يبدو امرأة. وأخيراً السلم(42) (الرسم/28) .



الرسم رقم (27):
البركة آ، وهي من
قلعة سمعان، وهي تمثل
القديس سمعان الكبير
(تشالينكو)



الرسم رقم (28):
البركة ب، وهي من
قلعة سمعان، وهي تمثل
القديس سمعان الكبير
(تشالينكو)

البركات الست التي نشرها ج. لاسوس :

تحـــتوي هـــذه البركات على العناصر نفسها تقريباً: النقش النصفي للقديس وهو مغـــطى بقلنســـوة، الملائكة، الصليب، السلم. وفي أسفل العمود رهبان أو حجاج. وفي المقالــــة نفســـها يطلـــع الكاتب القراء على " الزجاجة " من مجموعة سيرافيان[43]. (الرسم/29)

بركة الحفة[١٢] :

وجـــدت هذه البركة في بلدة الحفة في محافظة اللاذقية عام ١٩٧٣م. وهي بقطر ١٩مـــم، وســـماكتها ٦مم. تحتل صورة العمودي مكاناً واسعاً من البركة، ويبدو رأسه مغـــطى بقلنســـوة يعلوها صليب. وعلى جانبي القديس ملاكان يحمل كل منهما سعفة نخل. وعلى تاج العمود أربعة مربعات، وهي تمثل صليباً أو بلاطة من حاجز حجيرة العمـــودي. وعـــلى جذع العمود نرى النافذة الصغيرة الاعتيادية. وعلى القاعدة ثلاث دوائر، كالتي نراها في الرسم الموجود على البرج الجنوبي لكنيسة قلب لوزة.

وعلى طاولة صغيرة ذات ثلاث أرجل، على يسار العمود، رسمت، ألسنة من نار، وهذه البركة هي الوحيدة من البركات التي درسناها باحتوائها على هذا العنصر. وبين الطاولـــة وطـــرف البركة يوجد نقش ربما كان يمثل حية (الرسم/30، واللوحة/16، الرقم 2). إن هذه البركة تمثل، وبكل تأكيد، القديس سمعان الصغير .

---

(١٢) الحفة : مدينة في الشمال الغربي لجبال اللاذقية، إعمارها قديم، وهي الآن مركز منقطة تقع على مسافة ٣٠ كم شمال شرقي مدينة اللاذقية.



الرسم (29):

وجه زجاجة

مجموعة سيرافيان (لاسوس)



الرسم (30):

بركــة الحفــة

بركة الفوز(١٣) :

اكتشـــفت هـــذه البركة عام ١٩٦٩ في قرية الفوز الواقعة على بعد ٢٠كم شمال جســـر الشـــغور. وهي عبارة عن ميدالية من الرخام الأسود، مكسورة في منتصفها، والقســـم اليميـــني منها هو وحده الباقي. يبلغ قطرها ٩سم وسماكتها ٢سم. وقد نقشت الوجوه والكتابات عليها بشكل معكوس (اللوحة/16، الرقم/3) .

عـــلى الوجـــه : تمـــثال نصفي للعمودي وصليب وكتابة يونانية تعني "القديس"، وحولها كتابة يونانية أخرى وهي "سمعان العجائبي" .

وفـــي الخلف : تمثال نصفي للعمودي على عموده، وملاك يحمل السلم، ثم وجه راهب وهو يصعد السلم، هل هو تلميذ العمودي ؟

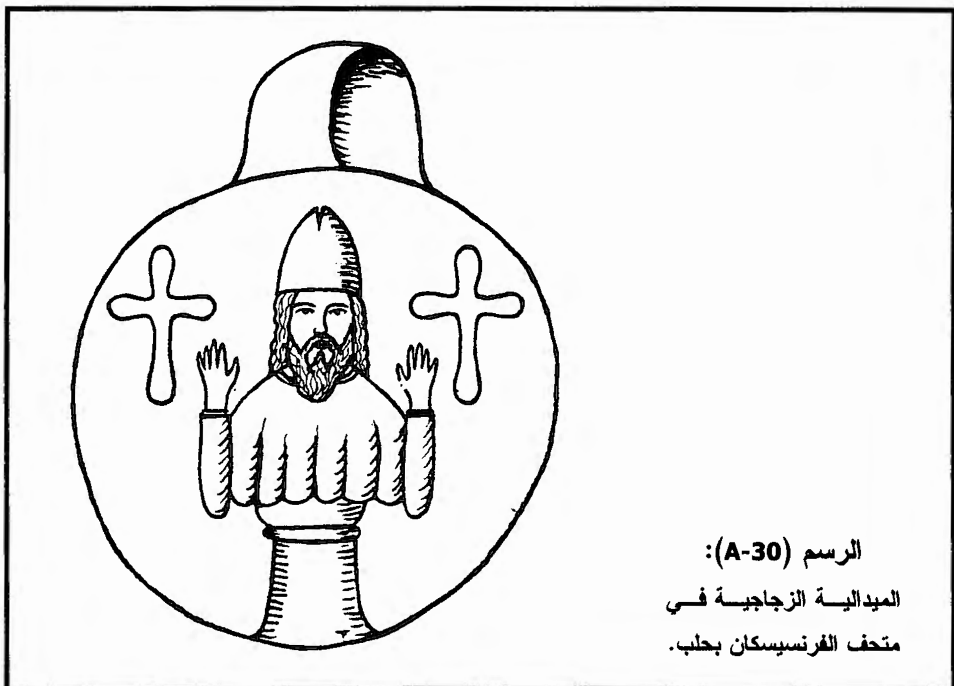
وبين الراهب والملاك شيء ما غير معروف، وحولهما كتابة يونانية وهي " بركة مـــن أبيـــنا القديـــس سمعان ". ولأن قرية الفوز تقع على بعد ٣٠كم من أنطاكية، من المحـــتمل أن الـــبركة كانت تمثل القديس سمعان الصغير. وقد أتيحت لنا الفرصة كي ندرسها قبل أن تباع إلى المتحف الوطني بحلب .

الميدالية الزجاجية في متحف الفرنسيسكان بحلب :

هـــذه الميدالية المدورة تمثل القديس سمعان، على شكل تمثال نصفي، وهو يصلي ويداه مرفوعتان. وعلى مستوى الرأس، من كلا الطرفين، صليبان، أحدهما من اليمين والآخر من اليسار (الرسم / 30) .

---

(١٣) الفوز : هي قرية (الزوف)، في هضبة القصير، وتبعد ١٧كم شمال غربي جسر الشغور بمحافظة إدلب. وتطل على وادي المريج غرب جبل عصفور، في منطقة تكثر فيها العيون والمسيلات وسط أحراج السنديان والعرعر .



الرسم (A-30):
الميدالية الزجاجية في متحف الفرنسيسكان بحلب.

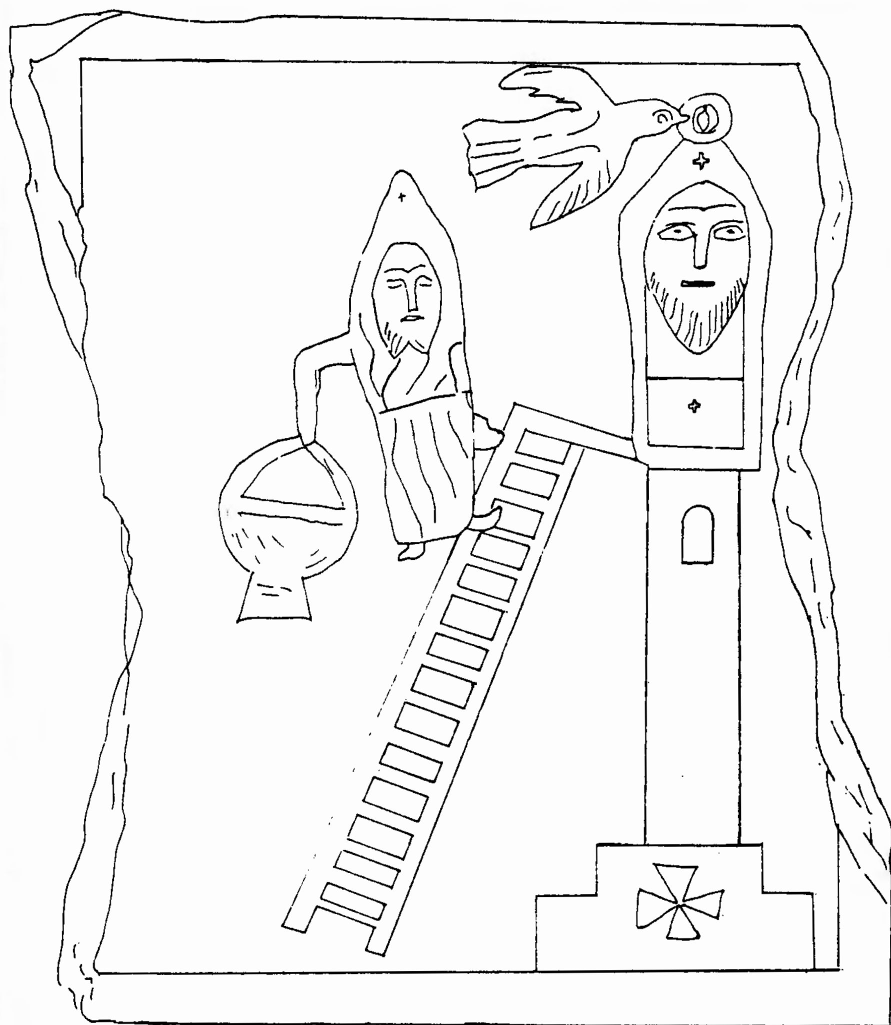
تقدم لنا البركات، أكثر من أي رسوم أخرى للعموديين، أفضل العناصر المحسوسة والحقيقية لنمط حياتهم. فصورة العمودي تتوضع عادة وسط البركة. وهو ناسك ذو لحية، يرتدي قلنسوة، وهو في وضعية خلوة وتأمل. أما العمود فيرسم بحجم صغير وغير متناسق، وأحياناً بشكل رمزي بسيط. ولكي تكتسب صورة العمودي المزيد من الأهمية أحيطت بعناصر التمجيد المتنوعة: ملائكة تحمل إكليلاً، أو تضعه على رأسه. وقد اعتبرت البركات من أكثر رسوم العموديين شعبية، فهي التذكار الذي يميز بشكل خاص كل حاج، وكانت تباع في معبد القديس .

<u>٢- النقوش البارزة :</u>

نطلق هذه التسمية على أربع بلاطات آتية من وسط سورية، وهي تمثل القديس سمعان الكبير.

آ- النقش البارز في قصر أبي سمرة :

وقد نشره لأول مرة لاسوس. ثم صحح بعض تفاصيله إلبرن(44). (الرسم/31) وهو تمثال نصفي مبسط للعمودي، وحمامة تحمل إكليلاً في وسطه لسان من نار، وسلم كبير يؤدي إلى سطح العمود، وراهب ينزل السلم وفي يده إناء - ربما كان مبخرة أو كأساً لتناول القربان أو مجرد وعاء للخدمة - وقد رسمت ثلاثة صلبان: الأول على قاعدة العمود، والثاني على صدر العمودي، والثالث على قلنسوته(45) .



الرسم (31):

النقش البارز في قصر أبي سمرة

ب- النقش البارز في متحف حماه :

وهو بلاطة من البازلت قياسه ٧٠×٦٠سم، وقد وجد على بعد ١٥كم شرقي حماه. حيث يبدو رأس العمودي مكشوفاً، وفي الجزء الأعلى حمامة ولسان من نار. وحارس العمود ينزل من على العمود بوساطة سلم عريض، وفي يده اليمنى وعاء. وعلى جذع العمود ثلاث نوافذ صغيرة، وعلى قاعدته نافذة أكبر بشكل باب[46] (الرسم/32) .

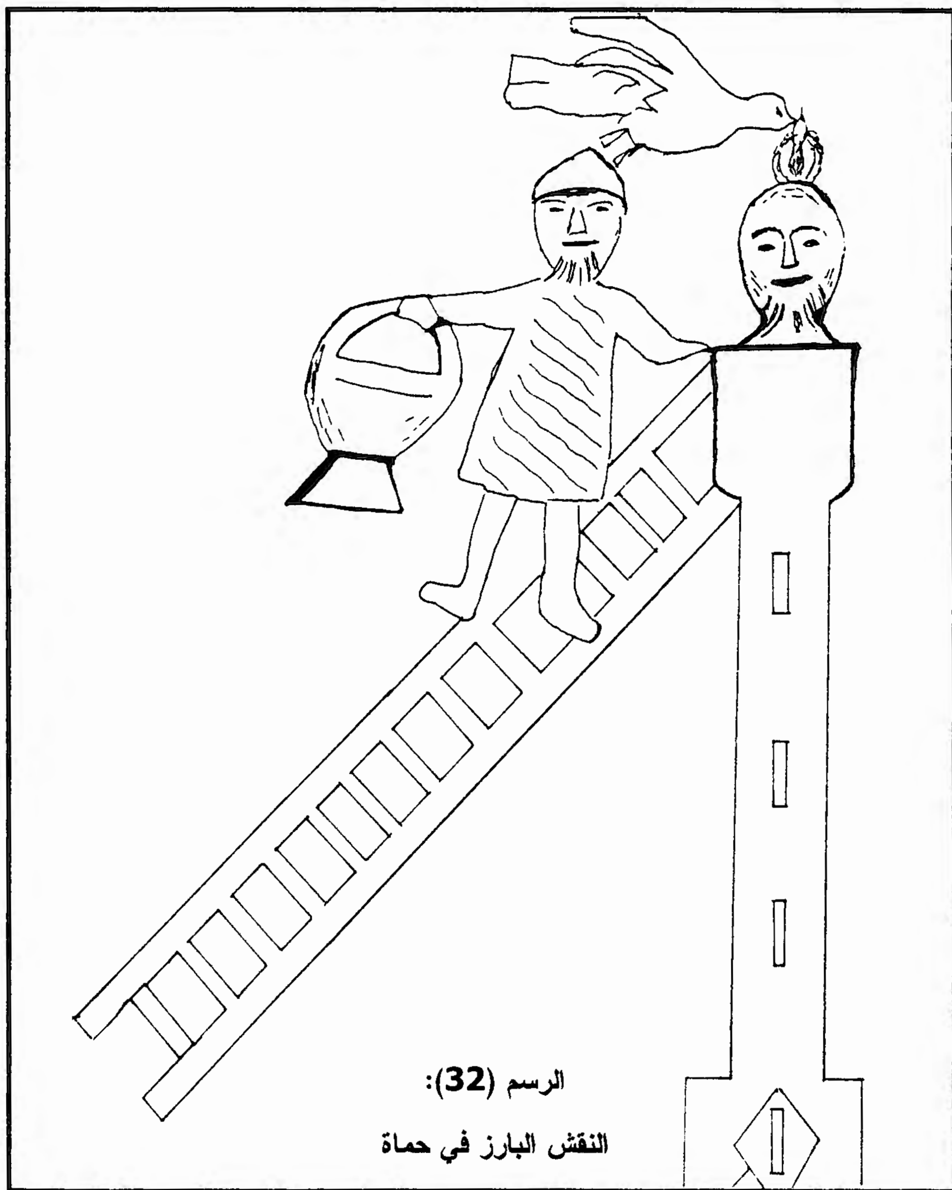
ج- النقش البارز في متحف اللوفر :

وهـــو رســـم مبسطِ جداً، تمثال نصفي للعمودي وهو مغطى بقلنسوته، أو بغطاء يشـــبه كوخاً مثلثاً. الفم والعينان وحدهما قد رسما. وتحت تاج العمود النافذة الصغيرة الكلاســيكية، وقد رسمت معها عناصر أخرى مكملة: حمامة تحمل إكليلاً، السلم، حية، وشخصان في وضع غير طبيعي، أملاكان هما ؟ أم تجربة يتعرض لها العمودي؟[47] (الرسم/33) .

د- النقش البارز في المتحف الوطني بدمشق :

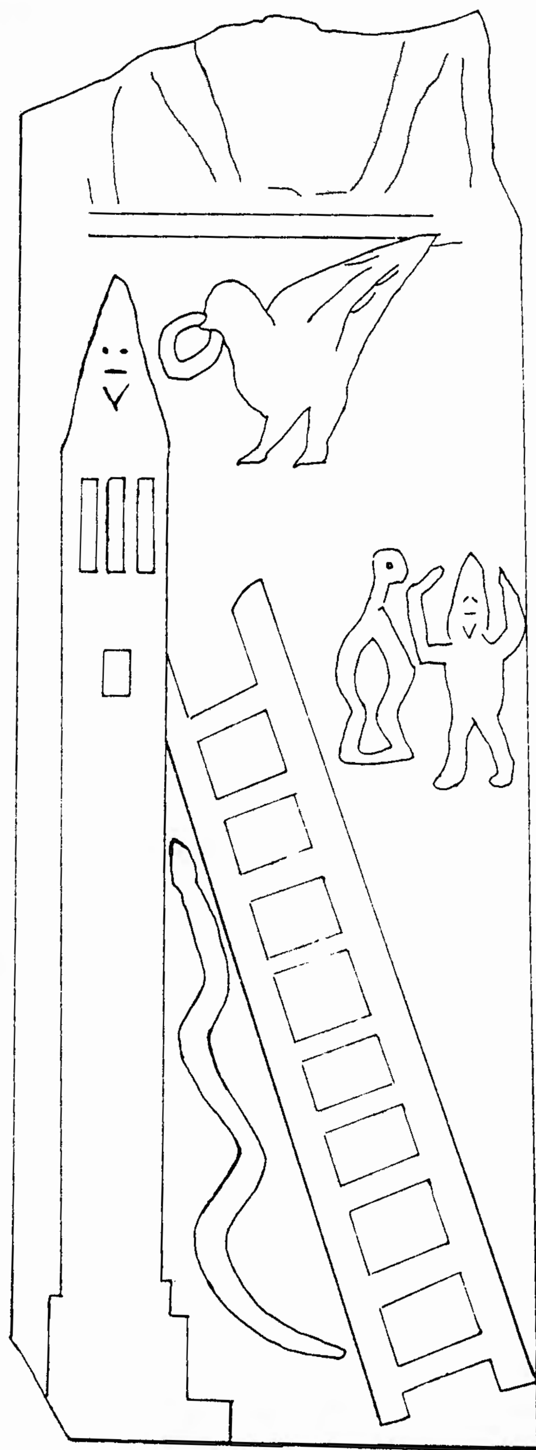
الرســم مبسط جداً، ويخلو من الدقة، يبدو أنه مخرب، أو أنه غير مكتمل. التمثال النصـــفي للقديس مرسوم بشكل رديء جداً. ونلاحظ وجود تلميذ العمودي على السلم. وهناك رسم من الصعب معرفته، أملاك هو ؟ أم كرمة ؟ أم حية ؟[48] (الرسم/34) .

إن الوجـــوه الموجـــودة عـــلى النقوش البارزة هي أكثر نمنمة وأكثر رمزية من الوجوه الموجودة على البركات. فعادة نرى التمثال النصفي للعمودي وهو على عموده في وضعية اصطناعية. أما وسط النقوش البارزة، فكان يحتله السلم المؤدي إلى سطح العمود. وبدلاً من الملائكة نرى الحمامة، أو ألسنة النار. ويظهر في كل مكان حارس العمود، أو تلميذ العمودي.



الرسم (32):

النقش البارز في حماة



الرسم (33):

النقش البارز في اللوفر

٣- الرسوم المنمنمة ذات الطابع العمودي :

وهي رسوم ونقوش بارزة يُمثل فيها العمودي بشكل مثالي، وأحياناً بشكل رمزي.

آ- المسلة المكتشفة في منطقة حلب :

وتضـــم العناصر التالية: العمود، القديس واقفاً مثل تمثال بشكل بيضوي، مع هالة تحيط بالرأس. قياسها ١,٠٢ ×١ ٠,٤٨م، وهي من البازلت. وقد وصلت إلينا من مناطق حلب الجنوبية الشرقية (اللوحة/ 17) .

ب- المسلة المكتشفة في قلب لوزة :

كانت هذه المسلة جزءاً من حاجز الكنيسة وقياسها ١,٠٧×٠,٣٧م، وقد عثر عليها عـــندما قـــامت المديرية العامة للآثار في سورية بترميم البرج الشمالي، في أثناء رفع الأنقـــاض مـــن الباحة الجنوبية. ويظهر عليها : العمود مع النافذة الصغيرة، مستطيل يرمـــز للجســـم وهو مزين بصليب، رأس العمودي مطروق بمطرقة، وقد نحت عليه صليب. أما الجزء السفلي للمسلة فمفقود .

ج- الرسم المكتشف في قُنبُس :

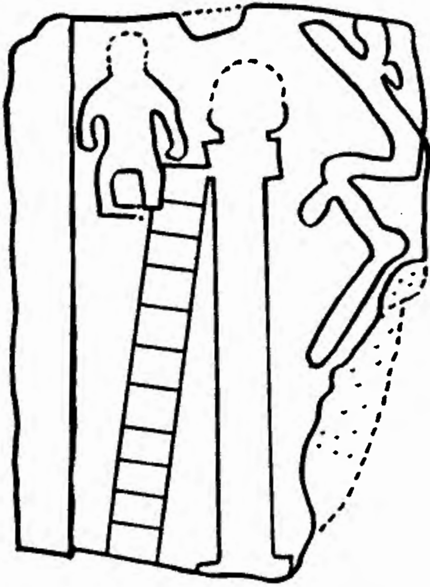
ويحـــتوي هذا الرسم على: العمود، جسم العمودي الذي يؤلف جزءاً من الصليب، وهالة حول الرأس[49] (الرسم/35) .

د- مسلة جبرين[١٤] (حلب) :

صـــور العمـــودي على شكل صليب. ويبدو في الرسم أيضاً: نصف دائرة لإكليل وقد ضع بين ذراعي الصليب، العمود، النافذة الصغيرة، الســـلم، صليب، وكتابات[50] (الرسم/36) .

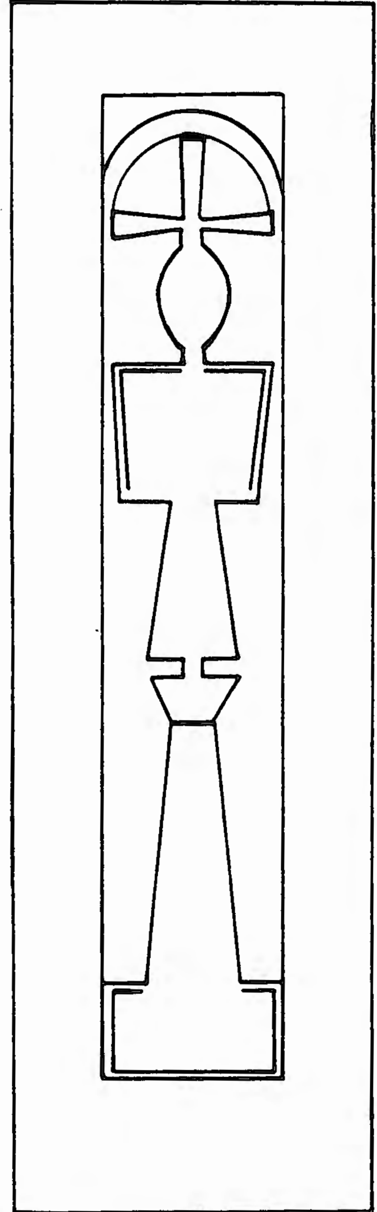
---

(١٤) جبرين : مزرعة تبعد ٨ كم شرق مدينة حلب.



الرسم (34):

النقش البارز في المتحف الوطني بدمشق



الرسم (35):

رسـم قُنبُـس

هـ- مسلة الكنيسة الشرقية في بافتين :

قياسها ١,١٢×٠,٣٤م، وتحتوي على : العمود، العمودي متحداً مع الصليب، وردة دائرية، المربع الكوني(١٥) والصليب (الرسم/37) .

و- النقش البارز في كنيسة داحس الشرقية :

وهو بقياس ٩١×١٨سم، ويحتوي على: العمود، نافذة صغيرة، العمودي وصليب يكلل أعلى قلنسوته (الرسم/38). وكان هذا النقش البارز قد وضع بجانب ساكف الباب الشرقي، وطرفه الأيسر مكسور. وعلى الباب نفسه، من اليسار، نقش بارز سفلي مماثل للأول، هو على الأرجح رسم الحبيس(51).

ز- مسلة رسم النفّل(١٦) :

وتبدو فيها صورة العمودي مبسطة بشكل مثلث، يكلله مثلث آخر، وفي أعلاها إهداء للقديس سمعان (52) (الرسم/39) .

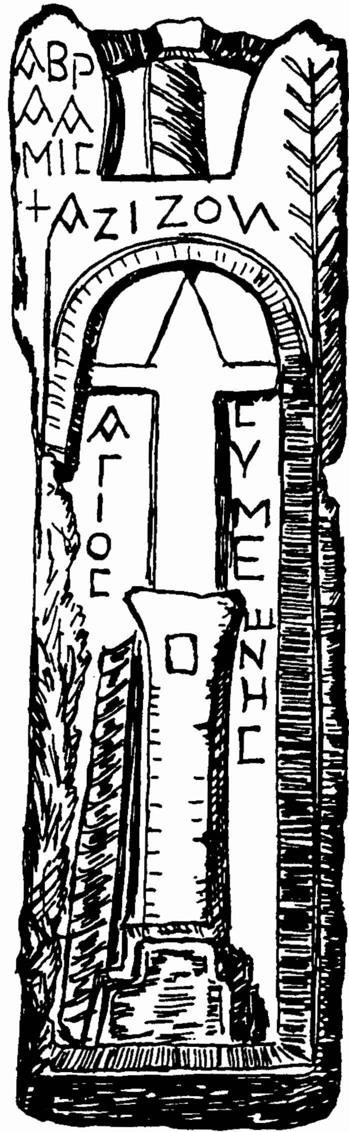
ح- مسلة الكنيسة الغربية في بافتين :

قياسها ١,٠٦×٠,٤٢ م، وقياس العمود الصغير المنحوت عليها ٦٦×٦سم، وتحتوي على العناصر التالية : العمود، نافذة صغيرة، العمودي على شكل بيضوي. وهي من أكثر الرسوم تبسيطاً (الرسم/40) .

---

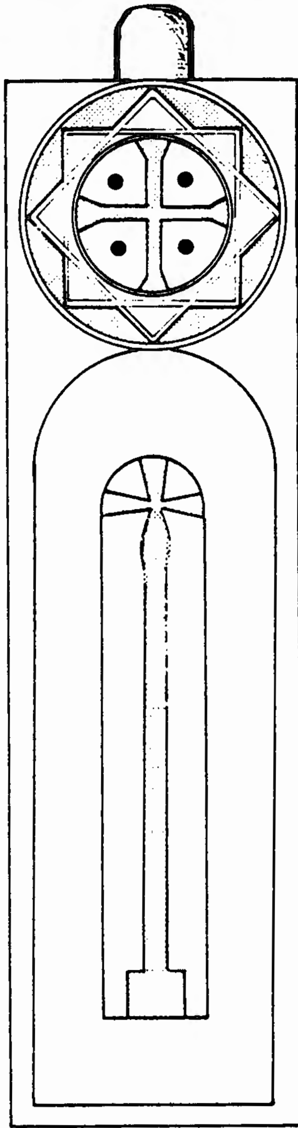
(١٥) المربع الكوني : هو نقش لمربع يمثل جهات العالم الأربع، وعادة يتوسطه صليب للإشارة إلى هذه الجهات. وكل زاوية للمربع تتوسطها نقطة أو يقطعها خط إشارة للجهات الفرعية. وبتأثير نظرية المربع الكوني كانت كل المدن الرومانية ذات شارعين رئيسيين متعامدين وأربعة أبواب .

(١٦) رسم النفّل : قرية جنوب غربي سبخة الجبول، شرق جبل الأحصى منطقة السفيرة، تبعد ١٥ كم شمال شرقي خناصر محافظة حلب. وعلى ١كم للغرب منها بقايا أعمدة وتيجان .



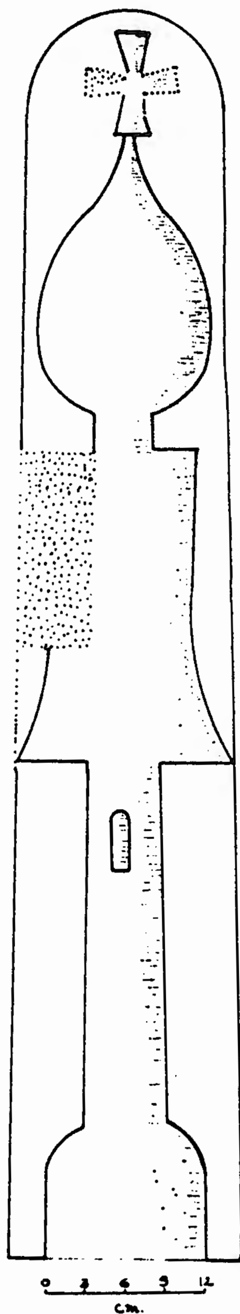
الرسم (36):

مســـلة جبرين



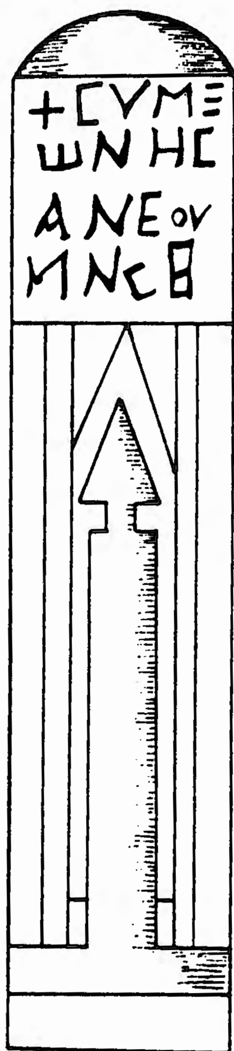
الرسم (37):

مسلة الكنيسة الشرقية في بافتين



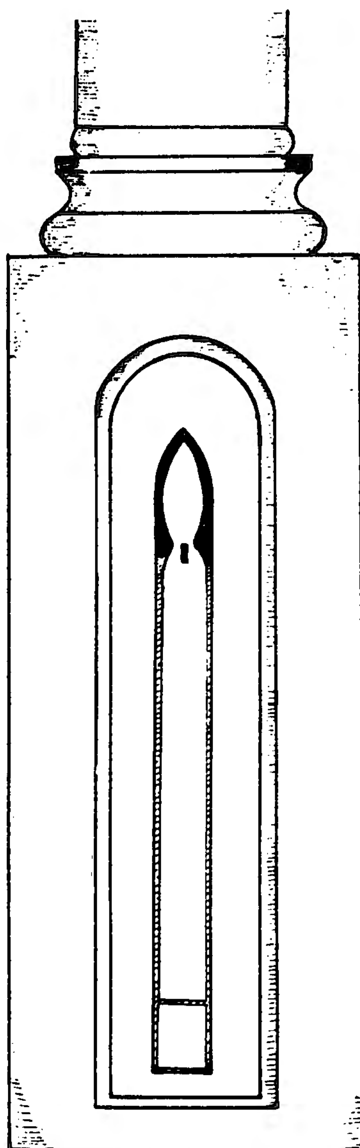
الرسم (38):

النقش البارز في داحس



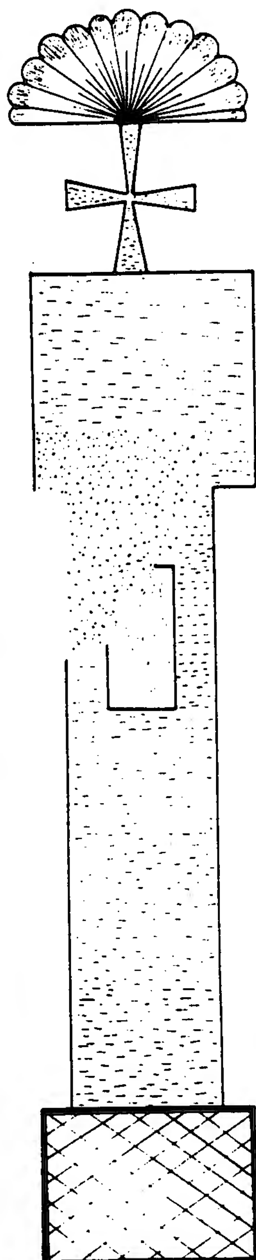
الرسم (39):

مســلة رسم النفّل



الرسم (40):

مسلة الكنيسة الغربية في بافتين



الرسم (41):

قلـــب لـــــوزة

ط- العمود الصغير في مشبك[١٧]:

هــذا العمــود الحلزوني الصغير الذي يحمل صليباً مثل"صليب مالطة"[١٨]، وهو موجود في إسطبل على بعد١٠٠م شرقي الكاتدرائية، (اللوحة/7 ، الرقم/1 والرقم/2)، وإلى جانبه عمود صغير آخر، لكنه بسيط ودون صليب وهو يزين ركيزة المعلف.

ي- الأعمدة الصغيرة في الواجهة الغربية لكنيسة قلب لوزة :

كنيسة قلب لوزة، وهي واحدة من أجمل كنائس سورية القديمة، تظهر لنا كيف رسم مســيحيو ذلــك العصر صور المسيح والملائكة والعموديين (اللوحة/18+19). وإذا كان هــــ. بوتلر أول من لاحظ وجود العمودين الصغيرين بين زخرفة نوافذ الطابق الأرضي لــبرجي الواجهـــة، فإن الفضل يعود إلى ج.لاسوس لأنه أول من قام بتفسيرها[53]. ومن الملاحظ أن النقوش الموجودة على العمود تتكرر على كل نوافذ البرج الشمالي .

أولاً : البرج الشمالي :

١- الطــابق الأرضـــي، مــن الخارج وفيه: النقش البارز للعمودي ويضم: العمود، النافذة الصــغيرة، تاج العمود بشكل مستطيل، وارتفاعه حوالي ربع ارتفاع كامل العمود، وهو ثوب العمودي بشكل كوخ. ويعلو كل ذلك صليب كبير، مع علامة التمجيد[54].

٢- الطابق الأرضي، من الداخل : ويوجد في القسم نفسه عمودان توأمان، رشيقان وفارعان.

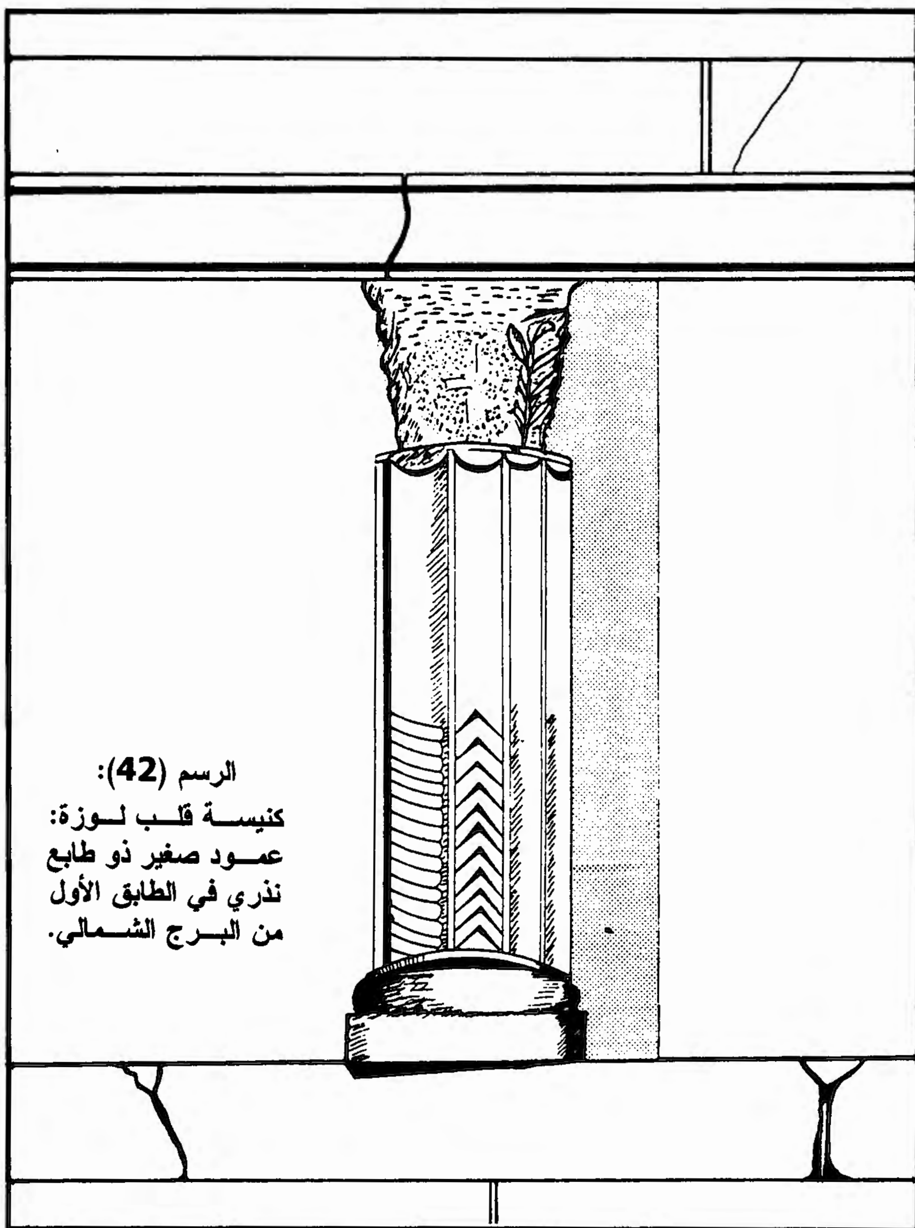
٣- الطابق الأول : تأخذ دعامة النوافذ شــكل عمــود، وهذا النوع من الأعمدة نادر. (الرسم/42 ، اللوحة/ 20، لاحظ : العمود الصغير ذو الطابع النذري في الطابق الأول من البرج الشمالي) .

٤- الطابق الثاني : عمود صغير بسيط منحوت على دعامة النوافذ (اللوحة/20) .

---

(١٧) مشــبك : موقــع أثري في هضبة حلب، يقع على بعد ٢كم جنوب شرقي دارة عزة. فيه جدارن كنيسة، وصهاريج وحمامات يصلها طريق معبد بحلب طوله ٢٦ كم .

(١٨) صليب مالطة : وهو صليب يتدرج عرض أضلاعه، فهي دقيقة في الوسط وعريضة في الأطراف. وقد اتخذه فرسان جزيرة مالطه شعاراً لهم، ولكنه في الأصل صليب سوري قديم، وقد استعمله السريان .



الرسم (42):
كنيســة قلــب لــوزة: عمــود صغير ذو طابع نذري في الطابق الأول من البــرج الشــمالي.

ثانياً : البرج الجنوبي :

١- الطـــابق الأرضي وفيه : عمود حلزوني صغير مع تاج مزين بصليب، وقد نحتت على قاعدته ثماني دوائر صغيرة .

(الرســـم/43، الـــلوحة20- لاحظ : النقش السفلي في الطابق الأرضي من البرج الجنوبي) .

٢- الطابق الأول، الواجهة الجنوبية، وفيها : عمود منحوت على دعامة النوافذ، وهو يشـــبه بشـــكل تقريبي عمود الطابق الأول من البرج الشمالي، أما بقية البرج فقد تهدم. إننا نعتقد من باب التناظر أن نوافذ الطابق الأول والطابق الثاني، من الجهة الغربية، كانت مزدانة بأعمدة صغيرة على غرار نوافذ البرج الشمالي .

أما مواضيع رسومات الطابق الأرضي فتتعلق، بالطبع، بالرهبان العموديين. وسائر الأعمدة الصغيرة الأخرى، وهذا ما سنراه لاحقاً، تذكر أيضاً بالعموديين. أما الواجهة فهي مكرسة بكليتها لذكرى العموديين، ودون شك لذكرى القديس سمعان الكبير.

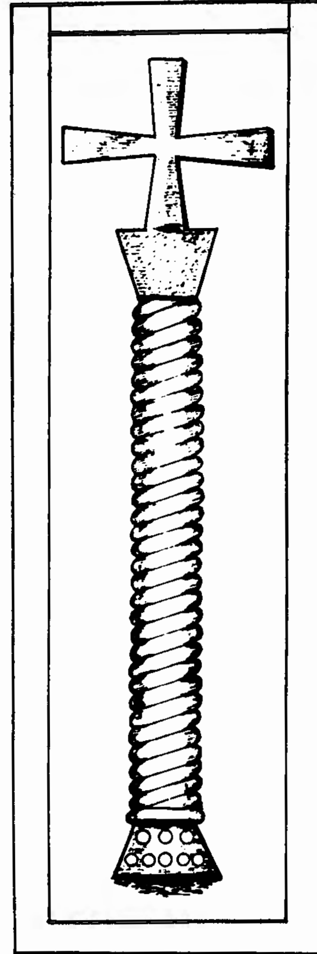
جاءت كل هذه الرسومات، المذكورة في الأعلى، من المنطقة الشمالية في سورية، ما عدا مسلة رسم النفل. وكلها رسوم منمنمة ورمزية وتغلب عليها موضوعات المجد والانتصـــار أكـــثر من الواقعية، مع محاولات دؤوبة لتمثيل صورة العمودي بشخص المسيح، والعمود بصليب المسيح. وغالباً ما كان الصليب الموضوع في ذروة العمود، يمثل صورة العمود المرفوعة إلى درجة المثالية .

٤- الرسوم الرمزية الممثلة للعموديين :

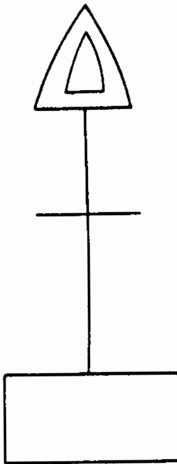
صـــورت الرمـــزية المســـيحية في سورية أحياناً سر العمودي بوساطة رسم في منتهى الرمزية، ويحتاج إلى تفسير. ويبدو أن هذه الرسومات كانت عديدة، ولاكتشافها يكفي تفحص عميق للآثار القديمة في شمال سورية، وسنعرض أربعة نماذج منها:

آ- النقش الأثري في دير سمعان :

حيــث نرى، فوق قاعدة مستطيلة الشكل، صليباً منقوشاً، وهو يمثل جذع العمود. وفــي قمــته مثلث، وهو يرمز إلى العمودي، منقوشاً ضن مثلث آخر أكبر منه، يرمز إلى حجرة الناسك على شكل كوخ [55]. (الرسم/44)



الرسم (43):
كنيسة قلب لوزة: النقش السفلي فــي الطابــق الأرضــــي من البرج الجنوبي.



الرسم (44):
ديــر ســــمعان:
النقــش الأثــري الذي يمثــل عمود سمعان الكبير(تشالينكو)

ب- التعويذة الزجاجية في دير سمعان :

ونرى فيها دائرتين، وكتابة غير مقروءة، ومثلثاً، وجذع عمود[56] (الرسم/45).

ج- النقش الأثري في رفادة :

يــزين هذا النقش ركيزة باب قائم وسط حقل من الأنقاض. فعلى قاعدة مستديرة، ينتصـــب صليب ذو قرنين[١٩]، وذراعاه مندمجتان في حجيرة العمودي بشكل بيضوي تقريباً. ويبلغ ارتفاعه ٣٨سم، وفي طرفه الأيسر نقرأ نقشاً بالسريانية: القديس الشهيد.

ج- النقش الأثري في الكنيسة الشرقية في بافتين :

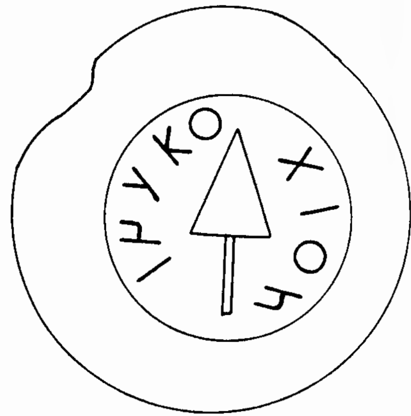
يوجــد هــذا النقش على العمود الأخير من جناح الكنيسة الجنوبي. وفيه نرى صليباً مرســوماً عــلى قــاعدة مربعة. وبحسب الرسم الموجود في نفس الكنيسة، ووفقاً للرسوم الرمــزية التي تمثل العموديين، نعتقد أن هذا الرسم يمثل عمودياً، وأن التجويف الموجود فوق الصليب كان يحتوي على ذخيرة من العمودي، أو على أيقونة له (الرسم/ 46) .

٥- رسوم العموديين على المذاخر :

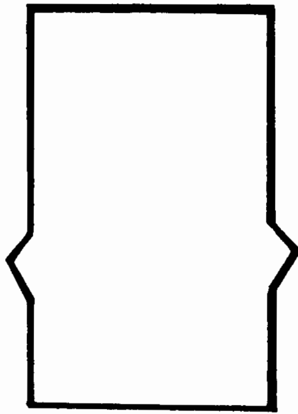
كــانت ذخائر الشهداء في القرنين الرابع والخامس الميلاديين تكرم في الكنائس. وقــد كرست لهم فيها هياكل ومعابد، عرفت بكنائس الشهداء، حيث وضعت ذخائرهم فــي مُذْخَر، وكان لهذا القبر الصغير، المصنوع من الحجر، فتحة يصب فيها الزيت، الــذي يسيل منها لينسكب في وعاء صغير بعد أن يكون قد لامس الذخائر، فيأخذ منه المؤمــنون. وقــد نقــش الفنانون على هذه المذاخر الرموز والموضوعات المسيحية، وأسماء الشهداء لتزينها[57].

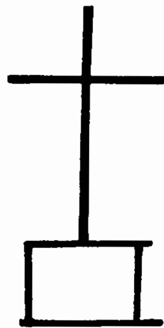
---

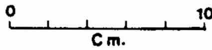
(١٩) صـــليب ذو قرنين : وهو صليب سرياني ينتهي كل طرف من أطرافه الأربعة بتفرع ثنائي يرمزان إلى النور والظلام، أو الخير والشر، أو إلى شفيعي الكنيسة السريانية : الملاكان ميخائيل وجبرائيل. وأحياناً كان ينتهي بتفرع ثلاثي فيدل على السيد المسيح وحوله ميخائيل وجبرائيل يحرسانه .



الرسم (45):
بافتين، النقش الأثري في الكنيسة الشرقية.
وتمثـل عمود سـمعان الكبير (تشالينكو)





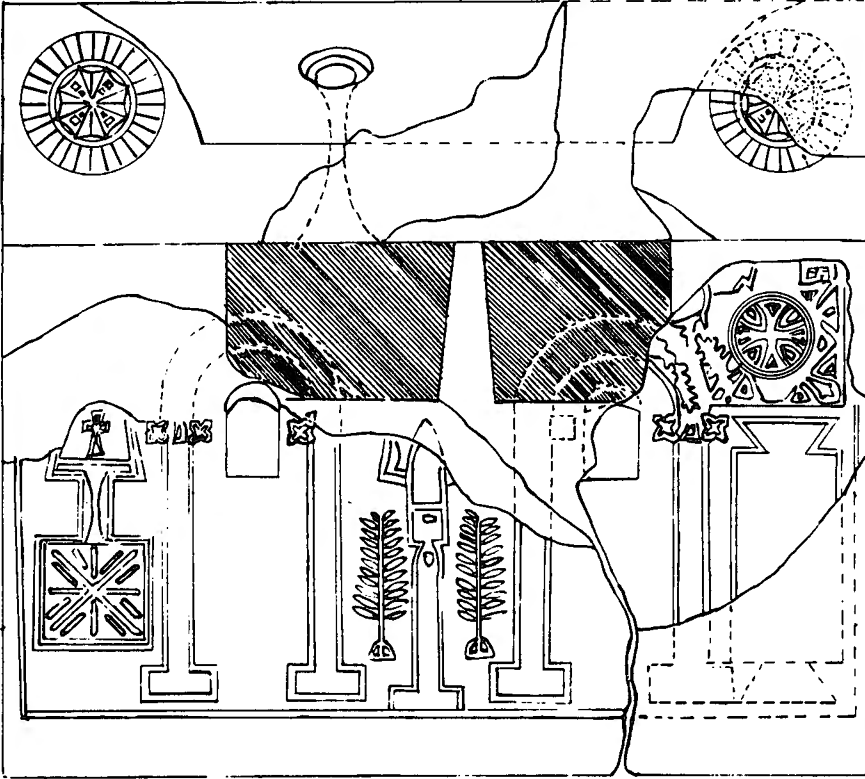


الرسم (46):
التعويذة الزجاجية في دير سمعان.

ونجد في المذاخر التي عثر عليها في شمال سورية مذاخر تحمل رموز العموديين، وهذا يعني دون أي شك، أن ذخائر القديسين والشهداء العموديين قد وضعت فيها.

آ- مُذْخَر الكنيسة الشرقية في بحيو :

وهـو مذخر مزدوج، فقد نقش وسط واجهته الرئيسية: العمود، النافذة الصغيرة، العمـودي وقـد رسم بشكل مثلث بيضوي، شجرتان. وعلى اليسار نرى رسماً ينتهي بصليب، ومن المحتمل أنه يتعلق براهب حبيس [58] (الرسم/47) .



الرسم (47):
بحيو، مذخر الكنيسة الشرقية (تشالينكو)

ب- مذخر الكنيسة الشمالية في باشمشلي :

وهـــو المذخر الرئيسي في كنيسة الشهداء، ويبلغ قياسه ٣٤×٨٤سم، وفي وسطه عمـــود بـــارز صغير، ينتصب على قاعدة ذات نتوءات ثلاث، وعليه تاج يرتكز عليه الوعـــاء الـــذي يجمع به الزيت المقدس. على يمين العمود رسم لزهرة صغيرة، تأخذ شكل صليب مالطة، وعلى يسار العمود مربع يعرف بخاتم سليمان[٢٠]، وعليه إشارات ألفية[٢١]. (الرسم/ 48)

العمود الصغير الذي ينقش على مذخر ما، بين رموز مسيحية أخرى، لا يمكن أن يكـــون له إلا معنى ديني فقط. لذا يبدو من المنطقي أن نعتقد أن هذا المذخر هو مذخر عمودي.

ج- مذخر الكنيسة الشرقية في بافتين :

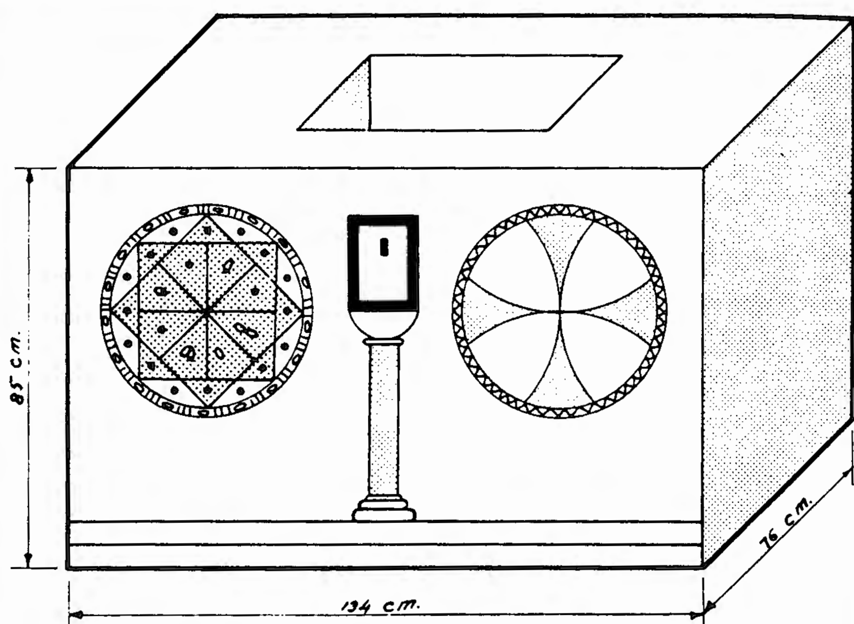
هذا المذخر مزين بعمود صغير ينتهي بكأس كان يتجمع فيه زيت الوعاء. وعلى يســـاره ويمينه يوجد صليب ذو قرنين[٢٢]، مميز لهذه المنطقة. (الرسم/49) وهناك مذخران مماثلان محفوظان في الكنيسة الغربية في باقرحا (الرسم/50 و51) .

---

(٢٠) خـــاتم سليمان : وهو بحسب الأساطير الشعبية الخاتم السحري الذي مكن الملك سليمان من السيطرة على الجان. ورمزه مؤلف من مربعين يشكلان نجمة ثمانية، يوضع بين أضلاعها رموز سحرية بحسب الحاجة، وكان يعتقد بأنه لا يزال يملك الكثير من قواه الأولى، لذلك نقش هذا الرمز على الخواتم، ورسم على الحجب، وبين الكتابات السحرية، وما زال معروفاً حتى اليوم .

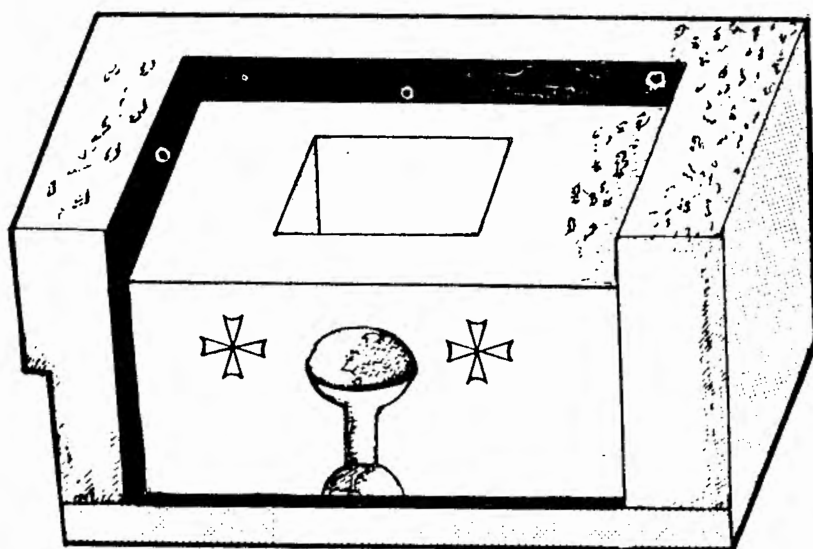
(٢١) الألفية : هي معتقد ديني نشأ في أوساط المسيحيين الذين هم من أصل يهودي، وهو يعود إلى استمرارهم في الاعـــتقاد بالمسيحية الزمنية. أي إن المسيح سيعود إلى هذا العالم محاطاً بالقديسين ليملك في الأرض ألف سنة قـــبل نهاية العالم وقيامة الموتى. ولا تزال هذه المعتقدات تجد صدىً لها حتى هذه الأيام ونجد آثارها في أقوال يتناقلها العامة مثل، الدنيا لا تؤلف، أوتؤلف ولا تؤلفان. وكلما اقتربت التقاويم من نهاية ألف نجد دعاة جدداً لهذه العقيدة يعتقدون بفناء العالم وينشطون لدعوتهم .

(٢٢) إن الصليب المنقوش على مذخر كنيسة بافتين الشرقية، والذي يظهر في الرسم 49، والمكرر على يمين ويسار العمود، هو صليب سوري (مالطي)، وليس صليباً ذا قرنين كما أورد المؤلف .



الرسم (48):

باشمشلي : مذخر الكنيسة الشمالي



الرسم (49): بافتيــن

مذخـــر الكنيســة الشــرقية

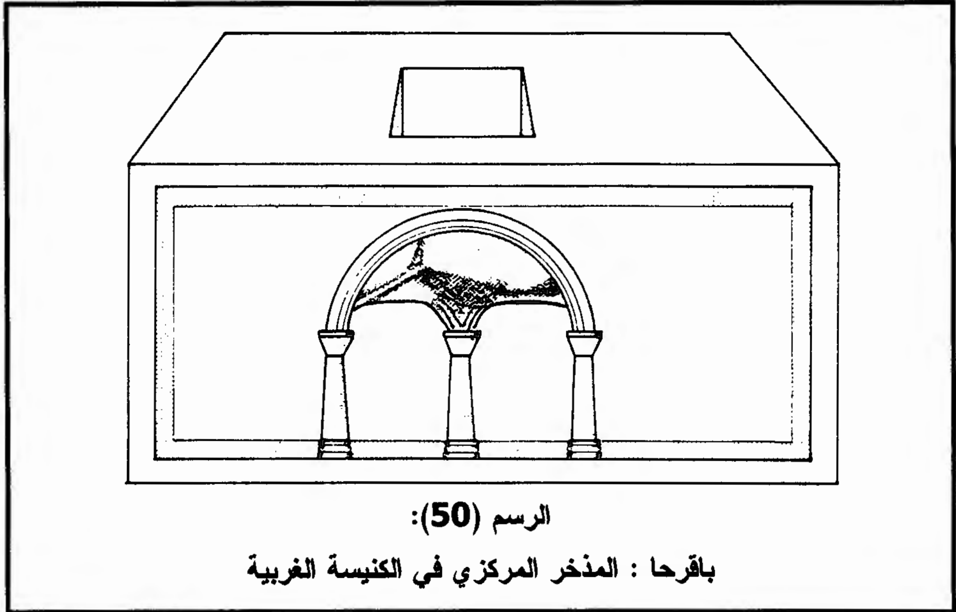
٦- الأعمدة التعبدية الصغيرة :

نشـــير بهـــذا العنوان إلى أعمدة صغيرة بارزة، ذات طابع نذري، تزين سواكف الأبـــواب وركائزها، وفرجات ما بين النوافذ، أو على أعمدة منحوتة في الإسطبلات، وهي موجودة بكثرة في آثار سورية الشمالية.

ديـــر ســـمعان : وجدنـــا ســـتة أعمدة صغيرة في الإسطبلات، عمودان في الموقع/ آ، وعمـــودان فـــي الموقع/ ب، وعمود في الموقع/ ج، وعمود في الموقع/ د، وهناك عمودان صغيران توأمان، بالقرب من الكنيسة الجنوبية الغربية. وهما في الفرجة ما بين النافذتين .

زرزيتا (٢٣): يوجد عمود صغير يزين قاعدة معلف في القسم الشمالي من المنطقة الأثرية .

قـــيمار : فـــي إسطبل، يقع شمال المنطقة الأثرية، يوجد أربعة ركائز تفصل بين المعـــالف، وهـــي مزيـــنة على الشكل التالي : الأولى : مزينة بشجرة يتوجها صليب منقوش. والثانية والثالثة : مزينتان بعمود صغير. والرابعة : مزينة بعمودين صغيرين توأمين. (اللوحة/21 ، الرقم/1) ويوجد عمود صغير آخر يزين الفرجة ما بين نوافذ بيت من القرن السادس يقع غربي الكنيسة .



الرسم (50):

باقرحا : المذخر المركزي في الكنيسة الغربية

---

(٢٣) زرزيـــتا : مزرعة في هضبة حلب الغربية، على السفح الجنوبي الغربي لجبل القاطورة، على بعد ٤ كم غرب دارة عزة. كانت عامرة في العهد البيزنطي، ولا تزال فيها بقايا كنيسة ومقابر وآبار.

كفــر نــبو[٢٤]: على الطرف الجنوبي للمنطقة الأثرية، نجد إسطبلاً فيه الركائز الأساســية الأربــع، وهي مزينة من اليسار إلى اليمين: الأولى، عليها رسم على شكل وردة ذات ثمــاني وريقات. والثانية، عليها عمود صغير ينتهي بحجيرة وعلى قاعدتها صــليب. والثالــثة، عــليها عمودان توأمان حلزونيان صغيران. والرابعة، عليها عدة صلبان مثمنة الأطراف.

بــرج حيــدر : يوجد عمود صغير يزين الركيزتين الأساسيتين لإسطبل يقع جنوب الكاتدرائية، التي تعود للقرن الرابع الميلادي. فقد كانت الدواب تربط مباشرة على العمود الصــغير لــلركيزة الشمالية، بوساطة فرضة صغيرة حفرت في محيط الركيزة. وهناك صليب ذو قرنين، لا يكاد يرى، رسم تحت قاعدة العمود الصغير (اللوحة/22، الرقم/1) .

خــراب شمس[٢٥]: وجدنا ستة إسطبلات، وكل منها قد ازدان بعمود صغير. وفي الإسطبل الواقع غربي الكاتدرائية التي تعود إلى القرن الرابع، نجد أن العمود الصغير يحمل صليباً. وفي الإسطبل الواقع على بعد ٤٠م، شمالي هذه الكاتدرائية، ينتهي العمود الصغير بحجيرة مثل حجيرة كفر نبو. أما الأعمدة الصغيرة الأخرى، فتقع في أطراف الخرائب الغربية والجنوبية الغربية .

داحــس : يوجــد عمــودان صغيران يزينان أطراف ساكف باب السكرستيا في الكنيســة الغربية. وهناك أيضاً عمودان توأمان صغيران يزينان الفجوات ما بين نوافذ الــدار، الــتي تطل على قبة غرفة السكرستيا، في الكنيسة نفسها. وكان عمود صغير خامس يزين الفجوات ما بين نوافذ بيت يقع جنوب الكنيسة الشرقية .

---

(٢٤) كفــر نبو : وقد حرف اسمها إلى كفر نبي. وكفر نبو تعني مزرعة نبو، وهو من أشهر الآلهة البابلية القديمة. وهــو إله الخصب وعلى اسمه كانت أسماء ملوك مشهورين مثل نبو نيد، ونبو خذ نصر. وكفر نبي الآن قرية في جبل حارم، على السفوح الجنوبية الشرقية لجبل باريشا، على بعد ١٢كم شمال غربي معرة مصرين بمحافظة إدلب. وهي قرية قديمة فيها آثار بيزنطية ورومانية .

(٢٥) خــراب شمس : موقع أثري في جبل سمعان، على بعد ١٦كم جنوب غربي ناحية نبل منطقة إعزاز محافظة حــلب، فيه آثار رومانية وبيزنطية هامة تشغل رابيتين كلسيتين، منها كاتدرائية وكنيسة، وبقايا أبنية ومدافن وصهريج ضخم .

كوكـنـاية : يوجـد عمـودان صغيران، وعليهما نجيمات، وهما يزينان المدخل الرئيسـي لـدار تقع وسط الأنقاض. وكان عمود صغير آخر، قد حفر على بلاطة في رواق الطابق الأول لدار، تقع هي الأخرى، في وسط الأنقاض .

بحيـو : يوجـد بـاب يقع على بعد حوالي أربعين متراً غرب الكنيسة الغربية، وسـاكفه مـزين في وسطه بعقدة وردية، وبعمود حلزوني صغير على اليسار، وكوة صغيرة على اليمين، قد تكون رمزاً لحبيس .

باريشا الشمالية (٢٦): يوجد عمود صغير نقش على ركيزة معلف يقع غربي الكنيسة.

دير سيتا(٢٧) : يوجد ساكف باب، وقد أزيح عن مكانه، مزين بعمودين صغيرين (اللوحة 2:22) .

كفر عروق : يوجد عمودان صغيران محفوران على ركائز باب (الرسم/52) .

كفـر دريـان : توجد على ركيزة بوابة، اختفت الآن، وإلى جانب خاتم سليمان، يمكن رؤية عمود صغير رفيع تتوجه حجيرة (الرسم/ 53) .

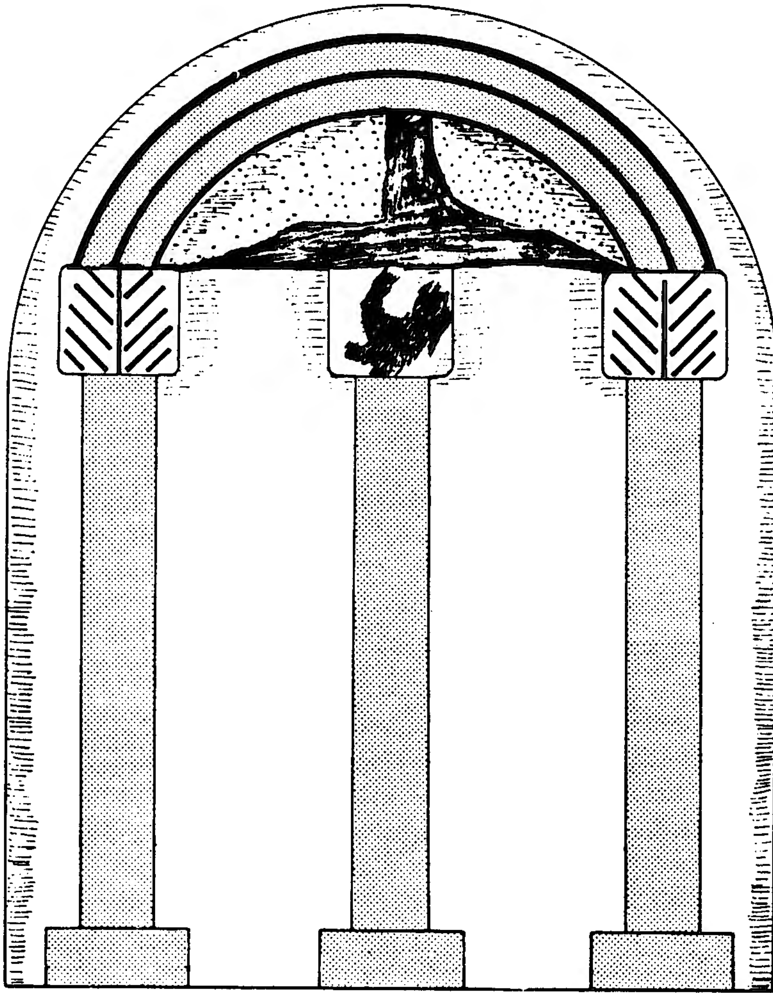
جـرادة(٢٨): يوجـد عمود صغير محفور على عمود الرواق الجنوبي لدار فخمة، حيـث يمكننا أن نقرأ على الباب الرئيسي للقاعات الكتابة اليونانية التالية : " إله واحد والمسيح "، وهي إشارة واضحة إلى الرهبان العموديين .

---

(٢٦) باريشا الشمالية : قرية أثرية قرب باريشا، تمتد آثارها على مساحة واسعة فيها كنيسة وعدة أبنية أثرية هامة.

(٢٧) ديـر سـيتا : موقع أثري لبلدة قديمة، تقع على السفح الشرقي لجبل باريشا. عمرانها يعود إلى القرن الثاني الميلادي، وقد ازدهرت في القرن السادس الميلادي، فيها آثار كبيرة لمبان سكنية وبرج مراقبة للطريق الروماني القديمـة ما بين أفامية وسيروس، وفيها معبد وثني ودير وكنيستان من القرن السادس الميلادي وجامع أيوبي، وهي تتبع قرية قوقنايا في منطقة حارم بمحافظة إدلب.

(٢٨) جـرادة : مزرعة في جبل الزاوية، ناحية الدانة، على بعد ٩ كم شمال شرقي معرة النعمان بمحافظة إدلب. وهي غنية بآثارها التي تعود إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين، فيها معابد ومدافن رومانية ودارات غنية فخمة وأبراج بعدة طوابق مع كنيسة وسوق تجارية .



الرسم (51):

باقرحا : المذخر الجانبي في الكنيسة الغربية.

لدراسة أكثر شمولية لأيقونوغرافيا العموديين عليك أن ترجع إلى مقال ر. فرنانديز ((الرسوم الممثلة للعموديين)) في مجموعة " كوليكتانيا " ، القاهرة ١٩٨٥ ، الرقم /١٨، ص / ١١٥ - ١٥٢ / .



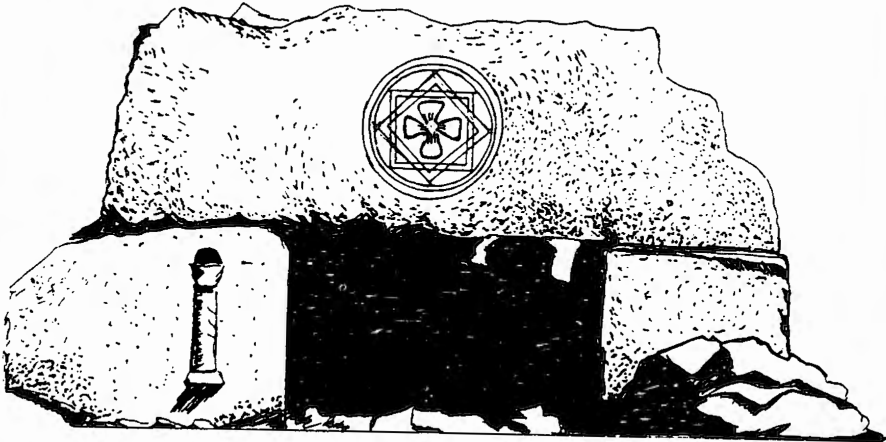
الرسم (52):

كفر عروق:

أعمدة صغيرة محفورة

على ركائز باب.

(ماتيرن)



الرسم (53):

كفر دريان: عمود صغير محفور على ركيزة بوابة. (ماتيرن)

وعـــندما وصـــف الأب ماتيرن العمود الصغير في كفر دريان، كان أول من لاحظ العلاقـــة بين هذه الأعمدة الصغيرة وبين العموديين، يقول : "يمثل الرسم البارز عموداً مع قاعدتـــه المـــربعة.. وهـــنا، كما كتب الأب جرفانيون، إن مجاورة مكان حج على شرف راهب عمودي، لا يسمح بالتردد بتفسير معنى هذا الرسم البارز"[59]. أما ج. لاسوس فلا يقـــبل هـــذه الـــنظرية[60]، لكن سيريغ في وصفه للعمود الصغير في رفادة، يعود ليأخذ بنظرية الأب ماتيرن، ويربط بين هذا العمود وبين الأيقونوغرافيا العمودية[61].

فـــنحن هـــنا أمـــام رمز مسيحي، وذلك لأن هذه الأعمدة الصغيرة قد نقشت على سواكف الأبواب، في نفس الوقت الذي نرى فيه صلباناً نقشت على أشكال نجمية، وفي بعـــض الأحيـــان تحـــل محلها، ونراها أيضاً في الكنائس. وما وجود هذه الأعمدة في الإســـطبلات إلا لتشهد عما تمثله من إشارة دينية ترمز للحماية. وينبغي الإشارة أخيراً إلى أن أغلبية هذه الأعمدة توجد في الأماكن التي كان فيها تكريم العموديين هو الأكثر انتشـــاراً. ومـــا يمكنـــنا استنتاجه هو أن هذه الأعمدة الصغيرة أتت لتعبر عن التقوى والتكريم، إذ إن الغرض من نحتها هو أن يطلب من القديس العمودي أن يحفظ ويحمي البشر والدواب من كل أنواع الأذى .

الفصل السادس

رمزيـــة الرســـوم الممثِّلـــة للعمـــوديين

ســبق أن قلــنا إن الفــن السوري، في العصور الأولى، بدا شحيحاً في الرسوم البشــرية، باستثناء الرسوم التي تمثل العموديين. لذلك، وبعد أن درسنا الرسوم العديدة الممثــلة لــلعموديين الــتي وصلت إلينا حتى اليوم، كل رسم على حدة، كان علينا أن نعترف بأن غالبيتها تخلو من الدقة والنعومة، وهي غالباً ما تكون طفولية، وفي منتهى التبســيط أحياناً، لدرجة يكاد يصعب التعرف عليها. فلماذا رسمت على هذا الشكل من التبسيط ؟

"مــن المؤكــد أن سهولة الرسم، عمود وتمثال نصفي، وبعض العناصر المكملة أحيانــاً، كانت كفيلة بشد النحاتين المتمرسين على الدقة بالفن التزييني، ولكن ينقصهم عادة التعامل مع الوجه البشري .

ومن الممكن أيضاً، وعلى الأقل بالنسبة إلى رسوم المنطقة ذات الحجارة الكلسية، الــتي هي أقل ندرة، أن يتم رسم العمود دون العمودي، أو الاكتفاء، بشكل عام، بنقش العمودي رأساً صغيراً مستديراً يبرز فوق حجيرته، وبهذا يتيحون لأنفسهم سهولة أكثر بصنع صورة منحوتة، ويعطونها من ثم دوراً ثانوياً في التزيين" (62).

أما نحن فإننا لا نشارك ج. لاسوس في فكرته السابقة، إذ إنه ينبغي ألا يُبحث عن الســبب فــي عدم قدرة الفنانين السوريين، فهل يعقل أن يخلو من الموهبة ذلك الفنان الــذي نقــش النحت الصغير المنمنم في داحس ؟ إن ما علينا الأخذ به، هو أن طريقة تصــوير العموديــن عــلى هذا الشكل تتجاوب مع لاهوت الصورة، أي مع تصوير

الموضوعات الدينية من خلال الرموز وقد استخدم الفنانون الوثنيون هذه الطريقة قبل المسـيحية. وعلى كل حال، كانت هذه الطريقة الوسيلة الطبيعية، لا بل الوحيدة نوعاً ما، لدى المسيحيين السوريين لتصوير الموضوعات الدينية .

وهـنا تفـرض ملاحظـة نفسها : فالمسيحية دخلت سورية، ودخلت كنائس آسية الصغرى وهي تحمل طابعاً يهودياً واضحاً. بالإضافة إلى أن منطقة المرتفعات الكلسية السورية التي يتكلم سكانها السريانية، كانت على الدوام، بسبب موقعها الجبلي، المنطقة الأكـثر انغلاقاً أمام المؤثرات الأجنبية، كالتأثير اليوناني الآتي من الغرب، أو التأثير الفارسي الآتي من الشرق. وهذا الموقع يفسر لنا لماذا حافظت هذه المنطقة من سورية الشمالية، بتدين كبير، على التقاليد المسيحية الأولى .

وبحسـب الدراسات التي قام بها الأبوان باغاتي وتيستا، كان لعلم الأسرار الدينية لـليهود المسيحيين، أثر كبير في سورية. وعليه يمكننا أن نكشف كل رمزية الصليب الـتي عُـبر عـنها في نقشه على الأقراص أو الأشكال النجمية، وعلى سائر الرموز الموجودة في هذه المنطقة من سورية الشمالية .

ولفهـم هـذا الـتأثير اليهودي المسيحي، يكفي التفكير بالجاليات اليهودية العديدة والقويـة في سورية، في أنطاكية، وفي حلب، وفي دورا أوروبوس، وفي دمشق، إلى آخـره. وتكفـي أيضاً قراءة عظات القديس يوحنا فم الذهب، الذي يتهم فيها مسيحيي أنطاكيـة بمحافظتهم على العادات والأعياد اليهودية، بالرغم من القوانين الصادرة من مجمع نيقية. وكان اليهود المسيحيون مثل اليهود يقرون تحريم تصوير الوجه البشري. لذلـك راحوا يبحثون عن إشارات قديمة معقدة في الغالب للتعبير عن معتقداتهم، دون تخليهم عن التأثيرات الصادرة عن المدارس الفلسفية المعاصرة .

إن الإشـارات والـرموز الـتي تكشف، بشكل قاطع، هذا التأثير هي : الصليب ذو القرنين، النجمة المعروفة بنجمة داود أو نجمة سليمان، والإشارات المتعلقة بالملائكة. فهذه الـرموز، ذات الطـابع اليهودي المسيحي، موجودة بكثرة في المواقع التي كان يكرم فيها العموديون، كما في كفر دريان، وبفتين وتل عادة، وتل نيشين، وقلب لوزة، وما إلى ذلك.

وهكـــذا، انطلاقاً من العقلية الشعبية التي تماشوا معها، صور الفنانون السوريون مختــلف مــراحل حيـــاة العموديين وصفاتهم وفقاً لقواعد الرمزية المسيحية في ذلك العصر.

١- الملائكة حملة الأكاليل :

هــؤلاء هــم رؤســاء الملائكــة، ميخائيل وجبرائيل، اللذان عرفا شعبية كبيرة في ســورية، فقد كرس لهما عدد كبير من الكنائس الكبيرة والصغيرة، ومن القرى أيضاً[٢٩]. وغالــباً ما نرى هذه الأحرف اليونانية (ΧΜΓ) وهي الأحرف الأولى من أسماء المسيح، ميخائيل، جبرائيل[63].

وبحســب المعــتقد الشــعبي فــي ذلك العصر، كانت لرئيسي الملائكة ميخائيل وجبرائيل مهمة حماية أرواح الصديقين من الصعوبات في أثناء رحلتهم إلى دار النعيم الســماوي. فكانا يحملان الأرواح إلى السماء. وهما من ينفذان العدالة الإلهية (ميزان القديس ميخائيل). وهما أخيراً اللذان يساعدان المعوزين ويقدمانهم إلى الله. وغالباً ما كانا يصوران في الوقت الذي تمنح فيه مكافأة السعادة الطوباوية للصديقين[64].

فالإكــليل، والشجرة، وسعفة النخل هي رموز للحياة الأبدية، وللحكم الالهي، كما هــي دلالــة عــلى المكافأة[65]. وكثيراً ما يرد الإكليل في العهد الجديد، وفي كتابات القديسين، بمنزلة رمز .

"طــوبى للرجل الصابر على المحنة، سيخرج مزكى وينال إكليل الحياة، الذي به وعد الرب من يحبونه" (يعقوب 12,1.)

" متى ظهر راعي الرعاة، تنالون إكليلاً من المجد لا يذوي" (1 بطرس 4،5).

" فكن أميناً حتى الممات، وأنا أعطيك إكليل الحياة " (رؤيا 2، 10) .

---

(٢٩) نرى أثر هذه الشعبية، وإن تقلصت الآن، في التسميات. فقد ضرب هذان الاسمان رقماً قياسياً بتسمية أبناء المسيحيين في سورية، فاسم ميخائيل وتحويراته: ميخا ومخول وميشيل. واسم جبرائيل وتحويراته كجبرا وجبور وجبران، من أكثر الأسماء شيوعاً.

"يحضـــر الصديقون إلى الجنة وهم يحملون أغصاناً مليئة بالثمار والزهور – هي مكافآتهم – "ومنها تضفر الأكاليل". (القديس أفرام، النشيد السادس) .

وغالباً ما كانت الأكاليل ترسم على القبور وعلى التوابيت الحجرية .

٢- الحمامة والإكليل وألسنة اللهب :

الحمامـــة هي الصورة الإنجيلية التي تمثل الروح القدس، باستثناء بعض الحالات الـــتي ترمـــز فيها إلى المسيح. ومن الملاحظ أن رئيس الملائكة القديس ميخائيل كان يرمز أيضاً إلى المسيح. بينما سمي القديس جبرائيل في الكتب المنحولة "ملاك الروح القـــدس"(66). فرئيســا الملائكة والحمامة، التي تكلل رؤوس الصديقين، تعبر كلها عن الفكـــرة نفســـها، ولكـــن في حين يصور رئيسا الملائكة على ميداليات البركات، نرى الحمامة تنقش على الصور المنمنمة .

والحمامـــة المصـــورة مع شعلة أو لسان من نار هي أيضاً صورة إنجيلية. فهي تذكـــر بتحول الرسل يوم العنصرة، فهي ترمز إلى انتقال الصديق إلى الحياة السماوية الجديـــدة. ولكونهـــا ترســـم إلى جانب العمودي، تشهد بأنه أصبح مواطناً في أورشليم السماوية، لأنه عاش في هذا العالم حياة طوباوية .

والحمامة المصورة على شعلة تشير أحياناً إلى فكرة أكثر سرية، وهذا مانراه في: (الرســـمين 31 و32). فالإكليل يحيط بلسان من نار، والنار مثل الإكليل فهي أيضاً رمـــز للديـــنوية الأخيـــرة مـــن زاوية العدالة، فهي ينبوع سعادة للصديقين، وعقاب للأشـــرار. يقول القديس كلمنص الإسكندري : "إن النار قوة تنجي ما هو صالح وتهلك مـــا هـــو شرير". وبحسب ما يقول أوريجينوس : المعمودية بالنار، التي يتحدث عنها الإنجيـــل، تشـــير إلى يوم القيامة، الذي هو يوم المكافأة "فبالولادة الجديدة الناتجة عن الاستحمام بالنار والروح نصبح متطابقين مع جسد مجد المسيح" (67).

فالحمامـــة، والنار، والروح القدس، والنور، هي أيضاً كلها أفكار ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعماد يسوع في نهر الأردن، وبارتفاع النبي إيليا على عربة من نار بالقرب من

الأردن : "سـيحدث لنا مثلما حدث لإيليا. فترتفع نفسنا في عربة من نار، وتنقل لتكون بيـن البدائع السماوية. وما نريد قوله هو أن نار الروح القدس الذي يرسله الرب إلينا، سيتوزع وينتشر على كل واحد منا على شكل لسان من نار" (68).

فمعموديـة المسيح، التي هي أكثر كمالاً من معمودية يوحنا، هي معمودية بالنار وبالـروح القدس. وكذلك كانوا يتصورون أن العمودي قد عُمد بمعمودية النار، بسبب حياتـه المليـئة بالإماتات والتأمل، ولذلك صوروه وهو يصعد إلى الجنة، وكأنه إيليا الجديد الذي يتلقى إكليل الخلود(69) .

٣ – الشجرة :

يظهـر الرسمان (36 و47) نبتة إلى جانب العمود. وهذه النبتة ترتبط ارتباطاً وثيقـاً بعمود العمودي. ومثل الإكليل، فإن شجرة النخيل هي رمز الرجاء في الآخرة والخلود أيضاً(70) .

"وتوالـت الـرؤيا، فـبدا لعيني جمع كبير لا يحصى من كل أمة وقبيلة وشعب ولسان. وكانوا قائمين تلقاء العرش وتلقاء الحمل، يلبسون حللاً بيضـاء بأيديهم سعف" (رؤيا ٧ ، ٩).

فشـجرة النخل الموضوعة جانب العمود تشير إلى أن العمود هو الأداة التي ربح بهـا العمودي السماء. والشجرة هي أيضاً رمز إلى صليب المسيح، فهي شجرة الحياة المزروعة وسط الجنة، التي هي بمنزلة المكافأة للمختارين .

"وشـجر الحياة في وسط الساحة، وعلى ضفتي النهر يثمر اثنتي عشرة مرة، كل شهر مرة، ويتشفى بورقه الوثنيون". (رؤيا ٢٢،٢٢)

"إن المسيح، وقد تمجد بعد قيامته، يرمز إليه بشجرة الحياة". (القديس جوستين)

وهنا نرى المقارنة اللاهوتية بين يسوع وآدم، وبين الصليب وشجرة الحياة(71).

وتأتي زجاجة سارافيان لتعبر عن ذلك بمـا تحتويـه من أشـجار يعلوهـا الصليب (الرسم/29) .

وهكـــذا فالشـــجرة ذات علاقـــة بصليب المسيح، الذي هو بدوره على علاقة مع عمود العمودي : فكما أن الصليب هو شجرة الحياة، فإن عمود العمودي هو الأداة لمكافأته السماوية.

٤ – الحية :

يصـــور الرسم (33) حية ما بين السلم وصورة العمودي، وغالباً ما كان أنطوان، وهـــو تلميذ القديس سمعان الكبير وكاتب سيرته، يشير إلى الدور الذي تلعبه الحية في حياة معلمه، فقد كان لثعبان ذكر إيمان كبير بقدرة العمودي، إلى حد أنه بعد زيارته له حصل على شفاء شريكته المريضة !

وبالاستناد على هذه الأساطير الغيبية طبقت الرمزية الكتابية[٣٠] بخصوص الحية، على شـــخص العمـــودي. ففـــي حديثه الليلي مع نيقوديمس يشبه يسوع نفسه بالحية النحاسية التي رفعهـــا موســـى في الصحراء، دواءً وشفاءً لكل الذين ينظرون إليها. وقد اعتبر المسيحيون الحية المرفوعة على خشبة رمزاً للصورة الخلاصية للمسيح على الصليب[72].

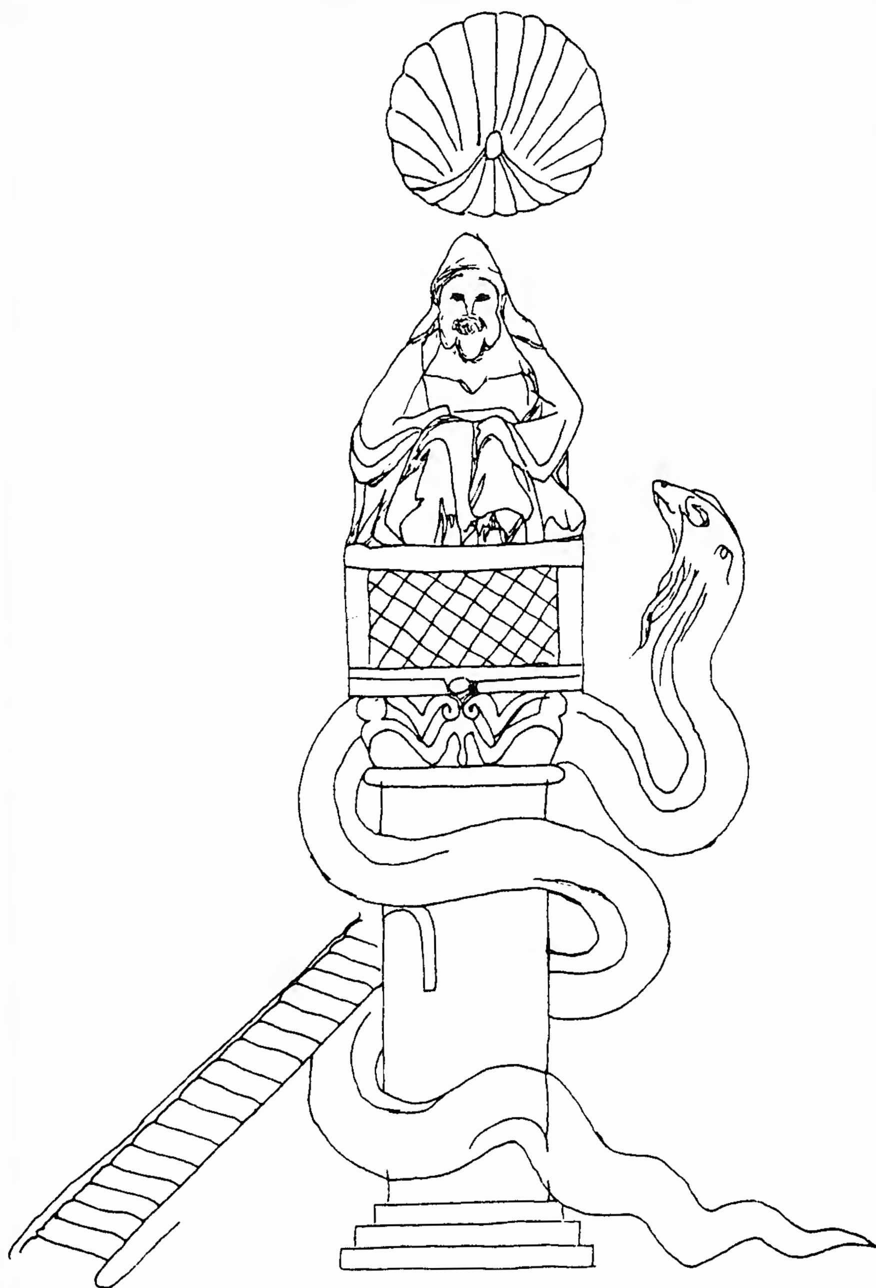
الأيقونوغـــرافيا البيزنطية للقديس سمعان الكبير تصور أحياناً حية كبيرة ملتفة حول العمود، وبسبب علاقتها الرمزية مع صليب المسيح، هي على علاقة مع عمود العمودي. وذلك لأن العمود هو سبب خلاص لأولئك الذين ينظرون إليه بإيمان (الرسم/54) .

٥- العمـــود :

لقد اعتبر عمود العمودي ذخيرة، ذات تكريم خاص كما يشهد على ذلك معبد قلعة ســـمعان، وعمـــود القديـــس سمعان. وفي كل تصوير للعمودي يظهر العمود عنصراً أساسياً. ويكفي أحياناً عمود واحد للدلالة على العمودي. كما تتضح العلاقة بين العمود، وبيـــن حياة العمودي التقشفية. ونحن نظن أن مسيحيي ذلك العصر قد ذهبوا إلى أبعد من هذه الرمزية الواقعية وأرادوا الإشارة من خلال العمود، إلى حقائق أخرى، أو إلى صفات القديس. وهذا يدل على أن صورة العمود قد اتخذت رمزاً مسيحياً.

---

(٣٠) الكتابية : نسبة إلى الكتاب المقدس.



الرسم (54):

القديس سمعان ذو الحية (تشالينكو)

آ- العمود- الصليب :

كان الخط العمودي والعمود يدلان على الصليب حتى قبل الحركة العمودية.

" كن على الدوام مكرماً لهذا العمود، فإن صلابة انتصابه ترمز إلى حرف اليوتا - I - اليوناني". (القديس بولان دي نولا)

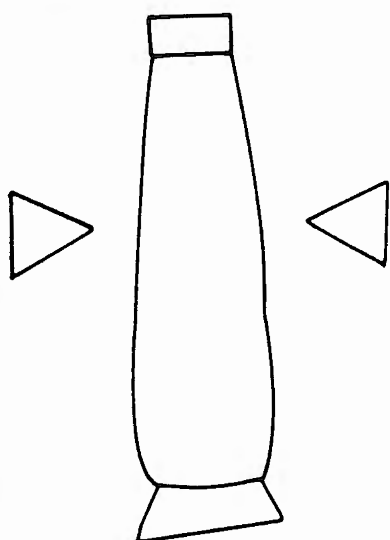
وهذا يعني أن الحرف " I " هو الحرف الأول من اسم يسوع، "هذا الحرف الذي يشير إلى جمال يسوع عند الذين يؤمنون به، ويسمعون له، هو حرف راسخ وثابت، مثل العمود". وإننا نرى مثالاً على ذلك في الرسمين (55 و 56)، فالعمود مع مثلثين هو صورة الصليب العادي، أما العمودان المرفقان بحمامتين وغصنين، فهي رموز مسيحية ترتبط بصليب المسيح(73).

وقد اتخذت رمزية العمود - الصليب بعداً معاصراً، بما جرى من تكريم للعموديين. فالرسم (44) يظهر عموداً بشكل صليب. ونرى هذا الشكل يظهر بشكل أوضح في الرسمين (36 و37)، حيث يرمز الصليب إلى العمودي نفسه، وهو ما نجده إذا ما رجعنا إلى الرسمين (43 و 46) .

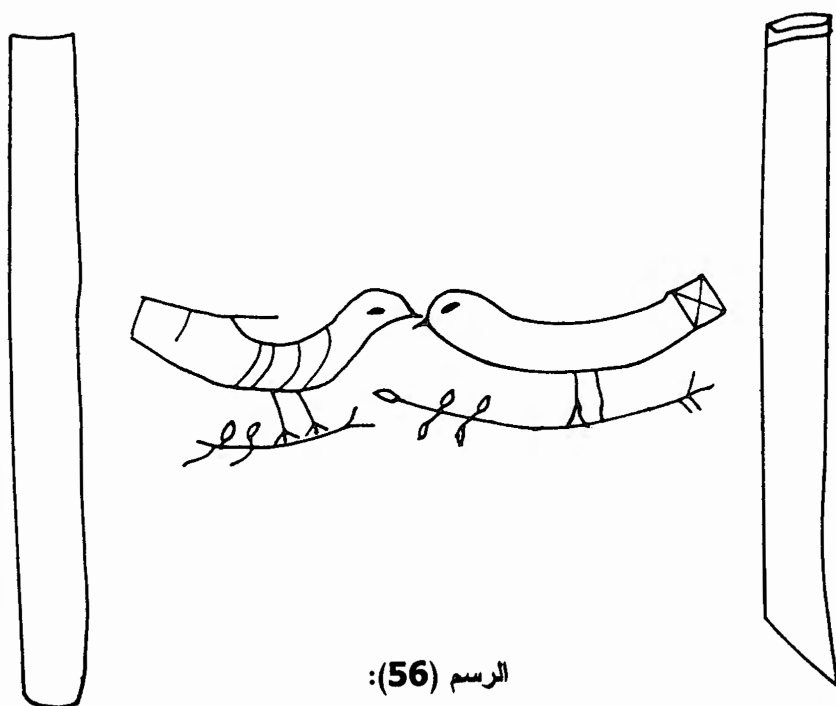
ومن خلال هذه الأيقونوغرافيا نصل إلى النتيجة التالية : تارة يرمز العمود إلى الصليب، وتارة أخرى يرمز الصليب إلى العمود. وذلك بتشبيه العمودي بالمسيح الممجد، والعمود بالصليب المخلص. ومما يساعدنا أيضاً على هذه المقاربات ما يوجد من شبه بين الصليب المشخص المرسوم على زجاجات مونزا وبوبيو، وبين أيقونوغرافيا العموديين، فكلاهما يرجعان إلى الحقبة نفسها (الرسم/57) .

ب- العمود - القضيب :

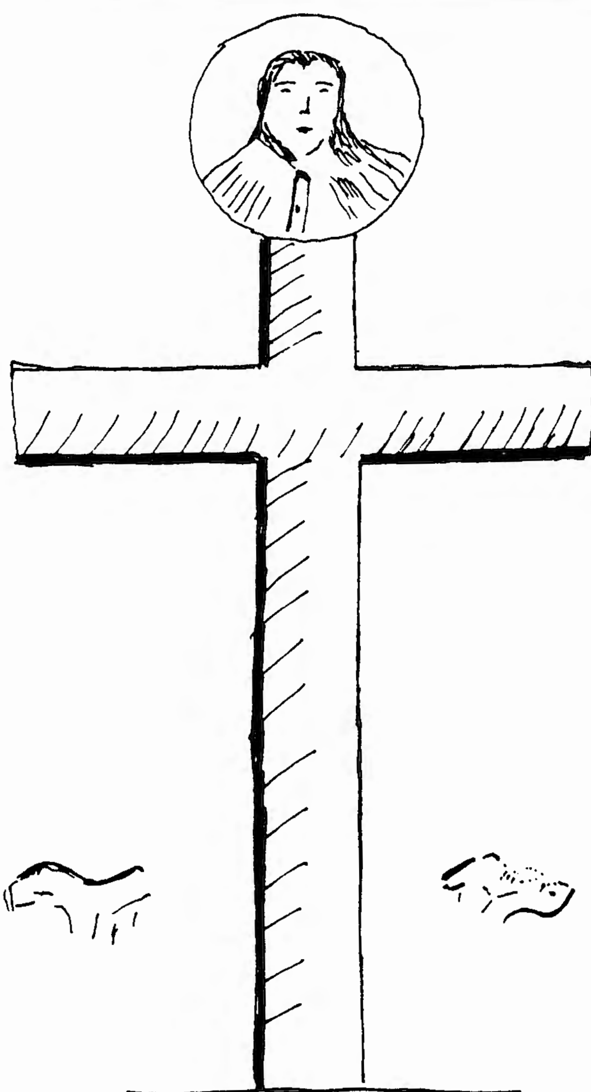
لقد تأثرت الرمزية المسيحية بعبادة القضيب الوثنية، التي لاقت انتشاراً واسعاً في الشرق. ولكن المسيحيين أعطوا لهذه العبادة معاني جديدة، إذ يؤكد الأب إ. تيستا في كتابه (الرمزية عند اليهود المسيحيين) أن الصليب قد رمز إليه أيضاً "بالقضيب"، وإن من أعز رموز الأمل لليهود المسيحيين هو الصليب - القضيب، الذي يرتبط بالماء وشجرة الحياة وبنبتة النفل ذات الوريقات الثلاث، وبالعقيدة الألفية، وبالمربع الكوني وبالصليب ذي القرنين(74).



الرسم (55):
العمود الصليب. (تيستا)



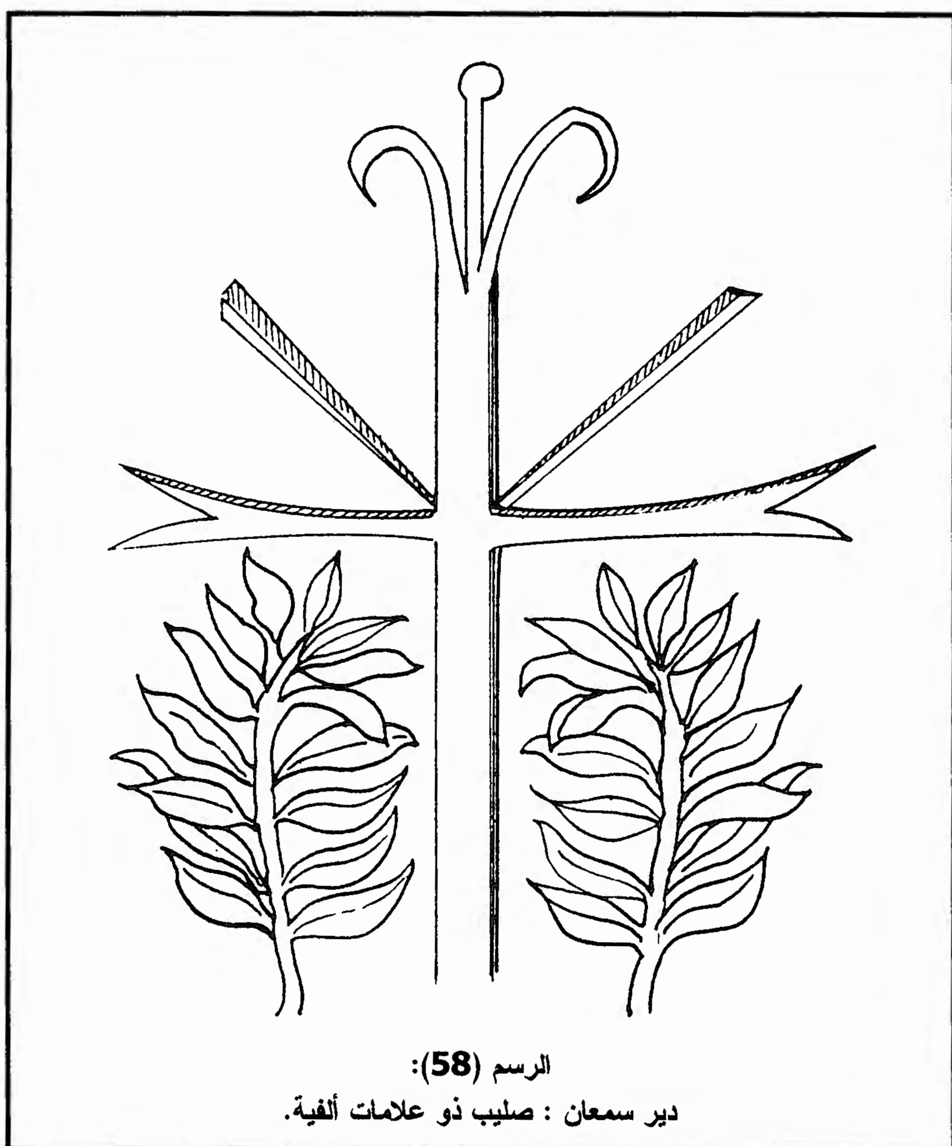
الرسم (56):
عمودان وحمامتان (تيستا)



الرسم (57):

الصليب المشخص (تيستا)

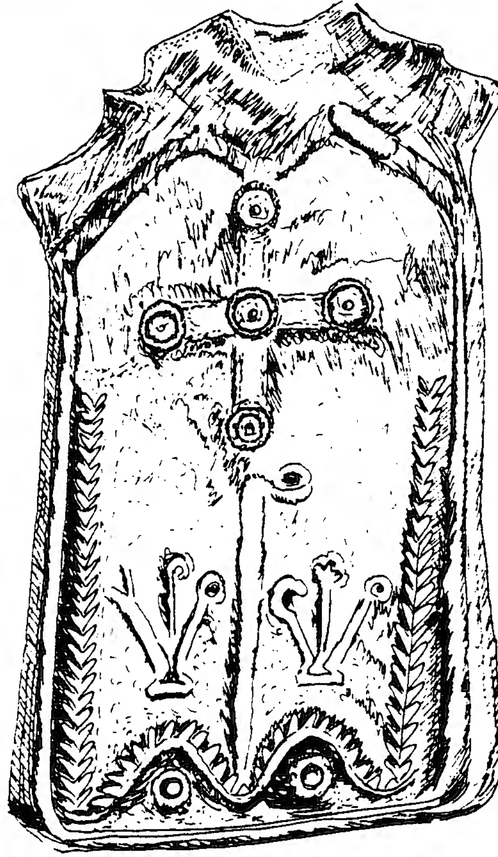
وهـذه العناصـر المذكورة كانت شائعة بكثرة في المناطق التي انتشر فيها تكريم العموديين، وهي غالباً ما تترافق مع رسومات الأعمدة. وهي تدلنا على ما يقوم بينها من تـآزر رمـزي، ممـا يعني أن صورة العمود نفسها كانت ترمز أيضاً إلى هذه النظريات القضيبية المسيحية[75] (الرسمان/ 58 و 59) .



الرسم (58):
دير سمعان : صليب ذو علامات ألفية.

ج- النافذة الصغيرة :

لفـــت انتباهـــنا أمـــر غريب في هذه النقوش، فأغلب جذوع الأعمدة كانت مزودة بـــنافذة صغيرة، وتساءلنا عن دورها. يعتقد لاسوس، ويتبعه في ذلك رايت، أنه ينبغي وجـــود فوهة لتصريف المياه الوسخة. ولكن هذا التأكيد لا يرضينا، فلنأخذ مثالاً وهو النقش الموجود في حماه (راجع الرسم/32)، والذي يحتوي على أربع نوافذ صغيرة.



الرسم (59):
ظهر زجاجة سارافيان: الصليب وعلامات ألفية (لاسوس)

ووفقـــاً لمفسري الرسم السلافي – البيزنطي، حيث تصور عادة أعمدة العموديين علـــى شـــكل أبراج مثل أبراج الأجراس في كنائسنا، وهي مزودة بدرج داخلي، كانت هذه النوافذ الصغيرة مناور للدرج. ولنذكر مع ذلك أن رسوم الأعمدة – الأبراج جاءت فـــي مـــرحلة لاحقة للزمن الذي نتكلم عنه. إضافة إلى ذلك أعمدة العموديين التي قمنا بـــزيارتها، وخاصـــة أعمـــدة قلعة سمعان وتل نيشين وقيمار وتل عادة وكفر دريان وإرحـــاب، كانت كلها دون أي استثناء، أعمدة من كتلة واحدة. وهي من ثم خالية من الدرج الداخلي. وعمود تل عادة الذي حفر فيه تجويف مســـتطيل بقيـــاس ٣٠×٢٠سم،

دون وجـــود اتصال داخلي فيه، لم نشاهد فيه النافذة الصغيرة، التي كنا نظن أنها يجب أن تكون فيه.

لقد كانت هذه النوافذ أو الفتحات تستخدم بحسب الظروف : لوضع مصباح نذراً، أو لوضـــع ذخيـــرة إشارة إلى العمودي الذي قدس العمود. ولا ننسى أن العمود كان مركز حج حتى بعد موت الناسك العمودي .

٦- السُـــلّم :

الســـلم، الذي يؤلف عنصراً من عناصر كل عمود عمودي، لم يخلُ هو أيضاً من الرمـــزية، حتى ولو بدا أحياناً عنصراً بسيطاً في اللوحة (راجع الرسم/36). فالسلم الـــذي يرتبط بشجرة الحياة وبالحية هو رمز الفداء، وهو بحسب رمزية السلم الكوني وسيلة الصعود إلى السماء[76].

"إن يعقـــوب أيضـــاً وهو في طريقه إلى بلاد الرافدين رأى " ابن الله " في الحلم صـــاعداً ونـــازلاً عـــلى ســـلم- صورة الصليب-، يصعد من الأرض حتى السماء. فبالصـــليب يصـــعد من يؤمنون به إلى السماء. وفي الحقيقة آلام سيدنا المسيح تشكل صعودنا إلى العلا"[77]. هذه الفكرة عبر عنها الكاتب السوري مار أفراهاط[78].

كان السلم إذن يعني صليب المسيح بالذات، الذي به نصعد إلى المجد، والذي هو عـــلى صـــلة بشـــجرة الحياة وبالحية -الصعوبات- وبالملائكة. فقد كانوا يتصورون العمـــودي ملاكـــاً، مواطـــناً ســـماوياً، وهو يستخدم العمود سلماً ليصعد إليها. وكانوا يضعونه كالمسيح، في الطرف الأعلى من السلم، في الجنة .

الفصل السابع

هل العمودية ولادة جديدة للوثنية ؟

مع أن العمودية لم تكن الشكل الوحيد للتقشف الذي اتبعته الرهبنة السورية، هناك أشـكال أخرى تحدث عنها تيودوريطس القورشي في كتابه " التاريخ الديني "، فلماذا كـانت نمط الحياة الوحيد الذي صار لـه أتباع ؟، ولماذا تمتع بشعبية كبيرة جداً لدى مسـيحيي العصور الأولى ؟ " وبحسب اعتقادنا يجب ألا نبحث عن السبب بعيداً عما أحدثه العمودي الأول من تأثير عجيب. إذ لا يمكن أن تقرأ سيرة القديس سمعان، دون الـتأثّر بالجمـال المتـناغم لهذا الوجه الفريد في تاريخ الرهبنة، وبهذه النفس البريئة والنشـيطة الـتي رفعها التجرد المطلق عالياً جداً، والتي تنحني بمزيد من الحلم تجاه الذيـن يشعرون أنهم مرهقون تحت أحمال بؤسهم وخطاياهم"[79]. فهذا الوجه اللطيف لـلقديس سمعان، الذي عرف كيف يجمع ويزامن بين جميع أشكال التقشف المسيحي، كان موضوع إعجاب وتكريم من قبل معاصريه، ومن الأجيال التالية .

ومـع ذلـك، يرى بعض الكتاب في العمودية ولادة جديدة للعبادات الوثنية، التي كـانت تمارس في مدينة هيرابوليس " منبج "، فيقولون : "إن الشعب السوري، بوعي مـنه أو بـلا وعـي، راح يطـبق على سمعان صورة وصفات الإلهة السورية، إلهة الخصب"[٣١]. وحاولوا أن يجدوا تأكيداً لفرضيتهم في العجائب التي قام بها سمعان، فقد سـاد فيهـا بحسـب زعمهم، شفاء النساء العقيمات. وأن العمود كان أيضاً مركز حج ورقصـات ديـنية، "ليست العمودية إلا خلاصة إرث وثني، يتوافق فيها القضيب مع صـليب المسيح". بالإضافة إلى أن المثلث، في نقش رسم النفل، (راجع الرسم/39)،

---

(٣١) الإلهة السورية : هي عتر جاتيس راجع الحاشية رقم /13 ، الفصل الأول .

هو ذو صلة برموز الإله مردوك في بلاد الرافدين، وهو إله الزراعة والنبات. فالمثلث هو رمز الفلاحة. كما صور الإله مردوك بشجرة الحياة وبالحية(80).

ودون استبعاد آثار الوثنية في طقوس تكريم العموديين،كما يستحيل استبعاد فكرة البطل اليوناني في طقوس تعظيم الشهداء المسيحيين، يمكننا الجزم بشكل قطعي بأنه ينبغي علينا البحث في المسيحية عن التفسير الصحيح للحركة العمودية .

ويجب ألا نستغرب كثرة تكرار معجزات الشفاء التي تحصل للنساء العقيمات حول أعمدة العموديين. مع أن هذا النوع من المعجزات لم يكن حكراً على العموديين، فقد كانت تتم أيضاً بمناسبة الحج إلى قبور الشهداء. وقد وصفها تيودوريطس القورشي بما يلي: "إن الذين هم بصحة جيدة يطلبون دوام الصحة. أما المرضى فيطلبون الشفاء. والذين ليس عندهم أولاد يتضرعون إلى الشهداء ليرزقوهم بها. والنساء العقيمات يسألنهم أن يصبحن أمهات. والذين يحظون بهذه البركة يبتهلون إليهم لكي تدوم عليهم. والذين هم على وشك السفر يريدون منهم أن يرافقوهم في الطريق ويقودوهم، ولدى عودتهم إلى بيوتهم يعربون عن عرفانهم بالجميل. وهم لا يقصدونهم بوصفهم آلهة بل على أنهم أشخاص قديسون، فيطلبون شفاعتهم. والذين يسألون بإيمان يستجاب لهم، وتدل على ذلك بوضوح النذور التي كانت تقدم شهادة على شفائهم"(81). أما القديس باسيليوس فيعبر بالطريقة نفسها تقريباً عندما يتكلم معلناً بركات الشهداء.

ما يجب استنتاجه، من ثم، هو عدم وجود اختلافات جوهرية بين طقوس تكريم الشهداء، وبين طقوس تكريم العموديين. وحتى بما يتعلق بالأيقونوغرافيا، نجد التفسير لها أيضاً في المسيحية. وفي الحقيقة كل رموز الإله مردوك : الشجرة والحية والمثلثات، قد استخدمها اليهود المسيحيون(82). وبكل تأكيد نحن لا نجهل ما كان لديانات بلاد الرافدين الوثنية من تأثير في العالم اليهودي. ولكن اليهود المسيحيين قد أعطوها معاني جديدة. ولذلك لا ينبغي البحث عن رمزية الأيقونوغرافيا العمودية على ضفاف الفرات، بل في التأثير الذي أحدثته الجماعات اليهودية المسيحية العديدة المنتشرة في سورية.

حواشي القسم الثالث

(1) H. R., XXVI.

(2) Les, Saints Stylites, p. XXX; THÉODORE LE LECTEUR, Historia Ecclesiastica (MIGNE, P. G., LXXXVI, 172).

(3) H. R., XXVI.

(4) H. R., XXVI.

(5) Villages Antiques, I,p. 172.

(6) H. R., XXVI.

(7) EVAGRIUS, Historia Ecclesiastica, L. I, c. XIII.

(8) J. LACARRIÈRE, Les hommes ivres de Dieu, Paris 1961, p. 210.

(9) EVAGRIUS, H. E., L. I, c. XIII.

(10) Vita S. Symeonis Jun., c.V.

(11) Les Saints Stylites, pp. XLVIII, LIII.

(12) Vita S. Symeonis Jun., c. VII.

(13) Ibidem, c. VI.

(14) Ibidem, c. XXII.

(15) Les Saints Stylites, p. L.

(16) Vita S. Symeonios, Jun., c. XII.

(17) Les Saints Stylites, p. LXXXIV.

(18) L. DUCHESNE, L'Eglise au VIe. siècle, Paris 1925, p. 41.

(19) Les Saints Stylites, p. XXXIII.

(20) H. R., XIX.

(21) MICHEL LE SYRIEN, Chronique, éd. CHABOT, Paris 1901, II, p. 142; Les Saints Stylites, p. XXXIV; EVAGRIUS, H. E., L. I. c. XIII.

(22) Vita S. Symeonis Jun., c. XXXI.

(23) S. JEAN CHRYSOSTOME (MIGNE, P. G., L, 664-665)

(24) G. CELI, Cimeli Bobbiesi, Seconda ediz., Roma 1923, pp. 53-57. En général: B. BAGATTI, Il Museo della Flagellazione, 1939, p. 84; IDEM, I Vadai di Nazaret, dans La Terra Santa, Gerusalemme 1956, pp. 82-85.

(25) H. R., XXVI.

(26) في مزار الست زينب الشيعي. على بعد ١٢ كم جنوبي دمشق، توجد قطع صغيرة من الفخار ذات شكل دائري أو مستطيل، شبيهة بالبركات القديمة عند المسيحيين، وهي توزع على الزوار المسـلمين

ليضعوها تحت جباههم في أثناء الصلاة، ثم يعيـــدونها عنــد خروجهم من المسجد، وهي مصنوعة من تراب كربلاء. (ورد في النـــص الفرنســـي أنـــهـــا توضـــع تحت ركبهم، ولكن الأصح كما أثبتناه – المراجع) .

(27) Villes Mortes, p. 124.

(28) S. GRÉGOIRE DE NYSSE (MIGNE, P. G., XLVI, 1096).

(29) Sanctuaires Chrétiens, pp. 129-31.

(30) Villages Antiques, I, p. 229.

(31) Villes Mortes, p. 120.

(32) Les Saints Stylites, p. XXXIV.

(33) IDEM, ibidem.

(34) J. MÉCÉRIAN, Comptes-rendus de l'Académie des Inscriptions, 1936, p. 205.

(35) Villages Antiques, I, p. 206.

(36) وكـــان هـــذا ما يتم، منذ بعض الوقت، في القنية – قرب جسر الشغور – بمحافظة إدلب فيطوف أهالي القرية مع دوابهم المريضة حول كومة من الحجارة، كانت تخفي، كما أظهرت التنقيبات فيما بعد، بقايا كاتدرائية من القرن السادس.

(cf. B. BAGATTI, Le antiche chiese di Knaye in Siria (VI e XII sec), dans La Terra Santa, 1953 pp. 17-22

(37) EVAGRIUS, H. E., L. I, c. XIII et XIV.

(38) J. NASRALLAH, Le couvent de Saint- Siméon l'Alépin, dans La Parole de l'Orient, Paris 1970, II, p. 343.

(39) Villages Antiques, I, 171.

(40) J. LASSUS, Inventaire archéologique de la région au Nord- Est de Hama, I, Damas 1935, pp. 98-99, 121, 173.

(41) Conc, Nyc:, II, Syn. VII, act. 4 Parmi les peintures rupestres de Cappadoce, deux représentent St. Siméon le Grand et une, St. Siméon le Jeune.

هـــناك بـــين الرسوم المنقوشة على الصخور في كابادوكية رسمان، يصور أحدهما القديس سمعان الكبير، والآخر القديس سمعان الصغير.

(42) Villages Antiques, III, p. 62.

(43) J. LASSUS, Images de stylites, dans B.E.O., II, 1932, pp. 67-82. Ceux qui s'intéressent aux eulogies des stylites trouveront une bonne étude dans: J. LAFONTAINE DOSOGNE, Itinéraires archéologiques dans la région

d'Antioche. Recherches sur le Monastère et sur l'iconographie de St. Siméon stylite le Jeune, Bruxelles 1967.

وإلى هذه البركات ينبغي أن نضيف البركة التي عثر عليها مؤخراً في تابوت حديدي - في منطقة إدلب - وهي بقطر ٢,٥سم تقريباً، وتمثل القديس سمعان العمودي وهو على عموده، وصليباً على قلنسوته، وملاكين حاملين سعف النخل على جانبيه. وفي أسفل العمود من جانبه الأيسر صليب صغير، ومتعبدان يتوسلان إلى القديس.

(44) J. LASSUS, Images de stylites, p. 77; Sanctuaires Chrétiens, p. 278; V. H. ELBERN, Eine Früubyzantinische Reliefdarstellung des Älteren Symeon Stylites, dans J.D.A.I., 1965, p. 281.

(45) إن هذا النقش موجود حالياً في متحف الدولة ببرلين

(46) Cf. G. WRIGHT, The Heritage of the Stylites, dans A.J.B.A., 1970, p. 84.

(47) ELBERN, op. c., p. 283; WRIGHT, op. c., p. 88.

(48) LASSUS, Images de stylites, p. 78; Sanctuaires Chrétiens, pl. 47; ELBERN, op. c., p. 285. Ce bas-relief se trouve dans les dépôts du Musée national de Damas.

يوجد هذا النقش البارز في مستودعات المتحف الوطني بدمشق.

(49) H. C. BUTLER, Early Churches in Syria Amsterdam 1969, p. 245, ill, 284.

(50) Sanctuaires Chrétiens, p. 288, pl. 47.

(51) الأب جوليان الذي زار كنيسة داحس عام ١٨٨٨م اعتقد أن رسم العمودي يمثل شجرة مثمرة ورسم الحبيس سلة ثمار. وقد زار بوتلر الكنيسة بعد بضع سنوات، وقال عن هذين الرسمين: "في نهاية الساكف لوحة صغيرة مقوسة ذات نقش بارز، وفي النهاية الأخرى سراج أو قنديل " .(Early Churches, p. 136)

(52) L. JALABERT, R. MOUTERDE ET C. MONDÉSERT, Inscriptions Grecques et Latines de la Syrie, Paris 1929, N° 278.

(53) Early Chruches, p. 246; Sanctuaires Chrétiens, p. 279, pl.46.

(54) Pour les dessins du rez- de- chaussée, cf. Villages Antiques, III, pp. 17,59; WRIGHT, op. c., p. 98; ELBERN, op. c., p. 286.

(55) Villages Antiques, III, p. 18, fig. 20.

(56) Ibidem, p. 18, fig. 19.

(57) Sanctuaires Chrétiens, pp. 161-183.

(58) Villages Antiques, III, p. 58, fig. 8-9.

(59) Villes Mortes, p. 94.

(60) Sanctuaires Chrétiens, p. 286.

(61) Villages Antiques, III, p. 17 et II, pl. CXLIV. On pourrait ajouter à notre liste les colonnettes publiées par les auteurs qui parlent des sites antiques syriens.

وبوســعنا أن نضــيف إلى لائحتنا ما نشره المؤلفون حول الأعمدة الصغيرة في المواقع السورية القديمة .

(62) Sanctuaires Chrétiens, p. 286.

(63) Un linteau de l'église de Qalb Lozé porte une invocation aux saints Michel et Gabriel. A 4 Km. Au N.-E. de Djisr ech-Choghour se trouve le village de Ke-niset Nakhle (Eglise de St. Michel) .

هــناك ساكف باب في كنيسة قلب لوزة يحمل ابتهالاً إلى القديسين ميخائيل وجبرائيل. وعلى بعد ٤كم شمال شرقي جسر الشغور توجد قرية كنيسة نخلة – أي كنيسة القديس ميخائيل.

(64) B. BAGATTI, L'Église de la Circoncision, Jérusalem 1965, p. 160.

(65) IDEM, ibidem, p. 253.

(66) Il Simbolismo, p. 173.

(67) Comm. in Mt., XV, 23 (MIGNE, P. G., XIII, 1321).

(68) S. GRÉGOIRE DE NYSSE, In Cant, X (MIGNE, P. G., XLIV, 980)

(69) (cf. J. MASRALLAH, L'orthodoxie de Siméon Stylite l'Alépin et sa survie dans l'Eglise melchite, dans La parole de l'Orient, II (1971), p. 304.

مــن المحــتمل أن يكــون هذا التفسير قد ساهم في الربط في مجال التكريم من قبل المؤمــنين بــين القديس إيليا والقديس سمعان. يروي اغناطيوس دي سمولنسك. ١٣٨٩–١٤٠٥م أنه في دير القديس إيليا الواقع بين بيت لحم وأورشليم كان يعرض على المشاهدين "العمود الذي أقام عليه سمعان العمودي مع القديس إيليا".

(70) J. DANIÉLOU, Les Symboles chrétiens primitifs, Paris 1961, p. 20.

(71) Il Simbolismo, pp. 288-89.

(72) Ibidem, p. 282; BAGATTI, L'Église de la Circoncision, p. 191.

(73) Il Simbolismo, pp. 237-238.

(74) Ibidem, pp. 331-333.

(75) نعتقد أن الرسومات الموجودة على وجه زجاجة سارافيان والموضوعة على جانب الصليب تصور على الأغلب علامات ألفية، أكثر منها مسامير الآلام.

Il Simbolismo, p. 271; B. LEONI, Il segon della Croce, Verona 1968, p. 52.

(77) ST. IRÉNÉE, Patrologia Orientalis, XII, 778.

(78) Patrologia Syriaca, I, 147.

(79) Les Saints Stylites, p. CXC.

(80) WRIGHT, c., p. 95.

(81) THÉODORET DE CYR, Graecarum affectionum curatio (MIGNE, P.G., LXXXIII, 1032).

(82) Il Simbolismo, p. 386.

الخـــاتمــــة

كمـــا سبق أن ذكرنا، يكاد التكريم المقدم للعموديين يتوجه، بشكل حصري تقريباً، إلى أبـــي العموديـــة القديس سمعان الكبير. وهذا هو الحال أيضاً فيما يتعلق بالرسوم المتعلقة بالعموديين، من بركات ومنمنمات نقشية ورسومات، فهي كلها، ما عدا بعض الاســـتثناءات الـــنادرة، على علاقة به. فقد جعل الشعب المسيحي من سمعان صورة مـــثالية، إلى درجـــة أنـــه شـــبهه بالمســـيح، أي جعل منه مسيحاً آخر، وشبه عموده بالصليب.

ولم تنحصر طقوس التكريم المخصصة للقديس سمعان في المكان الذي عاش فيه. فقـــد اتخذه جميع العموديين أباً وقدوة لهم، وكرسوا لـــه الكنائس المجاورة لأعمدتهم. وذلـــك لاعتبارهم أن الحياة العمودية لا تنفصل عن حياته. وكل المواقع المسماة: دير ســـمعان، أو دير شمعون(83)، أو دير سمان(84)، يمكن اعتبارها مكرسة لـــه ولتخليد ذكراه. وإن كنائس عديدة كبيرة وصغيرة، داخل سورية وخارجها، قد كرست على اسم مؤســـس العمودية. ونرى ذلك في إديسا(85)، والحدث[٣٢](86) ودمشق، وبيبلوس(87)، وصافيتا(88) .

وزيـــنت أيقونـــته إيقونسطاس[٣٣] العديد من الكنائس الشرقية، وبوسعنا أن نراها اليوم في كنائس الروم الأرثوذكس بحلب، وفي اللاذقية، وفي البلمند - طرابلس-[٣٤]،

---

(٣٢) الحدث : قرية في هضبة حلب، تبعد ٩ كم شمال الباب تقع على السفح الجنوبي لجبل الأحيدب.

(٣٣) إيقونســـطاس : حاجز مرتفع غالباً ما يكون من الخشب المزخرف، وعليه توضع الأيقونات المقدسة، وهو يفصل بين صحن الكنيسة وقدس الأقداس -الهيكل-، وله عادة ثلاثة أبواب .

(٣٤) البلمند : قلعة فرنجية تحولت إلى دير أسسه رهبان فرنج عام ١١٥٧م، وهو الآن دير للروم الأرثوذكس، يقع في منطقة الكورة شمال لبنان على مرتفع جبلي يطل على البحر، وقد اتخذ اسمه من الفرنسية (بل مونت) أي الجبل الجميل، وتقوم إلى جانبه الآن جامعة البلمند .

وفـــي كنيسة دير مارجرجس – منطقة قلعة الحصن–[٣٥]، حيث نقرأ على أيقونته ما يلي: من يهرب من العالم يقترب من الله .

لقد حظي التعبد للقديس سمعان الكبير بانتشار غير متوقع في سورية البيزنطية. ومـــع أنه بدأ بالتراجع مع تدمير معبد قلعة سمعان بعد القرن العاشر الميلادي، سيبقى ذكــره حيــاً فـــي المســيحية جمعاء. وسيستمر تكريمه مزدهراً في العالم السلافي–البيزنطي حتى أيامنا هذه، إذ ترتبط صورته بشكل دائم بصورة عمودي آخر ولا سيما صـــورة القديس أليبيوس. ويمكن للأيقونوغرافيا المتعلقة بالقديس سمعان، والموجودة في تلك الكنائس أن تملأ مجلداً ضخماً.

ولــم يـنس المؤمنون في أوربا الغربية تقشفات القديس سمعان شبه الأسطورية. ولديــنا شـــهادة ثميـــنة عن تعبدهم لهذا القديس في الكتاب الذي وضعه الأب ماريانو موررونـــي دامـــاليو رئيـــس دير الفرنسيسكان بحلب، الذي زار المعبد عام ١٦٥٠م، وعنوانه " الأرض المقدسة مصورة من جديد ". ويذكر الكاتب أن العديد من المسافرين والـــتجار الأوروبييـــن، الذين ينطلقون من الإسكندرون قاصدين حلب، كانوا يعرجون عمـــداً عـــلى الجبل المقدس لتكريم عمود القديس سمعان[89]. كما ترك لنا أيضاً تجار ومسافرون آخرون ذكرى تعبدهم هناك في رواياتهم عن رحلاتهم[90].

وفـــي سورية بالإضافة إلى ذكراه الموجودة في الكنائس التي تحمل عبق الماضي القديـــم، مدينة حلب هي أفضل من حافظ على التقاليد المتعلقة بالتعبد للقديس سمعان، وبمعـــبده هـــذا الـــذي يدعى بالحلبي والذي يعد شفيع هذه المدينة الكبرى في سورية الشمالية. وكثيرون هم الأولاد الذين يدعون باسم سمعان فيها.

وفـــي الأمـــاكن الـــتي عـــاش فيها العموديون في سورية لم يبق منها، في وقتنا الحاضـــر، إلا بعـــض أجزاء من أعمدة راقدة بين أكوام من الكتل الصخرية المهدمة، وهي الشاهد الصامت الأمين على ماض مجيد.

---

(٣٥) دير مارجرجس : دير قديم في وادي النضارة، منطقة تلكلخ، يبعد ٦٠كم عن حمص، و٢٠كم شرق الطريق مـــا بـــين حمص وطرطوس. وبجانبه قلعة الحصن وهي قلعة تشرف على طرق المواصلات القديمة في المنطقة، احتلها الفرنج خلال غزوهم لبلاد الشام وحررها الظاهر بيبرس وهي اليوم من أكمل قلاع القرون الوسطى.

حواشي الخاتمـــة

(83) Cf. J. NASRALLAH. Couvents de la Syrie du Nord portant le nom de Siméon, dans Syria, XLIX (1972), pp. 127-159.

توجد هذه الأديرة بالقرب من قلعة سمعان وقلب لوزة ومعرة النعمان.

(84) هـــامو : قرية صغيرة تقع على بعد ٢٠ كم شمالي جسر الشغور بمحافظة إدلب بالقرب من الحدود التركية.

(85) DELEHAYE, Les origines du culte des Martyrs, Bruxelles 1912, p. 226.

(86) IGNATIUS YA'QOUB III, Nafhu- l'Abir (Vie du Patriarche Sévère d'Antioche).

(87) Villes Mortes, pp. 125.

(88) E. RENAN, Mission en Phénicie, Paris 1874, p. 126.

(89) M. MORONE, La Terra Santa nuovamente illustrata, Piacenza 1669, I, p. 402.

(90) Parmi les derniers voyageurs du siècle passé, cf. L. DAMOISEAU, Voyage en Syrie et dans le désert, Paris 1833; A.GAROVAGLIO, Viaggio nella Syria Centrale e nella Mesoptamia, Milano 1909.

ملحـــق صــــور



اللوحة (1:1) كفر دريان: قاعدة وعمود العمودي يونان



اللوحة (2:1) كفر دريان: عمود العمودي والكنيسة ــ الدير

اللوحة (1:2) كفر دريان:
حفـــــرة النفايـــــات



اللوحة (2:2) كفر دريان:
عمـــود العمـــودي يونان





اللوحة (1:3) يحمول: «بئر رَجُل العمود»



اللوحة (2:3): منظر توقاد من حير الكنيسة



اللوحة (1:4) توقاد:

الباقي من سياج «مَندَرا» العمودي



اللوحة (2:4) توقاد:

بقايا من عمود العمودي أوسطاطيوس

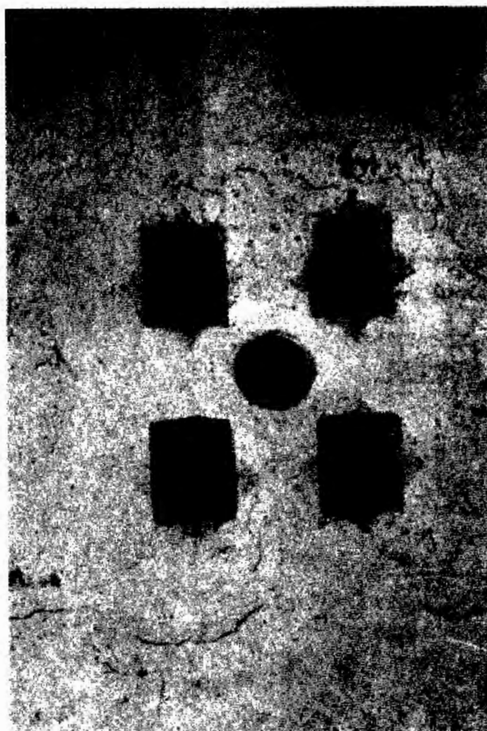


اللوحة (3:4) توقاد:

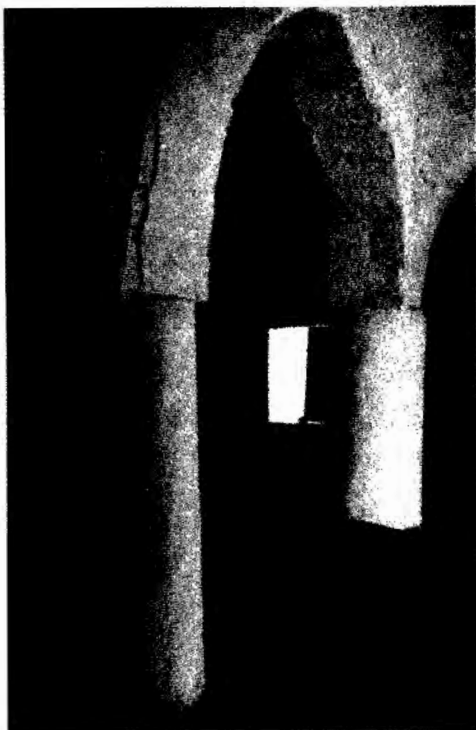
قوس نصر كنيسة توقاد، وهو غير بعيد عن السياج



اللوحة (1:5) إرحاب: منظر الدير



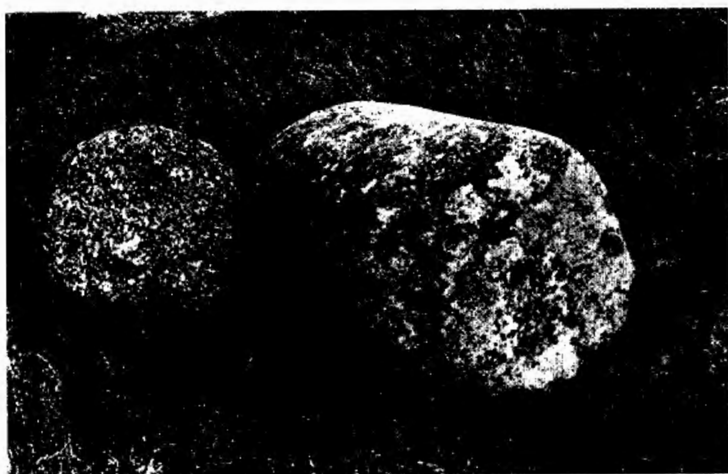
اللوحــة (3:5) إرحاب:
النافذة في صدر الكنيسة



اللوحة (2:5) إرحاب:
قطعتان من عمود العمودي، في جامع إرحاب



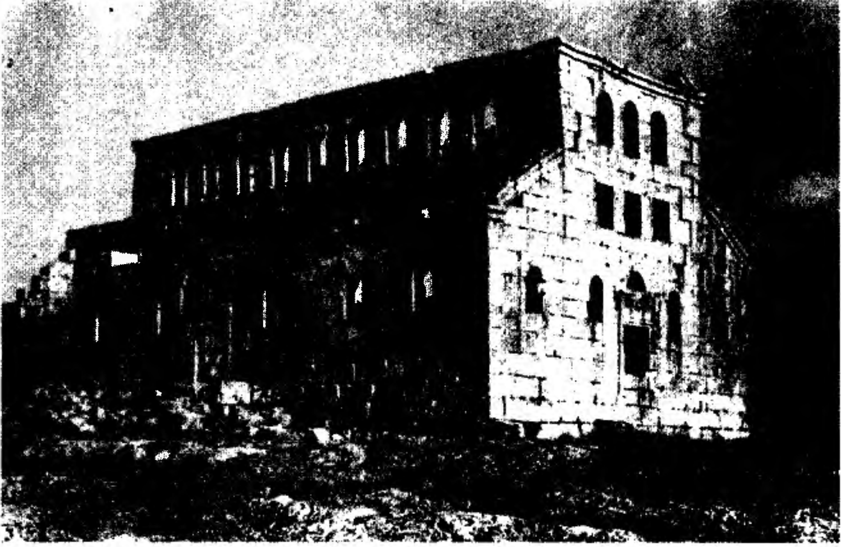
اللوحة (1:6) إرحـــاب:
مذخر الكنيسة الصغيرة



اللوحة (2:6) تلعاده:
قطعـــتان مـــن الأســـطوانة
الأولـــى لعمـــود تلعـــاده



اللوحة (3:6) تلعـــاده:
آثار «دير تلعاده الكبير»



اللوحة (1:7) مشبك: كنيسة ريفية، مُكرّسة لقديس عمودي



اللوحــة (2:7) مشــبك: ساكف الباب الغربي لكنيسة مشبك، مزيّن بوردات مســتديرة، وســعف النخل (على اليسار) وبعمود صغير نذري (على اليمين)



اللوحة (1:8) أتارب:

مكان عمود العمودي يوحنا في باحة مدرسة أتارب (أثناء البحث عن قاعدة العمود)



اللوحة (2:8) منظر أتارب

اللوحة (1:9) أتارب: منظر بئر العمود

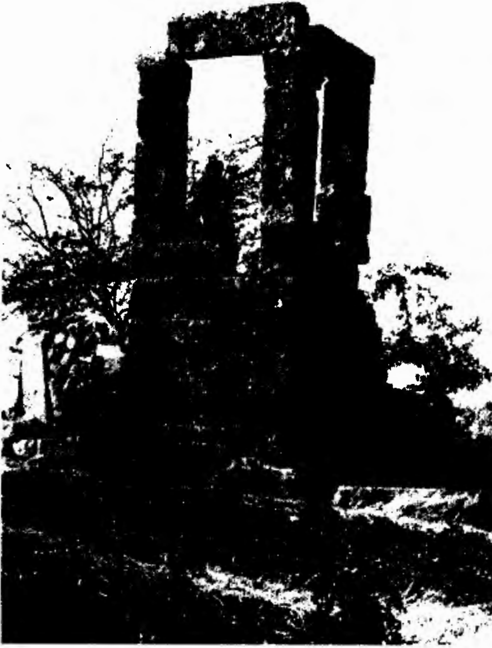


اللوحة (2:9) وسطانية:

حطام عمود الوسطانية، وهو محاط بسور من الحجارة



اللوحة (2:10) تل نيشين:
الجزء السفلي من عمود العمودي



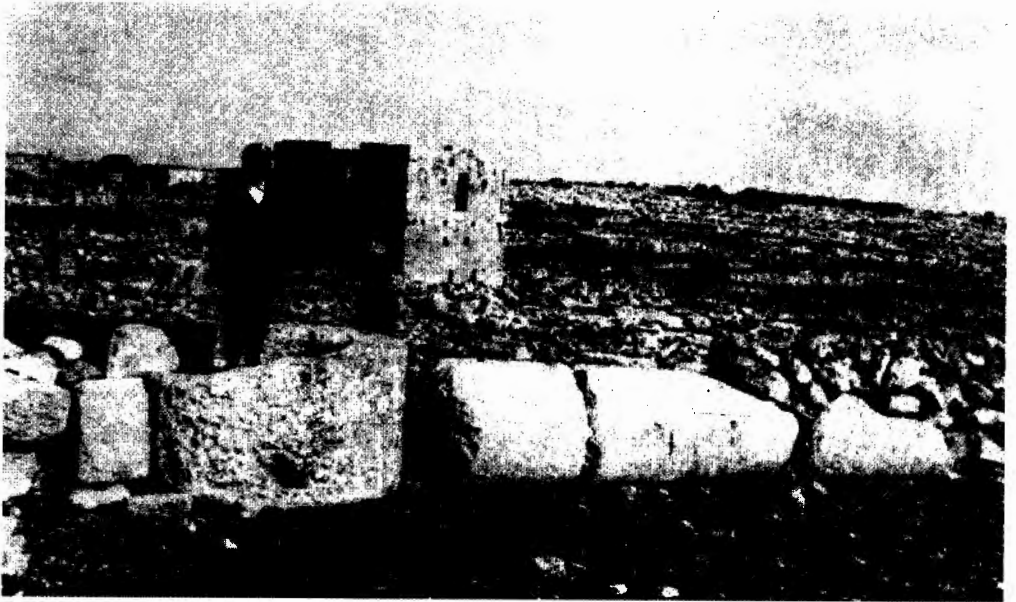
اللوحة (1:10) تل نيشين:
البناء ذو الأعمدة الأربعة



اللوحة (3:10) تل نيشين: الجزء العلوي من العمود



اللوحة (1:11) قيمار: قاعدة عمود العمودي



اللوحة (2:11) قيمار: القاعدة، وأسطوانات العمود، والدير الصغير



اللوحة (1:12) قيمار: صدر الكنيسة الديرية، بالقرب من عمود العمودي

اللوحة (2:12) بشندلايا: دير عمودي دير المالك. وعلى اليسار، قاعدة العمود



اللوحة (1:13) رضوة: صليب حفره الحُجّـاج علـى عمـود العمـودي

اللوحـة (2:13) رضـوة: قـاعدة وقطـع مـن عمـود العمـودي

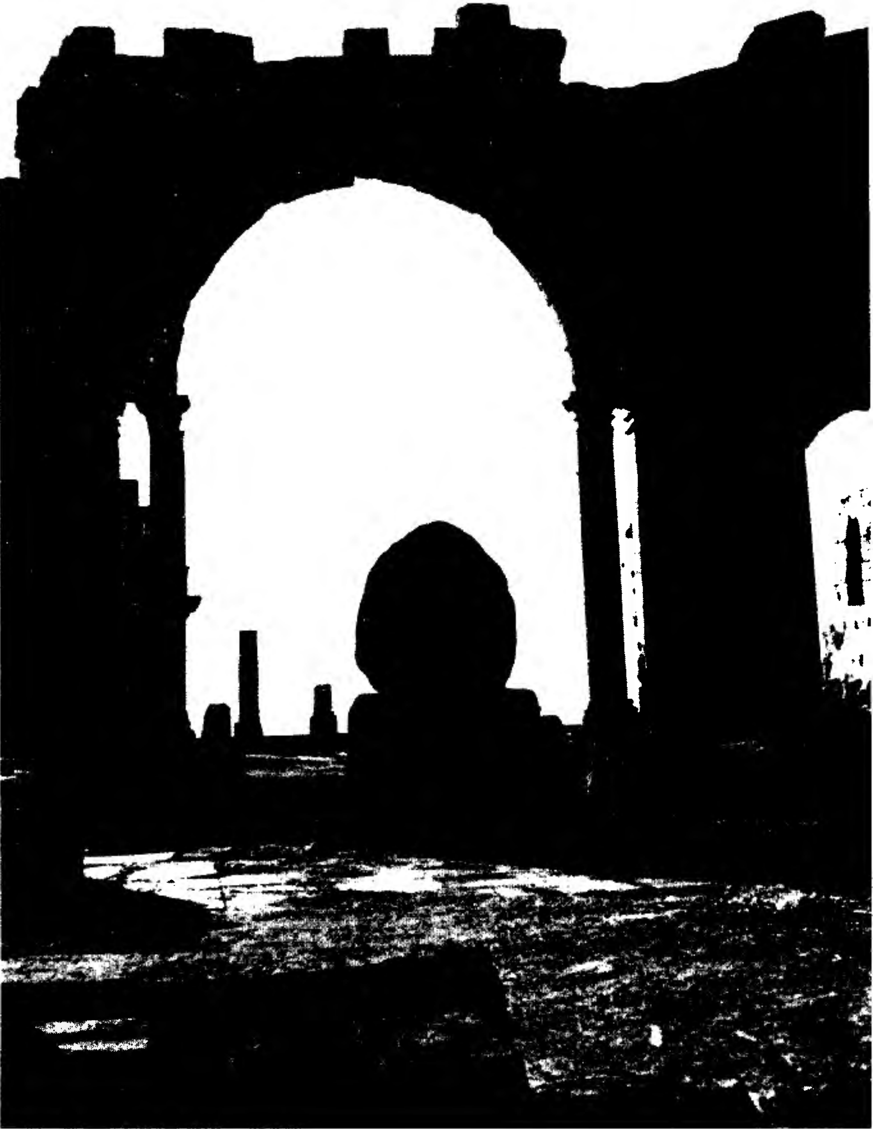




اللوحة (1:14) دير بابيسكا: غطاء التابوت الحجري للعمودي كبرو مع كتابة سريانية



اللوحة (2:14) خربة دير العمود: أجزاء من عمود العمودي



اللوحة (15) قلعة سمعان:

حُطام عمود القديس سمعان الكبير، وسط الكاتدرائية

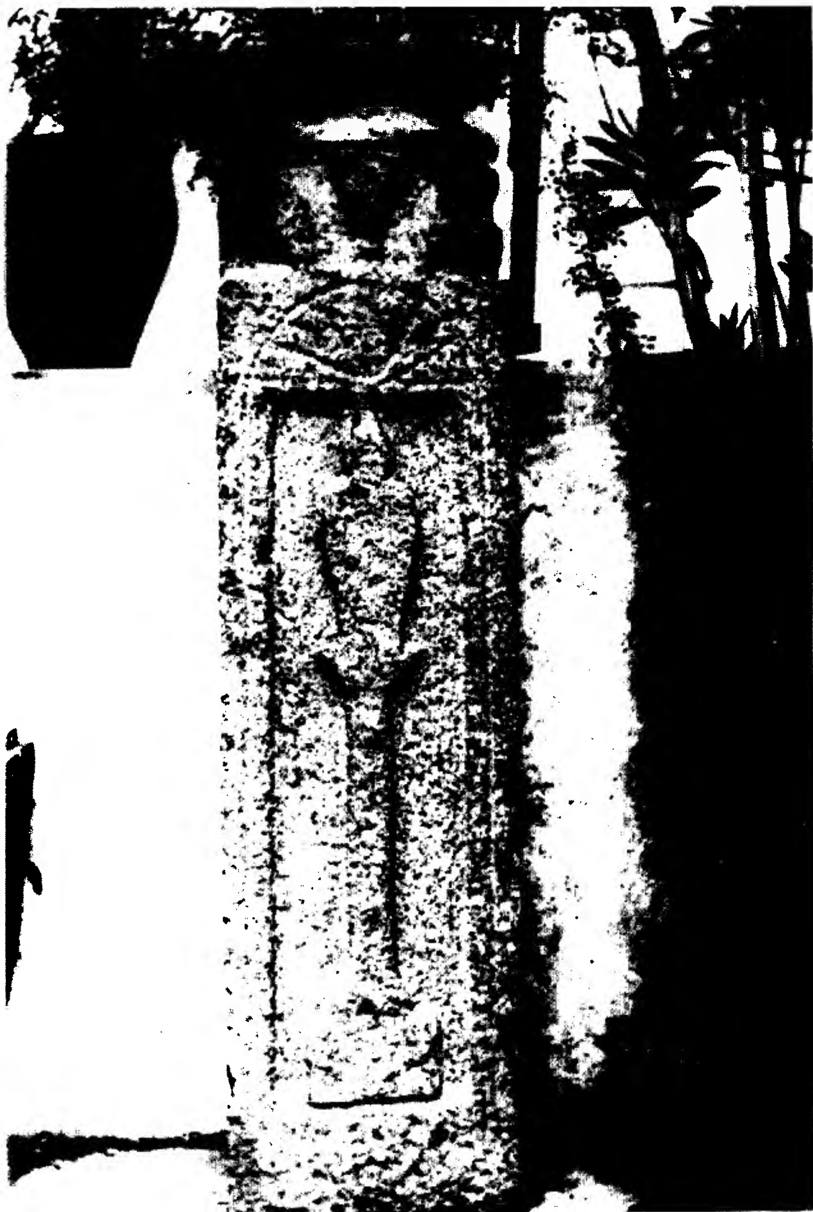


اللوحة (2:16) بَركة الحفة



اللوحة (1:16) بَركة بوبيو

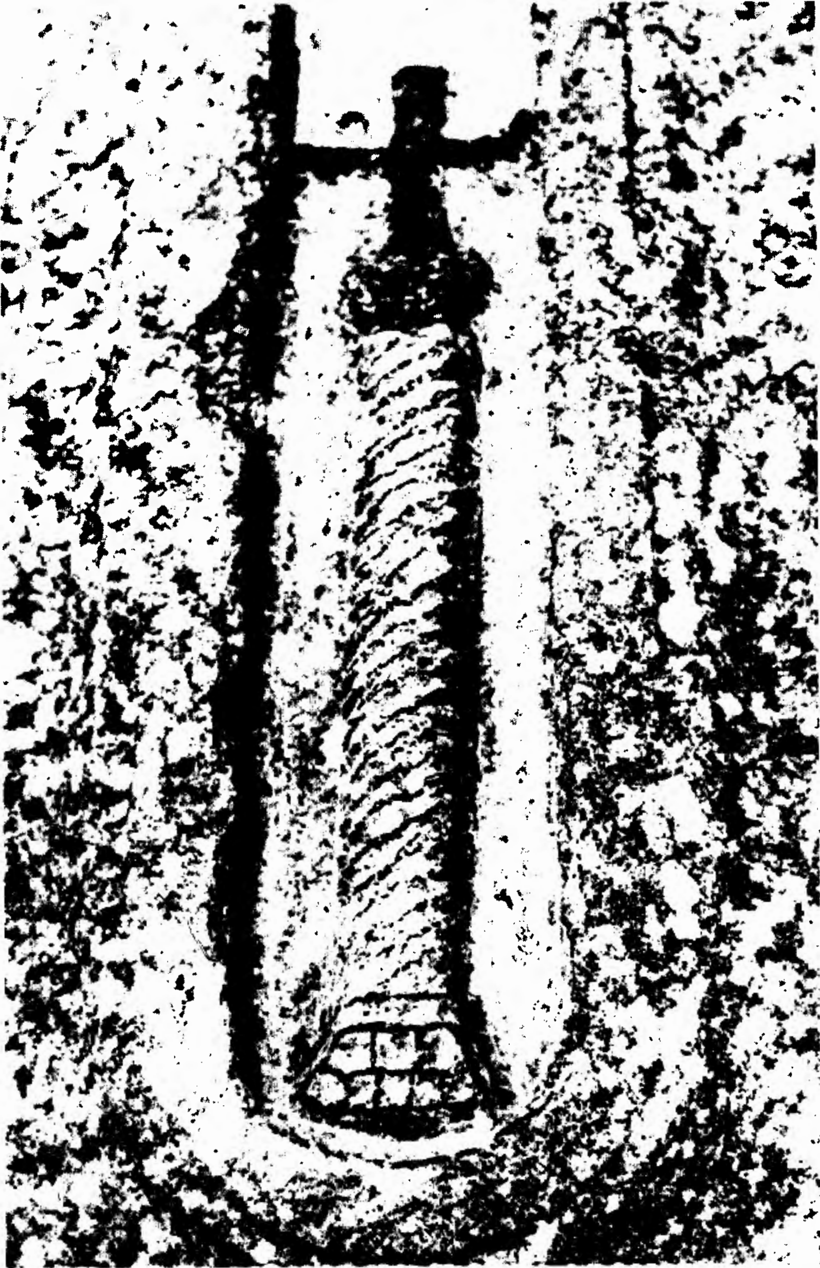
اللوحة (3:16) بَركة الفوز



اللوحة (17) المسلّة في نواحي حلب



اللوحة (18) كنيسة قلب لوزة: عمود نذري صغير في الطابق الأول من البرج الشمالي



اللوحة (19) كنيسة قلب لوزة: منمنمة، نقيشة في البرج الجنوبي



اللوحة (20) البرج الشمالي لكنيسة قلب لوزة



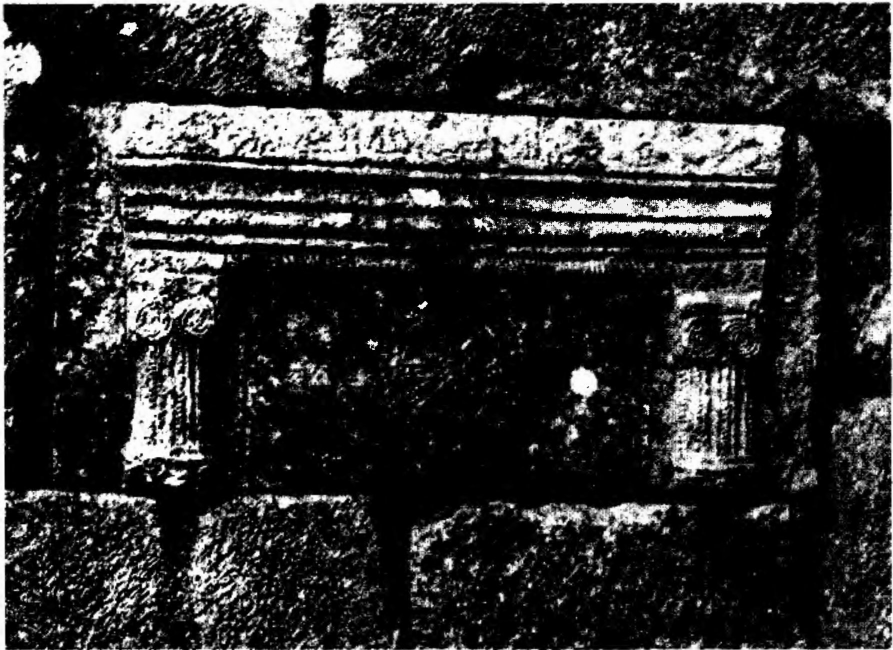
اللوحة (1:21) أعمدة نذرية صغيرة في اسطبل في قيمار



اللوحة (2:21) شيخ سليمان:
عمود نذري صغير يعلوه صليب



اللوحة (1:22) برج حيدر:
عمـــود نذري في أســـطبل



اللوحة (2:22) دير سيتا: ساكف باب بيت مزين بأعمدة نذرية صغيرة.

الفهــرس



عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية

SYRIAN STYLITE MONKS

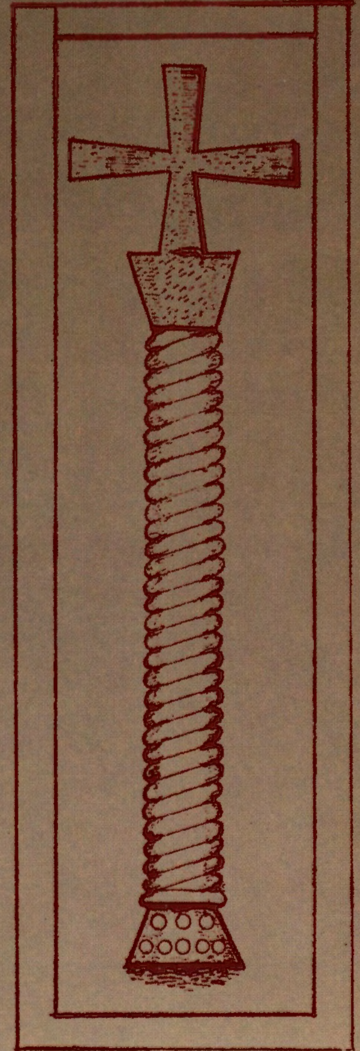
الرهبان العموديون السوريون = Syrian Stylite Monks/ تأليف اينياس بينيا ، باسكال كاستليانا ، روموالدو فرنانديز ؛ ترجمة ميشيل نعمان؛ المراجعة التاريخية والشرح والتقديم منذر الحايك . ــ دمشق: دار طلاس، ٢٠٠٢ .
ــ ٣٢٤ ص: صور، مص؛ ٢٤سم.

١ ــ ٢٨١,٩ ب ي ن ر　　٢ ــ ٢٣٥ ب ي ن ر　　٣ ــ العنوان
٤ ــ العنوان الموازي　　٥ ــ بينيا　　٦ ــ كاستليانا
٧ ــ فرناندیز　　٨ ــ نعمان　　٩ ــ الحايك

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ٩٢/١/٢٠٠٢　　رقم الإصدار ٨٦٢

رقم: ٧٠٩١٧
تاريخ: ١٦/١/٢٠٠٢



هذا الكتاب

قد يخطر ببالنا ونحن نتأمل تجربة الرهبان العموديين أن نتساءل :

هل كان من الضروري حقاً أن يعيش الإنسان مسمراً على عمود سنوات طويلة، وعلى مرأى من جميع الناس، لا لشيء، إلا ليكون تلميذاً حقيقياً للمسيح، ورسولاً له؟ ألم يكن هذا نمطاً حياتياً يحمل لوناً من ألوان الاستعراض؟.. وبناءً على هذا السؤال يأتي هذا الكتاب المتميز الذي قام بتأليفه ثلاثة آباء فرنسسكانيين من وكالة الأراضي المقدسة ليجيب إجابة شاملة، بحيث أن هذه الدراسة جاءت لتكون بمثابة موسوعة صغيرة عن الرهبان العموديين، إذ أنها عالجت حياتهم في جانبيها المادي والروحي.



